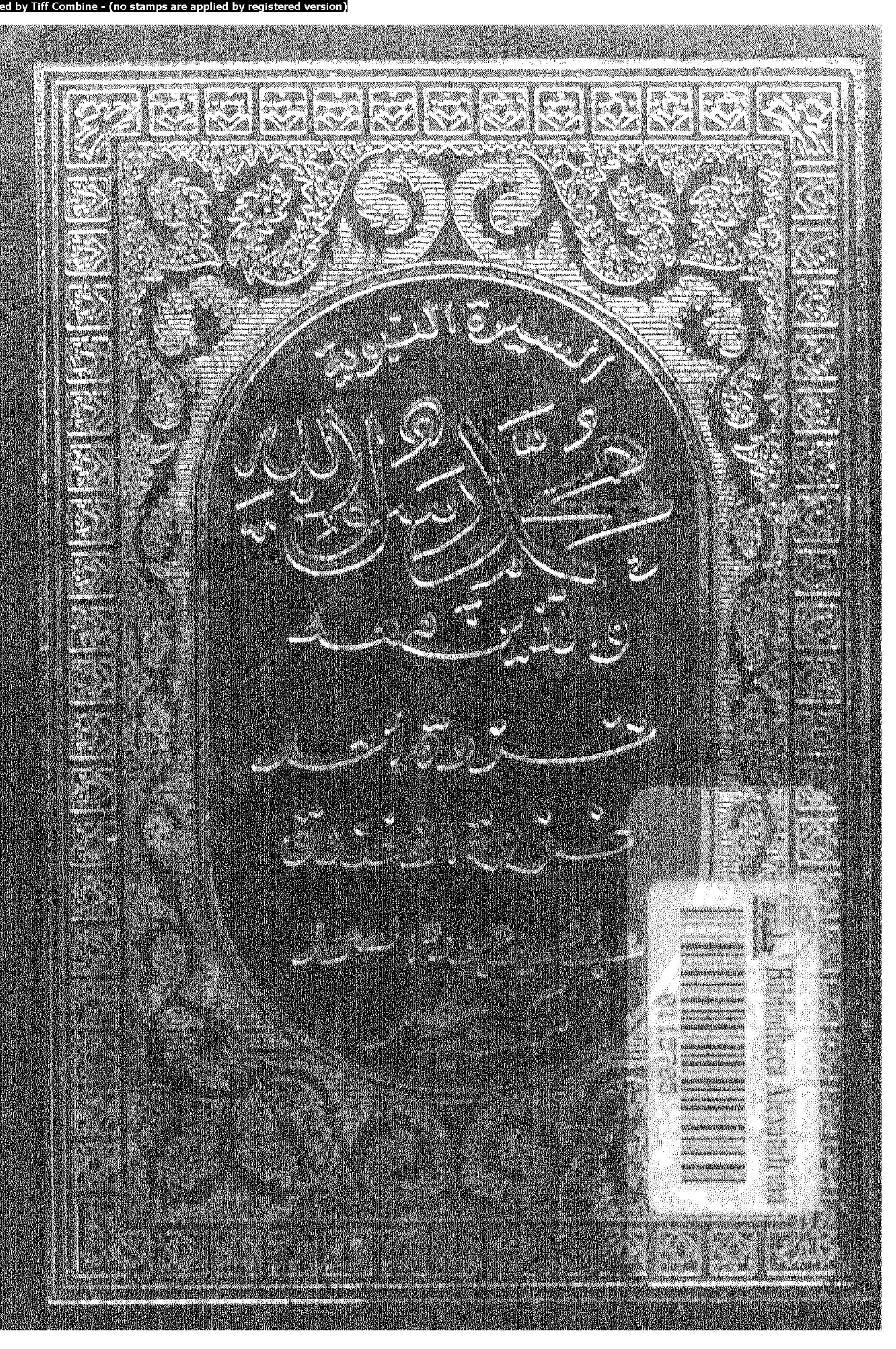
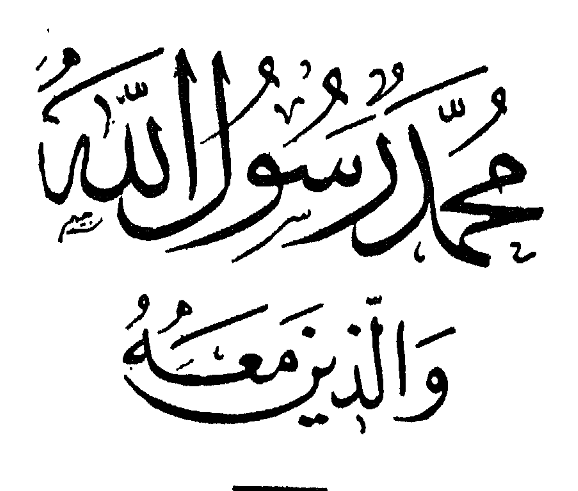

السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه
غزوة أحد
حديث الإفك
عبد الحميد جودة السحار


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السيرة النبوية



غزوة أحد

عبد الحميد جودة السحار



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين* إن
يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين
الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا
يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم
حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم
ويعلم الصابرين * ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه
فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾

(قرآن كريم)

١

اختلف المسلمون فى الخروج من المدينة والمقام بها ، وكره — ﷺ — الخروج لما علم أن قريشا قد أقبلت لحربه ، ثم خرج على مضض ، ثم ندم القوم الذين أشاروا بالخروج وقالوا :

— ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك .

فقال — ﷺ — :

— قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغى لنبى إذا لبس لأمته[1] أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .

ثم قال لهم :

— انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم .

وجاء جُعيل بن سراقة وهو يتنفس مكروبا فقال :

— يا رسول الله قيل لى إنك تُقتل غدا .

فضرب النبى — ﷺ — بيده إلى صدره وقال :

— أليس الدهر كله غدا ؟

ثم دعا بثلاثة رماح فعقد ثلاثة ألوية ، فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حُضَير ، ودفع لواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر بن جموح ، ودفع لواء المهاجرين إلى على بن

---

(١) المراد عدة القتال .

أبى طالب ، ثم دعا بفرسه فركبه وتقلد القوس وأخذ بيده قناة والمسلمون متلبسون السلاح قد أظهروا الدروع فهم مائة دارع . فلما ركب — ﷺ — خرج السعدان أمامه يعدوان : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة كل واحد منهما دارع ، والناس عن يمينه وشماله حتى سلك على البدائع ، ثم زقاق الحُسنى ، حتى أتى الشيخين ، وهما أطمان كانا فى الجاهلية فيهما شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدثان ، فسمى الأطمان الشيخين .

وانتهى — ﷺ — إلى رأس الثنية فسمع جلبة وأصواتا مرتفعة ، فالتفت فقال :

— ما هذه ؟

— هذه حلفاء ابن أبىّ من اليهود .

— إسلموا ؟

— لا .

— إنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك .

— يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود ؟

— لا حاجة لنا فيهم .

وردهم رسول الله — ﷺ — ، وأحس عبد الله بن أبىّ بن سلول مهانة وطفق يفكر فى ذلك الرد وتراوده فكرة أن ينخذل برجاله عن الجيش احتجاجا على ما فعله رسول الله عليه السلام بحلفائه !

ومضر رسول الله — ﷺ — وعرض عسكره بالشيخين ، فعرض عليه غلمان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وأسامة بن زيد والنعمان بن بشير وزيد بن أرقم والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير

وعرابة بن أوس وأبو سعيد الخدرى وسُمرة بن جندب ورافع بن خديج ، فردهم رسول الله — صلى الله عليه وآله — فالتفت ظهير بن رافع إلى رافع بن خديج ثم قال :

— يا رسول الله إنه رام يعيننى .

وجعل رافع يتطاول وعليه خفان له ، فأجازه رسول الله — ﷺ — .

فلما أجازه قال سُمرة بن جندب لمرى بن سنان الحارث وهو زوج أمه :

— يا أبيه ، أجاز رسول الله — ﷺ — رافع بن خديج وردنى وأنا أصرع رافعا !

فقال مرى :

— يا رسول الله رددت ابنى وأجزت رافع بن خديج وابنى يصرعه !

فقال رسول الله — ﷺ — :

— تصارعا .

فصرع سمرة رافعا فأجازه رسول الله — ﷺ — .

وأقبل ابن أبىّ فنزل ناحية العسكر ، فجعل حلفاؤه ومن معه من المنافقين يقولون لابن أبىّ :

— أشرت عليه بالرأى ونصحته وأخبرته أن هذا رأى من مضى من آبائك ، وكان ذلك رأيه مع رأيك فأبى أن يقبله وأطاع هؤلاء الغلمان الذين معه .

فصادفوا من ابن أبىّ نفاقا وغشا . وغابت الشمس فأذن بلال بالمغرب فصلى رسول الله — ﷺ — ، ثم أذن بالعشاء فصلى رسول الله — ﷺ — ورسول الله عليه السلام نازل فى بنى النجار ، واستعمل على الحرس محمد بن مسلمة فى خمسين رجلا يطيفون بالمعسكر ، حتى إذا كان

آخر الليل سار .

ورأى المشركون رسول الله — ﷺ — حيث أدلج ونزل بالشيخين ، فجمعوا خيلهم وظهَرهم واستعملوا على حرسهم عكرمة بن أبى جهل فى خيل من المشركين . وباتت صاهلة خيلهم لا تهدأ تدنو طلائعهم حتى تلصق بالحرة فلا تصعد فيها حتى ترجع خيلهم ويهابون موضع الحرة ومحمد بن مسلمة .

وكان السحر فقال رسول الله ﷺ :

— أين الأدلاء ؟ من رجل يدلنا على الطريق ويخرجنا على القوم من كثب ؟

فقام أبو خثيمة الحارثى فقال :

— أنا يا رسول الله .

فخرج برسول الله — ﷺ — وركب فرسه فسلك به فى بنى حارثة ، ثم أخذ فى الأموال حتى مر بحائط[1] مربع بن قيظى وكان أعمى البصر منافقا. فلما دخل رسول الله — ﷺ — حائطه قام يحثى التراب فى وجوه المسلمين ويقول :

— إن كنت رسول الله فلا تدخل حائطى فلا أحله لك .

فضربه سعد بن زيد الأشهلى بقوس فى يده فشجه فى رأسه فنزل الدم ، فغضب له بعض بنى حارثة ممن هو على مثل رأيه فقال :

— هى عداوتكم يا بنى عبد الأشهل لا تدعونها أبدا .

فقال أسيد بن خضير :

---

(١) حديقة .

ـــ لا والله ولكن نفاقكم . والله لولا أنى لا أدرى ما يوافق النبى ـــ ﷺ ـــ لضربت عنقه وعنق من هو على مثل رأيه .

ونهاهم النبى ـــ ﷺ ـــ عن الكلام فأسكتوا .

ومضى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ،فبينا هو فى مسيره إذ ذب فرس أبى بردة بن نيار بذنبه فأصاب كلاب سيفه فسل سيفه . فقال رسول الله ﷺ :

ـــ يا صاحب السيف شمْ (اغمد) سيفك ، فإنى إخال السيوف ستسل اليوم فيكثر سلها .

ولبس رسول الله ـــ ﷺ ـــ من الشيخين درعا واحدة ، حتى انتهى إلى أحد فلبس درعا أخرى ومغفرا وبيضة فوق المغفر . فلما نهض رسول الله ـــ ﷺ ـــ من الشيخين زحف المشركون على تعبية . ونزل رسول الله والذين معه بالشوط حائط بين المدينة وأحد . وحانت الصلاة وهو يرى المشركين فأمر بلالا فأذن، وأقام وصلى بأصحابه الصبح صفوفا .

وقام عبد الله بن أبى، بن سلول فى قومه وقال :

ـــ أطاعهم وعصانى . ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟

ورجع ابن سلول وتبعه ثلثمائة من قومه من أهل النفاق والريب ، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام فقال :

ـــ أذكركم الله ودينكم ونبيكم وما شرطتم لله أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسكم وأولادكم ونساءكم .

ـــ لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال .

وإن أطعتنى يا أبا جابر لترجعن فإن أهل الرأى والحجى قد رجعوا ، ونحن ناصروه فى مدينتنا وقد خالفنا وأشرت عليه بالرأى فأبى إلا طواعية

الغلمان .

فلما أبى عبد الله بن أبيّ أن يرجع ودخل هو وأصحابه أزقة المدينة ، قال لهم أبو جابر :

ــ أبعدكم الله ! إن الله سيغنى النبى والمؤمنين عن نصركم .

فلما رجع عبد الله بن أبيّ بمن معه قالت بنو حارثة من الأوس :

ــ نقتلهم .

وقالت بنو سلمة من الخزرج :

ــ لا نقتلهم .

وهما أن يقتتلا فأنزل الله تعالى : ﴿فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾(١) . ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾(٢) .

وبقى مع رسول الله ــ ﷺ ــ سبعمائة رجل ، ولم يكن مع المسلمين يومئذ إلا فرسان : فرس لرسول الله ــ ﷺ ــ وفرس لأبى بردة . ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد وبات به ليله ، وحانت صلاة الصبح والمسلمون يرون المشركين ، فأذن بلال وأقام رسول الله بأصحابه ، ثم خطب خطبة حثهم فيها على الجهاد :

« أيها الناس أوصيكم بما أوصانى به الله فى كتابه من العمل بطاعته ، والتناهى عن محارمه . وإنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذى عليه ثم

(١) النساء ٨٨ .
(٢) آل عمران ١٢٢ .

وطن نفسه على الصبر واليقين والجد والنشاط ، فإن جهاد العدو شديد كربه ، قليل من يصبر عليه إلا من عزم له على رشده .

إن الله مع من أطاعه وإن الشيطان مع من عصاه ، فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد . والتمسوا بذلك ما وعدكم الله . وعليكم بالذى آمركم به فإنى حريص على رشدكم .

إن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف ، وهو ما لا يحبه الله ولا يعطى عليه النصر والظفر .

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا صبيا أو امرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا . ومن استغنى عنها استغنى الله عنه والله غنى حميد .

ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم من النار إلا وقد نهيتكم عنه . وإنه قد نفث وألقى فى روعى الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها ولا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم وأجملوا فى طلب الرزق لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصيه الله . والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد إذا اشتكى تداعى إليه سائر الجسد والسلام عليكم » .

وجعل رسول الله ظهر جيشه إلى أحد وقال :

ـــ لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال .

وانصرف عبد الله بن عمرو بن حزام من عند عبد الله بن أبىّ بن سلول وقد يئس من رجوعه ومن معه لمؤازرة رسول الله عليه السلام ، وظل يعدو حتى لحق برسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو يسوى الصفوف .

وسرحت قريش الإبل والخيل فى زروع كانت بقرب أحد ، فقال رجل من الأنصار حين نهى رسول الله ـــ ﷺ ـــ عن القتال :

ــ أترعى زروع بنى قيلة[١] ولما نضارب !

وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مئتا فرس قد قادوها إلى جنوبهم ، فجعلو على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل ، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية ، وعلى الرماة عبد الله بن أبى ربيعة وكانوا مائة رام ، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبى طلحة ، وصاح أبو سفيان :

ــ يا بنى عبد الدار نحن نعرف أنكم أحق باللواء منا وأنا أُتينا يوم بدر من اللواء . وإنما يؤتى القوم من قبل لوائهم فالزموا لواءكم وحافظوا عليه وخلوا بيننا وبينه ، فإنا قوم مستميتون موتورون نطلب ثأرا حديث عهد .

ولم يجد كلامه قبولا فجعل يقول :

ــ إذا زالت الألوية فما قوام الناس وبقاؤهم بعدها ؟

فغضبت بنو عبد الدار وقالوا :

ــ نحن نسلم لواءنا ؟ لا كان هذا أبدا . وأما المحافظة عليه فسترى :

ثم أسندوا الرماح إليه وأحدقت به بنو عبد الدار وأغلظوا لأبى سفيان بعض الإغلاظ . فقال أبو سفيان :

ــ فنجعل لواء آخر .

ــ نعم ولا يحمله إلا رجل من بنى عبد الدار لا كان غير ذلك أبدا !

وجعل رسول الله ــ ﷺ ــ يمشى على رجليه يسوى تلك الصفوف ويبوئ أصحابه مقاعد للقتال ، ويقول :

---

(١) بنو قيلة هم الأوس والخزرج ، وقيلة أم من أمهات الأنصار نسبوه إليها .

— تقدم يا فلان وتأخر يا فلان .

حتى إنه ليرى منكب الرجل خارجا فيؤخره فهو يقومهم كأنما يقوم القداح ، حتى إذا استوت الصفوف سأل :

— من يحمل لواء المشركين ؟

— عبد الدار .

— نحن أحق بالوفاء منهم ، أين مصعب بن عمير ؟

كان مصعب من عبد الدار وكان لواء قريش فيهم قبل الإسلام ، فلما سمع مصعب بن عمير قول رسول الله عليه السلام قال :

— هأنذا .

— خذ اللواء .

فأخذه مصعب فتقدم به بين يدى رسول الله — ﷺ — .

ونظر علىّ إلى مصعب بن عمير إذا به يذكر ذلك اليوم الذى كانوا فيه جلوسا مع رسول الله — ﷺ — ، إذ طلع عليهم مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة مرقعة بفرو . فلما رآه رسول الله — ﷺ — بكى للذى كان فيه مصعب من النعمة ثم قال :

— كيف بكم إذا غدا أحدكم فى حلة وراح فى أخرى ووضعت بين يديه صحفة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟

قالوا :

— يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم : نكفى المؤنة ونتفرغ للعبادة .

— بل أنتم خير منكم يومئذ .

وأقبل خالد بن الوليد ومعه عكرمة بن أبى جهل . بعث رسول الله

الزبير بن العوام وقال له :

ـــ استقبل خالد بن الوليد .

وأمر على الرماة عبد الله بن جبير وكانوا خمسين رجلا ، وقالوا له :

ـــ انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا واثبت مكانك إن كان لنا أو علينا ، إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا ظهرنا على القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا .

ودنا عبد الله بن جحش من رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقال :

ـــ يا رسول الله ، إن هؤلاء القوم قد نزلوا بحيث ترى ، فقد سألت الله فقلت : اللهم أقسم عليك أن نلقى العدو غدا فيقتلونى ويبقروا بطنى ويمثلوا بى ، فتقول لى : فيم صنع بك هذا ؟ فأقول : فيك .

وأنا أسألك يا رسول الله أخرى ، أن تلي تركتى من بعدى .

ـــ نعم .

وتصـــاف القوم للقتال ، وجلس رسول الله ـــ ﷺ ـــ تحت راية مصعب بن عمير .

٢

كان مخيريق اليهودى من أحبار يهود ، فقال يوم السبت ورسول الله — ﷺ — بأُحد :

— يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون أن محمدا نبى ، وأن نصره عليكم حق .

فقالوا :

— ويحك ! اليوم يوم السبت .

— لا سبت .

ثم أخذ سلاحه وقال :

— إن أصبت فأموالى لمحمد يضعها حيث أراه الله فيه .

وخرج مخيريق خير يهود إلى أُحد ، فإذا بهند بنت عتبة قد قامت أمام صفوف المشركين فى النسوة اللاتى معها وأخذن الدفوف يضربن بها وقالت :

ويها بنى عبد الدار   ويها حماة الأدبار

ضربا بكل بتار

إن تقبلوا نعانق   ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق   فراق غير وامق[١]

---

(١) وامق : محب .

ثم رجع النسوة ليكن إلى مؤخر الصف ، وتقدم أبو عامر عبد عمرو بن صيفى بن مالك بن النعمان فى الأحابيش وعبدان أهل مكة فنادى :

ـــ يا معشر الأوس أنا أبو عامر .

كان أبو عامر الفاسق خرج من المدينة إلى مكة مباعدا لرسول الله ـــ ﷺ ـــ ومعه خمسون غلاما من الأوس ، وكان يعد قريشا أن لو قد لقى قومه لم يختلف عليه منهم رجلان . وهو يتقدم الآن ليثبت لقريش أنه لا يزال الراهب الذى تتعلق به أفئدة قومه ، وأن محمد بن عبد الله إن كان قد أطلق عليه اسم « الفاسق » فإنما كان ذلك حسدا منه . وبلغ نداء أبى عامر مسامع قومه فقالوا :

ـــ فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق .

فلما سمع ردهم عليه قال :

ـــ لقد أصاب قومى بعدى شرا .

واستأذن حنظلة بن أبى عامر رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى قتل أبيه الفاسق فنهاه عن قتله ، فتراموا بالحجارة هم والمسلمون حتى تراضخوا بها ساعة إلى أن ولى أبو عامر وأصحابه .

مر وحشى ومعه مزاريق بهند بنت عتبة فقالت له :

ـــ إيه أبا دُسْمة ! اشف واستشف .

وكان قُزمان من المنافقين وكان قد تخلف عن أحد ، فلما أصبح عيره نساء بنى ظفر فقلن :

ـــ يا قُزمان قد خرج الرجال وبقيت ! استحى يا قزمان ألا تستحيى مما صنعت ؟

وطاف بذهنه أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ إذا ذكره قال من أهل النار ،

فوطن النفس على عدم الخروج وأعرض عما تقول له النسوة ، ولكنهن ألحفن فى تعييره فقلن :

— ما أنت إلا امرأة ، خرج قومك وبقيت فى الدار .

فثار لكرامته فدخل بيته فأخرج سهمه وجعبته وسيفه وخرج يعدو حتى انتهى إلى رسول الله — ﷺ — وهو يسوى صفوف المسلمين ، فجاء من خلف الصف حتى انتهى إلى الصف الأول فكان فيه ، وكان أول من رمى بسهم من المسلمين ، جعل يرسل نبلا كأنها الرماح وإنه ليصيح صياح الجمل ، ثم صار إلى السيف ففعل الأفاعيل والمسلمون مشدوهين وفى رءوسهم استفسار : أهذا الذى يفعل الأعاجيب من أهل النار ؟!

وأخرج رسول الله عليه السلام سيفا وكان مكتوب فى إحدى صفحتيه :

فى الجبن عار وفى الإقبال مكرمة
والمرء بالجبن لا ينجو من القدر

وقال :

— من يأخذ هذا السيف بحقه ؟

فقام إليه على بن أبى طالب ليأخذه ، فقال له عليه السلام :

— اجلس .

وقام عمر فأعرض عنه ، وطلبه الزبير بن العوام ثلاث مرات كل ذلك ورسول الله يعرض عنه ، حتى قام إليه أبو دجانة وقال :

— وما حقه يا رسول الله .

— تضرب به فى وجه العدو حتى ينحنى .

— أنا آخذه بحقه .

كان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب إذا كانت ، وكان إذا أعْلم بعصابة له حمراء فاعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل . فلما أخذ السيف من يد رسول الله — ﷺ — أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه ، وحين رآه رسول الله — ﷺ — يتبختر بين الصفين قال :

— إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن .

ونادى أبو سفيان :

— يا معشر الأوس والخزرج خلو بيننا وبين بنى عمنا وننصرف عنكم .

فشتموه أقبح شتم ولعنوه أشد اللعن .

وخرج رجل من المشركين على بعير له فدعا للبراز فأحجم عنه الناس حتى دعا ثلاثا ، فقام إليه الزبير فوثب حتى استوى معه على البعير ثم عانقه فاقتتلا فوق البعير ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— الذى يلى حضيض الأرض مقتول .

وكتمت الأنفاس ومدت العيون إلى ذلك العراك الدائر فوق البعير ، فوقع المشرك فوقع عليه الزبير بن العوام فذبحه ، فأثنى عليه رسول الله — ﷺ — وقال :

— لكل نبى حوارى وإن حوارى الزبير .

ثم التفت عليه السلام إلى من حوله وقال :

— لو لم يبرز إليه الزبير لبرزت إليه .

وخرج طلحة بن أبى طلحة وبيده لواء المشركين وطلب المبارزة مرارا ، فلم يخرج إليه أحد فقال :

— يا أصحاب محمد زعمتم أن قتلاكم إلى الجنة وأن قتلانا إلى النار ،

فهل أحد منكم يعجلني بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفي إلى الجنة ؟ كذبتم واللات والعزى لو كنتم تعلمون ذلك حقا لخرج إلى بعضكم .

وخرج إليه على بن أبى طالب ورسول الله — ﷺ — جالس تحت الراية عليه درعان ومغفر وبيضة ، فالتقيا فحمل طلحة على علىّ عليه السلام فضربه بالسيف فاتقاه بالدرقة فلم يصنع شيئا ، وحمل علىّ عليه السلام وعلى طلحة درع ومغفر فضربه بالسيف فقطع ساقيه ، ثم أراد أن يجهز عليه فسأله طلحة بالرحم ألا يفعل فتركه ولم يجهز عليه .

وسر رسول الله وكبر تكبيرا عاليا وكبر المسلمون ، ثم شد أصحاب رسول الله — ﷺ — على كتائب المشركين فجعلوا يضربون وجوههم وهم ينادون بشعارهم :

— أمت .. أمت .

كان الزبير بن العوام قد وجد فى نفسه حين سأل رسول الله — ﷺ — السيف فمنعه وأعطاه أبا دجانة وقال :

« أنا ابن صفية عمته ومن قريش ، وقد قمت إليه فسألته إياه قبله فأعطاه إياه وتركنى ، والله لأنظرن ما يصنع » .

وراح الزبير يقاتل وهو يتبع أبا دجانة ، فإذا بأبى دجانة يقاتل ويمعن فى الناس لا يلقى أحدا إلا قتله ، وكان فى المشركين رجل لا يدع للمسلمين جريحا إلا أجهز عليه فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعا الزبير الله أن يجمع بينهما فالتقيا فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه . فضربه أبو دجانة فقتله . فأيقن الزبير أن أبا دجانة قد أخذ سيف رسول الله عليه السلام بحقه ، وذهب ما كان فى نفسه من وجد عليه .

ثم حمل لواء المشركين بعد طلحة أخوه عثمان بن أبى طلحة فارتجز يقول :

إن على رب اللـواء حقـا   أن تخضب الصعدة أو تندقا

فتقدم باللواء والنسوة خلفه يحرضن ويضربن بالدفوف فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه بالسيف على كاهله فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره فبدت رئته ، فرجع حمزة وهو يقول :

ــ أنا بن ساقى الحجيج .

والتقط لواء المشركين أخو عثمان وأخو طلحة وهو أبو سعيد بن أبى طلحة ، فقامت النساء خلفه يقلن :

ضربا بنـى عبـد الـدار   ضربـا حماة الأدبـار

ضربا بكل بتار(١)

فحمل عليه سعد بن أبى وقاص فقطع يده اليمنى . فأخذ اللواء بيده اليسرى فضربه على يده اليسرى فقطعها ، فأخذ اللواء بذراعيه جميعا وضمه إلى صدره وحنى عليه ظهره ، فأدخل سعد سية القوس بين الدرع والمغفر فرمى به وراء ظهره ، ثم ضربه حتى قتله وأخذ يسلبه درعه ، فنهض إليه سبيع بن عوف ونفر معه فمنعوه سلبه ، وكان سلبه أجود سلب رجل من المشركين : درع فضفاضة ومغفر وسيف جيد .

وحمل لواء المشركين مسافع بن طلحة بن أبى طلحة فرماه عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح ، فراح يترنح وهو فى النفس الأخير حتى وصل إلى أمه سلافة وكانت مع النسوة خلف الجيش . فوضع رأسه فى حجرها فقالت له :

---

(١) البتار : السيف .

— من أصابك ؟

— سمعت رجلا حين رماني يقول خذها وأنا ابن أبي الأفلح .

— أفلحى والله ! هو من رهطى .

وكانت من الأوس وكان عاصم بن ثابت منهم .

ثم حمل لواء المشركين أخو مسافع الحرث بن طلحة فرماه عاصم فقتله ، فحمل إلى أمه سلافة وهى مع النساء بأحد فقالت فى فزع :

— من أصابك ؟

— سمعت رجلا يقول خذها وأنا ابن أبي الأفلح .

فملأ الغيظ قلب سلافة فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم قاتل ابنيها أن تشرب فيه الخمر ، ثم قامت تنادى فى المشركين :

— من جاء برأس عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح فله مائة من الإبل .

فحمل اللواء أخو مسافع وأخو الحرث وهو كلاب بن طلحة فقتله قُزمان ، فراح بعض المسلمين يرنو إلى قزمان وهو يعجب أهذا من أهل النار ؟! ، فحمله أخوهم وهو الجلاس بن طلحة فانقض عليه طلحة بن عبيد الله انقضاض الصاعقة فضربه ضربة أزهقت روحه ، فسقط لواء المشركين بعد أن قتل آخر أبناء طلحة . وعند ذلك حمله أرطاة بن شرحبيل ، فإذا بعلى بن أبي طالب يمشى إليه وقد أطل من سيفه المنون ويضربه ضربة يتركه بعدها كأمس الدابر .

ونظر ضرار بن الخطاب إلى خالد بن الوليد وقال له :

— كر على القوم .

فقال له خالد فى ضيق :

— وترى وجها نكر فيه !

كان ضرار بن الخطاب يقول بعد بدر :

ـــ من قتل أبا الحكم ؟

فيقال :

ـــ ابن عفراء .

ـــ من قتل أمية بن خلف ؟

ـــ خبير بن بساف .

ـــ من قتل عقبة بن أبى معيط ؟

ـــ عاصم بن ثابت .

ـــ من أسر سهيل بن عمرو ؟

ـــ مالك بن الدخشم .

فلما خرجوا إلى أُحد كان يقول :

ـــ إن قاموا فى صياصيهم فهى منيعة لا سبيل لنا إليهم نقيم أياما ثم ننصرف ، وإن خرجوا إلينا من صياصيهم أصبنا منهم فإن معنا عددا أكثر من عددهم ونحن قوم موتورون خرجنا بالظعن يذكرننا قتلى بدر ، ومعنا كراع ولا كراع معهم وسلاحنا أكثر من سلاحهم .

فلما التقى الجمعان وقلب ضرار بن الخطاب ينبض بالحقد على الأنصار ولاحت الهزيمة لقريش ، قال ضرار فى نفسه :

ـــ هذه أشد من وقعة بدر .

وانطلقت الهتافات من حناجر المسلمين :

ـــ أمت .. أمت .

ونادى المشركون :

ـــ يا للعزى .. يا لهبل ..

والتقط شريح بن قانط لواء المشركين فصار هدفا لصناديد المسلمين وما أسرع أن قتل ، ثم حمله صواب غلام ابن عبد الدار ، فانطلق قزمان إليه فحمل عليه فقطع يده اليمنى ، فاحتمل اللواء باليسرى فقطع اليسرى ، فاحتضن اللواء بذراعيه وعضديه وحنى عليه ظهره وقال :

— يا بنى عبد الدار هل اعتذرت ؟

فحمل عليه قزمان فقتله كما قتل طلحة كبش الكتيبة من قبل ، وخرج عبد الرحمن بن أبى بكر فقال :

— من يبارز ؟

فنهض إليه أبوه أبو بكر شاهرا سيفه ، فقال له رسول الله — ﷺ — :

— شِم سيفك وارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك .

وحملت خيل المشركين على المسلمين فاستقبلهم الرماة بالنبل فارتد الفرسان متفرقين ، وحمل المسلمون على المشركين فأضعفوهم قتلا ، وراحت هند بنت عتبة والنسوة اللائى معها يضربن بالدفوف خلف الرجال ويقلن :

نحن بنات طارق ... نمشى على النمارق[1]

مشى القطا النوازق[2] ... والمسك فى المفارق

والدر فى المخانق ... إن تقبلوا نعانق

ونفرش النمارق ... أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق

(١) النمارق : جمع نمرقة وهى البساط ، كناية عن الشرف .

(٢) الخفاف .

وكان حنظلة بن أبي عامر تزوج جميلة بنت عبد الله بن أُبَى بن سلول فأدخلت عليه فى الليلة التى فى صبيحتها قتال أُحد ، وكان قد استأذن رسول الله — ﷺ — أن يبيت عندها فأذن له ، فلما صلى الصبح غدا يريد النبى — ﷺ — ، فلزمته جميلة فعاد فكان معها فأُجنب منها ، ثم أراد الخروج وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها ، فقد رأت فى منامها كأن السماء فرجت فدخل فيها ثم أطبقت ففطنت إلى أنها الشهادة ، فأشهدت عليه أنه دخل بها حتى إذا ما علقت منه ثبتت بنوة الوليد .

وأخذ حنظلة بن أبي عامر سلاحه فلحق برسول الله — ﷺ — بأُحد وهو يسوى الصفوف ، فلما انكشف المشركون اعترض حنظلة لأبى سفيان بن حرب فضرب عرقوب فرسه فاكتسعت الفرس ووقع أبو سفيان إلى الأرض ، فجعل يصيح :

— يا معشر قريش أنا أبو سفيان بن حرب !

وحنظلة يريد ذبحه بالسيف ، فأسمع الصوت رجالا لا يلتفتون إليه من الهزيمة ، حتى عاينه الأسود بن شعوب فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ، ومشى حنظلة إليه فى الرمح فضربه ثانية فقتله وهرب أبو سفيان يعدو على قدميه فلحق ببعض قريش فنزل عن صدر فرسه وردف وراءه أبا سفيان .

وكان الشيخان حسيل بن جابر ورفاعة بن وقش شيخين كبيرين قد رفعا فى الآطام مع النساء ، فقال أحدهما لصاحبه :

— لا أبا لك ! ما نستبقى من أنفسنا ! فوالله ما نحن إلا هامة اليوم أوغد وما بقى من أجلنا قدر ظمء[1] دابة ، فلو أخذنا أسيافنا فلحقنا

(١) يقال : ما بقى منه إلا ظمء دابة أى لم يبق من عمره إلا اليسير .

برسول الله — ﷺ — ، لعل الله يرزقنا الشهادة .

فلحقا برسول الله — ﷺ — وقد حمي وطيس القتال فراحا يصولان ويجولان فى صفوف قريش يقتلان من يلتقيان به وقد استبشرا بنصر الله ، وإذا بسيف من سيوف المشركين يقضى على رفاعة بن وقش الشيخ الذى خرج يلتمس الشهادة فرزقه الله الشهادة ليكون فى عليين مع الأنبياء والشهداء والصالحين .

وراح أبو دجانة يضرب بسيف رسول الله عليه السلام العدو حتى انحنى وصار كأنه منجل والزبير بن العوام يرقبه فى إعجاب . ورأى أبو دجانة إنسانا يحمس الناس حمسا شديدا ويوقد الحرب ويثيرها فعمد إليه ، فلما حمل عليه بالسيف ولول فعلم أنه امرأة ، فأكرم سيف رسول الله — ﷺ — أن يضرب به امرأة . إنها كانت هند بنت عتبة تشجع قريش على القتال ليثأروا لقتل أبيها وعمها وأخيها يوم بدر .

وأقبل رجل من المشركين مقنعا بالحديد يقول :

— أنا ابن عويف .

فتلقاه رشيد الأنصارى الفارسى فضربه على عاتقه فقطع الدرع وقال :

— خذها وأنا الغلام الفارسى .

ورسول الله — ﷺ — يرى ذلك ويسمعه ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— ألا قلت خذوها وأنا الغلام الأنصارى ؟

فعرض لرشيد أخو ذلك المقتول يعدو كأنه كلب وهو يقول :

— أنا ابن عويف .

فضربه رشيد على رأسه وعليه المغفر ففلق رأسه وقال :

— خذها وأنا الغلام الأنصارى .

فتبسم رسول الله — ﷺ — وقال :

— أحسنت يا أبا عبد الله .

وغدا قزمان يلعب بالسيف يقطع به الرقاب وصوت النسوة يدوى فى أذنيه : « ما أنت إلا امرأة ، خرج قومك وبقيت فى الدار » . فتثور دماؤه فى عروقه فيغوص فى صفوف قريش يضرب منهم كل بنان لعل أصوات النسوة الساخرة تصمت عن أن تدوى فى عين ذاته ذلك الدوى الذى كان أقسى على نفسه من كل أهوال القتال .

وحاول خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل وفرسان قريش أن يحملوا على المسلمين ولكن الرماة الذين أسندوا ظهورهم إلى أُحد راحوا يصوبون إليهم النبال ، فصهلت الخيل ولوى الفرسان أعنتهم فارتدوا فى الوادى متفرقين لا يلوون على شىء .

ووقف وحشى خلف شجرة وفى يده حربته يرصد حركات حمزة وسكناته وصوت جبير بن مطعم يداعب خياله : « إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق » . إنها رمية من حربته تستقر فى قلب حمزة ثم يسترد بعدها حريته ، فطفق يتبع حمزة بعينيه فى كره وفره ، إنه يحصد الناس بسيفه ويمشى إليهم كالأسد قد كشر عن أنيابه ، ينقض على فريسته وإن هى إلا ضربة واحدة فيتركه كأمس الدابر وهو يقول :

— أنا أسد الله . أنا ابن عبد المطلب .

وضرب حمزة رجلا ضربة أطاحت برأسه فانكمش وحشى وهو فى مكمنه . فحمزة قتل ثلاثين من قريش وحده ، ولو التفت ناحية الشجرة

وخطر له أن يتربص به لانقض عليه انقضاض الصاعقة وقتله قبل أن يستمتع بحريته .

وهز وحشى الحربة فى يده وصوبها إلى حمزة ، وقبل أن يطلقها كان حمزة قد التفت إلى سباع بن عبد العزى فقال له :

ــ أقبل يا بن مقطعة البظور .

كانت أمه أم أنمار مولاة شريق والد الأخنس ختانة بمكة ، وكان سباع يعادى الله ورسوله وكان من المكذبين . فشد حمزة عليه ورفع سيفه وهوى به فإذا بسباع فى مثل لمح البصر يسقط على الأرض وقد سالت دماؤه يلفظ آخر الأنفاس .

وتقاصرت نفس وحشى فقد كان سباع تمام واحد وثلاثين قتلهم حمزة ، إنه يقاتل بين يدى ابن عمه محمد بن عبد الله بسيفين ويقول :

ــ أنا أسد الله .

وملأ الخوف قلب وحشى وبات يخشى أن تنتهى المعركة بهزيمة قريش دون أن ينال من حمزة فيظل يرسف فى العبودية ، فجعل يرصده فى غدواته وروحاته بين صفوف المشركين لعل فرصة تسنح له يقتل فيها حمزة ويسترد حريته .

وكر خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل وفرسان قريش على المسلمين مرة أخرى فإذا بالنبال تتطاير من الرماة الذين أسندوا ظهورهم إلى جبل أحد لتستقر فى أعين الخيل أو فى رقاب الفرسان وصدورهم ، فانجفل الفرسان مرتدين ليتفرقوا فى الوادى وليصبحوا هدفا لأسياف حمزة وعلى والزبير وأبى دجانة وصناديد المسلمين .

وارتفعت الأصوات تجلجل عند أحد ، المسلمون يهتفون :

ـــ أمت .. أمت .

وقد استبشروا بنصر الله ، والمشركون يهتفون :

ـــ يا للعزى يا لهبل !

والنسوة من قريش يحمسن الرجال بالدفوف . وأقبل حمزة بن عبد المطلب وقد شهر سيفه ليقاتل بين يدى رسول الله ويقول :

ـــ أنا أسد الله .

فبينا هو كذلك إذ عثر عثرة وقع منها على ظهره فانكشفت الدرع عن بطنه ، فلاحت لوحشى الفرصة التى كان يرصدها مذ نشب القتال فى بطن أُحد ، فهز حربته ثم دفعها عليه فإذا بها تنفذ من تحت سرته لتخرج من بين رجليه .

وندت من حمزة صرخة مكتومة ونظر فرأى وحشى خلف الشجرة فحمل نفسه حملا لينطلق إليه يريد أن يقتل ذلك العبد الحبشى الذى غدر به ، ولكنه عجز عن مواصلة السير فوقع على الأرض وهو يلهث .

ورفع رأسه لينظر فإذا بجبل أحد يدور فى الفضاء ، وإذا بالمدينة البعيدة يطبق عليها الظلام ، وإذا بأصوات المسلمين التى كانت تدوى كالرعد : أمت .. أمت تخفت . ولم يعد يرى بعينيه ولكنه كان يرى ببصيرته أول يوم أعلن فيه إسلامه ، يوم أن ذهب إلى أبى جهل وشجه بقوسه وهو فى مجلسه عند الكعبة لما سمع أن أبا جهل قد أساء إلى ابن أخيه ، وكان يرى صناديد قريش يوم بدر لما كانوا يتهاوون جثثا هامدة تحت ضربات سيفه البتار . وغاب عن الدنيا بينما كانت أصوات عذبة تنسحب فى أذنيه تبشره بجنات عرضها السموات والأرض ، فإذا بأساريره تنبسط وإذا بروحه تعود إلى ربها آمنة مطمئنة .

وجاءه وحشي وقد سكن روعه فأخذ حربته ثم انتحى إلى العسكر ولم يكن له فى شيء حاجة غيره .

واشتد القتال بين المشركين وحاول الرجال الفرار ، فخفف النسوة إلى كل من هم بأن يولى الأدبار وقدمن إليه مكحلا ومرودا مما كان معهن وقلن له :

— إنما أنت امرأة .

فكان الرجل يعود فيقاتل خوفا من العار . ولم تنفع الدفوف ولا المكاحل ولا المراود للرجال فقد ولوا منهزمين ونجوا على متون خيلهم ، وجعلت النسوة يتبعن الرجال على أقدامهن فجعلن يسقطن فى الطريق ، وقعدت هند بنت عتبة وكانت امرأة ثقيلة خاشية من الخيل ما بها مشي ومعها امرأة أخرى ، وقد لاح فى وجه هند الفزع والانكسار .

٣

أقبل وهب بن قابوس المزنى ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس بغنم لهما من جبل مزينة ، فوجدا المدينة خلوا فسألا :

— أين الناس ؟

— بأحد . خرج رسول الله — ﷺ — يقاتل المشركين من قريش .

فقالا :

— لا نبتغى أثرا بعد عين .

فخرجا حتى أتيا النبى — ﷺ — بأحد ، فيجدان القوم يقتتلون والدولة لرسول الله — ﷺ — وأصحابه ، فأغارا مع المسلمين ، وكان المشركون قد خلفوا العبيد والنساء فى العسكر بعد أن صاح أبو سفيان فى الناس :

— يا معشر قريش خلو غلمانكم على متاعكم يكونوا هم الذين يقومون على رحالكم .

فجمع العبيد الرحال بعضها إلى بعض وعقلوا الإبل ، وانطلق القوم على تعبئتهم ميمنة وميسرة . وألبس العبيد الرحال الأنطاع وراحوا يرقبون المعركة الدائرة بين ساداتهم وبين المسلمين ، وإذا أصحابهم منهزمون واللواء قد سقط على الأرض بعد أن قتل أصحابه واحدا بعد واحد ، قد ولوا لا يلوون على شىء ونساؤهم يدعون بالويل بعد فرحهن وضربهن بالدفوف ، وألقين بالدفوف وقصدن الجبل كاشفات سيقانهن يرفعن

ثيابهن والمسلمون يتبعون أعداءهم يضعون فيهم السلاح وقد دخلوا معسكر قريش يقتلون وينهبون .

كان العبيد وبعض النسوة فى الرحال فأحدق المسلمون بهم وقد استسلم العبيد والنساء للأمر ، وراح المسلمون ينتهبون العسكر وإذا برجل من المسلمين ينقض على أحد العبيد يقول له :

ــ أين مال صفوان بن أمية ؟

فقال العبد :

ــ ما حمل إلا نفقة فى الرحل .

فخرج المسلم يسوق العبد حتى أخرج النفقة من العيبة خمسين ومائة مثقال ذهبا .

وولى رجال قريش وأيس من كان فى العسكر من نصرتهم . وانحاش النساء فهن فى حجرهن سلمٌ لمن أرادهن . ووجد عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح منطقة فى العسكر فيها خمسون دينارا فشدها على حقويه من تحت ثيابه ، ووجد عباد بن بشر صرة فيها ثلاثة عشر مثقالا فألقاها فى جيب قميصه وفوقها الدرع وقد حزم وسطه . وراح قزمان ينتهب العسكر أقبح انتهاب . وغدا المسلمون يأخذون ما تصل إليه أيديهم فصار النهب فى أيدى المسلمين .

ورأى الرماة إخوانهم المسلمين ينتهبون عسكر المشركين فقال بعضهم لبعض :

ــ لم تقومون ها هنا فى غير شيء ؟ قد هزم الله العدو وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم .

فقال بعضهم :

ـــ ألم تعلموا أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال لكم : « احموا ظهورنا وإن غنمنا فلا تشركونا » ؟

فقال الآخرون :

ـــ لم يرد رسول الله ـــ ﷺ ـــ هذا وقـــد أذل الله المشركين وهزمهم ، فادخلوا العسكر فانتهبوا مع إخوانكم .

واختلفوا فقام أميرهم عبد الله بن جبير يخطبهم وكان يومئذ معلما بثياب بيض ، فحمد الله وأمرهم بطاعة رسوله وألا يخالف أمره . فعصوه وانطلقوا فلم يبق معه إلا نفير ما يبلغون العشرة منهم الحارث بن أنس بن رافع يقول :

ـــ يا قوم ، اذكروا عهد نبيكم إليكم وأطيعوا أميركم .

فأبوا وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون وخلوا الجبل . فنظر خالد ابن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكر بالخيل وتبعه عكرمة بالخيل فانطلقا إلى موضع الرماة فحملوا عليهم ، فرماهم القوم حتى أصيبوا ، ورمى عبد الله بن جبير حتى فنيت نبله ، ثم طاعن بالسيف حتى انكسر ثم كسر جفن سيفه فقاتل حتى قتل ، وأفلت جعيل بن سراقة وأبو بردة بن نيار بعد أن شاهدا قتل عبد الله بن جبير .

ودخل الرماة العسكر وجاءوا إلى النهب قد تأبطوا قسيهم وجعابهم ، وقد صار كل واحد منهم فى يديه أو حضنه شيء قد أخذه ، ونظر ضرار بن الخطاب إلى الجبل الذى كان عليه الرماة فوجده خاليا فقال لخالد بن الوليد :

ـــ يا أبا سليمان انظر وراءك .

فعطف عنان فرسه وكر وكروا معه فانتهوا إلى الجبـل فلـم يجدوا

عليه أحدا له بال ، وجدوا نفيرا فأصابوهم ، ثم دخلوا العسكر فلم يكن أحد يردهم وقد وجدوا المسلمين آمنين فوضعوا فيهم السيوف .

واختلط المسلمون وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضا وما يشعرون بما يصنعون من الدهش والعجل ، وجرح أسيد بن حضير جرحين ضربه أحدهما أبو بردة بن نيار وما يدرى ، يقول :

ــ خذها وأنا الغلام الأنصارى .

وكر أبو زعنة فى حومة القتال فضرب أبا بردة ضربتين ما يشعر أنه هو ، يقول :

ــ خذها وأنا أبو زعنة .

والتفت على حسيل بن حابر الشيخ الذى لحق برسول الله ــ ﷺ ــ طمعا فى الشهادة سيوف المسلمين وهم لا يعرفونه حين اختلطوا وابنه حذيفة يقول :

ــ أبى ! أبى !

وظلوا به حتى قتل ، فقال حذيفة :

ــ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ما صنعتم !

وكسر قزمان جفن سيفه وجعل يقول :

ــ الموت أحسن من الفرار . يا للأوس ! قاتلوا على الأحساب واصنعوا مثل ما أصنع .

ودخل بالسيف وسط المشركين فقال المسلمون :

ــ قد قتل .

وسرعان ما طلع يقول :

ــ أنا الغلام الظفرى .

ثم عاد ليغوص فى صفوف المشركين وغاب مدة فقال الناس :

ـــ قد قتل .

وما لبث أن طلع يصيح :

ـــ أنا الغلام الظفرى .

وأصاب كعب بن مالك الجراح ، فلما رأى المشركين يمثلــون بالمسلمين أشد المثل وأقبحها قام فتنحى عن القتلى ، فإنه لفى موضعه أقبل خالد بن الأعلم العقيلى يحوش المسلمين يقول :

ـــ استوسقوا (اجتمعوا) كما يستوسق جُرْب الغنم .

وهو مدجج فى الحديد يصيح :

ـــ يا معشر قريش لا تقتلوا محمدا ، إئسروه أسرا حتى نعرفه ما صنع .

ويصمد له قزمان فيضربه بالسيف ضربة على عاتقه حتى يرى منه سحره[1] ثم أخذ سيفه وانصرف . فطلع عليه من المشركين فارس ما يرى منه إلا عيناه فحمل عليه قزمان فضربه ضربة جزله اثنين ، فإذا هو الوليد بن العاص بن هشام المخزومى .

وأقبل عبد الله بن شهاب الزهرى يقول :

ـــ دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا .

وإن رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى جنبه ما معه أحد ، ثم جاوزه ، ولقى عبد الله بن شهاب صفوان بن أمية فقال له صفوان :

ـــ ترِحت ! هل ضربت محمدا فقطعت هذه الشافة فقد أمكنك الله منه .

ـــ وهل رأيته ؟

---

(١) السحر : الرئة .

— نعم أنت إلى جنبه .

— والله ما رأيته . أحلف بالله إنه لممنوع . خرجنا أربعة تعاقدنا وتعاهدنا على قتله فلم نخلص إلى ذلك .

وقتل قزمان من قريش سبعة وأصابته الجراحة وكثرت فيه ، فوقع فمر به قتادة بن النعمان فقال له :

— أبا الغيداق .

قال قزمان :

— لبيك .

— هنيئا لك الشهادة .

— إنى والله ما قاتلت يا أبا عمرو على دين ، ما قاتلت إلا على الحِفاظ ، أن تسير قريش إلينا فتطأ سعَفنا .

فآذته الجراحة فأخذ سهما من كنانته فقتل به نفسه ، وصدق رسول الله عليه السلام فإنه كان يقول إذا ذكر له قزمان : إنه من أهل النار .

وأقبل الحباب بن المنذر بن الجموح يصيح :

— يا آل سلمة !

فأقبلوا يقولون :

— لبيك داعى الله ! لبيك داعى الله .

فضرب الحباب بن المنذر جبّار بن صخر ضربة فى رأسه مثقلة وما يدرى .

ورأى المسلمون أن يظهروا شعارهم بينهم حتى لا يضرب بعضهم بعضا فجعلوا يصيحون :

— أمت .. أمت !

فكف بعضهم عن بعض ثم تفرقوا فى كل وجه وتركوا ما انتهبوا وخلوا الأسرى وألقوا ما حملوا من غنائم . فإذا بالذهب قد تناثر فى عسكر قريش وإذا بالنفائس تكسو الأرض .

ولم يزل لواء المشركين ملقى على الأرض حتى أخذته عمرة بنت علقة ورفعته لهم فاستداروا به واجتمعوا عنده .

وكانت عمارة المازنية زوج زيد بن عاصم قد خرجت يوم أُحد لتنظر ما يصنع الناس ومعها سقاء فيه ماء تسقى به الجرحى ، فانتهت إلى رسول الله — ﷺ — وهو فى أصحابه والريح للمسلمين . فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله فقامت تباشر القتال وتذب عنه بالسيف وترمى عن القوس . وولى الناس عن رسول الله فأقبل ابن قميئة يقول :

— دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا .

فاعترضت له هى ومصعب بن عمير فضربها ابن قميئة ضربة على عاتقها فأصابها وضربته ضربات ولكن كان عليه درعان فلم تنفذ إليه الجراح .

والتفت رسول الله إلى ابن عمارة ، فقال :

— يا بن عمارة .

— نعم .

— ارم .

فرمى بين يديه رجلا من المشركين بحجر وهو على فرس ، فأُصيبت عين الفرس حتى وقع هو وصاحبه ، وجعل يعلوه بالحجارة حتى كاد يغطيه والنبى — ﷺ — ينظر إليه ويبتسم ، فنظر عليه السلام إلى جرح بأمه على عاتقها فقال :

— أمك .. أمك .. اعصب جرحها بارك الله عليكم من أهل بيت .

فقالت أم عمارة :

— ادع لنا الله يا رسول الله أن نرافقك فى الجنة .

— اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة ..

وكان قد تعاقد من قريش على قتل رسول الله — ﷺ — عبد الله بن شهاب الزهرى وابن قميئة أحد بنى الحارث بن فهر وعتبة بن أبى وقاص وأبىّ بن خلف الجمحى ، فرمى عتبة بن أبى وقاص رسول الله — ﷺ — بحجر فكسر رباعيته .

وأقبل ابن قميئة وهو يقول :

— دلونى على محمد ، فوالذى يحلف به لئن رأيته لأقتلنه .

فوصل إلى رسول الله — ﷺ — فعلاه بالسيف ، ورماه عتبة بحجر فأدمى شفتيه . وشجه ابن قميئة فى وجهه حتى غاب حلق المغفر فى وجنته . وكان عليه السلام فارسا وهو لابس درعين مثقل بهما فوقع رسول الله — ﷺ — فى حفرة كانت أمامه فأصيبت ركبتاه ، جحشتا (خدشتا) لما وقع فى تلك الحفرة ، وكانت هناك حفر حفرها أبو عامر الفاسق كالخنادق للمسلمين ، وكان رسول الله — ﷺ — واقفا على بعضها وهو لا يشعر . ولم يفعل سيف ابن قميئة شيئا .

وتوارى رسول الله عليه السلام فى الحفرة فجاء إليه طلحة وعلى بن أبى طالب فراح طلحة يحمله من ورائه وعلى بن أبى طالب يأخذ بيديه حتى استوى قائما والدم يسيل من الشجة التى فى جبهته حتى أخضل لحيته .

وخف سالم مولى أبى حذيفة يغسل الدم عن وجهه ورسول الله — ﷺ — يقول :

— كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله تعالى ؟
فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾(١) .

وحرص سعد بن أبى وقاص على قتل أخيه عتبة حرصا ما حرص على شيء قط ، فراح يتخرق صفوف المشركين يطلب أخاه ليقتله ، ولكنه راغ منه روغان الثعلب . فراح سعد يتخرق صفوف المشركين مرة ثانية وعتبة بن أبى وقاص يفر من أمامه فلما كانت المرة الثالثة قال له رسول الله — ﷺ — :

— يا عبد الله ما تريد ؟ أتريد أن تقتل نفسك ؟

فكف سعد عن طلب أخيه .

وأقبل أبو بكر يسعى إلى رسول الله — ﷺ — فإذا حلقتان من المغفر قد دخلتا فى وجهه — ﷺ — وإذا أبو عبيدة بن الجراح يقول لأبى بكر :

— أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتنى فأنتزعه من وجه رسول الله — ﷺ — ؟

فتركه أبو بكر فأخذ أبو عبيدة بثنيته حلقة المغفر فنزعها وسقط على ظهره وسقطت ثنية أبى عبيدة ، ثم أخذ الحلقة بثنيته الأخرى ، فصار أبو عبيدة فى الناس أثرم .

فعل بنو زهرة أخوال النبى الأفاعيل برسول الله — ﷺ — ، فقد حركهم أبو سفيان وهاجهم على الشر لأنهم رجعوا يوم بدر من الطريق إلى

---

(١) آل عمران ١٣٨ .

مكة فلم يشهدوها ، فاعترض عيرهم ومنعهم عنها وأغرى بهم سفهاء أهل مكة فعيروهم برجوعهم ونسبوهم إلى الجبن وإلى موالاة محمد — ﷺ — ، فأرادوا أن يعلنوا على الملأ أنهم ليسوا بجبناء وأنهم على مثل رأى قريش فى محمد عليه السلام .

وأقبل عبد الله بن حميد بن زهير حين رأى رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — قد سقط من ضربة ابن قميئة يركض فرسه مقنعا فى الحديد يقول :

— أنا ابن زهير . دلونى على محمد فوالله لأقتلنه أو لأموتن دونه .

فتعرض له أبو دجانة فقال :

— هلم إلى من يقى نفس محمد — صلى الله عليه وآله وسلم — بنفسه .

فضرب فرسه فعَرْقَبها[1] فاكتسعت ، ثم علاه بالسيف وهو يقول :

— خذها وأنا ابن خرشة .

وقتل عبد الله بن حميد ورسول الله ينظر ويقول :

— اللهم ارض عن ابن خرشة كما أنا عنه راض .

وصاح ابن قميئة :

— إن محمدا قد قتل .

وانهزمت طائفة من المسلمين إلى جهة المدينة ولم يدخلوها ، وقال رجال من المسلمين حيث قتل رسول الله عليه السلام :

---

(١) عرقبها : ضرب عرقوبها ، والعرقوب من رجل الناقة بمنزلة الركبة فى يدها .

ـــ ارجعوا إلى قومكم يؤمنوكم .

وقال آخرون :

ـــ إن كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد قتل أفلا تقاتلون على دين نبيكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله شهداء ؟

وقال ثابت بن الدحداح :

ـــ يا معشر الأنصار إن كان محمد قد قتل فإن الله حى لا يموت ، قاتلوا على دينكم فإن الله مظفركم وناصركم .

فنهض إليه نفر من الأنصار فحمل بهم على كتيبة فيها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب . فحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فقتله وقتل من كان معه من الأنصار .

وقال جماعة :

ـــ ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبى ليأخذ لنا أمانا من أبى سفيان : يا قوم إن محمدا قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم ويقتلوكم .

وقال رجال من المنافقين :

ـــ لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا .

وقال بعضهم :

ـــ لو كان نبيا ما قتل فارجعوا إلى دينكم الأول .

وبينا عمر بن الخطاب فى رهط من المسلمين قعود مر بهم أنس بن النضر ابن ضمضم عم أنس بن مالك فقال :

ـــ ما يقعدكم ؟

قالوا :

ـــ قتل رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ .

— فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه .

ثم قام فجالد حتى قتل وبه سبعون ضربة فى وجهه .

ومر مالك بن الدخشم على خارجة بن زيد بن زهير وهو قاعد فى أمعائه ثلاثة عشر جرحا كلها قد خلصت إلى مقتل ، فقال له مالك :

— أعلمت أن محمدا قد قتل ؟

قال خارجة :

— فإن كان محمد قد قتل فإن الله حى لا يقتل ولا يموت ، وإن محمدا قد بلغ رسالة ربه فاذهب أنت فقاتل عن دينك .

ومر مالك بن الدخشم على سعد بن الربيع وبه اثنا عشر جرحا كلها قد خلصت إلى مقتل ، فقال :

— أعلمت أن محمدا قد قتل !

— أشهد أن محمدا قد بلغ رسالة ربه ، فقاتل أنت عن دينك فإن الله حى لا يموت .

وثبت — ﷺ — لما تفرقت عنه أصحابه وصار يقول :

— أنا رسول الله .

فما يعرج إليه أحد والنبل يأتى إليه من كل ناحية ، وقد ثبت معه طلحة ابن عبيد الله يدور حول النبى — ﷺ — يترس بنفسه لا يدرى أيقوم من بين يديه أو من ورائه أم عن يمينه أم شماله ، فيذب بالسيف عنه ههنا وههنا .

وحمل مصعب بن عمير اللواء وثبت به قبل ابن قميئة ، وكان ابن قميئة فارسا فضرب يد مصعب فقطعها ، فقال مصعب :

— ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾[1] .

وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنى عليه ، فضربه فقطع اليسرى فضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول :

— « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » .

ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه واندق الرمح ووقع مصعب وسقط اللواء ، فخف رجلان من المسلمين من بنى عبد الدار هما سويبط بن حرملة وأبو الروم لالتقاط اللواء ، فأخذه أبو الروم وطفق يدافع عنه .

وأنثل طلحة كنانته بين يدى النبى — ﷺ وكان فيها خمسون سهما ، وجعل يصيح :

— نفسى دون نفسك يا رسول الله !

فلم يزل يرمى بها سهما سهما ورسول الله — ﷺ — يقول له :

— ارم يا أبا طلحة .

ويطلع رأسه من خلف أبى طلحة بين أذنه ومنكبه ، ينظر إلى مواقع النبل ، وأبو طلحة يقول :

— نحرى دون نحرك .

وجاء سعد بن أبى وقاص وعاصم بن ثابت والسائب بن عثمان بن مظعون والمقداد بن عمرو وزيد بن حارثة وحاطب بن أبى بلتعة وعتبة بن غزوان وخرامش بن الصمة وقطبة بن عامر وبشر بن البراء بن معرور وأبو نائلة سلكان بن سلامة وقتادة بن النعمان لينضموا إلى طلحة وليذودوا عن الرسول — عليه صلوات الله وسلامه — .

وراح طلحة يرمى بنبله ورسول الله يقول :

---

(١) آل عمران ١٤٤ .

— لقد أوجب .

وأقبلت فرقة من المشركين تريد رسول الله — ﷺ — :

فقال عليه السلام :

— من لهذه الفرقة ؟

فقال وهب بن قابوس :

— أنا يا رسول الله .

فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا . ثم طلعت فرقة أخرى فقال رسول الله — ﷺ — :

— من لهذه الكتيبة ؟

فقال المزنى :

— أنا يا رسول الله .

فقام فذبها بالسيف حتى ولت ثم رجع ، وطلعت كتيبة أخرى فقال النبى — ﷺ — :

— من يقوم لهؤلاء ؟

فقال المزنى :

— أنا يا رسول الله .

— قم وأبشر بالجنة .

فقام المزنى مسرورا يقول :

— والله لأقيل ولا أستقيل .

فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف ورسول الله — ﷺ — ينظر إليه والمسلمون حتى خرج من أقصى الكتيبة ، ورسول الله — ﷺ — يقول :

— اللهم ارحمه .

ثم رجع إليهم ، فما زال كذلك وهم محدقون به حتى اشتملت عليه أسيافهم فقتلوه .

ورمى مالك بن زهير الجشمي بسهم يريد رسول الله — ﷺ — وكانت لا تخطىء رميته ، فاتقى أبو طلحة بيده عن وجه رسول الله — ﷺ — فأصاب خنصره فشل .

وجعل رسول الله — ﷺ — يذمر الناس ويحضهم على القتال ، وكان رجال من المشركين قد أوجعوا المسلمين بالرمي منهم حيان بن العرفة وأبو أسامة الجشمي ، فجعل النبي — ﷺ — يقول لسعد بن أبي وقاص :

— ارم فداك أبي وأمي !

فرمى فوقع السهم في ثغرة نحر حيان ، فقال — ﷺ — لسعد :

— أجاب الله دعوتك ، وسدد رميتك .

وكان مالك بن زهير الجشمي أخو أبي أسامة الجشمي قد رمى المسلمين رميا شديدا ، وكان هو وريان بن العِرفة قد أسرعا في أصحاب رسول الله — ﷺ — وأكثروا فيهم القتل يستتران بالصخر ويرميان ، فبينا هم على ذلك أبصر سعد بن أبي وقاص مالك بن زهير من وراء صخرة قد رمى وأطلع رأسه ، فرماه سعد فأصاب السهم عينه حتى خرج من قفاه ، فهب قائما ثم رجع فسقط جثة هامدة .

كان مع رسول الله نفير لا يتممون عشرة ، وأم عمارة المازنية وأبناؤها وزوجها بين يديه يذبون عنه والناس يمرون عنه منهزمين . ورأى رسول الله أم عمارة ولا ترس معها ورأى رجلا موليا معه ترس فقال عليه السلام :

— يا صاحب الترس ألق ترسك إلى من يقاتل .

فألقى ترسه فأخذته أم عمارة فجعلت تترس به عن النبى — ﷺ — وقد فعل بهم الأفاعيل أصحاب الخيل ، فأقبل رجل على فرس فضربها فترست له فلم يصنع سيفه شيئا وولى ، وضربت عرقوب فرسه فوقع على ظهره فجعل النبى — ﷺ — يصيح :

— يا بن عمارة . أمك أمك !

فخف ابنها يعاونها حتى قضيا عليه .

وراح ابنها عبد الله يصول ويجول حتى ضربه رجل من المشركين ولم يعرج عليه ومضى عنه ، وجعل الدم ينزف من عضده اليسرى لا يرقأ .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— اعصب جرحك .

فأقبلت أمه إليه ومعها عصائب فى حقويها قد أعدتها للجراح فربطت جرحه والنبى — ﷺ — واقف ينظر ، ثم قالت :

— انهض يا بنى فضارب القوم .

فجعل رسول الله — ﷺ — يقول :

— ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟

وأقبل الرجل الذى ضرب ابنها عبد الله فقال رسول الله — ﷺ — :

— هذا ضارب ابنك .

فاعترضت له فضربت ساقه فبرك ، فتبسم رسول الله — ﷺ — حتى بدت نواجذه ثم قال :

— استقددت يا أم عمارة .

ثم أقبلوا يعلونه بالسلاح حتى أتوا على نفسه ، فقال النبي — ﷺ — :

— الحمد لله الذى أظفرك وأقر عينك من عدوك وأراك ثأرك بعينك !

وجاء على بن أبى طالب يدافع عن رسول الله عليه السلام ، فلما التف حوله عليه السلام بعض أصحابه قصدته كتيبة من بنى كنانة ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— يا على اكفنى هذه الكتيبة .

فحمل عليها وإنها لتقارب خمسين فارسا وهو عليه السلام راجل . فما زال يتضربها بالسيف حتى تفرقت عن رسول الله الحبيب . وقبل أن يلتقط على أنفاسه إذا بكتيبة من بنى عبد مناة بن كنانة تقصد رسول الله — ﷺ — فخف على إلى الفرسان وحمل عليهم فقتل خالد بن سفيان وأبا الشعثاء بن سفيان وأبا الحمراء بن سفيان وغراب بن سفيان ، فلما رأى القوم مقتل بنى سفيان بن عوف الأربعة وسيف على البتار تفرقوا عن رسول الله — ﷺ — وإذا بصوت يدوى فى المكان :

— لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على !

وتترس[1] أبو دجانة دون رسول الله — ﷺ — فصار يقع النبل على ظهره وهو منحن حتى كثر فيه النبل .

وظل المسلمون يقاتلون وهم يحسبون أن رسول الله — ﷺ — قد قتل ، ورفع عباس بن نضلة صوته فقال :

— يا معشر المسلمين الله ونبيكم ! هذا الذى أصابكم بمعصية نبيكم ،

---

(١) كان بالنسبة له كالترس يتلقى الضربات .

وعدكم النصر فما صبرتم .

وكان معه خارجة بن أبى زهير وأوس بن أرقم بن زيد ، فنزع مغفره عن رأسه وخلع درعه وقال لخارجة بن زيد :

ــ هل لك فى درعى ومغفرى ؟

قال خارجة :

ــ لا ، أنا أريد الذى تريد .

فخالطوا القوم جميعا وعباس يقول :

ــ ما عذرنا عند ربنا إن أصيب نبينا وبنا عين تطرف ؟

فيقول خارجة لعباس بن نضلة المعروف بابن قوقل :

ــ لا عذر لنا والله عند ربنا ولا حجة .

وضرب عباس سفيان بن عبد شمس السلمى ضربتين فجرحه جرحين عظيمين ، ولكن سفيان طعنه طعنة أردته قتيلا . وأخذ خارجة بن زيد الرماح فجرح بضعة عشر جرحا ، فمر به صفوان بن أمية فعرفه فقال :

ــ هذا من أكابر أصحاب محمد وبه رمق فأجهز عليه .

وقتل أوس بن أرقم وراح صفوان بن أمية يمثل بخارجة ويقول :

ــ هذا ممن أغرى بأبى يوم بدر .

وغدا ينظر إلى ابن قوقل وإلى خارجة وابن أرقم وقد قتلوا فأحس أنه قد ثأر لمقتل أبيه أمية بن خلف يوم بدر ، فقال :

ــ الآن شفيت نفسى حين قتلت الأماثل من أصحاب محمد ، قتلت ابن قوقل وقتلت ابن أبى زهير وقتلت أوس بن أرقم .

وجعل سهل بن حنيف ينضح بالنبل عن رسول الله ــ ﷺ ــ فقال :

— نبلوا سهلا فإنه سهل .

ونظر رسول الله — ﷺ — إلى أبي الدرداء والناس منهزمون فى كل وجه ، فقال :

— نعم الفارس عويمر غير أنه لم يشهد أحدا .

وراح رسول الله — عليه السلام — يرمى بالنبل حتى فنيت نبله وانكسرت سية[1] قوسه ، وكان السائب بن مظعون والمقداد بن عمرو وزيد بن حارثة يرمون بالسهام دفاعا عن رسول الله — ﷺ — .

وأقبل رجل من بنى عامر بن لؤى يدعى شيبة بن المضرب يجر رمحه ، وهو على فرس أغر كميت مدججا فى الحديد يصيح :

— أنا أبو ذات الوذع ، دلونى على محمد .

فضرب طلحة عرقوب فرسه فسقطت به ، ثم تناول رمحه فما أخطأ به عن حدقته ، فخار كما يخور الثور ، فما برح واضعا رجله على خده حتى مات .

وراح مخيريق يقاتل مع رسول الله حتى قُتل ، فقال — ﷺ — :

— مخيريق خير يهود .

وأقبل من المسلمين بعد التولية قيس بن محرث مع طائفة من الأنصار وقد كانوا بلغوا بنى حارثة فرجعوا سراعا فصادفوا المشركين فى كثرتهم ، فدخلوا فى حومتهم فما أفلت منهم رجل حتى قتلوا كلهم ، ولقى أبو سبرة ابن الحارث بن علقمة أحد المشركين فاختلفا ضربات ، كل ذلك يروغ أحدهما عن الآخر ، فنظر الناس إليهما كأنهما سبعان ضاريان يقفان مرة ويقتتلان أخرى ثم تعانقا فوقعا إلى الأرض جميعا ، فعلاه أبو سبرة فذبحه

---

(١) سية القوس : ما عطف من طرفيها .

بسيفه كما تذبح الشاة ولم يرتج المكان بالتكبير فقد كان المسلمون يدافعون عن أنفسهم دفاع المستميت وقد شغل كل منهم بنفسه . ونهض أبو سبرة عن الذبيح فأقبل خالد بن الوليد وهو على فرس أدهم أغر محجل يجر قناة طويلة ، فطعن أبا سبرة من خلفه فإذا بسنان الرمح يخرج من صدره ، ووقع أبو سبرة ميتا ، وانصرف خالد بن الوليد يقول :

— أنا أبو سليمان !

وأقبل ضرار بن الخطاب على فرسه يجر قناة له طويلة ، وجعل يطلب الأكابر من الأوس والخزرج قتلة الأحبة فلا يرى أحدا ، ورأى عمر بن الخطاب فضربه بالقناة وقال :

— يا بن الخطاب إنها نعمة مشكورة ، ما كنت لأقتلك .

فما هى إلا حلب ناقة حتى تداعت الأنصار بينها فأقبلت فخالطوا الكفار وهم فرسان ، وبذلوا أنفسهم حتى عقروا فرس ضرار بن الخطاب فترجل وغدا يدافع عن نفسه ، ولقى من رجل من المسلمين الموت الناقع حتى وجد ريح الدم والمسلم معانقه لا يفارقه حتى أخذته الرماح من كل ناحية .

وأقبل أمية بن أبى حذيفة بن المغيرة وهو دارع مقنع فى الحديد ما يرى منه إلا عيناه وهو يقول :

— يوم بيوم بدر .

فيعرض له رجل من المسلمين فقتله أمية ، وصمد له على بن أبى طالب فضربه بالسيف على هامته وعليه بيضة وتحت البيضة مغفر فنبا سيفه وكان رجلا قصيرا . وراح أمية يضرب عليا بسيفه فيتقى بالدرقة[1] ، فلحج

---

(١) الدرقة : الوقاية تصنع من الصلب .

سيفه فضربه على وكانت درعه مشمرة فقطع رجليه فوقع ، وجعل يعالج سيفه حتى خلصه من الدرقة وجعل يناوش عليا وهو بارك حتى نظر على إلى فتق تحت إبطه فيحش فيه فمال فمات . وانصرف على ليقاتل أعداء الله وهو يصيح :

ــ أمت .. أمت .

وكانت نساء المسلمين قد رفعن فى الآطام ومعهن حسان بن ثابت وكان لا يشهد حربا ، فجاء نفر من يهود يرمون الأطم فقالت صفية بنت عبد المطلب أم الزبير بن العوام لحسان :

ــ دونك يا بن القريعة .

ــ لا والله لا أستطيع القتال .

وصعد يهودى إلى الأطم فقالت صفية لحسان :

ــ شد على يدى السيف ثم برئت .

ففعل فضربت عنق اليهودى ورمت برأسه إليهم ، فلما رأوه انكشفوا .

وكانت صفية فى الحصن فى أول النهار ترقب المعركة من بعيد . فرأت المزراق[١] يطير فى الهواء فقالت فى عجب :

ــ أوَمن سلاحهم المزاريق !

وما درت أنه هوى إلى أخيها حمزة ولا تشعر !

ثم خرجت آخر النهار لما عرفت انكشاف المسلمين برجوع حسان إلى أقصى الأطم ، فكان أول من لقيت على بن أبى طالب ابن أخيها فقال :

ــ ارجعى يا عمة فإن فى الناس تكشف .

---

(١) المزراق : رمح قصير .

ـــ رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم وآله ؟

ـــ صالح .

ـــ ادللنى عليه حتى أراه .

فأشار إليه إشارة خفية فانتهت إليه وبه الجراحة .

وضرب ضرار بن الخطاب طلحة فى رأسه ضربتين ، ضربة وهو مقبل وضربة وهو معرض عنه ، وكان نزف منه الدم ، وجاء أبو بكر النبى ـــ ﷺ ـــ فقال عليه السلام :

ـــ عليك بابن عمك .

فأتى طلحة بن عبيد الله وقد نزف الدم فجعل ينضح فى وجهه الماء وهو مغشى عليه ، ثم أفاق فقال :

ـــ ما فعل رسول الله ـــ ﷺ ؟

ـــ خير ، هو أرسلنى إليك .

ـــ الحمد لله . كل مصيبة بعده جلل(١) .

---

(١) قليلة .

٤

تفرق الناس لما صاح ابن قميئة :

ـــ إن محمدا قد قتل .

فمنهم من ورد المدينة ، فكان أول من وردها يخبر أن محمدا قد قتل سعد بن عثمان أبو عبادة ، ثم ورد بعده رجال حتى دخلوا على نسائهم حتى جعل النساء يقلن :

ـــ أعن رسول الله تفرون ؟

وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ خلف ابن أم مكتوم على المدينة يصلى بالناس وكان أعمى ، فجاء إلى الذين فروا يقول مؤنبا :

ـــ أعن رسول الله تفرون ؟ دلونى على الطريق .

فدلوه ، فجعل يستخبر كل من لقى فى الطريق حتى لحق القوم وهو خائف أن يكون النبى ـــ ﷺ ـــ قد قتل حقا ، فلما اطمأن إلى سلامته عاد إلى المدينة ليصلى بالناس ويؤنب الذين فروا عن رسول الله .

وراحت الشمس تغيب خلف جبال أُحد ولم يزل المسلمون يحامون عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ والمشركون يتكاثرون عليهم ويقتلون فيهم ، وكان أُبَى بن خلف على ظهر جواده يبحث بعينيه عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقد كان أبَىّ يريد أن يقعد مع القاعدين لما خرجت قريش لقتال المسلمين يوم بدر لأنه سمع أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال إنه سيقتله ، ولولا سخرية النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط ما خرج فى

ذلك اليوم . فلما افتدى من الأسر ببدر وأراد أن يفر من خوفه الذى يلاحقه قال : والله إن عندى لفرسا أعلفها كل يوم فرقا[١] من ذرة أقتل عليها محمدا .

ولمح أُبَى بن خلف جماعة من المسلمين فاندفع إليهم وهو يقول :

ـــ أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا .

فاعترضه رجال من المسلمين فأمرهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يخلوا طريقه ، فأقبل وهو يقول :

ـــ يا كذاب أين تفر ؟

وأخذ رسول الله ـــ ﷺ ـــ من الزبير بن العوام الحربة وانتفض بها انتفاضة شديدة ثم استقبله فطعنه فى عنقه ، فإذا بأُبَى بن خلف يكاد يموت من الرعب فقد تذكر أن محمدا قال إنه سيقتله وقد وقر فى وجدانه أن هذه الطعنة هى القاضية ، فقفل راجعا إلى صفوف قريش وفى قلبه خوف شديد وفى وجهه هلع .

وراح على بن أبى طالب يذب عن رسول الله فى ناحية وأبو دجانة فى ناحية يذب طائفة منهم ، وانفرد على بفرقة كثيرة السلاح فيها عكرمة بن أبى جهل فدخل وسطهم بالسيف فضرب به ، واشتملوا عليه حتى أفضى إلى آخرهم ثم كر فيهم الثانية حتى رجع من حيث جاء ، وكان الحباب بن المنذر بن الجموح يحوشهم كما تحاش الغنم وقد اشتملوا عليه حتى قيل :

ـــ قد قتل .

ثم برز والسيف فى يده وافترقوا عنه ، وجعل يحمل على فرقة منهم وإنهم ليهربون منه إلى جمع منهم وصار الحباب إلى النبى ـــ ﷺ ـــ ، وكان

---

(١) الفرق : مكيال يسع اثنى عشر مدا من ذرة .

الحباب معلما بعصابة خضراء فى مغفره .

وأصيب عبد الرحمن بن عوف فى فيه فهتم وجرح عشرين جراحة فأكثر ، وجرح فى رجله فكان يعرج منها .

وراح الشماس بن عثمان يقاتل عن رسول الله وكان رسول الله — ﷺ — لا يأخذ يمينا ولا شمالا إلا رأى شماس بن عثمان فى ذلك الوجه يذب بسيفه عنه ، حتى غشى رسول الله — صلى الله عليه وسلم وآله — فترس من نفسه دونه حتى قتل .

وولى عثمان بن عفان والحارث بن حاطب وثعلبة بن حاطب وسواد بن غزية وسعد بن عثمان وعقبة بن عثمان وخارجة بن عمر وأوس بن فيظى فى نفر من بنى حارثة ، ولقيتهم أم أيمن فراحت تحثى فى وجوههم التراب وتقول لبعضهم :

— هاك المغزل فاغزل به .

وكان أنس بن النضر عم أنس بن مالك خادم النبى قد غاب عن بدر فشق عليه ذلك ، فلما كان يوم أحد ورأى انهزام المسلمين قال :

— اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع هؤلاء .

ونظر إلى صفوف الكافرين وقال :

— وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء .

وتذكر ما قاله لرسول الله — ﷺ : « يا رسول الله إنى غبت عن أول قتال وقع قاتلت فيه مع المشركين ، والله لئن أشهدنى الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع » .

فراح يقاتل فى ضراوة حتى إذا ما سمع قتل رسول الله قال لأصحابه :

— ما تصنعون بالحياة بعده ؟ موتوا على ما مات عليه رسول الله — ﷺ .

ثم استقبل القوم وقال لسعد بن معاذ :

ـــ هذه الجنة ورب الكعبة أجد روحها دون أحد .

وراح يقاتل ويتلقى ضربات السيوف وطعنات الرماح ورميات السهام حتى خلصت إليه بضع وثمانون جراحة ، فاضت بعدها روحه ليلحق بالشهداء .

وكان عمرو بن الجموح رجلا أعرج ولكنه كان فى الرعيل الأول يذب عن رسول الله وهو يعرج فى مشيته ويقول :

ـــ أنا والله مشتاق إلى الجنة .

كان له بنون أربعة يشهدون مع النبى ـــ ﷺ ـــ المشاهد أمثال الأسد ، وأراد قومه أن يحبسوه يوم أحد وقالوا :

ـــ أنت رجل أعرج ولا حرج عليك ، وقد ذهب بنوك مع النبى ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ بخ ! يذهبون إلى الجنة وأجلس أنا عندكم !

وأخذ درقته وهو يقول :

ـــ اللهم لا تردنى إلى أهلى .

فخرج ولحقه بعض قومه يكلمونه فى القعود ، فأبى وجاء إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ يا رسول الله إن قومى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك ، والله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة .

ـــ أما أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك .

فأبى ، فقال النبى ـــ ﷺ ـــ لقومه وبنيه :

ـــ لا عليكم أن تمنعوه ، لعل الله يرزقه الشهادة .

وراح عمرو بن الجموح يقاتل عن نبيه عليه السلام وابنه يعدو فى أثره حتى رزقهما الله الشهادة وقتلا فى سبيل الله .

وخرجت عائشة فى نسوة تستروح الخبر حتى كانت بمنقطع الحرة وهى هابطة من بنى حارثة إلى الوادى ، لقيت هند بنت عمرو بن حزام أخت عبد الله بن عمرو بن حزام تسوق بعيرا لها عليه زوجها عمرو بن الجموح وابنها خلاد بن عمرو بن الجموح وأخوها عبد الله بن حزام وأبو جابر عبد الله فقالت لها عائشة :

— عندك الخبر ، فما وراءك ؟

فقالت هند :

— خير ، أما رسول الله عليه السلام فصالح وكل مصيبة بعده جلل ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء .

فقالت لها عائشة .

— فمن هؤلاء ؟

— أخى وابنى وزوجى قتلى .

— فأين تذهبين بهم ؟

— إلى المدينة أقبرهم بها .

وراحت تزجر بعيرها :

— حل . حل .

فبرك البعير فقالت عائشة :

— لثقل ما حمل .

قالت هند :

— ما ذاك ، لربما حمل ما يحمله البعيران ولكنى أراه لغير ذلك .

فزجرته فقام ، فلما وجهت به إلى المدينة برك فتذكرت هند قول زوجها لما خرج :

« اللهم لا تردني إلى أهلي » ، فوجهته راجعة إلى أُحد فأسرع ، فرجعت إلى النبي ليقبره مع الشهداء .

وأقبل ثابت بن الدحداحة والمسلمون أوزاع[1] قد سقط في أيديهم ، فجعل يصيح :

ـــ يا معشر الأنصار إليّ إليّ . أنا ثابت بن الدحداحة ! إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت ! قاتلوا عن دينكم فإن الله مظهركم وناصركم .

فنهض إليه نفر من الأنصار فجعل يحمل بمن معه من المسلمين وقد وقفت لهم كتيبة كثيرة السلاح فيها رؤساء المشركين : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وجعلوا يناوشونهم . ثم حمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه فأنفذه فوقع ميتا ، وقتل من كان معه من الأنصار .

وعلم الذين بقوا من المسلمين أنه لا طاقة لهم بالمشركين فرأوا أن يصعدوا في الجبل ليعتصموا به ، فانطلق رسول الله ـــ ﷺ ـــ والذين معه متوجهين إلى الشعب .

ورأى كعب بن مالك رسول الله فعرف عينيه تزهران من تحت المغفر ، فنادى بأعلى صوته :

ـــ يا معشر المسلمين أبشروا . هذا رسول الله ـــ ﷺ .

فأشار إليه رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن أنصت .

---

(١) أوزاع مشتتون .

وأقبل عثمان بن عبد الله بن المغيرة يعدو على فرس له أبلق يريد رسول الله ـــ ﷺ ـــ عليه لأمة كاملة وهو يصيح :

ـــ لا نجوتُ إن نجوتَ !

فوقف رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ ، وعثر بعثمان فرسه فى بعض تلك الحفر التى حفرها أبو عامر للمسلمين فوقع الفرس لوجهه وسقط عثمان عنه . وخرج الفرس غائرا فأخذه بعض أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، ومشى الحارث بن الصمة إلى عثمان فاضطربا ساعة بالسيفين ، ثم ضرب الحارث رجله وكانت درعه مشمرة فبرك فأجهز عليه ورسول الله ينظر إلى قتالهما ، فسأل عن الرجل قيل :

ـــ عثمان بن عبد الله بن المغيرة .

ـــ الحمد لله الذى أحانه (أهلكه) .

وقد كان عبد الله بن جحش أسره من قبل ببطن نخلة حتى قدم به على رسول الله ـــ ﷺ ـــ فافتدى ورجع إلى قريش وغزا معهم أحدا ، ورأى مصرع عثمان عبيد بن حاجز العامرى أحد بنى عامر بن لؤى فأقبل يعدو كأنه سبع ، فضرب حارث بن الصمة ضربة على عاتقه فوقع الحارث جريحا حتى احتمله أصحابه ، وأقبل أبو دجانة على عبيد بن الحاجز فتناوشا وكل واحد منهما يتقى بالدرقة سيف صاحبه ، ثم حمل عليه أبو دجانة فاحتضنه ، ثم جلد به الأرض وذبحه بالسيف كما تذبح الشاة ، ثم انصرف ليلحق برسول الله .

وقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟

فقال رجل من الأنصار :

ـــ أنا أنظر يا رسول الله ما فعل .

فنظر فوجده جريحا فى القتلى وبه رمق[1] ، فقال له :

ـــ إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ أمرنى أن أنظر فى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟

ـــ أنا فى الأموات فأبلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ منى السلام وقل له : إن سعد بن الربيع يقول : جزاك الله خيرا عنا ما جزى نبيا عن أمته ، وأبلغ قومك السلام عنى وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف .

فلم يبرح الأنصارى عنده حتى مات ، ثم جاء إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأخبره فقال :

ـــ اللهم ارض عن سعد بن الربيع .

وانطلق رسول الله ـــ ﷺ ـــ ومن معه ليشتدوا فى الجبل وانتهى ومعه أبو بكر وعلى وطلحة والزبير والحرث بن الصمة إلى فم الشعب ، فخرج على بن أبى طالب حتى ملأ درقته ماء وغسل به عن وجه ابن عمه الدم ، وكان نساء المدينة قد خرجن وفيهم فاطمة بنت محمد عليه السلام ، فلما لقيت رسول الله اعتنقته وجعلت تغسل جراحاته وعلى يسكب الماء فتزايد الدم . فلما رأت ذلك أخذت شيئا من حصير فأحرقته بالنار حتى صار رمادا فأخذت ذلك الرماد وكدته حتى لصق بالجرح فاستمسك الدم .

وأراد رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يشرب من الماء الذى أحضره على بن أبى طالب فلم يستطع وقد كان عطشا ، ووجد ريحا من الماء كرهها

---

(١) رمق : بقية من روح .

فقال :

ــ هذا ماء آجن .

فتمضمض منه للدم كان بفيه ثم مجه ، فخرج محمد بن مسلمة يطلب الماء مع النساء وكن أربع عشرة امرأة وقد جئن من المدينة يتلقين الناس يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ويسقين الجرحى ويداوينهم .

ولم يجد محمد بن مسلمة عند عائشة وأم سليم وحمنة بنت جحش ماء فقد فرغت القرب التي كانت على ظهورهن ، فذهب محمد بن مسلمة إلى قناة ومعه سقاؤه فجاء بماء عذب فشرب منه رسول الله ــ ﷺ ــ ودعا له بخير ، ثم قال :

ــ لن ينالوا منا مثلها حتى نستلم الركن !

وكان أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ فى الجبل أوزاع يذكرون مقتل من قتل منهم ويذكرون ما جاءهم عن رسول الله ــ ﷺ ــ . وأراد رسول الله عليه السلام أن يعلو الصخرة التى فى الشعب ، فلما ذهب لينهض لم يستطع لكثرة ما خرج من دم رأسه ووجهه ، فقال له طلحة بن عبيد الله :

ــ إن بى قوة فقم لأحملك .

فحمله حتى انتهى إلى الصخرة التى على فم شعب الجبل . فلما نظر المسلمون إليهم ظنوهم قريشا ، فجعلوا يولون فى الشعب هاربين منهم يظنونهم المشركين ، فجعل رسول الله ــ ﷺ ــ يبتسم إلى أبى بكر وهو على جنبه ويقول له :

ــ ألح[1] إليهم .

(١) ألح : أمره أن يلوح لهم لعلهم يطمئنون ، .

فراح أبو بكر يليح إليهم وهم لا يعرجون حتى نزع أبو دجانة عصابة حمراء على رأسه فأوفى على الجبل ، فجعل يصيح ويليح فوقفوا حتى عرفوهم . ولقد وضع أبو بردة بن نيار سهما على كبد قوسه فأراد أن يرمى به رسول الله — ﷺ — وأصحابه . فلما تكلموا وناداهم رسول الله — ﷺ — أمسك . وفرح المسلمون برؤيته حتى لكأنهم لم تصبهم مصيبة ، وسروا لسلامته وسلامتهم من المشركين .

ورأى خالد بن الوليد وهو فى كتيبة خشناء عمر بن الخطاب وما معه أحد ، فالتفت إلى من معه ففطن إلى أنه ما عرفه منهم أحد غيره ، وخشى إن أغرى به من معه أن يصمدوا له ، فنظر إليه وهو متوجه إلى الشعب ليلحق برسول الله — ﷺ — وعف عن قتله ، فأم عمر حنتمة بنت هاشم بن المغيرة ابنة عم خالد .

وجعل رسول الله — ﷺ — يقول :

— ما فعل عمى ؟

وتذكر رسول الله ذكوان بن عبد قيس ذلك الرجل الشجاع الذى قام ليحرسه يوم بدر وحارب معه فى أحد ، فقال :

— من له علم بذكوان بن عبد قيس ؟

فقال على عليه السلام :

— أنا رأيت يا رسول الله فارسا يركض فى أثره حتى لحقه وهو يقول :

— لا نجوتُ إن نجوتَ .

فحمل عليه فرسه وذكوان راجل فضربه وهو يقول : خذها وأنا ابن علاج ! فقتله . فأهويت إلى الفارس فضربت رجله بالسيف حتى قطعتها من نصف الفخذ ، ثم طرحته عن فرسه فأجهزت عليه ، وإذا هو

أبو الحكم بن أخنس بن شريق بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفى .

وجلس رافع بن خديج إلى جنب أبى مسعود الأنصارى وهو يذكر من قتل من قومه ويسأل عنهم ، فيخبر برجال منهم سعد بن الربيع وخارجة بن زهير وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون » ويترحم عليهم . وبعض المسلمين يسأل بعضا عن حيميه وذى رحمه فيهم ، يخبر بعضهم بعضا ، فبينا هم على ذلك إذا عدوهم فوقهم قد علوا وإذا كتائب المشركين بالجبل ، فنسوا ما كانوا يذكرون وندبهم رسول الله — ﷺ — وحضهم على القتال . وانتهى عمر إلى النبى — صلى الله عليه وسلم وآله — وهو يقول : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبل الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾[1] وأبو سفيان فى سفح الجبل ، فقال رسول الله — ﷺ — يدعو ربه :

— اللهم ليس لهم أن يعلونا .

فانكشفوا فقد كان أبو سفيان يحسب أن محمدا قد قتل وأن قتال الأوس والخزرج ومن بقى من المهاجرين سيكلفه شططا .

وجعل رسول الله — ﷺ — يتلفت باحثا عن عمه حمزة فلم يجده ، فقال :

— ما فعل عمى ؟ ما فعل عمى ؟

وسأل رسول الله — ﷺ — الحارث بن الصمة عن عبد الرحمن بن عوف ، فقال الحارث :

---

(١) آل عمران ١٤٤

— رأيته فى جنب الجبل .

وخرج الحارث بن الصمة يطلب حمزة بن عبد المطلب فالتقى بعبد الرحمن بن عوف فإذا بين يديه سبعة صرعى ، فقال له :

— ظفرت يمينك . أكل هؤلاء قتلت ؟!.

وألقى الله على المسلمين النعاس ، أمنة منه ، ما منهم رجل إلا يغط غطيطا حتى تناطحت التروس ، وسقط سيف بشر بن البراء بن معرور من يده وسقط سيف طلحة ، ثم فزعوا وكأنهم لم يصبهم من قبل نكبة .

٥

وصاح أبو سفيان :

— يا معشر قريش ، أيكم قتل محمدا ؟

قال ابن قميئة :

— أنا قتلته .

فقال له أبو سفيان وقد تهلل بالفرح :

— نسورك كما تفعل الأعاجم بأبطالها .

وانتفخت أوداج ابن قميئة وانتظر فى لهفة لحظة التكريم . تلك اللحظة التى سيوضع فيها السوار حول معصمه اعترافا ببطولته . وراح أبو سفيان يطوف بأبى عامر الفاسق فى المعركة هل يرى محمدا بين القتلى ! فمر بخارجة بن زيد بن أبى زهير فقال :

— يا أبا سفيان هل تدرى من هذا ؟

— لا .

— هذا خارجة بن زيد ، هذا أسيد بن الحارث بن الخزرج .

ومر بعباس بن عبادة بن نضلة إلى جنبه قال :

— أتعرفه ؟

— لا .

— هذا ابن قوقل ، هذا الشريف فى بيت الشرف .

ثم مر بذكوان بن عبد قيس فقال :

— هذا من ساداتهم .

ثم مر بابنه حنظلة بن أبى عامر وهو مقتول إلى جنب حمزة بن عبدالمطلب وعبد الله بن جحش ، فلاح فى وجهه الأسى فقال أبو سفيان :

— من هذا ؟

— هذا أعز من ههنا على ، هذا ابنى حنظلة .

وراح أبو سفيان يضرب فى شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول :

— ذق عُقَق(١) .

ومر الحليس سيد الأحابيش بأبى سفيان وهو يضرب فى شدق حمزة فاستنكر ما يفعل فقال :

— يا بنى كنانة ، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحما .

— ويحك اكتمها عنى فإنها كانت زلة .

ثم نظر أبو عامر إلى ابنه مليا فقال :

— إن كنت أحذرك هذا الرجل من قبل هذا المصرع ، والله إن كنت لبرا بالوالد ، شريف الخلق فى حياتك ، وإن مماتك لمع سراة أصحابك وأشرافهم .

وألقى نظرة على حمزة ثم قال :

— إن جزى الله هذا القتيل خيرا ، أو جزى أحدا من أصحاب محمد خيرا فليجزك .

ثم نادى :

— يا معشر قريش حنظلة لا يمثل به ، وإن كان خالفنى وخالفكم .

(١) من العقوق : يقصد أن تنكر وتجاوز فى تنكره لقريش .

وقال أبو سفيان :

— ما نرى مصرع محمد ولو كان قتل لرأيناه ، كذب ابن قميئة !

ولقى خالد بن الوليد فقال :

— هل تبين عندك قتل محمد ؟

— لا . رأيته أقبل فى نفر من أصحابه مصعدين فى الجبل .

فقال أبو سفيان :

— هذا حق ، كذب ابن قميئة . زعم أنه قتله !

وجاء وحشى إلى هند بنت عتبة فقال لها :

— ماذا لى إن قتلت قاتل أبيك ؟

— سلنى .

فأخبرها أنه قتل حمزة فتهللت أساريرها فأعطته ثيابها وحليها ، وكان فى ساقيها خَدَمتان (خلخالان) من جزع ظفار (بلد باليمن) وأساور وخواتيم فى أصابع رجليها ثم قالت :

— إذا جئت مكة فلك عشرة دنانير .

ووقفت ترنو إلى وحشى فى نشوة ثم قالت :

— أرنى مصرعه .

فراحا يجوسان خلال الجثث التى ملأت أرض المعركة حتى إذا ما رأت حمزة قتيلا انقضت عليه وبقرت عن كبده فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها . وجاء نسوة قريش يمثلن بالقتلى . من أصحاب رسول الله — ﷺ — ويجدعن الآذان والآنف حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خَدَما (خلخالان) وقلائد ، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها :

نحن جزينـــاكم بيـــــوم بدر   والحرب بعد الحرب ذات سُعْر
ما كان عن عتبــة لى من صبر   ولا أخـــى وعمـــه وبَكْـــرى
شفـيت نفسى وقضيت نذرى   شفـيت وحشى غليـل صدرى
فشكـــر وحشى على عمـــرى   حتـــى ترم أعظمـــى فى قبرى

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب فقالت :

خَزِيت فى بدر وبعـــــد بدر   يا بنت وقـــاع عظيم الكفـــر
أفحـــملك الله غداة الفجـــر   بالهاشميين الطـــوال الزهـــر
بكـل قطـــاع حُسام يفـــرى   حمزة ليثـى وعلى صقـــرى
إذ رام شيب وأبـــوك غدرى   فخضبـا منـه ضواحـى النَّحـر
ونــــــذرك السوء فشر نذر

ولم يكن المسلمون يعلمون بمقتل حمزة ، فأرادت هند أن تعلنهم بالنبأ لتشفى غليل صدرها فصرخت بأعلى صوتها :

شَفَيت من حمزة نفسى بأحـد   حتـى بقـرت بطنـه عن الكبـد
أذهب ذاك عنى ما كنت أجد   من لذعة الحزن الشديد المعتمد
والحرب تعلوكم بشؤبوب[1] برد   تُقـدم إقدامـا عليكـــم كالأسد

وأقبل أبو سفيان على فرس له حوراء فوقف على أصحاب النبى ـــ ﷺ ـــ وهم فى عرض الجبل . فنادى بأعلى صوته :

ـــ أين ابن أبى قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ الحرب سجال ، حنظلة بحنظلة .

يعنى حنظلة بن أبى عامر بحنظلة بن أبى سفيان ، فقال عمر بن الخطاب :

---

(١) الشؤبوب : دفعة المطر الشديدة .

ـ يا رسول الله أجيبه ؟

ـ نعم فأجبه .

قال أبو سفيان :

ـ اعل هبل .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لعمر :

ـ قل له : الله أعلى وأجل .

ـ إن لنا العزى ولا عزى لكم .

ـ الله مولانا ولا مولى لكم .

ـ ألا إن الأيام دول ، وإن الحرب سجال .

ـ ولا سواء ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

ـ إنكم لتقولون ذلك لقد جبنا إذا وخسرنا .

ثم قال :

ـ يا بن الخطاب قم إلىّ أكلمك .

فقام إليه فقال :

ـ أنشدك بدينك هل قتلنا محمدا ؟

ـ اللهم لا . وإنه ليسمع كلامك الآن .

ـ أنت عندى أصدق من ابن قميئة .

ثم صاح أبو سفيان ورفع صوته :

ـ إنكم واجدون فى قتلاكم عبثا ومُثْلا ، ألا إن ذلك لم يكن عن رأى سراتنا .

ثم أدركته حمية الجاهلية فقال :

ـ وأما إذا كان ذلك فلم نكرهه .

ولم يفكر أبو سفيان فى أن يصعد إلى الجبل ليقضى على محمد عليه السلام فالخيل لا تستطيع الصعود إليه ، وإن القوم إن صعدوا إليه رجالة لم يثقوا بالظفر به لأن معه أكثر أصحابه وهم مستميتون إن صعد القوم إليهم ، وإنهم لا يقتلون منهم واحدا حتى يقتلوا منهم اثنين أو ثلاثة لأنهم لا سبيل لهم إلى الهرب لكونهم محصورين فى قمة أُحد ، فالرجل منهم يحامى عن خيط رقبته .

فقنع أبو سفيان والذين معه بما وصلوا إليه من قتل من قتل وأملوا يوما ثانيا يكون لهم فيه الظفر فنادى أبو سفيان :

ـــ ألا إن موعدكم بدر الصفراء على رأس الحول .

فوقف عمر وقفة ينتظر ما يقول رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال له :

ـــ قل نعم .

فانصرف أبو سفيان إلى أصحابه وأخذوا فى الرحيل ، فأشفق رسول الله ـــ ﷺ ـــ والمسلمون من أن يغيروا على المدينة فيهلك الذرارى والنساء ، فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لسعد بن أبى وقاص :

ـــ اذهب فأتنا بخبر القوم فإنهم إن ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فهو الظعن إلى مكة ، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهو الغارة على المدينة ، والذى نفسى بيده إن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم .

وتأهب سعد للانطلاق فى أثر القوم فقال له رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ إن رأيت القوم يريدون المدينة فأخبرنى فيما بينى وبينك ولا تفت فى عضد المسلمين .

فتوجه سعد يسعى وأرصد فى نفسه إن أفزعه شىء رجع إلى النبى

— ﷺ — ، فخرج فى آثارهم حتى إذا كانوا بالعقيق[١] وهو بحيث يراهم ويتأملهم ركبوا الإبل وجنبوا الخيل ، فقال :

— إنه الظعن إلى بلادهم .

ثم وقفوا وقفة بالعقيق يتشاورون فى دخول المدينة فقالوا :

— بئس ما صنعنا ، قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشرذمة تركناهم . ارجعوا فاستأصلوهم .

فلما عزموا على ذلك ألقى الله تعالى فى قلوبهم الرعب فقالوا :

— لنا الغلبة ، فلو انصرفنا فإنه قد بلغنا أن ابن أبى انصرف بثلث الناس وقد تخلف الناس من الأوس والخزرج ، ولا نأمن أن يكروا علينا وفينا جراح وخيلنا عامتها قد عقرت من النبل .

وقال صفوان بن أمية :

— قد أصبتم القوم فانصرفوا ولا تدخلوا عليهم وأنتم كالون ولكم الظفر ، فإنكم لا تدرون ما يغشاكم ، فقد وليتم يوم بدر ، لا والله ما تبعوكم وكان الظفر لهم .

وانصرفوا إلى مكة فلما رآهم سعد منطلقين رجع إلى رسول الله — ﷺ — وهو كالمنكسر فقال :

— وجه القوم يا رسول الله إلى مكة . امتطوا الإبل وجنبوا الخيل .

فقال رسول الله — ﷺ :

— ما تقول ؟

— ما قلت يا رسول الله .

فخلا به فقال :

(١) موضع بالمدينة فيه عيون ونخيل .

— أحقا ما تقول ؟

— نعم يا رسول الله .

— فما بالى رأيتك منكسرا ؟

— كرهت أن آتى المسلمين فرحا بقفولهم إلى بلادهم .

فقال — ﷺ — :

— إن سعدا لمجرب .

وانطلقت قريش إلى مكة حتى إذا كانت بسرف على بعد بضعة أميال من مكة احتقن الدم فى عنق أُبَى بن خلف من أثر الرمح الذى صوبه إليه محمد — ﷺ — فقال :

— قتلنى والله محمد !

قالوا له :

— ذهب والله فؤادك ! والله إنْ بك من بأس .

— إنه قد كان قال : أنا أقتلك . فوالله لو بصق علىَّ لقتلنى .

ومات أُبَى بن خلف وهم قافلون به إلى مكة ، وصدق رسول الله — ﷺ — حين قال : أنا أقتله إن شاء الله .

٦

كان سعد بن مالك ممن ردهم رسول الله — ﷺ — من الشيخين(١) لم يجئ مع المقاتلة ، فلما كان من النهار بلغ المدينة مصاب رسول الله — ﷺ — وتفرق الناس عنه ، فجاء سعد مع غلمان بنى خُدرة يعرضون لرسول الله — ﷺ — ينظرون إلى سلامته فيرجعون بذلك إلى أهلهم ، فلقوا الناس متفرقين ببطن قناة ، فلم يكن لهم هِمَّة إلا النبى — ﷺ — ينظرون إليه .

فلما رأى النبى عليه السلام سعدا قال :

— سعد بن مالك ؟

— نعم بأبى أنت وأمى !

ودنا سعد من رسول الله — ﷺ — فقبل ركبته وهو على فرسه ، فقال عليه السلام :

— آجرك الله فى أبيك !

ثم نظر سعد إلى وجهه فإذا فى وجنتيه مثل موضع الدرهم فى كل وجنة ، وإذا شجة فى جبهته عند أصول الشعر ، وإذا شفته السفلى تَدمَى ، وإذا فى رباعيته اليمنى شَظِيَّة ، وإذا على جرحه شيء أسود ، فسأل سعد بن مالك الناس :

---

(١) موضع بالمدينة استعرض فيه النبى — ﷺ — جيشه قبل أن يسير إلى أحد .

— ما هذا على وجهه ؟
— حصير محرق .
— من أدمى وجنتيه ؟
— ابن قميئة .
— فمن شجه فى وجهه ؟
— ابن شهاب .
— من أصاب شفتيه ؟
— عتبة بن أبى وقاص .

وكان حاطب بن أمية منافقا وكان ابنه يزيد بن حاطب رجل صدق راح يحارب مع النبى — ﷺ — حتى حمل من المعركة جريحا وبه رمق ، فرجع به قومه إلى منزله فالتف حوله أهل الدار يبكون عنده ، فالتفت أبوه إليهم وقال :

— أنتم والله صنعتم هذا به .
— كيف ؟
— أغررتموه من نفسه حتى خرج فقتل .

فجعل المسلمون من أهل الدار من الرجال والنساء يقولون ليزيد :

— أبشر يا بن حاطب بالجنة .

فظهر الضيق فى وجه الشيخ فقال :

— بأى شيء تبشرونه ! أبجقه من حرمل (كفن) ! غررتم والله هذا الغلام من نفسه .

وكان رسول الله — ﷺ — يقول :

— ما فعل عمى ؟ ما فعل عمى ؟

فخرج الحارث بن الصِّمة فأبطأ ، فخرج علىّ عليه السلام يطلبه فيقول :

يا رب إن الحارث بن الصِّمهْ   كان رفيقا وبنا ذا ذمهْ

قد ضل فى مهامه مهمهْ   يلتمس الجنة فيها ثمهْ

حتى انتهى إلى الحارث ووجد حمزة مقتولا فاعتصر الحزن قلبه وطفرت الدموع إلى عينيه ، وإذا بالبطل الذى قال لزوجه فاطمة وهو يذهب ليأتى بماء ليغسل الدم عن وجه رسول الله عليه السلام : أمسكى هذا السيف غير ذميم . يجهش بالبكاء لا يدرى كيف يذهب بالنبأ الفاجع إلى رسول الله ، وكيف ينعى إليه حمزة أسد الله وأسد رسوله .

وعاد على وهو باسر الوجه يحمل نفسه حملا ، حتى إذا أقبل على رسول الله عليه السلام عرف الفاجعة فى وجهه فانقبض قلب الرسول ، وجعلت فاطمة تنظر إلى وجه زوجها فى حزن وإشفاق .

وأقبل رسول الله — ﷺ — حتى وقف على حمزة فوجده قد بقر بطنه ومثل به فجدع أنفه وقطعت مذاكيره ، فنظر — ﷺ — إلى شىء لم ينظر إلى شىء قط كان أوجع لقلبه منه وقال :

— لن أصاب بمثلك . ما وقفت موقفا أغيظ لى من هذا . رحمة الله عليك فإنك كنت ما علمتك فعولا للخيرات وصولا للرحم . أما والله لئن أظفرنى الله تعالى بقريش فى موطن من المواطن لأُمثلن بسبعين منهم مكانك .

ووضعه فى القبلة ثم وقف على جنازته وانتحب حتى شهق ، وبلغ به الغشى وراح يقول :

— يا عم رسول الله وأسد الله وأسد رسول الله ، يا حمزة يا فاعل الخيرات ،

يا حمزة يا كاشف الكربات . يا حمزة يا ذاب عن وجه رسول الله .

ولما رأى المسلمون جزع رسول الله — ﷺ — على عمه قالوا :

— لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب .

وطلعت صفية فقال عليه السلام :

— يا زبير اغن عنى أمك .

فذهب الزبير إلى أمه وهو واله حزين وقال لها :

— يا أمه ، إن فى الناس تكشفا فارجعى .

— ما أنا بفاعلة حتى أرى رسول الله — ﷺ — .

وحال الأنصار بينها وبين رسول الله — ﷺ — فقال :

— دعوها .

فانطلقت إليه عليه السلام وقالت :

— أين ابن أمى حمزة ؟

فقال وهو حزين :

— هو فى الناس .

— لا أرجع حتى أنظر إليه .

ورأت صفية أخاها حمزة وقد مثل به فأحست بسكاكين تمزق أحشاءها ، وجلست عند رسول الله عليه السلام ، فجعل إذا بكت يبكى وإذا نشجت ينشج[1] . وجعلت فاطمة عليها السلام تبكى ، فلما بكت بكى رسول الله — ﷺ — ثم قال :

---

(١) النشيج : البكاء بصوت مرتفع .

ــ لن أصاب بمثل حمزة أبدا .

وكفن حمزة رضى الله عنه بنَمِرة[1] كانوا إذا مدوها على رأسه انكشفت رجلاه وإن مدوها على رجليه انكشف رأسه ، فمدوها على رأسه وجعلوا على رجليه الإذخِر[2] .

ونزل فى قبر حمزة على كرم الله وجهه والزبير وأبو بكر وعمر ورسول الله ــ ﷺ ــ جالس على حفرته .

وراح الناس يكفنون مصعب بن عمير الذى كان قبل الإسلام فتى مكة شبابا وجمالا ولباسا وعطرا ، إنه لم يترك إلا نمرة إذا غطوا بها رجليه خرج رأسه ، فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ غطوا بها رأسه واجعلوا على رجليه الإذخِر .

ونظر عليه السلام إلى مصعب بن عمير والحزن فى قلبه ثم قال :

ــ لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة ولا أحسن لمة منك ، ثم أنت اليوم أشعث الرأس فى هذه البردة !

ثم أمر به فقبر ونزل فى قبره أخوه أبو الروم وعامر بن ربيعة وسويبطة بن عمرو بن حرملة .

وأمر رسول الله ــ ﷺ ــ أن يدفن عبد الله بن عمرو بن حزام وعمرو بن الجموح فى قبر واحد لما كان بينهما من الصفاء فقال :

ــ ادفنوا هذين المتحابيّن فى الدنيا فى قبر واحد .

وقال لأهل القتلى :

ــ احفروا وأوسعوا وأحسنوا وادفنوا الاثنين والثلاثة فى القبر وقدموا أكثرهم قرآنا .

---

(١) النمرة : شملة فيها خطوط .　　(٢) الإذخر : الحشيش الأخضر .

أرخص لهم فى ذلك لما بالمسلمين من الجراح التى يشق معها أن يحفروا لكل واحد قبرا ، وجاء الناس يلتمسون قتلاهم ، ووجد بين القتلى عمرو ابن ثابت بن وقش جريحا ميتا ، فدنا منه قومه وهو بآخر رمق وقالوا فى دهش :

ــ ما جاء بك يا عمرو ؟

ــ الإسلام ، آمنت بالله ورسوله وأخذت سيفى وحضرت فرزقنى الله الشهادة .

ومات بين أيديهم بعد أن كان شاكا فى الإسلام وكان قومه يكلمونه فى الإسلام فيقول : لو أعلم ما تقولون حقا ما تأخرت عنه ، حتى إذا كان يوم أُحُد بدا له الإسلام ورسول الله ــ ﷺ ــ بأُحد . فأخذ سيفه وأسلم وخرج حتى دخل فى القوم فقاتل حتى جرح وكتبت له الجنة ، ولم يصل لله تعالى سجدة .

وقال رسول الله ــ ﷺ ــ والدموع فى عينيه :

ــ لولا أن تجزع صفية ونساؤنا وتكون سنة من بعدى لتركنا حمزة ولم ندفنه حتى يحشر من بطون الطير والسباع .

وحمل أناس قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم فى نواحيها ، فجاء منادى رسول الله ــ ﷺ ــ فقال :

ــ ردوا القتلى إلى مضاجعهم .

فأدرك المنادى واحدا لم يكن دفن فَرُدَّ ، ومن دفن تركوه .

وجعل جابر بن عبد الله يبكى ويكشف الثوب عن وجه أبيه ، فجعل أصحاب النبى ــ ﷺ ــ ينهونه والنبى لم ينهه . ومر النبى ببشير بن عفراء وهو يبكى أباه فدنا منه وقال فى رقة :

— أما ترضي أن تكون عائشة أمك وأكون أنا أباك ؟

وجاءت امرأة من بنى دينار تتلمس أهلها فى القتلى فقادوها إلى جثث مشوهة فقالت :

— من هذا ؟

— هذا أخوك .

— من هذا ؟

— هذا ابنك .

— من هذا ؟

— هذا زوجك .

— من هذا ؟

— هذا أبوك .

فلم تكترث بذلك بل صارت تقول :

— ما فعل رسول الله — ﷺ ؟

— أمامك .

فذهبت إليه حتى جاءته فأخذت بناحية ثوبه ثم جعلت تقول :

— بأبى أنت وأمي يا رسول الله ، لا أبالى إذ سلمت من عطب .

وأشرف رسول الله — ﷺ — على قتلى أُحد وقال :

— أنا شهيد على هؤلاء وما من جرح يجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه ، اللون لون الدم والريح ريح المسك .

ثم تلا : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾[1] .

---

(١) آل عمران ١٦٩ .

وأراد ـ ﷺ ـ أن يتوجه إلى المدينة فركب فرسه وخرج المسلمون حوله عامتهم جرحى ومعه أربع عشرة امرأة ، فلما كانوا بأصل أُحد قال ـ ﷺ :

ـ اصطفوا حتى أُثنى على ربى عز وجل .

فاصطف الرجال خلفه صفوفا وخلفهم النساء ، فقال :

ـ اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولا هادى لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطى لمن منعت ولا مانع لمن أعطيت ولا مقرب لما أبعدت ولا مبعد لما قربت . اللهم إنى أسألك من بركتك ورحمتك وفضلك وعافيتك . اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول . اللهم إنى أسألك الأمن يوم الخوف والغناء يوم الفاقة ، عائذا بك اللهم من شر ما أعطيت ومن شر ما منعت . اللهم توفنا مسلمين . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم عذّب كفرة أهل الكتاب الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك . اللهم أنزل عليهم رجسك وعذابك إلٰه الحق آمين .

ثم توجه ـ ﷺ ـ للمدينة فلقيته حَمْنة بنت جحش بنت عمته ـ ﷺ ـ فقال لها عليه السلام :

ـ احتسبى .

ـ من يا رسول الله ؟

ـ خالك حمزة .

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون . غفر الله له ، هنيئا له الشهادة .

ثم قال لها :

ــ احتسبى .

ــ من يا رسول الله ؟

ــ أخاك عبد الله بن جحش .

ــ إنا لله وإنا إليه راجعون . غفر الله له ، هنيئا له الشهادة .

ثم قال لها :

ــ احتسبى .

ــ من يا رسول الله ؟

ــ زوجك مصعب بن عُمير .

ــ واحزناه !

وصاحت وولولت ، فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ إن زوج المرأة لبمكان ما هو لأحد .

واستمرت حمنة تولول على زوجها وتقول : واحزناه واحر قلباه .

فقال لها رسول الله ــ ﷺ :

ــ لِم قلت هذا ؟

ــ تذكرت يتم بنيه فراعنى .

فدعا لها ــ ﷺ ــ ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم الخلف ، فتزوجت طلحة بن عبد الله فكان أوصل الناس لولدها .

٧

أقبل رسول الله — ﷺ — من أُحد على فرسه وقد أخذ بعنانها سعد ابن معاذ والمسلمون من حوله ، حتى نزل ببنى حارثة يمينا حتى طلع على بنى عبد الأشهل وهم يبكون على قتلاهم ، فقال :

— لكن حمزة لا بواكى له .

وبكى — ﷺ — فإذا بالعبرات تسيل على الخدود . وخرج النساء ينظرن إلى سلامة رسول الله — ﷺ — فخرجت إليه أم عامر الأشهلية وتركت النوْح ، فنظرت إليه وعليه الدرع كما هى فقالت :

— كل مصيبة بعدك جلل .

وخرجت كبشة بنت عُتبة بن معاوية بن بلحارث بن الخزرج تعدو نحو رسول الله — ﷺ — وهو واقف على فرسه وسعد بن معاذ آخذ بعنان فرسه ، فقال سعد :

— يا رسول الله أمى .

— مرحبا بها .

فدنت حتى تأملته فعزاها بابنها عمرو بن معاذ ، فقالت :

— أما إذ رأيتك سالما فقد اشتويتُ المصيبة (استقللتها) .

— يا أم سعد بشرى أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا فى الجنة جميعا وقد شفعوا فى أهليهم .

— رضينا يا رسول الله ، ومن يبكى عليهم بعد هذا ؟

ثم قالت :

ـــ يا رسول الله ادع لمن خلّفوا .

ـــ اللهم أذهب حزن قلوبهم وآجر مصيبتهم وأحسن الخلف على من خلّفوا .

ثم قال لسعد بن معاذ :

ـــ خُلِّ يا أبا عمرو الدابة .

فخلّ الفرس وتبعه الناس فقال :

ـــ يا أبا عمرو إن الجراح فى أهل دارك فاشية ، فمن كان مجروحا فليقر فى داره وليداو جرحه ، ولا تبلغ معى بيتى عزمة منى .

فنادى فيهم سعد :

ـــ عزمة من رسول الله ـــ ﷺ ـــ ألا يتبعه جريح من بنى الأشهل .

فتخلف كل مجروح وباتوا يوقدون النيران ويداوون الجراح وإن فيهم لثلاثين جريحا .

ومضى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى بيته .

فلما جاء ـــ ﷺ ـــ بيته حمله السعدان وأنزلاه عن فرسه ، ثم اتكأ عليهما حتى دخل بيته .

ثم رجع سعد بن معاذ إلى نسائه فساقهن فلم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله ـــ ﷺ ـــ ليبكين حمزة .

وكان شماس بن عثمان المخزومى قد حمل إلى المدينة وبه رمق ، فأدخل على عائشة فقالت أم سلمة :

ـــ ابن عمى يدخل إلى غيرى ؟

فقال رسول الله — ﷺ :

— احملوه إلى أم سلمة .

فحملوه إليها فمات عندها . فأمر رسول الله — ﷺ — أن يرد إلى أحد فيدفن هناك كما هو فى ثيابه التى مات فيها . وكان قد مكث يوما وليلة ولم يذق شيئا ، فلم يصل عليه رسول الله — ﷺ — ولا غسله .

وأمر أسيد بن حضير نساءه ونساء قومه أن يذهبن إلى بيت رسول الله — ﷺ — يبكين حمزة . وأذن بلال لصلاة المغرب فخرج رسول الله — ﷺ — يتوكأ على السعدين فصلى — ﷺ — بالناس ثم دخل بيته .

وغاب الشفق فأذن بلال بالعشاء فلم يخرج رسول الله — ﷺ — فلما ذهب ثلث الليل نادى بلال :

— الصلاة يا رسول الله .

فقام من نومه وخرج والنساء على باب المسجد يبكين حمزة رضى الله عنه ، فقال لهن :

— ارجعن رحمكن الله ، لقد واسيتن معى . رحم الله الأنصار فإن المواساة فيهم كما علمت قديمة .

ونهى نساء الأنصار عن النَّوح وقال له الأنصار :

— يا رسول الله بلغنا أنك نهيت عن النوح ، وإنما هو شيء نندب به موتانا ونجد فيه بعض الراحة فأذن لنا فيه .

— إن فعلن فلا يخمشن ولا يلطمن ولا يحلقن شعرا ولا يشقُقن جيبا .

وبات وجوه الأوس والخزرج تلك الليلة على بابه بالمسجد يحرسونه خوفا من قريش أن تعود إلى المدينة .

وراح ابن أُبى بن سلول والمنافقون معه يشمتون ويُسَرُّون بما أصاب

المسلمين ويظهرون أقبح القول ، ورجع عبد الله بن عبد الله بن أبى إلى أبيه وهو جريح ، فبات يكوى الجراحة بالنار حتى ذهب عامة الليل وأبوه يقول :

ـــ ما كان خروجك مع محمد إلى هذا الوجه برأيى ، عصانى محمد وأطاع الولدان ! والله لكأنى كنت أنظر إلى هذا .

فقال ابنه :

ـــ الذى صنع الله لرسوله وللمسلمين خير إن شاء الله .

وقال عمر بن الخطاب لحسان بن ثابت :

ـــ يا أبا الفُريعة لو سمعت ما تقول هند ، ولو رأيت شرَّها قائمة على صخرة ترتجز بنا وتذكر ما صنعت بحمزة !

ـــ والله إنى لأنظر إلى الحربة تهوى وأنا على فارع ـــ أطمة ـــ فقلت : والله إن هذه لسلاح ليس بسلاح العرب . وإذا بها تهوى إلى حمزة ولا أدرى ، ولكن أسمعنى بعض قولها أكفيكموها .

فأنشده بعض ما قالت ، فقال حسان يهجوها :

أشِرت لَكَـــاعِ وكان عادتُهـــــا
لؤمـــا إذا أشرت مع الكفـــــر
وخـــرجت مَرَقصةً إلى أُحـــــد
فى القـــوم مقتبـــة على بَكـــر[1]
بَكـــــر ثقـــــال لا حراك به
لا عن معاتبـــــة ولا زجـــــر

(١) رقص البعير : أسرع فى سيره .

أخـــرجتِ ثائـــرة محاربـــة
بأبـيك وابـــنك بعـــدُ فى بدر
وبعـــملكِ المتـــروك مُنجـــدلا
وأخيك معفّريـــن فى الجفـــر(١)
فرجـــعتِ صاغـــرة بلا تِرة
منـــا ظفـــرت بها ولا وتـــر

وأظهرت اليهود القول السيئ وقالوا :

ـــ ما محمد إلا طالب مُلك ، ما أصيب هكذا نبى قط فى بدنه وأصيب فى أصحابه .

وكان اليهود قد قالوا لما هزم الله المشركين يوم بدر :

ـــ هذا والله النبى الأمى الذى بشرنا به موسى ونجده فى كتابنا بنعته وصفته ، وأنه لا ترد له راية .

فأرادوا تصديقه واتباعه ، ثم قال بعضهم لبعض :

ـــ لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة له أخري .

فلما كان يوم أُحد ونكب المسلمون شكوا وقالوا :

ـــ لا والله ما هو به .

وكتب يهود المدينة إلى يهود العراق واليمن ومن بلغهم كتابهم من اليهود فى الأرض كلها : « إن محمدا ليس نبى الله فاثبتوا على دينكم وأجمعوا كلمتكم على ذلك » . فأجمعت كلمتهم على الكفر بمحمد ـــ ﷺ ـــ والقرآن . ففرحوا بذلك وقالوا :

ـــ الحمد لله الذى جمع كلمتنا ولم نتفرق ولم نترك ديننا .

(١) الجفرة : سعة فى الأرض مستديرة .

وقالوا :

ــ نحن أهل الصوم والصلاة ونحن أولياء الله .

فأنزل الله فيهم : ﴿ ولا تحسبن الذين يفرحون بما أَتَوْا ويُحِبُّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ﴾[١] .

وجعل المنافقون يخذلون عن رسول الله ــ ﷺ ــ ويأمرونهم بالتفرق عنه ، وقالوا لأصحاب النبى ــ ﷺ :

ــ لو كان ما قتل منكم عندنا ما قتل .

وسمع عمر بن الخطاب ذلك فى أماكن ، فمشى إلى رسول الله ــ ﷺ ــ يستأذنه فى قتل من سمع ذلك منهم من اليهود والمنافقين ، فقال له :

ــ يا عمر ، إن الله مظهر دينه ومعز نبيه ولليهود ذمة فلا أقتلهم .

ــ فهؤلاء المنافقون يا رسول الله يقولون .

ــ أليس يظهرون شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأنى رسول الله !

ــ بلى . وإنما يفعلون تعوذا من السيف وقد بان لنا أمرهم وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة .

ــ إنى نهيت عن قتل من قال لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله يا بن الخطاب ، إن قريشا لن ينالوا ما نالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن .

وكان معاوية بن المغيرة قد انهزم يوم أُحد فمضى على وجهه فبات قريبا من المدينة ، فلما أصبح دخل المدينة فأتى منزل عثمان بن عفان وهو ابن عمه فضرب بابه . فقالت أم كلثوم زوجه :

ــ ليس هو ههنا .

---

(١) آل عمران ١٨٨ .

— ابعثى إليه ، فإن له عندى ثمن بعير ابتعته منه عام أول وقد جئته به ، فإن لم يجئ ذهبت .

فأرسلت إليه وهو عند رسول الله — ﷺ — يعتذر عن فراره ، فلما جاء قال لمعاوية :

— أهلكتنى وأهلكت نفسك ! ما جاء بك ؟

— يا بن عم ، لم يكن أحد أقرب إلى ولا أمس رحما بى منك فجئتك لتجيرنى .

فأدخله عثمان داره ، وصيره فى ناحية منها .

ثم خرج إلى النبي — ﷺ — ليأخذ له منه أمانا ، فسمع رسول الله عليه السلام يقول :

— إن معاوية فى المدينة وقد أصبح بها فاطلبوه .

فقال بعضهم :

— ما كان ليعدو منزل عثمان فاطلبوه به .

فدخلوا منزل عثمان فأشارت أم كلثوم إلى الموضع الذى صيره فيه فاستخرجوه ، فانطلقوا به إلى النبى — ﷺ — فقال عثمان حين رآه :

— والذى بعثك بالحق ما جئت إلا لأطلب له الأمان ، فهبه لى .

فوهبه له وأجله ثلاثا وأقسم لئن وجده بعدها يمشى فى أرض المدينة وما حولها قتله .

وكان حُضير الكتائب ، والد أسيد بن حُضير جاء إلى بنى عمرو بن عوف قبل قدوم رسول الله — ﷺ — إلى المدينة ، فكلم سويد بن الصامت وخوّات بن جُبير وأبا لُبابة بن عبد المنذر وسهل بن حُنيف فقال :

ـــ هل لكم أن تزورونى فأسقيكم شرابا وأنحر لكم وتقيمون عندى أياما ؟

ـــ نعم نحن نأتيك يوم كذا .

فلما كان ذلك اليوم جاءوا فنحر لهم جزورا وسقاهم خمرا وأقاموا عنده ثلاثة أيام ، وكان سويد بن الصامت يومئذ شيخا كبيرا فلما مضت الأيام الثلاثة قالوا :

ـــ ما نرانا إلا راجعين إلى أهلنا .

فقال حُضير :

ـــ ما أحببتم ، إن أحببتم فأقيموا وإن أحببتم فانصرفوا .

فخرج الفَتَيان بسويد بن الصامت يحملانه على جمل من السكر ، فمروا لاصقين بالحرة حتى كانوا قريبا من بنى عيينة فجلس سويد يبول وهو سكران ، فبصر به إنسان من الخزرج فخرج حتى أتى المجذَّر بن زياد فقال :

ـــ هل لك فى الغنيمة الباردة ؟

ـــ ما هى ؟

ـــ سُويد بن الصامت أعزل لا سلاح معه ، ثمل .

فخرج المجذر بن زياد بالسيف مصلتا ، فلما رآه الفتيان وهما أعزلان لا سلاح معهما وليا والعداوة بين الأوس والخزرج شديدة ، فانصرفا مسرعين وثبت الشيخ ولا حراك . فوقف المجذر بن زياد فقال :

ـــ قد أمكن الله منك .

ـــ ما تريد بى ؟

ـــ قتلك .

— فارفع عن الطعام واخفض عن الدماغ ، فإذا رجعت إلى أمك فقل : إنى قتلت سُويد بن الصامت .

فقتله ، فكان قتله هو الذى هيج وقعة بُعاث .

فلما قدم رسول الله — ﷺ — المدينة أسلم الحارث بن سويد بن الصامت وأسلم المجذر ولم ينس الحارث ثأره ، فشهدا بدرا فجعل الحارث ابن سويد يطلب المجذر فى المعركة ليقتله بأبيه فلا يقدر عليه يومئذ . فلما كان يوم أُحد وجال المسلمون تلك الجولة أتاه الحارث من خلفه فضرب عنقه وهو يحسب أن ما فعل سيطوى فى جوف الغيب .

٨

جاء عبد الله بن عوف صبيحة قدومه — ﷺ — من أُحد وأخبره أنه أقبل من أهله حتى إذا كان بمحل كذا إذا قريش قد نزلوا به ، فسمع أبو سفيان وأصحابه يقولون :

— ما صنعتم شيئا . قد بقى منهم رءوس يجمعون لكم فارجعوا نستأصل من بقى .

وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول :

— يا قوم لا تفعلوا فإنى أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخزرج فارجعوا والدولة لكم ، فإنى لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم .

فقال — ﷺ — :

— أرشدهم صفوان وما كان يرشد .

فدعا رسول الله — ﷺ — أبا بكر وعمر وذكر لهما الخبر فقالا :

— يا رسول الله اطلب العدو لا يقتحمون على الذُّرية .

ورأى رسول الله — ﷺ — أن يخرج خلف قريش إرهابا للعدو وليبلغهم أنه — ﷺ — خرج فى طلبهم ليظنوا به قوة وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم ، فلما انصرف من صلاة الصبح ندب الناس وأمر بلالا ينادى أن رسول الله — ﷺ — يأمركم بطلب عدوكم ولا يخرج إلا من حضر القتال بالأمس .

وتهيأ رسول الله — ﷺ — للخروج ، فجاءه جابر بن عبد الله

فقال :

— يا رسول الله إنما تخلفت عن أُحد لأن أبى خلفنى على أخوات لى تسع وقال : « يا بنى إنه لا ينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ، ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله — ﷺ — لعل الله يرزقنى الشهادة فتخلف على أخواتك » . فاستخلفت عليهن واستأثر علىّ بالشهادة ، فائذن لى يا رسول الله معك .

فأذن له رسول الله — ﷺ .

وكان عبد الله ورافع ابنا سُهيل بن رافع قد شهدا أُحدا فرجعا جريحين ، فلما أذن رسول الله — ﷺ — بالخروج فى طلب العدو قال عبد الله لأخيه رافع :

— أتفوتنا غزوة مع رسول الله — ﷺ — ! والله ما عندنا دابة نركبها ولا ندرى كيف نصنع ، انطلق بنا .

— لا والله ما بى مشى .

— انطلق بنا .

فخرجا يزحفان ، وكان عبد الله أيسر جراحا من رافع ، فكان إذا غلب رافع حمله عبد الله . واستأذن رسول الله فى الخروج رجال لم يحضروا القتال منهم عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين ، قال له :

— أنا راكب معك .

فأبى ذلك عليهم رسول الله — ﷺ — ودعا بلوائه وهو معقود لم يحل فدفعه إلى على بن أبى طالب واستخلف على المدينة . وركب رسول الله — ﷺ — فرسه المسمى بالسَّكب ، ولم يكن مع أصحابه فرس سواه وعليه الدرع والمغفر وما يرى إلا عيناه .

وخرج الناس بهم الجراحات ولم يعرجوا على دواء جراحاتهم فمنهم من كان به تسع جراحات وهو أسيد بن حُضير وعقبة بن عامر ، ومنهم من كان به عشر جراحات وهو خراش بن الصِّمة ومنهم من كان به بضع وسبعون جراحة وهو طلحة بن عبيد الله ، ومنهم من كان به عشرون جراحة وهو عبد الرحمن بن عوف .

وخرج رسول الله — ﷺ — وهو مجروح فى وجهه أثر الحلقتين ومشجوج فى وجهه ومكسورة رباعيته وشفته السفلى قد جرحت من باطنها ، متوهن منكبه الأيمن لضربة ابن قميئة ، وركبتاه مجروحتان من وقعته فى الحفيرة . وتلقاه — ﷺ — طلحة بن عبيد الله فقال له :

— أبا طلحة ، أين سلاحك ؟

— قريب .

فذهب وأتى بسلاحه وبصدره وحده تسع جراحات من تلك الجراحات التى به ، وهو أهم بجراح رسول الله — ﷺ — منه بجراحه ، ثم أقبل على رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا طلحة ، أين ترى القوم ؟

— بالسقالة .

— ذلك الذى ظننت ، أما إنهم يا طلحة لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله مكة علينا .

وكان الدليل فى السير ثابت بن الضحاك فسار بالمسلمين ورافع بن سهيل لا يقوى على السير فيحمله أخوه عبد الله متأخرا عن الركب .

وعسكر المسلمون بحمراء الأسد على بعد عشرة أميال من المدينة ، وجاء الليل وأوقد المسلمون خمسمائة نار حتى ترى من بعيد ، وذهب

صوت معسكرهم ونيرانهم فى كل وجه إرهابا للعدو . وظل رافع وأخوه عبد الله يجاهدان حتى انتهيا إلى ما انتهى إليه المسلمون من حمراء الأسد عند العشاء وألسنة النيران تتراقص ، فجاءتهما الحراس وكان على الحرس تلك الليلة عياد بن بشر مع طائفة ، فلما أتى بهما إلى رسول الله — ﷺ — قال لهما :

— ما حبسكما ؟

فأخبراه بغلبتهما ، فدعا لهما بخير وقال لهما :

— إن طالت بكما مدة كانت لكما مراكب من خيل وبغال وإبل ، وذلك ليس بخير لكم .

وأقام المسلمون بحمراء الأسد ثلاث ليال وكان عامة زادهم التمر ، وحمل سعد بن عبادة ثلاثين بعيرا حتى وافت حمراء الأسد وساق جزرا لتنحر فنحروا فى يوم اثنين وفى يوم ثلاثة .

ولقى مَعبد الخُزاعى رسول الله — ﷺ — وكانت خُزاعة مسلمهم وكافرهم تحبه — ﷺ — فقال :

— يا محمد ، والله لقد عز علينا ما أصابك فى نفسك وما أصابك فى أصحابك . ولوددنا أن الله تعالى أعلى كعبك وأن المصيبة كانت لغيرك .

ثم مضى معبد حتى كان بالرَّوْحاء ، فلما رأى أبو سفيان معبدا قال :

— هذا معبد وعنده الخبر ، ما وراءك يا معبد ؟

— تركت محمدا وأصحابه قد خرجوا لطلبكم فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج وتعاهدوا على أن لا يرجعوا حتى يلقوكم فيثأروا منكم

وغضبوا القوم مهم غضبا شديدا وندموا على ما فعلوا فيهم من الحنق[١] شيء لم أر مثله قط .

ـــ ويحك ما تقول ؟

ـــ والله ما أرى أن نرتحل حتى أرى نواصي الخيل .

ـــ فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم .

ـــ فإني أنهاك عن ذلك .

ـــ والله لقد حملني على ما رأيت أن قلت فيهم أبياتا من شعر .

ـــ وما قلت ؟

ـــ قلت :

كادت تُهد من الأصوات راحلتي
إذ سالت الأرض بالجُرد الأبابيل[٢]

تُردى بأُسد كرام لا تنابلة[٣]
عند اللقاء ولا ميل[٤] معازيل[٥]

فظَلتُ عدوا أظن الأرض مائلة
لما سموا برئيس غير مخذول

فقلت ويل ابن حرب من لقائكم
إذا تغطمطت[٦] البطحاء بالجيل

(١) الحنق : الغيظ .

(٢) الجرد : الخيل . الأبابيل : الجماعات .

(٣) التنابلة : غير الكرام .

(٤) الميل : الذين لا يحسنون ركوب الخيل .

(٥) المعازيل : الذين لا سلاح لهم .   (٦) تغطمطت : اهتزت وارتجت .

إنى نذير لأهل البَسْل[1] ضاحيـــة
لكـــل ذى إربـــة منهم ومعقـــول
من جيش أحمد لا وخش قنابلـــه[2]
وليس يوصف ما أنـــذرت بالقيـــل

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه .

ومر بأبى سفيان ركب من عبد قيس فقال :

ـــ أين تريدون ؟

ـــ نريد المدينة .

ـــ ولِم ؟

ـــ نريد الميرة .

ـــ فهل أنتم مبلغون عنى محمدا رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكم هذه غدا زبيبا بعكاظ إذا وافيتموها ؟

ـــ نعم .

ـــ فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد جمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم .

فمر الركب برسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان فقال :

ـــ حسبنا الله ونعم الوكيل .

فأنزل الله تعالى : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم

---

(١) البسل : الحلال والحرام ، ضد .

(٢) القنابل : الطوائف .

القَرْح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم * الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾[١] .

وظفر رسول الله — ﷺ — فى حمراء الأسد بأبى عزة الشاعر الذى مَنَّ عليه وقد أسر ببدر من غير فداء إكراما لبناته وأخذ عليه عهدا أن لا يقاتله ولا يكثر عليه جمعا ولا يظاهر عليه أحدا ، فنقض العهد وخرج مع قريش لأحد وسار يستنفر الناس ويحرضهم على قتاله — ﷺ — بأشعاره ، فلما جىء به رسول الله — ﷺ — قال :

— يا محمد لا تقتلنى وامنن علىّ ودعنى لبناتى وأعطيك عهدا ألا أعود لمثل ما فعلت .

فقال — ﷺ — :

— لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تجلس فى الحِجر تقول : خدعت محمدا مرتين . اضرب عنقه يا زبير . لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين .

فضرب الزبير عنقه ورفع رأسه على رمح ليكون أول رأس حمل فى الإسلام .

وأرسل معبد الخزاعى يخبر رسول الله — ﷺ — بانصراف أبى سفيان ومن معه خائفين ، فانصرف إلى المدينة فإذا بمعاوية بن أبى العاص لم يغادرها فإنه أقام ثلاثا يستعلم أخبار رسول الله — ﷺ — ليأتى بها قريشا . فلما كان اليوم الرابع عاد رسول الله فخرج معاوية هاربا ، فأرسل عليه السلام فى أثره زيد بن حارثة وعمار بن ياسر فرمياه حتى

---

(١) آل عمران : ١٧٢ ، ١٧٣ .

قتلاه .

وجاء حبيب بن يساف إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره أنه رأى الحارث بن سويد بن الصامت يوم أحد قد أتى من خلف المجذر بن زياد فضرب عنقه ثأرا لأبيه ، فركب رسول الله — ﷺ — إلى قباء فى يوم حار وكان ذلك يوما لا يركب فيه رسول الله — ﷺ — إلى قباء ، وإنما كانت الأيام التى يأتى فيها رسول الله — ﷺ — يوم السبت ويوم الاثنين ، فلما دخل رسول الله عليه السلام مسجد قباء صلى فيه ما شاء الله أن يصلى .

وسمعت الأنصار فجاءوا يسلمون عليه وأنكروا إتيانه تلك الساعة وفى ذلك اليوم ، فجلس عليه السلام يتحدث ويتصفح الناس حتى طلع الحارث بن سويد ، فلما رآه رسول الله — ﷺ — دعا عويم بن ساعدة فقال له :

— إذا قدم الحارث بن سويد إلى باب المسجد فاضرب عنقه بمجذر بن زياد ، فإنه قتله يوم أحد .

فأخذه عويم فقال الحارث :

— دعنى أكلم رسول الله .

ورسول الله — ﷺ — يريد أن يركب ودعا بحماره إلى باب المسجد ، فجعل الحارث يقول :

— قد والله قتلته يا رسول الله وما كان قتلى إياه رجوعا عن الإسلام ولا ارتيابا فيه ولكنه حمية الشيطان وأمرٌ وكِلتُ فيه إلى نفسى . وإنى أتوب إلى الله وإلى رسوله مما عملت وأخرج ديته وأصوم شهرين متتابعين وأعتق رقبة وأطعم ستين مسكينا ، وإنى أتوب إلى الله يا رسول الله .

وجعل يُمسك بركاب رسول الله — ﷺ — وبنو المجذر حضور لا يقول لهم رسول الله — ﷺ — شيئا حتى إذا استوعب كلامه قال :

— قدمه يا عويم فاضرب عنقه .

وركب رسول الله — ﷺ — فقدمه عويم بن ساعدة على باب المسجد فضرب عنقه .

وأنزل الله فى يوم أُحد من القرآن ستين آية من آل عمران . فيها صفة ما كان فى يومهم ذلك ومعاتبة من عاتب منهم ، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه — ﷺ — :

﴿ وإذا غدوت من أهلك تبوِّىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم * إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون * ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين * وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم * ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين * ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾(١) .

﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون * وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا

(١) آل عمران : ١٢١ — ١٢٨ .

لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين * قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين * ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين * إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين * ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون * وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين * وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها وسنجزى الشاكرين * وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضَعُفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾(١) .

﴿ يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل الله مولاكم وهو خير الناصرين * سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين * ولقد صدقكم الله وعده إذ تَحُسُّونهم بإذنه حتى إذا

---

(١) آل عمران : ١٣٢ ــ ١٤٧ .

فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين * إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون * ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر شيء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور ﴾[١] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير ﴾[٢] .

---

(١) آل عمران : ١٤٩ — ١٥٤ .

(٢) آل عمران : ١٥٦ .

استيقظت أم الفضل امرأة العباس من نومها وهى تحس انقباضا فقد رأت رؤيا أفزعتها ، وفكرت فى أن تقص رؤياها على رسول الله ـــ ﷺ ـــ ولكن كيف تقص عليه أنها رأت عضوا من أعضائه يقطع ويلقى به فى بيتها !

إن ما رأته يزعجها فعزمت على ألا تقص خبره على النبى ، وراحت تغدو وتروح وما تزال الرؤيا المفزعة ماثلة فى ذهنها تقلقها وتحيرها . حاولت أن تنساها ولكنها كانت تحتل كل تفكيرها ، فلما لم تطق صبرا انطلقت إلى النبى ـــ ﷺ ـــ وقالت له :

ـــ يا رسول الله ، رأيت عضوا من أعضائك فى بيتى .

وأحست بعض الراحة بعد أن أفضت بما كان يقلقها كتمانه ، ونظرت إلى النبى عليه السلام لترى أثر الحديث فى وجهه فإذا به يتطلق[1] ويقول :

ـــ خيرا رأيته ، تلد فاطمة غلاما فترضعينه .

كانت أم الفضل من أول النساء اللاتى آمن بما أرسل به عليه السلام ، وقد هاجرت مع المهاجرات وكان فى رفقتها ابنها عبد الله بن عباس ، فكان كثيرا ما يردفه رسول الله ـــ ﷺ ـــ على راحلته ويحدثه أحاديث تنبض بالحكمة ، فيحس ابن عباس كأن كنوزا من العلم تسكب فى قلبه .

---

(١) يتطلق : يتهلل بالبشر .

ودخل عليّ على فاطمة والبشر يترقرق فى محياه تملأ نفسه تلك الغبطة التى تملأ كل زوج يرقب قدوم وليده الأول ، وأقبل على الزهراء يلاطفها . فنزلت السعادة بالدار الصغيرة التى ما كان بها إلا إهاب كبش كانت فراش الإلفين وقطيفة إذا جعلاها بالطول انكشفت ظهورهما وإذا جعلاها بالعرض انكشفت رءوسهما .

وحضرت ولادة فاطمة فهرع على إلى بيت النبى ، فقال عليه السلام لأم رومان وأم سلمة :

ـــ احضرا فاطمة .

واستمر على فى قلقه حتى إذا ما وقع ولده واستهل صارخا انتشت روحه وسكنت الطمأنينة قلبه ، فقد كان يخشى على زوجه التى شحبت وانتابها هزال فى شهورها الأخيرة .

وجاء النبى ـــ ﷺ ـــ فأخرج له المولود فى خرقة صفراء ، فرمى بها وقال :

ـــ ألم أنهكم أن تلفوا الولد فى خرقة صفراء ؟

وأمر أن يلف فى خرقة بيضاء فلفوه وجاءوا به ، فقطع سرته وقال له :

ـــ اللهم إنى أعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم .

وفى اليوم السابع جاء رسول الله وقال :

ـــ أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟

فقال على :

ـــ حربا .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ بل هو حسن .

ونحر كبشا وأعطى القابلة فخذا وديناراً وقال :

ـــ يا فاطمة احلقى رأسه وتصدق بزنة شعره فضة .

وأثلج صدر على فقد وهبه الله هبة عظمى ، وهبه ذرية من نسل رسول الله ـــ ﷺ ـــ . وانشرح صدر فاطمة بوليدها فراحت ترقصه وهى فرحانة وتقول له :

أشبه أباك يا حسن واخلع عن الحق الرسن(١)

واعبد إلٰهاً ذا منن ولا توالى ذا الإحن

وكان يوم أحد فخرجت الزهراء فى نساء وهرعت إلى أبيها عليه السلام وإلى زوجها ، وقد رأت الذى بوجه أبيها فاعتنقته ، وأراد علىّ أن يذهب ليأتى بماء ليغسل الدم عن وجه رسول الله فقال لفاطمة :

أفاطم هاء(٢) السيف غير ذميم فلست برعديد ولا بلئيم

لعمرى لقد جاهدت فى نصر أحمد وطاعة رب بالعباد رحيم

فنظر إليه رسول الله ـــ ﷺ ـــ مختضبا بالدم فقال :

ـــ لئن كنت أحسنت القتال اليوم فلقد أحسن عاصم بن ثابت والحارث بن الصِّمة وسُهل بن حُنيف ، وسيف أبى دُجانة غير مذموم .

وما انقضى شهر حتى حملت فاطمة ثانية فكانت أم الفضل ترضع الحسن ، وفى ذات يوم جاءت به إلى النبى فوضعته فى حجره فبال ، فضربت كتفه فنظر إليها النبى عليه السلام فقال :

ـــ أوجعت ابنى رحمك الله .

وغسلت السيوف بعد معركة أحد واستمر التراشق بالأشعار ورثاء القتلى ، قال هبيرة بن أبى وهب المخزومى :

---

(١) الرسن : الحبل يتخذ زماما (٢) هاء السيف : هذا السيف جئت به .

ما بال هَمٍّ عَميدٍ بات يَطرقنى ... بالود من هند إذ تعدو عواديها
باتت تعاتِبنى هند وتعذُلنى ... والحرب قد شغلت عنى مواليها
مهلا فلا تَعذلينى إن من خلقى ... ما قد علمت وما إن لستُ أخفيها
مساعف لبنى كعب بما كلفوا ... حمال عبء وأثقال أُعانيها
وقد حملت سلاحى فوق مشترف ... ساط سَبوح إذا تجرى بباريها
كأنه إذ جرى عَير بفُدفدة[1] ... مكدّم لاحق بالعُون يحميها
من آل أعوج يرتاح الندىّ له ... كجذع شعراء مستعل مراقيها
أعددته ورقاق الحد منتخلا ... ومارنا لخطوب قد ألاقيها
هذا وبيضاء مثل النهى محكمة ... نيطت علىّ فما تبدو مساويها
سقنا كنانة من أطراف ذى يمن ... عرض البلاد على ما كان يزجيها[2]
قالت كنانة : أنى تذهبون بنا ؟ ... قلنا : النخيل ، فأموها ومن فيها
نحن الفوارس يوم الجر من أحد ... هابت معدٌّ فقلنا نحن نأتيها
هابوا ضرابا وطعنا صادقا خذما[3] ... مما يرون وقد ضُمت قواصيها
ثمت رحنا كأنا عارض برد ... وقام هامُ بنى النجار يبكيها
كأن هامهم عند الوغى فِلَقٌ[4] ... من قيض ربد نفته عن أداحيها
أو حنظل ذعذعته الريح فى غصن ... بال تعاوره منها سوافيها
قد نبذل المال سحًّا لا حساب له ... ونطعن الخيل شزرا فى مآقيها

ولما كان الشعر فى جزيرة العرب ينتشر انتشار الريح فقد أجابه حسان ابن ثابت شاعر الرسول فقال :

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم ... إلى الرسول فجند الله مخزيها

---

(١) الفدفدة : الصحراء . (٢) يزجيها : يقدمها .
(٣) الضرب الخذم : للقوى العنيف (٤) الفلق : المشقوقة .

أوردتموها حياض الموت ضاحية فالنار موعدها والقتل لاقيها
جمعتموها أحابيشا بلا حسب أئمة الكفر غرتكم طواغيها
ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت أهل القليب ومن ألقينه فيها
كم من أسير فككناه بلا ثمن وجز ناصية كنا مواليها

وأجاب كعب بن مالك هبيرة بن أبى وهب أيضا ، قال :

مجالدنا عن ديننا كل فخمة مدرّبة[1] فيها القوانس[2] تلمع
وكل صموت فى الصوان كأنها إذا لُبست نهى من الماء مترع
ولكن ببدر سائلوا من لقيتم من الناس والأنباء بالغيب تنفع
وإنا بأرض الخوف لو كان أهلها سوانا لقد أجلوا بليل فأقشعوا
إذا جاء منا راكب كان قوله أعدوا لما يُزجى ابن حرب ويجمع
فمهما يهم الناس مما يكيدنا فنحن له من سائر الناس أوسع

وقال عبد الله بن الزِّبعرَى يجيب حسان :

يا غراب البين أسمعت فقل إنما تنطق شيئا قد فُعل
إن للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجه وقَبل
والعطيات خساس بينهم وسواء قبر مثر ومُقل
كل عيش ونعيم زائل وبنات الدهر يلعبن بكُل
أبلغا حسان عنى آية فقريض الشعر يشفى ذا الغلل
كم ترى بالجر من جمجمة وأكف قد أُترّت ورِجل
وسرابيل حسان سريت عن كماة[3] أهلكوا فى المنتزل

---

(١) السيف المذرب : المسموم

(٢) القوانس : بيضات الحديد يضعها المحاربون على رءوسهم .

(٣) الكماة : الأبطال المسلحون .

كم قتلنا من كريم سيد … ماجد الجدين مقدام بطل
صادق النجدة قرم(١) بارع … غير ملتاث لدى وقع الأسل(٢)
ليت أشياخى ببدر شهدوا … جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حكّت بقُباء بَركها(٣) … واستحر القتل فى عبد الأشل
ثم خفّوا عند ذاكم رقصا … رقص الحَفّان(٤) يعلو فى الجبل
فقتلنا الضِّعف من أشرافهم … وعدلنا ميل بدر فاعتدل
لا ألوم النفس إلا أننا … لو كررنا لفعلنا المفتعل
بسيوف الهند تعلو هامهم … عُلَلا تعلوهم بعد نهل

فأجابه حسان بن ثابت قال :

ذهبت يا بن الزِّبعرى وقعة … كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتم ونلنا منكم … وكذاك الحرب أحيانا دول
نضع الأسياف فى أكتافكم … حيث نهوى عللا بعد نهل
تخرج الأضياح(٥) من أستاهكم … كسُلاح النِّيب يأكلن العصَل
إذ تولون على أعقابكم … هرَّبا فى الشعب أشباه الرِّسل(٦)
إذ شددنا شدة صادقة … فأجأناكم إلى سفح الجبل
بخناطيل(٧) كأشداف الملا … من يلاقوه من الناس يُهَل
ضاق عنا الشعب إذ نجزعه … وملأنا الفرط منه والرِّجل

---

(١) القرم : السيد الكريم (٢) الأسل : الرماح
(٣) البرك : الإبل ، وباطن صدرها . (٤) الحفان : الكثير الحفن .
(٥) الأضياح : من العسل أو اللبن . (٦) الرسل : الأغنام .
(٧) الخناطيل : الإبل المتفرقة .

برجـــــال لستم أمثـــــالهم　　أُيـدوا جبريـــل نصرا فنـــزل
وعلونـــا يوم بدر بالتقـــى　　طاعـة الله وتصديـــق الـــرسل
وقتلنـــــــا كل رأس منهم　　وقتلنا كل جحجاح[١] رِفَل[٢]
وتركنـــــا فى قريش عورة　　يوم بدر وأحـــاديث المثـــل
ورسول الله حقـــا شاهــدٌ　　يوم بدر والتنابيـل[٣] الهُبـــل
فى قريش من جموع جمعـــوا　　مثل ما يجمع فى الخطب الهمَل[٤]
نحن لا أمثالكـــم وُلِـــد استها　　نحضر النـاس إذا البـــأس نزل

وقال كعب بن مالك يبكى حمزة بن عبد المطلب وقتلى أُحد :

نشجت وهـــل لك من منشج　　وكـنت متى تذّكـــر تلجـــج
تذكـــــر قوم أتـــــانى لهم　　أحـاديث فى الزمن الأعـــوج
فقلبك من ذكرهـــم خافـــق　　من الشوق والحزَن المنضج
وقتلاهـــم فى جنـــان النـــعيم　　كرام المداخـــــــل والمخرج
بما صبروا تحت ظل اللـــــواء　　لواء الـــرسول بذى الأضوجُ
غداة أجـــابت بأسيافهـــــا　　جميعـــا بنـــو الأوس والخزرج
وأشيـــاع أحمد إذا شايعـــوا　　على الحق ذى النـــور والمنهج
فمـا برحـوا يضربـــون الكمـــاة　　ويمضون فى القسطل[٥] المرهَج[٦]
كذلك حتى دعاهـم ملـــيك　　إلى جنـــة دوحـــــة المولج
فكلهـــم مات حر البـــلاء　　على ملـــــــة الله لم يحرج

---

(١) الجحجاح : السيد .　　(٢) رفل : مختال .
(٣) التنابيل : الجماعات .　　(٤) الهمل : ما يهمل .
(٥) القسطل : الغبار .　　(٦) المرهج : المثار .

كحمــــزة لما وفى صادقـــا   بذى هبة صارم سَلْجَـــجِ[١]
فلاقـــاه عبــد بنـــى نوفـــل   يُبَرْبِـر كالجمـــل الأدعـــج[٢]
فأوجـره حربـــة كالشهـــاب   تلــهب فى اللـــهب الموهـــج
ونعمـــــان أوفى بميثاقـــــه   وحنظلـــة الخير لم يُحنـــج[٣]
عن الحق حتـى غدت روحـــه   إلى منـزل فاخـــر الزِّبْـــرج[٤]
أولـــئك لا من ثوى منكـــم   من النـار فى الـــدرج المرتـــج

فأجابه ضرار بن الخطاب الفهرى فقال :

أيجزع كعب لأشياعــــــه   ويبكـى من الزمـــن الأعـــوج
عجيـج المُذكـــى رأى إلفـــه   تروح فى صادر مُحَنْـــــــج
فراح الرَّوايــــــا وغادرنـــــه   يجعجـع[٥] قسرا ولم يُحـدَج[٦]
فقـولا لكـعب يثنـــى البكـــا   وللنِّيـــىء من لحمـــه ينضج
لمصرع إخوانـــه فى مَكـــرٍّ   من الخليل ذى قسطل مُرْهج[٧]
فيـــا ليت عمـــرا وأشياعـــه   وعتبة فى جمعنـــا السُّورج[٨]
فيشفـوا النفـــوس بأوتارهـــا   بقـــتلى أصيـــبت من الخزرج
وقـــتلى من الأوس فى معـــرك   أصيبـوا جميعـــا بذى الأضوحُ
ومقتـــل حمزة تحت اللـــــواء   بمطْرد ، مارن[٩] ، مخلـجِ[١٠]
وحيـث انثنى مصعب ثاويـــا   بضربـــة ذى هبـــة سَلْجَـــج

---

(١) سلجج : لامع .   (٢) الدعجة : سواد العين .
(٣) لم يحنج : لم يهزم .   (٤) الزبرج : الزينة .
(٥) يجعجع : يرفع صوته .   (٦) يحدج : يحدق بعينه .
(٧) يقصد أن الخيل قد أثارت الغبار(٨) السورج : القوى .
(٩) مارن : أنف .   (١٠) مخلج : مطعون .

وراح عبد الله بن الزبعرى يبكى القتلى فأجابه حسان بن ثابت ، واستمرت سهام الشعر تتراشق بين المدينة ومكة ، المسلمون يفخرون بيوم بدر والمشركون يتيهون بانتصارهم يوم أُحد ، وقد قال عمرو بن العاص فى يوم أُحد :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا ... من الصبح من رضوى الحبيك المنطُق
تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا ... لدى جنب سلع والأمانى تصدق
فما راعهم بالشر إلا فجاءة ... كراديس[1] خيل فى الأزقة تمرق[2]
أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنا ... ودون القباب اليوم ضرب محرق
وكانت قبابا أومنت قبل ما ترى ... إذا رامها قوم أُبيحوا وأُحنقوا
كأن رءوس الخزرجيين غدوة ... وأيمانهم بالمُشرفية بَروق[3]

فأجابه كعب بن مالك ورد عليه حسان بن ثابت ، ثم راح حسان يعير قريشا بما أصاب أصحاب اللواء . واشتد أوار معركة الشعر وكثر النواح على القتلى فقالت صفية بنت عبد المطلب تبكى أخاها حمزة :

أسائلة أصحاب أحد مخافة ... بنات أبى من أعجم وخبير
فقال الخبير إن حمزة قد ثوى ... وزير رسول الله خير وزير
دعاه إلى الحق ذو العرش دعوة ... إلى جنة يحيا بها وسرور
فذلك ما كنا نرجى ونرتجى ... لحمزة يوم الحشر خير مصير
فوالله ما أنساك ما هبت الصبا ... بكاء وحزنا محضرى ومسيرى
على أسد الله الذى كان مِدرها[4] ... يذود عن الإسلام كل كفور

---

(١) كراديس : جماعات .
(٢) تمرق : تسرع .
(٣) بروق : لامعة .
(٤) مدره : شجاع مهاجم .

فياليت شلوى[١] عند ذاك وأعظمى لدى أضبع تعتادنى ونسور
أقول وقد أعلى النعى عشيرتى جزى الله خيرا من أخ ونصير

وقالت هند بنت عتبة حين انصرف المشركون من أحد :

رجعت وفى نفسى بلابل جمة
وقد فاتنى بعض الذى كان مطلبى
من أصحاب بدر فى قريش وغيرهم
بنى هاشم منهم ومن أهل يثرب
ولكننى قد نلت شيئا ولم يكن
كما كنت أرجو فى مسيرى ومركبى

وكان الركبان يسيرون بالشعر بين مكة والمدينة ، وكان المشركون فرحين بنصرهم ولكن المستقبل لم يكن واضحا أمامهم ، أما المسلمون فكانوا على ثقة بالمستقبل فقد قال — ﷺ : لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله مكة علينا ، فانتشت القلوب بالأمل ، وبات المسلمون يرقبون الغد فى رجاء ، وينتظرون فى لهفة ذلك اليوم المجيد يوم أن يفتح الله مكة عليهم .

---

(١) الشلو : العضو والجسد .

١٠

قدم على رسول الله — ﷺ — رهط من عضل والقارة ، من الهون ابن خزيمة بن مدركة فقالوا :

— يا رسول الله إن فينا إسلاما ، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام .

فبعث رسول الله — ﷺ — معهم عشرة ، ستة من المهاجرين وأربعة من الأنصار ، وأمّر رسول الله — ﷺ — على القوم عاصم بن ثابت .

وانطلق المسلمون مع من جاءوا إلى رسول الله — ﷺ — يلتمسون أن يبعث معهم نفرا من أصحابه يفقهونهم فى الدين ، حتى إذا ما بلغوا الرجيع وهى ماء لهذيل بناحية الحجاز غدروا بالمسلمين ، فلم يرع المسلمون وهم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف . فهب المسلمون إلى أسيافهم ليقاتلوهم فقالوا لهم :

— إنا والله لا نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ولكم العهد والميثاق ألا نقتلكم .

وثارت الدماء فى عروق عاصم بن ثابت وملأ الحنق قلب مَرثد بن أبى مَرثد ، وغضب خالد بن البكير لذلك الغدر الآثم فقالوا :

— والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا .

وراح الرجال الثلاثة يقاتلون القوم فى بسالة ، ولكن ماذا تجدى

الشجاعة والقوم كثيرون وأسيافهم تحيط بهم من كل جانب ؟ وجالوا جولة انتهت بقتل عاصم بن ثابت وصاحبيه .

وكانت سلافة بنت سعد بن شهيد قد نذرت حين أصاب عاصم ابنيها يوم أُحد : لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن فى قحفه الخمر ، فرأى القوم أن يحزوا رأسه وأن يبعثوا به إلى سلافة لتبر قسمها وأن يقبضوا الثمن ، فلما تقدموا منه إذا بالزنابير والنحل قد حالت بينه وبينهم فقالوا :

— دعوه حتى يمسى فتذهب عنه فنأخذه .

وأمطرت السماء وحمل السيل عاصما فذهب به ولم تحمل رأسه إلى سلافة ولم تبر قسمها ، فقد حفظ الله عبده المؤمن الذى دافع عن رسوله يوم أُحد دفاع المستميت .

ولان زيد بن الدِّثنة وخُبيب بن عدى وعبد الله بن طارق ورقوا ورغبوا فى الحياة ، فأعطوا بأيديهم فأسروهم ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها ، حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من الحبل الذى ربط به ثم أخذ سيفه واستأخر عن القوم ، فرموه بالحجارة حتى قتلوه .

وكانت الرحلة إلى مكة مليئة بالمتاعب ، فلم يدخل القوم إلى مكة إلا بأسيرين هما خُبيب بن عدى وزيد بن الدثنة ، فابتاع خُبيبا حجير بن أبى إهاد التميمى حليف بنى نوفل لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ، وكان أبو إهاب أخا الحارث بن عامر لأمه ، ليقتله بأبيه .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتلَه بأبيه أمية بن خلف ، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم ، وهو مكان بين مكة وسرف على فرسخين من مكة ، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه وقد التف الناس حوله شامتين .

واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل :

— أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمدا عندنا الآن مكانك نضرب عنقه وإنك فى أهلك ؟

— والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإنى جالس فى أهلى .

فراح أبو سفيان يلتفت إلى من عنده فى دهش ثم قال :

— ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا .

ثم قتله نسطاس وهو يشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمد رسول الله ، ليكبت الكفرة وليعكر عليهم سرور لحظة الانتقام .

وأما خُبيب بن عدى فقد حبسه حُجير بن أبى وهب عند مولاته ماوية فى بيتها لأن ذلك كان فى الأشهر الحرم وظل عندها حتى حان وقت قتله لما انقضت الأشهر الحرم فقال لها :

— ابعثى إلىّ بحديدة أتطهر بها للقتل .

فأعطت غلاما من الحى الموسى فقالت :

— ادخل بها على هذا الرجل البيت .

فما هو إلا أن ولى الغلام بها إليه حتى قالت ماوية لنفسها فى فزع :

— ماذا صنعت ؟ أصاب والله الرجل ثأره ، بقتل هذا الغلام فيكون رجل برجل .

فلما ناوله الموسى أخذها بيده ثم قال :

— لعمرك ما خافت أمك غدرى حين بعثتك بهذه الحديدة إلىّ .

ثم خلى سبيله .

ثم خرجوا بخبيب إلى التنعيم ليصلبوه فإذا بأبى سفيان بن حرب وابنه معاوية وسادات قريش قد حضروا لينظروا قتله ، فقال لهم :

— إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا .

— دونك فاركع .

فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال :

— أما والله لولا أن تظنوا بأنى إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة .

فكان خُبيب بن عدى أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين ، ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه قال :

— اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة ما يصنع بنا .

ونظر أبو سفيان وأكابر قريش إلى خُبيب المصلوب فى شماتة فقال :

— اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا .

فألقى أبو سفيان ابنه معاوية إلى الأرض فرقا من دعوة خُبيب ، لقد كانوا يعتقدون أن الرجل إذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه !

وكان عقبة بن الحارث صغيرا فأخذ أبو ميسرة أخو بنى عبد الدار الحربة فجعلها فى يد عقبة ثم أخذ بيده وبالحربة ، ثم طعن بها خُبيبا حتى قتله .

وقال رجال من المنافقين لما أصيبت البعثة التى كان فيها عاصم ومرثد بالرجيع :

— يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا ، لا هم قعدوا فى أهليهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم .

فأنزل الله تعالى فى ذلك من قول المنافقين وما أصاب أولئك النفر من

الخير بالذى أصابهم ، فقال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد * ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد ﴾(١) .

فرح أبو سفيان لما نزل من البلاء على من وجههم النبى — ﷺ — إلى عضل والقارة وأظهر الشماتة لقتلهم وغدا يسخر من الإسلام والمسلمين ، فبعث عليه السلام عمرو بن أمية الضمرى إلى مكة مع رجل من الأنصار وأمرهما بقتل أبى سفيان من تجمعت حوله أحقاد الكافرين على المسلمين بعد مقتل أبى جهل فى بدر .

وخرج عمرو بن أمية ومعه بعير وليس مع صاحبه بعير وبرجله علة ، فكان عمرو يحمله على بعيره حتى جاءا بطن يأجج فعقلا بعيرهما فى فناء شعب ثم انطلقا فقال عمرو لصاحبه :

— انطلق بنا إلى دار أبى سفيان فإنى محاول قتله ، فانظر فإن كانت محاولة أو خشيت شيئا فالحق ببعيرك فاركبه والحق بالمدينة فأت رسول الله — ﷺ — فأخبره الخبر ، وخل عنى فإنى رجل عالم بالبلد جرىء عليه نجيب الساق .

فلما دخل مكة ومع عمرو خنجر قد أعده إن عاقه إنسان قتله به ، قال له صاحبه :

— هل لك أن نبدأ فنطوف بالبيت أسبوعا ونصلى ركعتين ؟

— أنا أعلم بأهل مكة منك ، إنهم إذا أظلموا رشوا أفنيتهم ثم جلسوا بها ، وأنا أعرف بها من الفرس الأبلق .

---

(١) البقرة ٢٠٤ — ٢٠٧ .

فلم يزل به حتى أتيا البيت فطافا به سبعا وصليا ركعتين ثم خرجا ، فمرا بمجلس من مجالسهم فعرف عمرا رجل منهم فصرخ بأعلى صوته :

— هذا عمرو بن أمية .

فخف إليهما أهل مكة وقالوا :

— تالله ما جاء بعمرو خير ، والذى يحلف به ما جاءها قط إلا لشر .

وكان عمرو رجلا فاتكا متشيطنا فى الجاهلية فقاموا فى طلبه وطلب صاحبه ، فقال له عمرو :

— النجاة هذا والله الذى كنت أحذر ، أما الرجل فليس إليه سبيل فانج بنفسك .

فخرجا يشتدان حتى صعدا فى الجبل ، فدخلا فى غار فباتا فيه ليلتهما وأعجزاهم فرجعوا وقد استترا دونهم بأحجار حين دخلا الغار .

وقال عمرو لصاحبه :

— أمهلنى حتى يسكن الطلب عنا فإنهم والله ليطلبنّا ليلتهم هذه ويومهم هذا حتى يمسوا .

وبينا كانا فى الغار أقبل عثمان بن مالك بن عبيد الله التيمى يختل بفرس له فلم يزل يدنو ويختل بفرسه حتى قام عليهما بباب الغار ، فقال عمرو لصاحبه :

— هذا والله ابن مالك ، والله لئن رآنا ليعلمن بنا أهل مكة .

فخرج إليه عمرو فوجأه بالخنجر تحت الثدى فصاح ابن مالك صيحة أسمعت أهل مكة فأقبلوا إليه ، ورجع عمرو إلى مكانه فدخل فيه وقال لصاحبه :

— مكانك .

واتبع أهل مكة الصوت يشتدون فوجدوه وبه رمق فقالوا :

ـــ ويلك ! من ضربك ؟

ـــ عمرو بن أمية .

وما أدركوا ما يستطيع أن يخبرهم بمكانهما فقالوا :

ـــ والله لقد علمنا أنه لم يأت لخير .

وشغلهم صاحبهم عن طلب عمرو بن أمية وصاحبه فاحتملوه ، ومكثا فى الغار يومين حتى سكن عنهما الطلب ، ثم خرجا إلى التنعيم فإذا خشبة خُبيب فقال له صاحبه :

ـــ هل لك فى خُبيب تنزله عن خشبته ؟

ـــ أين هو ؟

ـــ هو ذاك حيث ترى .

ورأى عمرو خُبيبا مرفوعا على خشبته فقال :

ـــ نعم ، فأمهلنى وتنح عنى .

ـــ وحوله حرس يحرسونه ؟!

ـــ إن خشيت فخذ الطريق إلى جملك فاركبه والحق برسول الله ـــ ﷺ ـــ فأخبره الخبر .

فاشتد إلى خشبته فاحتمله على ظهره ، فوالله ما مشى به إلا نحو أربعين ذراعا حتى رأوه فطرحه وراح يعدو فاشتدوا فرجعوا ، وانطلق صاحبه إلى بعيره فركب ليأتى رسول الله ـــ ﷺ ـــ يخبره أمرهما .

وأقبل عمرو يمشى حتى إذا أشرف على الغليل ، غليل ضجنان دخل غارا فيه ومعه قوسه وسهمه . فبينا هو فيه إذ دخل عليه رجل من بنى الديل بن بكر أعور طويل يسوق غنما له فقال :

— من الرجل ؟

— رجل من بنى بكر .

— وأنا من بنى بكر ثم أحد بنى الديل .

ثم اضطجع معه فى الغار ، وشاء سوء طالعه أن يتغنى فقال :

ولست بمسلم ما دمت حيا ولست أدين دين المسلمينا

فقال عمرو فى نفسه :

— سوف تعلم .

فلم يلبث الأعرابى أن نام وغط فقام إليه فقتله أسوأ قتلة قتلها أحد أحدا . قام إليه فجعل سية قوسه فى عينه الصحيحة ثم تحامل عليها حتى أخرجها من قفاه ، ثم خرج مثل السبع وأخذ المحجة كأنه نسر وكان النجاة .

وبلغ النقيع فإذا رجلان من أهل مكة بعثتهما قريش يتحسسان من أمر رسول الله — ﷺ — فعرفهما ، فقال :

— استأسرا .

فقالا فى سخرية :

— أنستأسر لك ؟

فرمى أحدهما بسهم فقتله ثم قال للآخر :

— استأسر .

فاستأسر فأوثقه ، فلما قدم المدينة مر بمشيخة من الأنصار فقالوا :

— هذا والله عمرو بن أمية .

فسمع الصبيان قولهم فاشتدوا إلى رسول الله — ﷺ — يخبرونه .

وقد شد عمرو إبهام أسيره بوتر قوسه فنظر النبى — ﷺ — إليه فضحك

حتى بدت نواجذه .

وأقام رسول الله — ﷺ — بقية شوال وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فانقضى على يوم أحد أربعة أشهر ، وإذا بأبى براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة يقدم على رسول الله — ﷺ — بالمدينة ويهدى له هدية ، فأبى رسول الله — ﷺ — أن يقبلها وقال :

— يا أبا براء ، لا أقبل هدية مشرك ، فأسلم إن أردت أن أقبل هديتك .

فعرض عليه رسول الله — عليه السلام — الإسلام ودعاه إليه ، فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام وقال :

— يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك .

— إنى أخشى عليهم أهل نجد .

— أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك .

فبعث رسول الله — ﷺ — المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة فى سبعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين ، منهم الحارث بن الصِّمة وحرام بن ملحان أخو بنى عدى بن النجار وعُروة بن أسماء بن الصَّلت السُّلمى ونافع بن بديل بن ورقاء الخُزاعى وعامر بن فُهيرة مولى أبى بكر الصديق فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهى بين أرض بنى عامرة وحرة بنى سُليم ، كلا البلدين منها قريب .

فلما نزلوا بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله — ﷺ — إلى عامر بن الطفيل ، فلما أتاه قدم إليه الكتاب فلما قرأه أخذته العزة بالإثم فثار ثورة عارمة ثم قام إلى الرجل فقتله .

ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقالوا :

ـــ لن نخفر (ننقض عهد) أبا براء وقد عقد لهم عقدا وجوارا .

فبعث إلى قبائل من بنى سليم من عصية ورعل وذكوان وطلب منهم أن يخرجوا لقتال هؤلاء المسلمين الذين وفدوا ليفسدوا فى الأرض ، فأجابوه وخرج الرجال فى عدة القتال وقد عزموا على القضاء على أتباع محمد .

كان المسلمون فى حالهم وإذا بالرجال قد أحاطوا بهم وشرعوا السيوف وصاحوا صيحات الحرب ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وراحوا يقاتلون فى إيمان وقد تراقص المنون على شفرات أسلحتهم .

خاضوا فى صفوف أعدائهم وهووا بكل بتار على الرقاب ، ولكن الرجال على خيولهم أحاطوا بهم وجعلوا يضربون بالسيوف ويصوبون إلى صدورهم السهام ، فيسقط واحد إثر واحد ؟

وكان جبار بن سلمى بن مالك بن جعفر إلى جوار عامر بن الطفيل يصول ويجول فى القوم ، فطعن رجلا من المسلمين بالرمح بين كتفيه فنظر إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعه يقول :

ـــ فزتُ والله .

فقال فى نفسه :

ـــ ما فاز . ألست قد قتلت الرجل ؟

واستمر المسلمون فى القتال حتى قتلوا من عند آخرهم ، إلا كعب بن زيد أخا بنى دينار بن النجار ، فإنهم تركوه وبه رمق .

وكان عمرو بن أمية الضمرى ورجل من الأنصار يرعون إبل المسلمين فرأيا الطير تحوم على العسكر فقالا :

ـــ والله إن لهذه الطير لشأنا .

فأقبلا لينظرا فإذا القوم فى دمائهم وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة ، فقال الأنصارى لعمرو بن أمية :

— ما ترى ؟

— أرى أن تلحق برسول الله — ﷺ — فتخبره الخبر .

فقال الأنصارى :

— ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنت لتخبرنى عنه الرجال .

وراح يعدو إلى حيث كانت الخيل وغدا يضرب بسيفه فى الرجال ويقاتل القوم حتى قتل .

ولم يستطع عمرو بن أمية أن يفعل شيئا ، وقف فى مكانه حتى أخذ أسيرا فقال له عامر بن الطفيل :

— ممن أنت ؟

— من مضر .

— وما اسمك ؟

— عمرو بن أمية .

فأطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه ، فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة أقبل رجلان من بنى عامر حتى نزلا معه فى ظل هو فيه ، فسألهما حين نزلا :

— ممن أنتما ؟

— من بنى عامر .

بنو عامر ؟! الذين قتلوا الأحبة وغدروا بهم ! إنه لو قتلهما أصاب ثأره ، فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما ثم انطلق إلى المدينة .

فلما قدم على رسول الله — ﷺ — أخبره الخبر وذكر له أنه قتل اثنين من بنى عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله — ﷺ .

كان مع العامريين عقد من رسول الله — ﷺ — وجوار لم يعلم به عمرو بن أمية ، فقال — ﷺ :

— لقد قتلت قتيلين ، لأدينهما !

وعزم رسول الله — ﷺ — أن يدفع دية القتيلين ، ثم قال عليه السلام :

— هذا عمل أبى براء ، قد كنت لهذا كارها متخوفا .

فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه إخفار عامر إياه وما أصاب أصحاب رسول الله — ﷺ — بسببه وجواره ، وقال حسان يحرض بنى براء على عامر بن الطفيل :

بنى أم البنين ألم يرعكم ... وأنتم من ذوائب أهل نجد
تهكم عامر بأبى براء ... ليُخفره وما خطأ كعمد
ألا أبلغ ربيعة ذا المساعى ... فما أحدثتَ فى الحدثان بعدى
أبوك أبو الحروب أبو براء ... وخالك ماجد حكم بن سعد

وحرج ذلك الغدر ربيعة بن عامر عم عامر بن الطفيل ، فحمل ربيعة على عامر فطعنه بالرمح فوقع فى فخذه فلم يقتله ، ووقع عامر عن فرسه فقال :

— هذا عمل أبى براء . إن مت فدمى لعمى فلا يتبعن به ، وإن أعش فسأرى رأيى فيما أوتى إلىّ .

وكان جبار بن سلمى بن مالك بن جعفر يشرد بذهنه فيسمع فى عين ذاته صوت المسلم وهو يقول لما طعنه بالرمح : « فزت والله » فيقول فى

نفسه : « ما فاز ! ألست قد قتلت الرجل ؟ » .

حيرة ذلك القول فراح يسأل عن ذلك الفوز الذى ناله الرجل وقد قتل ، فقيل له الشهادة . وظل يسأل عن الإسلام وما يدعو إليه وإذا بأنوار اليقين تشرق فى قلبه ، فانطلق إلى المدينة وقابل رسول الله — ﷺ — وألقى إليه سمعه ، وما قام من عنده إلا بعد أن شهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله .

١١

استشهد فى أحد رجال أعزاء ، فلم يترك المسلمون أزواجهم وذريتهم للضياع بل راح كل قادر يضم إليه زوجة شهيد وأبناءه يمسح عن قلوبهم ألم اليتم والفراق .

إن حمنة بنت جحش ولولت على زوجها مصعب بن عمير وقالت : واحزناه ! فقال لها رسول الله — ﷺ — : لِم قلت ذلك ؟ قالت : تذكرت يتم بنيه فراعنى . فدعا لها رسول الله — ﷺ — ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم الخلف ، فتزوجت طلحة بن عبيد الله فكان أوصل الناس لولدها .

واستشهد فى أحد زوج[1] زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله ابن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة ، فتزوجها النبى — ﷺ — وبنى لها دارا إلى جوار دارى عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر ، وقد زوجه إياها عمها قبيصة بن عمرو الهلالى وأصدقها الرسول عليه السلام أربعمائة درهم .

ولم تستشعر عائشة ولا حفصة نحو الوافدة الجديدة أية غيرة ، فقد كانتا تعرفان أن رسول الله — ﷺ — قد ضمها إليه عطفا منه ورحمة ، وما كانت زينب بنت خزيمة راغبة فى منافسة ضرتيها اللتين سبقتاها إلى

---

(١) قيل إنها كانت عند عبد الله بن جحش وقيل إنها كانت عند الطفيل بن الحارث .

دور رسول الله — ﷺ — فقد كانت تحس سعادة فى رحمة المساكين ورقتها عليهم ، فكرست كل وقتها فى رعاية المساكين وإطعامهم والتصدق عليهم فسميت أم المساكين .

كانت زينب بنت خزيمة طيبة خيرة وما كان يخرج من دارها إلا الصدقات ، وكانت قريرة العين بأن أصبحت زوج رسول الله — ﷺ — ، وما كانت الغيرة تنهش فؤادها فهى سعيدة راضية بأن أصبحت أم المؤمنين وأم المساكين ، وقد غمرت أهل الصفة ولا ريب الذين انقطعوا للعبادة فى المسجد وحراسة رسول الله — ﷺ — ومصاحبته ببرها وعطفها وخيرها .

ولم يطل مقام زينب بنت خزيمة فى دور رسول الله — ﷺ — ، فما كاد ينقضى عام أو بعض عام حتى علا الوجوم وجوه من كانوا فى مسجد الرسول فقد خرج من دار رسول الله — ﷺ — من أعلن للملأ موت زينب بنت خزيمة أم المساكين .

دخلت زينب بنت خزيمة دور رسول الله — ﷺ — فى صمت وخرجت منه فى صمت لتقبر فى البقيع إلى جوار الأبرار الذين سبقوها إلى دار السلام ولنعم دار المتقين .

ونكأ موت زينب بنت خزيمة جرح قلب رسول الله — ﷺ — ، تذكر خديجة بنت خويلد الطاهرة التى كانت له وزير صدق على الدوام ، من صدقته لما كذبه الناس وواسته لما عزت المواساة وأنفقت أموالها عن رضا فى سبيل دعم رسالة الله ، أول أمهات المسلمين وأحبهن إليه حاضنة الإسلام .

وانقضى على معركة أحد شهران ، وبلغ رسول الله — ﷺ — أن

بنى أسد يدعون إلى مهاجمته عليه السلام فى داره بالمدينة ، فدعا رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — إليه أبا سلمة عبد الله بن عبد أسد بن هلال ابن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، ابن عمته برة بنت عبد المطلب بن هاشم وأخاه من الرضاعة وصاحب الهجرتين : الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة ، فعقد له لواء سرية عدتها مائة وخمسون رجلا منهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وأمره عليه السلام بالانطلاق إلى بنى أسد .

كان أبو سلمة قد أصيب بجرح بالغ فى أُحد وقد ضمده فالتأم وكان التئامه من السطح ، فلم يعبأ بجرحه وخرج لينفذ أمر رسول الله عليه السلام ، وسار بسريته حتى أخذ العدو على غرة فأحاط بأعداء الله وأعداء رسول فى عماية الصبح ، وراحت السيوف تضرب منهم كل بنان وتطايرت السهام لتستقر فى أفئدة القوم ، واستماتت المسلمون فى القتال وأبلوا بلاء حسنا فقد كانوا يحسون أن هذه المعركة التى يخوضونها معركة مهمة ، فالنصر فيها يغسل هزيمة أُحد ويعيد ما ضيعت أحد من هيبه المسلمين .

وارتفعت صيحات المسلمين تجلجل بين الأرض والسماء :

— الله أكبر ، الله أكبر .

وغطت جثث بنى أسد الأرض ، وراح أبو سلمة يصول ويجول حتى أجهده النضال فنغر جرحه وهو لا يأبه به حتى تم للمسلمين النصر المبين .

وعاد المسلمون إلى المدينة وفى ركابهم النصر ولكن الوجوه كانت باسرة ، فأبو سلمة قائد السرية مريض قد ذبل ودخل على أهله وهو ينوء ، فاستقبلته أم سلمة خافقة القلب منقبضة الصدر ، وكادت أن تند منها صرخة يأس ولكنها كتمتها حتى لا تفزع الزوج العزيز الذى شاركته

هجرة الحبشة وحبسها بنو المغيرة عندهم سنة أو قريبا منها لما هاجر إلى المدينة فلم يرقأ لها دمع حتى لحقت به هناك .

وسجى أبو سلمة فى فراش الموت فجاء رسول الله — ﷺ — ليعوده فألفاه يجود بآخر الأنفاس ، فبقى إلى جواره يدعو له بخير حتى مات ، فأسبل عليه السلام بيده عينيه وكبر عليه تسع تكبيرات فقيل له :

— يا رسول الله ، أسهوت أم نسيت ؟

— لم أسه ولم أنس ، ولو كبرت على أبى سلمة ألفا كان أهلا لذاك .

وخلف أبو سلمة زوجه هند بنت أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكانت عريقة الأصل فهى ابنة أمية بن المغيرة زاد الركب ، فلما انتهت عدتها تقدم إليها أبو بكر الصديق خاطبا فرفضته فى رفق ، ثم تقدم إليها عمر بن الخطاب يخطبها فرفضته بحجة أنها مسنة وأن معها عيالا صغارا .

وبعث إليها رسول الله — ﷺ — يخطبها فإذا بالنشوة تملؤها من الرأس إلى القدم ، فهو شرف عظيم أن تصبح زوج رسول الله — ﷺ — وأم المؤمنين ، ولكنها تذكرت الشابتين اللتين عند رسول الله عليه السلام : عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر فتحركت غيرتها ، فبعثت إلى رسول الله عليه السلام تقول إنها غيرى مسنة ذات عيال ، فأرسل إليها رسول الله — ﷺ — يقول :

— أما أنك مسنة فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فإلى الله ورسوله .

وعرفت عائشة أن رسول الله عليه السلام تزوج أم سلمة فحزنت حزنا شديدا لما ذكر لها من جمالها ، فتلطفت حتى رأتها فرأت أضعاف

ما وصفت به ، فذهبت إلى حفصة وكانت أواصر الصداقة قد وطدت بينهما وطفقت تتحدث عن أم سلمة وجمالها ، فقالت حفصة :

— ما هى كما يقال .

وغدت تتحدث عن كبر سنها فعادت الثقة إلى نفس عائشة ، ورأتها بعد ذلك فكانت فى عينيها كما قالت حفصة ولكنها كانت غيرى .

وجاءت أم سلمة بطفلتها زينب إلى دار النبى عليه السلام ، فكان رسول الله — ﷺ — يأتى أم سلمة ويقول :

— أين زناب ؟

وكان يداعب الطفلة ويغمرها بعطفة وحنانه ، إلا أن عمار بن ياسر وكان أخو أم سلمة من الرضاعة جاء يوم فانتزع زينب من حجر أمها وهو يقول :

— دعيها فقد آذيت بها رسول الله — ﷺ .

وبعثت زينب إلى حاضنة ، وقد شغلت أم سلمة ببيت أم المساكين ولكن حظها من قلب رسول الله — ﷺ — كان أكبر من حظ أم المؤمنين زينب بنت خزيمة .

ووضعت فاطمة الزهراء مولودها الثانى ، فجاء النبى فقال :

— أرونى ابنى ما سميتموه ؟

فقال على :

— حربا .

فقال رسول الله — ﷺ :

— بل هو حسين .

وكان رسول الله — ﷺ — ذات يوم عند أم سلمة وابنتها زينب

هناك ، فجاءته الزهراء بولديها الحسن والحسين فضمهما إليه ثم قال :

— رحمة الله وبركاته أهل البيت إنه حميد مجيد .

فبكت أم سلمة فنظر إليها رسول الله — ﷺ — وسألها فى حنو :

— ما يبكيك ؟

— يا رسول الله خصصتهم وتركتنى وابنتى .

— إنك وابنتك من أهل البيت .

وبلغ النبى — ﷺ — أن سفيان بن خالد بن نبيح قد جمع له الجموع ، فدعا رسول الله عليه السلام عبد الله بن أنيس فقال :

— إنه قد بلغنى أن ابن سفيان الهذلى جمع الناس ليغزونى وهو بنخلة أو بعرنة(١) فأته فاقتله .

— يا رسول الله انعته لى حتى أعرفه .

— إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان ، وآية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدت له قشعريرة .

فخرج عبد الله بن أنيس متوشحا بسيفه حتى دفع إليه وهو فى ظُعن يرتاد لهن منزلا وذلك وقت العصر ، فلما رآه وجد له قشعريرة فأقبل نحوه ، وخشى أن يكون بينه وبينه مجاولة(٢) تشغله عن الصلاة فصلى وهو يمشى نحوه يومىء برأسه ، فلما انتهى إليه قال :

— من الرجل ؟

— رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لذلك .

حسب ابن سفيان أن الرجل ما قدم إلا لينضم إليه لقتال محمد

---

(١) موقع قرب عرفة .　　(٢) الجولة : تكون فى الحرب .

— ﷺ — ، فقال :

— أجل أنا فى ذلك .

فمشى معه شيئا والنساء خلفهما فى منازلهن ، حتى إذا وجد ابن أنيس فرصته حمل عليه بالسيف فقتله ، فندت منه صرخة بلغت النساء فجئن مفزوعات ، فلما وجدنه يلفظ الأنفاس شققن الجيوب وذرفن الدموع .

وانسل عبد الله بن أنيس وهو ينشد :

تركت ابن ثور كالحُوار(١) وحوله
نوائح تفرى كل جيب مُقَدَّد

تناولته والظعن خلفى وخلفه
بأبيض من ماء الحديد مهنَّد

عجوم لهام(٢) الدارعين كأنه
شهاب غضًى(٣) من ملهب متوقد

أقول له والسيف يعجم رأسه
أنا ابن أنيس فارسا غير قُعْدُد

أنا ابن الذى لم ينزل الدهر قِدرَه
رحيب فناء الدار غير مزند

فقلت له خذها بضربة ماجد
حنيف على دين النبى محمد

وكنت إذا هم النبى بكافر
سبقتُ إليه باللسان وباليد

(١) الحوار : ولد الناقة إذا كان صغيرا .

(٢) لهام الدارعين : يبتلعهم .

(٣) شجر خشبه من أجود الوقود .

وقدم على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال عليه السلام :

ـ أفلح الوجه .

ـ قد قتلته .

ـ صدقت .

ثم قام عليه السلام به فأدخله بيته فأعطاه عصا فقال :

ـ أمسك هذه العصا عندك .

فخرج بها إلى الناس فقالوا :

ـ ما هذه ؟

ـ أعطانيها رسول الله ـ ﷺ ـ وأمرني أن أمسكها عندى .

ـ أفلا ترجع إليه فتسأله لِم ذلك ؟

فرجع إليه فقال :

ـ يا رسول الله لِم أعطيتنى هذه العصا ؟

ـ آية بينى وبينك يوم القيامة .

فقرنها عبد الله بن أنيس بسيفه وقد عزم أن تظل معه حتى الموت ، وأمر أن تضم إليه فى كفنه .

١٢

قتل عمرو بن أمية الضمرى رجلين غيلة عند رجوعه من بئر معونة ، فرأى رسول الله — ﷺ — أن يدفع دية الرجلين وكان بينه وبين اليهود عهد أن يعاونوه فى الديات ، فخرج عليه السلام فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمرو وعلى إلى بنى النضير ليستعين بهم فى دية الرجلين .

وحدثهم عليه السلام فى أمر الدية فقالوا :

— نعم يا أبا القاسم حتى تطعم وترجع بحاجتك .

وكان جالسا إلى حنب جدار من بيوتهم فخلا بعضهم ببعض وقالوا :

— إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحالة ، فمن رجل يعدو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟

فقال عمرو بن جحاش أحد ساداتهم :

— أنا لذلك .

وقال لهم سلام بن مشكم :

— لا تفعلوا ، والله ليخبرن بما هممتم به وإنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه .

— نقتله ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكة .

فلما صعد ذلك الرجل ليلقى الصخرة أتى رسول الله — ﷺ — الخبر من السماء بما أراد القوم . فقام رسول الله مظهرا أنه يقضى حاجته

وترك أصحابه فى مجالسهم ورجع مسرعا إلى المدينة ، ولم يعلم من كان معه من أصحابه فقاموا فى طلبه لما استبطئوه ، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه فقال :

— رأيته داخل المدينة .

فأقبل أصحابه حتى انتهوا إليه فأخبرهم رسول الله — ﷺ — بما أرادت بنو النضير من غدر .

وعاد بنو النضير لمحاولة اغتياله — ﷺ — فأرسلوا إليه عليه السلام :

— اخرج إلينا فى ثلاثين من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبرا ، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك .

فخرج إليهم فى ثلاثين من أصحابه ، وأتى رسول الله — ﷺ — نعمان بن أضاد وبحرى بن عمرو وشامس بن عدى فكلموه وكلمهم رسول الله — ﷺ — ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته ، فقالوا :

— ما تخوفنا يا محمد ؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه .

فأنزل الله فيهم : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾(١) .

واستمر رسول الله يدعوهم إلى الإسلام ويرغبهم فيه ويحذرهم غِيَرَ الله وعقوبته فأبوا عليه وكذبوا بما جاءهم به ، فقال لهم نفر من الأنصار :

— يا معشر يهود اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته .

---

(١) المائدة ١٨ .

فقال رافع بن حُريملة ووهب بن يهوذا :

ـــ ما قلنا لكم هذا قط ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا من بعده .

فأنزل الله تعالى فى ذلك قوله : ﴿ يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴾[1] .

وسألوه عمن يؤمن به من الرسل فتلا عليه السلام عليهم : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[2] .

فلما ذكر عيسى ابن مريم جحدوا نبوته وقالوا :

ـــ لا نؤمن بعيسى ابن مريم ولا بمن آمن به .

فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قل يأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ﴾[3] .

وقال رافع بن حارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الضيف ورافع بن حُريملة :

ـــ يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من الله حق ؟

ـــ بلى ، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق

---

(١) المائدة ١٩ .　　(٢) مخلج : مطعون .

(٣) بروق : لامعة .

فيها وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس ، فبرئت من أحداثكم .

ـــ فإنا نأخذ بما فى أيدينا فإنا على الهدى والحق ولا نؤمن بك ولا نتبعك .

فأنزل الله تعالى : ﴿ قل يأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين ﴾(١) .

وقام النمام بن زيد وقردم بن كعب وبحرى بن عمرو :

ـــ يا محمد أما تعلم أن مع الله إلـٰها غيره ؟

ـــ الله لا إلـٰه إلا هو بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو .

فأنزل الله تعالى فيهم قوله : ﴿ قل أى شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إلـٰه واحد وإننى برىء مما تشركون * الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾(٢) .

وقال جبل بن أبى قشير وشمويل بن زيد :

ـــ يا محمد أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبيا كما تقول ؟

فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مُرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفىٌّ عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٣) .

---

(١) المائدة ٦٨ .	(٢) الأنعام ١٩ ـــ ٢٠	(٣) الأعراف ١٨٧ .

وقال سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى و شامش بن قيس ومالك بن الضيف :

— كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله .

فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قولهم : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾(١) .

— أحق يا محمد أن هذا الذى جئت به لحق من عند الله ، فإنا لا نراه متسقا كما تتسق التوراة ؟

— أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة . ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به .

— يا محمد ، ألا يعلمك هذا إنس ولا جن ؟

— أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله وأنى لرسول الله ، تجدون ذلك عندكم فى التوراة .

— يا محمد فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء ويقدر منه على ما أراد ، فأنزل علينا كتابا من السماء نقرؤه ونعرفه وإلا جئناك بمثل ما تأتى به .

فأنزل الله تعالى فيهم وفيما قالوا : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾(٢) .

— يا محمد هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟

---

(١) التوبة ٣٠ (٢) الإسراء ٨٨

ــ يا محمد هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟

فغضب رسول الله ــ ﷺ ــ حتى انتُقع لونُه ثم ساورهم غضبا لربه .

فجاء جبريل عليه السلام فسكنه فقال :

ــ خفض عليك يا محمد .

وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾(١) .

فلما تلاها عليهم قالوا :

ــ صف لنا يا محمد كيف خَلْقه ؟ كيف ذراعه ؟ كيف عضده ؟

فغضب رسول الله ــ ﷺ ــ أشد من غضبه الأول وساورهم .

فأتاه جبريل عليه السلام وقال له :

ــ خفض عليك يا محمد .

وجاءه من الله تعالى بجواب ما سألوه بقول الله تعالى :

﴿ ومـا قدروا الله حق قدره والأرض جميعـا قبضتـه يوم القيامـة والسموات مطويات بيمينة سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾(٢) .

كان رسول الله عليه السلام فى ثلاثين من أصحابه فقال بعض اليهود لبعض :

ــ كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون كل يحب أن يموت قبله ؟

فانتهى الجوار بينهم وبين رسول الله ــ ﷺ ــ دون أن يشرق نور الإيمان فى صدورهم . وكيف يشرق النور فى أفئدة قد طمستها ظلمات

---

(١) الإخلاص (٣) الزمر : ٦٧

الحقد والحسد والغدر ؟

وعاد رسول الله — ﷺ — والذين معه إلى المدينة وبقى يهود بنى النضير لا شاغل لهم إلا تدبير اغتياله عليه السلام ، فأرسلوا إليه :

— اخرج فى ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا ، فإن آمنوا بك اتبعناك .

واشتملت اليهود الثلاثة على الخناجر وقد بيتوا الغدر ، وخرج رسول الله عليه السلام فى ثلاثة من أصحابه قاصدا بنى قريظة وفى صدره أمل بأن يهديهم الله إلى الصراط المستقيم . وبينا رسول الله — ﷺ — فى الطريق إذ أرسلت امرأة من بنى النضير لأخ لها مسلم تعلمه بذلك ، فخرج أخوها يعدو خلف النبى وأصحابه حتى لحق به فأعلم رسول الله — ﷺ — أن القوم يريدون اغتياله ومن معه ، فقفل عليه السلام وأصحابه عائدين إلى المدينة .

ووضحت النوايا الخبيثة ، فما كان هدف بنى النضير التماس الهداية بل غطاء عملية الاغتيال بغلاف جذاب لا يمكن أن يرفضه داعية . وكيف يرفض صاحب دعوة حوارا بينه وبين الناس تتضح فيه ملامح دعوته ؟

إنه الغدر ، إنها الخيانة ، فأرسل إليهم عليه السلام محمد بن مسلمة أن اخرجوا من بلدى فلا تساكنونى بها ، فقد هممتم بما هممتم به من الغدر .

فسكتوا ولم يقولوا حرفا ، وقال لهم ابن مسلمة :

— ويقول لكم قد أجلتكم عشرا ، فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه .

فأرسلوا فى إحضار الإبل ليجلوا عن المدينة ، فأرسل إليهم المنافقون :

— لا تخرجوا من دياركم ، ونحن معكم إن قوتلتم فلكم علينا النصر ،

وإن خرجتم لن نتخلف عنكم .

وأرسل لهم عبد الله بن أبى بن سلول يقول :

— لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصونكم ، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان .

فطمع بنو النضير فيما قال ابن أُبى ، وقرر حُيى بن أخطب سيد بنى النضير ووالد صفية أن يرفض ذلك الإنذار ، فجاءه سلام بن مشكم وقال له :

— منتك نفسك والله يا حيى الباطل ، فإن قول ابن أُبى ليس بشىء وإنما يريد أن يورطك فى الهلكة حتى تحارب محمدا فيجلس فى بيته ويتركك . ألا ترى أنه أرسل إلى كعب بن أسد القرظى سيد بنى قُريظة أن تمدكم بنو قريظة فقال له : لا ينقض رجل واحد منا العهد ، فأيس من بنى قريظة ؟ وأيضا قد وعد حلفاءه من بنى قينُقاع مثل ما وعدك حتى حاربوا ونقضوا العهد وحصروا أنفسهم فى صياصيهم وانتظروا ابن أُبى فجلس فى بيته وسار إليهم محمد حتى نزلوا على حكمه ؟ فإذا كان ابن أُبى لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس ونحن لم نزل نضربه بسيوفنا مع الأوس فى حروبهم ، فكيف يقبل قوله ؟

فأبى إلا عداوة محمد وإلا قتاله .

— فهو والله جلاؤنا من أرضنا وذهاب أموالنا وشرفنا وسبى ذرارينا مع قتل مقاتلينا .

فأبى حُيى إلا محاربة رسول الله — ﷺ — ، وقالت له بنو النضير :

— أمرنا لأمرك تبع لن نخالفك .

فأرسل إلى رسول الله ـ ﷺ :

ـ إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك .

فأظهر رسول الله ـ ﷺ ـ التكبير وكبر المسلمون لتكبيره وقال :

ـ حاربت يهود .

فتهيأ الناس للحرب ، فلما اجتمعوا خرج رسول الله ـ ﷺ ـ بهم إلى بنى النضير واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وحمل رايته على بن أبى طالب كرم الله وجهه وسار بالناس حتى نزل بهم ، وصلى العصر بفنائهم وقد تحصنوا وقاموا على حصنهم ، فقال ـ ﷺ ـ لهم :

ـ اخرجوا من المدينة .

ـ الموت أهون من ذلك .

ثم تبادروا بالحرب فراح يهود بنى النضير يرمون بالنبل والحجارة والمسلمون يرسلون السهام حتى إذا ما جاء وقت العشاء رجع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى بيته فى عشرة من أصحابه عليه الدرع وهو على فرس ، واستعمل على العسكر على بن أبى طالب ، وبات المسلمون يحاصرونهم ويكبرون حتى أصبحوا .

وأذن بلال بالفجر فغدا رسول الله ـ ﷺ ـ فى أصحابه الذين كانوا معه فصلى بالناس ، فأمر بلالا فضرب القبة وهى قبة من خشب عليها مسوح ، فدخل رسول الله ـ ﷺ ـ فيها .

وكان رجل من يهود يقال له غزول وكان أعسر راميا يبلغ نبله ما لا يبلغه نبل غيره ، فوصل نبله تلك القبة فأمر بها ـ ﷺ ـ فحولت .

وطال الحصار وغدا سعد بن عبادة يحمل التمر للمسلمين ، وفى ليلة من الليالى فقد على رضى الله عنه قرب العشاء فقال الناس :

— يا رسول الله ما نرى عليا .

— دعوه فإنه فى بعض شأنكم .

كان على يكمن لغزول على حين خرج يطلب غرة من المسلمين ومعه جماعة ، فشد على عليه فقتله ، ولما كانت قلوب اليهود هواء فقد فروا لما وجدوا عليا يحمل على صاحبهم . وجاء على إلى رسول الله عليه السلام برأس غزول فأرسل رسول الله مع على أبا دجانة وسهل بن حنيف فى عشرة فأدركوا أولئك الجماعة الذين كانوا مع غزول فقتلوهم .

وحاصرهم رسول الله — ﷺ — خمسة عشر يوما وهم فى حصونهم يرمون النبل والحجارة ، وأمر عليه السلام بقطع النخل واستعمل على قطع النخل أبا ليلى المازنى وعبد الله بن سلام . فراح أبو ليلى يقطع العجوة وعبد الله يقطع اللين ، وكانت العجوة خير أموال بنى النضير فهم يقتاتونها . فلما قطعت شق النساء الجيوب وضربن الخدود ودعون بالويل وعند ذلك ناداه الرجال :

— يا أبا القاسم قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها !

— يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح أفمن الصلاح قطع النخل ؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد فى الأرض ؟

وقالوا للمؤمنين :

— إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون .

ووقع فى نفوس بعض المسلمين من ذلك شيء ونسوا أنها الحرب ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن

الله وليخزى الفاسقين ﴾[١] .

ولا زال عبد الله بن أُبى بن سلول يبعث لبنى النضير :

ـــ اثبتوا وتمنعوا فإنكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم .

ومعه على ذلك جمع من قومه ، فانتظر بنو قريظة نصر ابن أُبيّ فخذلهم ولم يحصل منه شيء ، وجعل سلام بن مشكم وكنانة بن صوريا يقولان لحيى :

ـــ أين نصر ابن أبى الذى زعمت ؟

ـــ ما أصنع ؟ هى ملحمة كتبت علينا .

ولزم رسول الله ـــ ﷺ ـــ حصارهم ، وقال يامين بن عمير لأبى سعد بن وهب :

ـــ والله إنك تعلم أنه رسول الله ، فما ننتظر أن نسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا ؟

فنزلا من الليل وأسلما وقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ ليامين :

ـــ ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأنى ؟

كان عمرو بن جِحاش ابن عمه وكان أراد أن يلقى الحجر على رسول الله ـــ ﷺ ـــ ليقتله ، فجعل يامين لرجل من قيس جعلا قدره عشرة دنانير على قتل عمرو بن جِحاش ، فذهب الرجل وقتل ابن جِحاش غيلة ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموال إلا آلة الحرب ، ففعل .

---

(١) الحشر ٥٩ .

وجاءوا بستمائة بعير وغدا الرجال يهدمون بيوتهم عما استحسنوا من خشبها كالأبواب ويضعونها على ظهور البعير ، وصاروا ينقضون العمد والسقوف وينزعون الخشب حتى الأوتاد ، وينقضون الجدران حتى لا يسكنها المسلمون حسدا وبغضا ، ونسوا ما كانوا يعيبون على المؤمنين الفساد لما قطعوا النخل لإرغامهم على التسليم .

وخرجوا مظهرين التجلد ، خرجت النساء على الهوادج وعليهم الديباج والحرير وقطف الخز الأخضر والأحمر وحلى الذهب والفضة وخلفهم القيان بالدفوف والمزامير ، وخرجت معهم سلمى صاحبة عُروة ابن الورد وكان عروة قد نزل فى بنى النضير فسقوه الخمر ، فلما انتشى منعوه ولا شىء معه إلا سلمى فرهنها ولم يزل يشرب حتى استحق اليهودى الرهن ، فلما قال لها عروة انطلقى ، قالت لا سبيل إلى ذلك قد أغلقتنى . وبهذا صارت عند بنى النضير فقالت فى ذلك :

سقونى الخمر ثم تكنفونى ... عداة الله من كذب وزور
وقالوا لست بعد فداء سلمى ... بمغن ما لديك ولا فقير
فلا والله لو ملكت أمرى ... ومن لى فى التدبرِ فى الأمور
إذا لعصيتهم فى حب سلمى ... على ما كان من حسك[1] الصدور
فيا للناس كيف غلبت أمرى ... على شىء ويكرهه ضميرى

وانطلق بنو النضير وشقوا سوق المدينة ، وصف لهم الناس فجعلوا يمرون قطارا فى إثر قطار وإن سلام بن أبى الحقيق رافع جلد جمل مملوء حليا وينادى بأعلى صوته :

---

(١) الحسك الحقد والعداوة .

— هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها ، وإن كنا تركنا نخلا ففى خيبر النخل .

وحزن المنافقون لخروجهم أشد الحزن ، وذهب أكابر اليهود كحُيى ابن أخطب وابنته صفية وسلام بن أبى الحقيق وكنانة بن أبى الربيع بن أبى الحقيق إلى خيبر ، وسار آخرون إلى الشام وكان فيهم جماعة من أبناء الأنصار ، لأن المرأة من الأنصار كان إذا لم يعش لها ولد تجعل على نفسها إن عاش لها ولد تهوده .

ووجد — ﷺ — من الحلقة (آلة السلاح) خمسين درعا وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفا ، ثم دعا الأنصار الأوس والخزرج فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين من إنزالهم فى منازلهم وإيثارهم على أنفسهم بأموالهم ثم قال لهم :

— إن إخوانكم المهاجرين ليس لهم أموال فإن شئتم قسمت هذه الأموال بينكم جميعا ، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة .

فقالوا :

— بل اقسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت .

وقال سعد بن معاذ وسعد بن عبادة :

— يا رسول الله بل تقسم بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا ، بل نحب أن تقسم ديارنا وأموالنا على المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وعشائرهم وخرجوا بالله ورسوله ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها .

ونادت الأنصار :

— رضينا وسلمنا يا رسول الله .

فقال رسول الله — ﷺ :

— اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار .

وقسم رسول الله — ﷺ — ما أفاء الله عليه من بنى النضير على المهاجرين ، لأنه لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شىء . وكان الأنصار أهل الأرض والعقار فآثروهم بمتاع من أشجارهم فمن المهاجرين من قبلها منيحة محضة ومنهم من قبلها بشرط أن يعمل فى الشجر والأرض وله نصف الثمار ولم تطب نفسه أن يقبلها منيحة محضة لشرف نفوسهم وكراهة أن يكونوا كلًّا . ولم يعط عليه السلام أحدا من الأنصار إلا رجلين كانا محتاجين وهما سهل بن حنيف وأبو دجانة ، وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبى الحقيق وكان سيفا له ذكر عندهم .

وأعطى عليه السلام أبا بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وصهيبا وأبا سلمة بن عبد الأسد أراضى من أراضى بنى النضير ، وأمر المهاجرين برد ما كان للأنصار ، وراح المسلمون يتلون سورة الحشر التى نزلت فى بنى النضير : ﴿ سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم * هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار * ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار * ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقّ الله فإن الله شديد العقاب * ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين * وما أفاء الله على رسوله منهم

فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير * ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دُولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب * للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلًّا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم * ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أُخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون * لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون * لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدار بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون * كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم * كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين * يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم

أنفسهم أولئك هم الفاسقون * لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون * لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون * هو الله الذى لا إلـٰه إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إلـٰه إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[١] .

---

(١) سورة الحشر .

١٣

صنعت فاطمة مسكتين[١] من ورق[٢] وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم — ﷺ — دخل المسجد فصلى فيه ركعتين ثم ثنى بفاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ووقف أصحابه على الباب لا يدرون أيقيمون أو ينصرفون لطول مكثه عندها . فخرج رسول الله — ﷺ — وقد عرف الغضب فى وجهه حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة أنه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر .

وكانت فاطمة تبذل نفسها لإرضائه فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها ونزعت الستر وبعثت به إلى رسول الله — ﷺ — وقالت للرسول :

— قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هذا فى سبيل الله .

فلما أتاه قال عليه السلام :

— قد فعلت فداها أبوها ، قد فعلت فداها أبوها ، قد فعلت فداها أبوها . ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء .

---

(١) المسكة : السوار .   (٢) ورق : فضة .

وأعطى رسول الله — ﷺ — بعض أراضى بنى النضير للمهاجرين وأبقى بعضها يزرع له ينفق على أهله منها وكانت صدقاته منها ، ولما أعطى المهاجرين أمرهم برد ما كان للأنصار .

وكانت أم أنس أعطته — ﷺ — نخلات فأعطاها عليه السلام أم أيمن ، فظنت أم أيمن أن ذلك ملك لها فامتنعت عن رده ، ولم ينكر عليه السلام امتناع أم أيمن عن رد ما كان لأم أنس تطييبا لقلبها وصار يعطيها وهى تمتنع من رده إلى أن أعطاها عشرة أمثاله أو قريبا من ذلك وكان ذلك العطاء مما أفاء الله عليه ، فما كان يحفل بالدنيا ولا يريد منها ما يزيد على حاجته ، وكان دعاؤه :

— اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا .

كان زاهدا وكان زهده ثقة فى الله ، فلم يكن يدعو إلى إضاعة المال ولا إلى تحريم ما أحل الله ، وكان يقول لأصحابه : « ليست الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة أن تكون بما فى يد الله تعالى أوثق بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾[1] .

وأذن بلال بصلاة الصبح فأتى — ﷺ — باب على وفاطمة وحسن وحسين ، وأخذ بعضادتى الباب وقال :

— السلام عليكم أهل البيت . الصلاة .. الصلاة .. الصلاة ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا .

ووقف رسول الله عليه السلام يصلى بالمسلمين فجاء الحسن وهو

---

(١) الحديد ٢٣ .

ساجد فجلس على ظهره فرفعه النبى رفعا رفيقا ، فلما فرغ من صلاته وضعه فى حجره فكان يدخل أصابعه فى لحية النبى عليه السلام ، والنبى يضمه ويقبله فى حنان ويقول :

ـــ اللهم إنى أحبه .

ورأى المسلمون ذلك الحب الدافق فقالوا :

ـــ يا رسول الله إنا رأيناك تصنع بهذا الصبى شيئا ما رأيناك تصنعه بأحد .

ـــ إن هذا ريحانتى وإن هذا ابنى سيد ، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين .

ونهض النبى وحمل الحسن ، فنظر إليه عمر بن الخطاب فقال :

ـــ نعم المركب ركبت يا غلام .

فقال ـــ ﷺ :

ـــ ونعم الراكب هو .

ودخل عليه السلام دار فاطمة فرأى الحسين صغيرا قصيرا ، فوضع الحسن وراح يستدرج الحسين حتى إذا أقبل عليه غدا يرقصه ويداعبه ويقول :

ـــ حزقة[١] .. حزقة .. ترقة .. ترق عين بقة .

وكان من عادته ـــ ﷺ ـــ أن يبيت عندهم حينا بعد حين ، ففى إحدى هذه الليالى سمع الحسن يستسقى فقام ـــ ﷺ ـــ إلى قربة فجعل يعصرها فى القدح ، ثم جعل يعبعبه ، فتناوله الحسين فمنعه وبدأ بالحسن ، قالت فاطمة :

---

(١) الحزقة القصير .

ــ كأنه أحب إليك ؟

ــ إنما استسقى أولا !

كان يحب فاطمة من جوامع الفؤاد ، كانت إذا دخلت عليه قام إليها وقبلها وأجلسها مكانه ، ولكن ذلك الحب لم يثنه يوما عن أن يحيد عن جوهر رسالته أو أن يرضى لأهله أن يعيشوا عيشة ترف بينا سواد المسلمين فقراء ، فقد جاءته الزهراء ذات يوم تشكو من آلام الرحى وتجرح يديها أحيانا من حمل الماء ، فطلبت إليه خادما من الأسرى فأبى وقال لعلى :

ــ كيف تطمعون فى شىء من هذا وأهل الصفة على ما هم عليه من الفقر ؟

ودخل على فاطمة يوما وفى يدها سلسلة من ذهب وهى تقول لامرأة عندها :

ــ هذه أهداها أبو الحسن .

فقال ــ ﷺ :

ــ يا فاطمة ، أيسرك أن يقول الناس ابنة رسول الله فى يدها سلسلة من نار ؟

ثم خرج ولم يقعد ، فأرسلت فاطمة بالسلسلة فباعتها واشترت بثمنها عبدا فأعتقته ، فحدث رسول الله بذلك فقال :

ــ الحمد لله الذى نجى فاطمة من النار .

لقد خاف فى الله ما لم يخف وأوذى فى الله ما لم يؤذ أحد ، وقد أتى عليه ثلاثون ما بين يوم وليلة وما له ولبلال من الطعام إلا شىء يسير يواريه إبط بلال .

كانت السعادة ترفرف على دور النبى ــ ﷺ ــ على الرغم من حياة

التقشف التى فرضها النبى عليه السلام على أهله ، فقد كانت تمر الأيام والأسابيع ولا توقد فى دور النبى — ﷺ — نار ، كانوا يأكلون الأسودين التمر والماء . حياة سعيدة مع الشظف والفاقة ، سعيدة بالعطف الذى كان يغمر به الجميع صاحب القلب الكبير ، حتى صار حطام الدنيا عند أهله ومن لاذ به لا يساوى مثقال ذرة من هباء .

وكانت السعادة تغمر دار فاطمة الزهراء ، فهى سعيدة بزوجها البطل الذى يجدل أعداء الإسلام ، وهو سعيد ببنت رسول الله ربيبه وحبيبه وقدوته وأمله فى الحياة وفى الممات ، ولكن رجل الحرب كان يعود أحيانا إلى بيته وهو منحرف المزاج فكان يقسو على زوجه قسوة لم تكن تألفها فكانت تذهب إلى رسول الله — ﷺ — تشكو إليه ما لقيت من ابن أبى طالب ، فكان عليه السلام يصلح بينهما . وقد رئى عليه السلام ذات مساء وهو يسعى إلى دار بنته الزهراء ووجهه باسر ، فأمضى وقتا هناك ثم خرج ووجه يفيض بالبشر ، فقال قائل من أصحابه :

— يا رسول الله دخلت وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر فى وجهك !

— وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين إلىّ ؟

وأسلمت بنت عمرو بن هشام بن المغيرة (أبى جهل) ورأى أهلها الذين أسلموا من قبل أن ليس لها كفء بين المسلمين غير على بن أبى طالب ، فعرضوا على علىّ الزواج منها . وذاع الخبر فى المدينة حتى بلغ الزهراء فاستولى عليها حزن عميق ، وذهبت إلى أبيها تقول والدموع فى عينيها :

— يزعمون أنك لا تغضب لبناتك .

وأثرت دموع الزهراء فى قلب أبيها فإذا به يغضب لابنته ، أيجمع على ابن أبى طالب بين بنت رسول الله وبنت عدو الله ؟ إن هذا لن يكون .

وجاء بنو هشام بن المغيرة يستأذنونه فى تزويج بنتهم من زوج فاطمة فإذا بوجهه يظهر فيه الضيق ، وعجب بنو المغيرة فما كان الإسلام ليحول بين على وبين الزواج من أخرى وقد تزوج رسول الله — ﷺ — أكثر من امرأة ، ولكن عليه السلام ظل وفيا لأول زوجة خفق بحبها قلبه ، ظل وفيا لخديجة لم يثر غيرتها بزوجة أخرى حتى خرجت من الدنيا ، فما بال علىّ يريد أن يجمع بين ابنته وبين بنت عدوه ، وثارت بشريته فصعد إلى المنبر وقال :

— إن بني هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم علىّ بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ، اللهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم فإن ابنتى بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها ، وإنى أتخوف أن تفتن فى دينها .

وراح يثنى على أبى العاص بن الربيع زوج زينب فى مصاهرته إياه ثم قال :

— حدثنى فصدقنى ووعدنى فأوفى لى ، وإنى لست أحرم حلالا ولا أحل حراما ولكن الله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله ببيت واحد أبدا .

إنه بشر ، وقد عبر عن بشريته بقوله : إنما فاطمة بضعة منى يريبنى ما رابها . ولم يحرم حلالا ولا أحل حراما وقد رد الأمر إلى ابن عمه وربيبه ليختار ، وقد اختار على بنت رسول الله عليه السلام .

وعادت المودة والصفاء إلى بيت الزوجية التى هبت عليها ريح قاسية

أرقت كل من فيها ، وراحت فاطمة ترقص طفلها وهى تقول مداعبة للزوج الذى فكر فى أن يجىء لها بضرة :

وابأبى شبـــه النبـــــى لستَ شبيها بعلى

ودنا على من زوجه وقال لها فى رقة :

— والله لا آتى شيئا تكرهينه أبدا .

وعادت الحياة فى المدينة إلى ما كانت عليه عقب أن باتت ساهرة بعدما كان من بنى هشام بن المغيرة وخطبة رسول الله — ﷺ — . ووقف رسول الله عليه السلام يخطب فى مسجده وبينا هو يعظ المسلمين أقبل الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان ، فنزل إليهما عليه السلام وأخذهما وعاد إلى المنبر وهو يضمهما إليه ، ثم وضعهما فى حجره وقال :

— صدق الله ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة .

١٨

قدم إلى المدينة أبو سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبو الأسود السلمى فنزلوا على عبد الله بن أبى ، وقد أعطاهم النبى — ﷺ — الأمان على أن يكلموه ، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبى السرح وطعمة بن أبيرق ، فقالوا للنبى — ﷺ — وعنده عمر بن الخطاب :

— ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل إن لها شفاعة ومنعة لمن عبدها ، وندعك وربك .

فشق على النبى — ﷺ — قولهم ، فقال عمر بن الخطاب فى ثورة :

— ائذن لنا يا رسول الله — ﷺ — فى قتلهم .

— إنى قد أعطيتهم الأمان .

فقال عمر :

— اخرجوا فى لعنة الله وغضبه .

وأمر رسول الله أن يخرجوا من المدينة فخرجوا مذمومين . وقد أنزل الله تعالى فيهم : ﴿ يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما * واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا * وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾[1] .

وقام رسول الله — ﷺ — بعد غزوة بنى النضير شهر الربيع الأول ، وبلغه أن بنى محارب وبنى ثعلبة جمعوا الجموع من غطفان لمحاربته

---

(١) الأحزاب ١ — ٣ .

فخرج ــ ﷺ ــ فى سبعمائة من أصحابه ليغزوا نجدا واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

ولم يكن عدد البعير كافيا فسار المسلمون على الأقدام كل ستة نفر بينهم بعير واحد يتعاقبونه ، وكانت الشقة بعيدة فنقبت الأقدام وسقطت أظافرها فكان الرجال يلفون على أرجلهم الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع .

وبلغ المسلمون نجدا وقد بلغ بهم الجهد ، فلم يجد رسول الله ــ ﷺ ــ بها أحدا ووجد نسوة فأخذهن وفيهم جارية وضيئة ، ثم لقى جمعا فتقارب الجمعان وقد خاف بعضهم بعضا فلم يكن بينهما حرب ، وحانت صلاة الظهر فصلاها ــ ﷺ ــ بأصحابه فهم بهم المشركون فقال قائلهم :

ــ دعوهم فإن لهم صلاة بعد هذه هى أحب إليهم من أبنائهم .

وحانت صلاة العصر والعدو فى غير جهة القبلة ، ففرق رسول الله عليه السلام المسلمين فرقتين : فرقة وقفت فى وجه العدو وفرقة صلى بها ركعة ثم قيامه للثانية فارقته بقية صلاتها ثم جاءت ووقفت فى وجه العدو ، وجاءت تلك الفرقة التى كانت فى وجه العدو واقتدت به فى ثانيته فصلى بها ركعة ثم قامت وهو فى جلوس التشهد وأتمت بقية صلاتها ولحقته فى جلوس التشهد وسلم بها . وكانت صلاة الخوف .

وكان جبريل قد نزل عليه بالقرآن موضحا صلاة الخوف : ﴿ وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا * وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا

سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم * ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا * فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا * ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما ﴾(١) .

ونزل — ﷺ — ليلا وكان نزوله فى شعب استقبله ، وكانت تلك الليلة ذات ريح فقال :

— من رجل يكلؤنا (يحفظنا) هذه الليلة ؟

فقام عباد بن بشر وعمار بن ياسر فقالا :

— نحن يا رسول الله نكلؤكم .

ونزل المسلمون الشعب فى خيام ضربوها وجلس عباد وعمار على فم الشعب ، فقال عباد بن بشر لعمار بن ياسر :

— أنا أكفيك أول الليل وتكفينى آخره .

فنام عمار رضى الله عنه وقام عباد رضى الله عنه يصلى . وكان زوج بعض النسوة اللاتى أصابهن رسول الله — ﷺ — غائبا ، فلما جاء أخبر الخبر فتتبع الجيش وحلف لا ينثنى حتى يصيب محمدا أو يهريق فى أصحاب محمد دما .

ورأى الرجل عباد بن بشر قائما قال :

---

(١) النساء ١٠١ — ١٠٤ .

— هذا ربيئة[1] القوم .

فصوب إليه سهما فوضعه فيه فانتزعه عباد وهو صابر على ألمه ، فرماه بآخر فوضعه فيه فانتزعه ، فرماه بآخر فانتزعه ، فلما غلبه الدم قال لعمار :

— أجلس فقد أُتيت .

فلما رأى ذلك الرجل عبادا جلس علم أنه قد نذر به فهرب ، فقال عمار :

— أى أخى ، ما منعك أن توقظنى له فى أول سهم رمى به ؟

— كنت أقرأ فى سورة الكهف فكرهت أن أقطعها .

وجاء رجل بفرخ طائر فأقبل أحد أبويه حتى طرح نفسه بين يدى الذى أخذ فرخه ، فعجب الناس من ذلك ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— أتعجبون من هذا الطائر أخذتم فرخه فطرح نفسه رحمة لفرخه ! والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه .

وجىء له — ﷺ — بثلاث بيضات من بيض النعام ، فقال لجابر :

— دونك يا جابر فاعمل هذه البيضات .

فعملهن ثم جاء بهن فى قصعة ، فجعل من عند الرسول عليه السلام يطلبون خبزا فلم يجدوا ، فجعل — ﷺ — وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز حتى انتهى .

ولم يلق رسول الله — ﷺ — كيدا فلم تنشب معركة بينه وبين غطفان فقفل عائدا إلى المدينة ، حتى إذا ما دنا منها بعث جعال بن سراقة مبشرا بسلامته وسلامة المسلمين ، وكان جعال من أهل الصفة الذين

---

(١) الربيئة : الطليعة .

انقطعوا للعبادة فى مسجد الرسول وحراسته — ﷺ — وملازمته فى غدواته وروحاته .

ولاحت أرباض المدينة فأغذ[1] المسلمون السير ، وكان جابر بن عبد الله على جمل ثقال إنما هو فى آخر القوم ، فمر به النبى — ﷺ — فقال :

— من هذا ؟

— جابر بن عبد الله .

— فما لك ؟

— إنى على جمل ثقال .

— أمعك قضيب ؟

— نعم .

— أعطنيه .

فضرب الجمل فزجره فكان من ذلك المكان من أول القوم ، ودنا رسول الله — ﷺ — من جابر وقال :

— بعنيه .

— بل هو لك يا رسول الله .

— لا . ولكن بعنيه .

— فسُمنيه يا رسول الله .

فقال عليه السلام مداعبا جابر :

— قد أخذته بدرهم .

— لا . إذن تغبننى يا رسول الله .

---

(١) أغذ : أسرع .

— فبدرهمين .

— لا .

فلم يزل يرفع له رسول الله — ﷺ — فى ثمنه حتى قال :

— بل بعنيه فقد أخذته بأربعة دنانير ولك ظهره إلى المدينة .

وقال عليه السلام :

— يا جابر هل تزوجت بعد ؟

— نعم يا رسول الله .

— أثيبا أم بكرا ؟

— لا . بل ثيبا .

— أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك !

— يا رسول الله إن أبى أصيب يوم أحد وترك بنات له تسعا ، فنكحت امرأة جامعة ، تجمع رءوسهن وتقوم عليهن .

— أصبت إن شاء الله .

ودخل النبى المدينة فاستقبله المسلمون بالبشر والترحاب ، ثم انطلق إلى المسجد يصلى ركعتين لله شكرا. ودخل جابر إليه فعلف الجمل فى ناحية البلاط ، ودخل رسول الله — ﷺ — دار فاطمة ثم راح يطوف بدور أزواجه .

وذهب إليه جابر فقال :

— يا رسول الله هذا جملك .

فخرج رسول الله — ﷺ — يطوف بالجمل ثم قال :

— الثمن والجمل لك .

والتفت رسول الله عليه السلام إلى بلال خازن الرسول وقال :

— يا بلال اقضه وزده .

فأعطاه أربعة دنانير وزاده قيراطا ، وأعطاه الجمل وسهمه مع القوم .

١٥

قال أبو سفيان حين منصرفه من أحد :

ــ موعد ما بيننا وبينكم بدر .

فقال ــ ﷺ ــ لعمر بن الخطاب قل : نعم إن شاء الله .

وقد وافى موسم بدر بعد أن أقام بالمدينة عقب غزوة ذات الرقاع بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجبا فى سنة أربع من هجرته ، ثم تهيأ للخروج إلى بدر لميعاد أبى سفيان .

واستخلف عليه السلام على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول ، وكان عبد الله من المتقين ولم يؤثر فى رسول الله أنه ابن رأس المنافقين ، فما كان عليه السلام يخلط عملا حسنا بعمل سيئ ، وما كان يحكم على الأبناء بفعل الآباء ولا تزر وازرة وزر أخرى .

ورأى نعيم بن مسعود الأشجعى تهيؤ المسلمين للخروج لقتال قريش ، فقدم إلى مكة وأخبر قريشا أن المسلمين تهيئوا للخروج لقتالهم ببدر ، فكره أبو سفيان الخروج وقال لنعيم :

ــ إنه بدا لى ألا أخرج وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جراءة ، فلأن يكون الخلف من قبلهم أحب إلى من أن يكون من قبلى ، فالحق بالمدينة وأعلمهم أنا فى جمع كثير ولا طاقة لهم بنا ، ولك عندى من الإبل عشرون بعيرا أدفعها لك على يد سهيل بن عمرو .

فجاء نعيم إلى سهيل بن عمرو فقال له :

ــ يا أبا يزيد تضمن لى هذه الإبل وأنطلق إلى محمد وأثبطه .

ــ نعم .

فقدم نعيم المدينة وأرجف بكثرة جموع أبى سفيان ، وصار يطوف فى المسلمين حتى قذف الرعب فى قلوبهم ولم يبق لهم نية فى الخروج ، واستبشر المنافقون واليهود وقالوا فى فرح :

ــ محمد لا يفلت من هذا الجمع .

وسمع أبو بكر وعمر ما أرجف به المسلمون فجاءا إلى رسول الله ــ ﷺ ــ وقالا له :

ــ يا رسول الله إن الله مظهر نبيه ومعز دينه ، وقد وعدنا القوم موعدا لا نحب أن نتخلف عنه فيرون أن هذا جبن ، فسر لموعدهم فوالله إن فى ذلك لخيرة .

فسر رسول الله ــ ﷺ ــ بذلك ثم قال :

ــ والذى نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد .

فأذهب الله عنهم ما كانوا يجدون ، وحمل لواء رسول الله ــ ﷺ ــ على بن أبى طالب وخرج فى ألف وخمسمائة من أصحابه ، وكان الخيل عشرة أفراس ، وخرج المسلمون معهم بتجارات إلى بدر .

وقال أبو سفيان لقريش :

ــ لقد بعثت نعيما ليخذل أصحاب محمد عن الخروج .

ولكن نخرج نحن فنسير ليلة أو ليلتين ثم نرجع ، فإن كان محمد لم يخرج وبلغه أنا خرجنا فرجعنا ، لأنه إن لم يخرج كان هذا لنا عليه ، وإن خرج أظهرنا أن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام عشب .

ــ نعم ما رأيت .

فخرج أبو سفيان فى قريش وهم ألفان ومعهم خمسون فرسا حتى انتهوا إلى سوق مجنة .

وصار المسلمون كلما سألوا عن قريش قيل لهم :

ـــ قد جمعوا لكم .

فيقولون :

ـــ حسبنا الله ونعم الوكيل

فلما اقتربوا من بدر قيل لهم :

ـــ إنها قد امتلأت من الذين جمعهم أبو سفيان .

كانوا يريدون إرهابهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم ، ولكن المسلمين كانوا يقولون فى إيمان :

ـــ حسبنا الله ونعم الوكيل .

وقابل المسلمين ركب من عبد القيس كانوا قاصدين إلى المدينة للميرة[١] ، فجعل لهم أبو سفيان حمل أبعرتهم زبيبا إن خذلوا المسلمين وأرجفوهم ، فطفقوا يقولون لهم :

ـــ إنما أنتم لهم أكلة رأس[٢] ، وإن ذهبتم إليهم لا يرجع منكم أحد .

فقال المسلمون فى إيمان :

ـــ حسبنا الله ونعم الوكيل .

وبدا لأبى سفيان الرجوع فقال :

ـــ يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب فارجعوا .

فرجع ورجع الناس ، واستمر المسلمون فى زحفهم متوكلين على ربهم

---

(١) الميرة : الطعام المجلوب .

(٢) أكلة رأس : كناية عن القلة .

حتى إذا قدموا بدرا أقام رسول الله — ﷺ — ينتظر أبا سفيان لميعاده ، فأتاه فحش بن عمرو الضمرى وهو الذى وادعه على بنى ضمرة فى غزوة ودان فقال :

— يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء ؟

— نعم يا أخا بنى ضمرة ، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ثم جالدناك حتى يحكم بيننا وبينك .

— لا والله يا محمد ، ما لنا لذلك منك من حاجة .

وأقام رسول الله — ﷺ — ينتظر أبا سفيان ، فمر به معبد بن أبى معبد الخزاعى وقد رأى مكان رسول الله — ﷺ — وناقته تهوى به فقال :

قد نفرتْ من رُفقتَىْ محمد وعجوة من يثرب كالعَسجد
تهوى على دين أبيها الأتلد قد جعلتْ ماء قديد موعدى
وماء ضجنان لها ضحى الغد

ووجدوا ببدر أسواقا لا ينازعهم فيها أحد فراحوا يتجرون فربحت تجارتهم الضعف ، وكانوا أصحاب الموسم .

وانقضت أيام سوق بدر الثانية فخرج معبد بن أبى معبد الخزاعى سريعا إلى مكة ، وغدا يقص على سادات قريش ما كان من محمد عليه السلام وأصحابه فى سوق بدر وكيف كانت لهم العزة ، فأحس القرشيون كمدا ، وتذكر صفوان بن أمية أنه نهى أبا سفيان يوم أُحد أن يعد المسلمين لغزوة أخرى فقال لأبى سفيان فى غضب :

— قد نهيتك يومئذ أن تعد القوم وقد اجترءوا علينا ورأونا أخلفناهم ، وإنما خلفنا الضعف .

وشعر القرشيون بالخزى وذاقوا طعم الهزيمة وإن لم ينهزموا فى قتال ، فقد كان نكوصهم عن الخروج أقسى من الهزيمة ، بعد أن قال زعيمهم أبو سفيان يوم أُحد فى خيلاء مزهوا بانتصاره :

ـــ موعد ما بيننا وبينكم بدر .

فلقد خرج محمد عليه السلام إلى بدر الموعد ولم يأت تخذيل الناس للمسلمين بما كان يشتهى أبو سفيان ، فرفع تخلف قريش عن موعدها من روح المسلمين المعنوية وفت فى عضد الكافرين والمنافقين ومن فى قلوبهم مرض .

وعاد رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى المدينة فاستقبله الناس بالبشر والترحاب ، وما كاد العائدون يستقرون فى دورهم حتى نشبت معركة الشعر ، فقال عبد الله بن رواحة :

وعدنا أبا سفيان بدرا فلم نجد ... لميعاده صدقا وما كان وافيا
فأقسم لو وافيتَنا فلقيْتنا ... لأبتَ ذميما وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عُتبةَ وابنه ... وعمرا أبا جهل تركناه ثاويا
عصيتم رسول الله أف لدينكم ... وأمرَكم السَّيىء الذى كان غاويا
فإنى وإن عنفتمونى لقائل ... فدى لرسول الله أهلى وماليا
أطعناه لم نعدله بغيره ... شهابا لنا فى ظلمة الليل هاديا

وقال حسان بن ثابت :

دعوا فلجات[1] الشام قد حال دونها
جلاد كأفواه المخاض[2] الأوارك[3]

---

(١) فلجات : الماء الجارى . (٢) المخاض : الحوامل من الإبل .
(٣) الأوارك التى ترعى الأراك .

بأيدى رجال هاجروا نحو ربهم
وأنصاره حقا وأيدى الملائك
إذا سلكت للغَوْر من بطن عالج(١)
فقولا لها ليس الطريق هنالِك
أقمنا على الرَّس(٢) النَّزوع ثمانيا
بأرعنَ جرار عريض المبارك
بكل كميت(٣) جوزُه نَحلقه
وقبٌّ(٤) طوال مشرفات الحوارك
ترى العرفج(٥) العامئ تذرى أصوله
مناسمُ أخفاف المطىِّ الرواتك(٦)
فإن نلق فى تطوافنا والتماسنا
فراتَ بن حيَّان يكن رهن هالك
وإن نلق قيس بن امرئ القيس بعده
يزد فى سواد لونه لونُ حالك
فأبلغ أبا سفيان عنى رسالة
فإنك من غُرِّ الرجال الصَّعالك

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم النبى الذى ما كان يفارقه أبدا قبل الرسالة وشبيهه وشاعر قريش بعد الزبير بن عبدالمطلب وأبى طالب :

---

(١) مكان به رمل كثير

(٢) الرس : البئر المطوية بالحجارة .

(٣) الكميت : الفرس

(٤) القب : الفحل من الإبل .

(٥) العرفج : شجر .

(٦) رتك البعير : قارب خطوه .

أحسان إنا يا بن آكلة الغفا[١] وجدّك نغتال الخروق كذلك
خرجنا وما تنجو اليعافير[٢] بيننا ولو وألتْ[٣] منا بشدٍّ مُدارك
إذا ما انبعثنا من مُناخ حسبتَه مدمَّن أهل الموسم المتعارك
أقمت على الرس النزوع تريدنا وتتركنا فى النخلِ عند المُدارِك
على الزرع تمشى خيلنا وركابنا فما وطئت ألصقنه بالدَّكادك
أقمنا ثلاثا بين سَلع وفارع بجُرد الجياد والمطىِّ الرَّواتك
حسبتم جلاد القوم عند قبابهم كمأخذكم بالعين أرطال آنك[٤]
فلا تبعث الخيل الجياد وقل لها على نحو قول المعصم المتماسك
سعدتم بها وغيركم كان أهلَها فوارس من أبناء فهر بن مالك
فإنك لا فى هجرة إن ذكرتها ولا حرمات الدين أنت بناسك

---

(١) الغفا : التمر . (٢) اليعافير : الظباء .
(٣) وأل : طلب النجاة .(٤) العين هنا : المال الحاضر ، آنك : القزدير .

١٦

كانت عائشة بنت أبى بكر خفيفة الجسم ذات عينين واسعتين وشعر جعد ووجه مشرق مشرب بحمرة ، وكانت تعرف مكانتها من قلب رسول الله — ﷺ — ، ولكنها كانت تغار من أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب ، وكان يزيد فى غيرتها ذلك التقارب بين أم سلمة وفاطمة الزهراء الذى أحس به كل من يعيشون فى دور النبى عليه السلام .

وكان بين بيت فاطمة وبيت النبى — ﷺ — خوخة وكانت فيه كوة إلى بيت عائشة ، فكان رسول الله — ﷺ — إذا قام اطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرها وخبر أبنائها ، وكانت عائشة تستشعر شيئا من الغيرة من ذلك العطف السابغ الذى يغمر به رسول الله عليه السلام ابنته وزوجها وأبناءهما ، ولكنها كانت تحاول جاهدة أن تخفى ما فى نفسها .

وقالت فاطمة ذات ليلة لزوجها :

— إن ابنىَّ أمسيا عليلين فلو نظرت لنا أدما نستصبح به !

فخرج على إلى السوق فاشترى لها أدما وجاء به إلى فاطمة فاستصبحت ، فقامت عائشة فى جوف الليل فأبصرت المصباح عندهم فكان بينها وبين فاطمة كلام أغضب الزهراء ، فلما أصبحوا وجاء النبى عليه السلام لزيارة ابنته وسبطيه سألت فاطمة النبى — ﷺ — أن يسد الكوة ، فسدها رسول الله — ﷺ — .

كانت عائشة تحب رسول الله — ﷺ — بكل عواطفها وإحساساتها فهو الرجل الأول فى حياتها ، وهو رسول الله الذى يشرف كل أنثى أن تكون له زوجة ، فكانت تبذل كل ما فى وسعها البذل لتثبت مكانتها فى قلبه وتتمنى من أعماق نفسها لو تستطيع أن يكون لها وحدها دون أهل بيته ، فلم تحجم عن الكفاح فى سبيل الاستئثار بحبه .

وكانت ترجو أن يكون لها ولد من رسول الله — ﷺ — كما كان لخديجة ، ولكن الأيام مرت دون أن تنجب ، وكانت غيرتها تتحرك كلما كانت ترى النبى — ﷺ — يسأل عن الحسن والحسين ويلاعبهما ويضاحكهما ويقول إذا حاول أحد أن يبعد أحدهما عنه :

— دعوا لى ابنى .

كانت تستشعر مرارة لأنها عاجزة عن أن تنجب له ولدا يعوضه عن القاسم والطاهر ، وعن أن تشبع عواطف الأمومة التى كانت تتحرك بين ضلوعها كلما ضمت عبد الله ابن أختها أسماء فى أحضانها .

وأحبت أن تكنى وأن تنادى باسم ابن من أبنائها كما تكنى أم سلمة وغيرها من نساء أهل البيت ، فاستأذنت رسول الله — ﷺ — فى الكنية فقال لها عليه السلام :

— اكتنى بابنك عبد الله بن الزبير .

فكانت كنيتها أم عبد الله .

أرادت عائشة أن تحتل مكان خديجة فى دار الرسول وفى قلبه مذ أول يوم وطئت فيه قدماها دار محمد عليه السلام ، ولكن محمدا — ﷺ — كان خالصا لخديجة لم تشاركها فيه امرأة أخرى ، أما هى فقد جاءت إلى دور النبى وقد سبقتها إليها امرأة أخرى هى سودة بنت زمعة العجوز التى

كان زواجه منها عن عطف ومواساة لا عن حب ورغبة .

إنها لم تحس نحو سودة أية غيرة وكانت كثيرا ما تداعبها لتضحك النبى عليه السلام ، وكانت تقسو أحيانا فى مداعبتها وما كانت سودة تغضب إذا ما رأت رسول الله — ﷺ — يبتسم ، فقد كانت غاية أمانيها أن تدخل السرور على قلب الرجل الكريم الذى ضمها إليه لتصبح أول أم للمؤمنين بعد خديجة الطاهرة سيدة نساء قريش .

أعدت عائشة ذات يوم طعاما وجلست إليه هى وسودة ورسول الله بينهما ، وقدمت لسودة الطعام فاعتذرت بأنها لا تحبه ، فقالت لها عائشة مداعبة إنها ستلطخ به وجهها إن لم تأكل منه فعادت سودة تعتذر عن تناوله ، فقامت عائشة ولطخت به وجه سودة وهى تضحك ، فضحك النبى ولم يقل شيئا . فلما رأت سودة ابتسامة النبى عليه السلام لم تغضب ، فقد كان يسعدها أن تراه يضحك . إنها لا تنسى ليلة أن قالت له :

— صليت خلفك الليلة يا رسول الله فركعت بى حتى أمسكت بأنفى مخافة أن يقطر الدم !

إنه تبسم تلك الليلة ضاحكا من قولها ، وإنها كلما تذكرت بسمته أحست راحة ورضا فيكفيها أن تنجح مرة فى أن تدخل السرور على قلبه .

وكانت تعرف حب رسول الله عليه السلام لعائشة فأحبتها لحبه إياها وراحت ترعاها ، فأحبتها عائشة ولم تشعر نحوها غيرة ، وكيف تغار شابة جميلة مثل عائشة من امرأة عجوز لا تريد ما تريد النساء .

وجاءت إلى دور الرسول عليه السلام حفصة بنت عمر ، شباب دافق وأب له مكانته فى الإسلام وبين المسلمين . ليت أبا بكر قد تزوجها يوم أن

عرضها عليه عمر وأراحها من الغيرة التى تتلظى فى أحشائها . ولكن كيف يتزوجها أبو بكر وقد ذكرها رسول الله ، فإن أبا بكر قد قال لعمر بعد أن خطب محمد عليه السلام حفصة :

ــ لا تجد عليّ يا عمر ، فإن رسول الله ــ ﷺ ــ ذكر حفصة ، فلم أكن لأفشى سر رسول الله ــ ﷺ ــ ولو تركها لتزوجها .

كان رسول الله عليه السلام يريد بزواجه عائشة وحفصة أن يوطد الأواصر بصاحبيه أبى بكر وعمر ، فأبو سفيان قد تزوج فى القبائل وزوج أبناءه وبناته لسادات القوم لتكون له العزة بأصهاره وأنسبائه ، ورسول الله ــ عليه السلام ــ قد تزوج من بنتى صاحبيه المؤمنين القويين ليربط بينه وبينهما الأسباب توطيدا لأركان الإسلام .

كان رسول الله ــ ﷺ ــ يتزوج لحكمة ، وكانت عائشة تفطن إلى تلك الحكمة . ولكن طبيعتها البشرية كانت تغلبها فكانت تغار من كل أنثى تدخل دور الرسول كزوجة . وقد لسعتها عقارب الغيرة من بنت عمر وإن كانت واثقة من أنها هى نفسها أحب نساء النبى إلى قلب النبى .

ووفدت على دور النبى عليه السلام زينب بنت خزيمة ، ولم تحفل عائشة لمقدمها كثيرا فلم تكن ذات جمال ، وقد انصرفت إلى رعاية المساكين والحدب عليهم والبر بهم حتى عرفت بأم المساكين ، وكانت قريرة العين بالشرف الرفيع الذى نالته بالأمومتين اللتين عرفت بهما : أم المؤمنين وأم المساكين ، ولم يطل بها المقام فى دور الرسول عليه السلام فقد ماتت بعد بضعة أشهر دون أن تحاول أن تنافس عائشة حبها أو تستأثر بقلب الزوج الكريم الذى ضمها إليه شفقة بها ورحمة .

وقدمت إلى دور النبى عليه السلام أم سلمة بنت زاد الركب وكانت

ذات جمال وشرف فحزنت عائشة حزنا شديدا ، وقد كانت أم سلمة زوجة ابن عمة الرسول وأخيه فى الرضاعة فكان رسول الله عليه السلام يعتبرها من أهله ، وقد توطدت الصداقة بينها وبين فاطمة الزهراء . فرأت عائشة أن تضم إليها بنت الخطاب وأن تكون منهما حزبا يقف فى وجه حزب الزهراء وأم سلمة .

كانت الزهراء سعيدة فى كنف أبويها ، فلما ماتت خديجة سيدة نساء قريش كانت فاطمة ترعى أباها وتحاول أن تمسح عن قلبه حزنه الكبير على من كانت له وزير صدق على الدوام ، حتى عرفت فاطمة بأم النبى . فلما جاءت عائشة إلى دار النبي لتحتل مكان خديجة أحست فاطمة نحوها بإحساسات غيرة الابنة ممن أخذت مكان أمها . وأحب رسول الله عليه السلام بنت أبى بكر وعرف الناس أنها زوجه الأثيرة عنده ، فلم ترتح الزهراء إلى أن تقاسمها عائشة قلب أبيها وعطفه الكبير . ولما كانت النساء محدثات الليل فقد حدثت فاطمة عليا زوجها بما تشعر به نحو عائشة فانتقل ما فى نفسها إلى صدر ابن أبى طالب ، فأصبح ينظر إلى بنت الصديق بعين فاطمة ويحس نحوها بإحساسات زوجه .

وكانت عائشة تتيه على ضرائرها بأن الوحي ينزل فى دارها وكان ذلك حقا حتى ذلك الوقت ، فما نزل الوحي فى دار سودة ولا حفصة ولا زينب بنت خزيمة ولا أم سلمة ، وقد قالت عائشة :

ـــ تبارك الذى وسع سمعه كل شيء . إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهى تقول : يا رسول الله أبلى شبابى ونثرت له بطنى حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ظاهر منى . اللهم إنى أشكو . فما برحت حتى نزل جبريل

عليه السلام بقول الله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله .. ﴾(١) .

كانت خولة بنت ثعلبة عند أوس بن الصامت أخى عبادة بن الصامت ، فدخل عليها ذات يوم وكلمها بشيء وهو فيه كالضجر ، فردته بغضب فقال :

ـــ أنت علىّ كظهر أمى .

ثم خرج فى نادى قومه ثم رجع إليها فراودها عن نفسها فامتنعت منه ، فحاول أن يضمها إليه قسرا فدفعته وهى تقول :

ـــ كلا والذى نفس خولة بيده لا تصل إلىّ حتى يحكم الله تعالى فىّ وفيك بحكمه .

وانطلقت إلى رسول الله عليه السلام وكان عند عائشة ، وراحت تجادله وعائشة فى جانب البيت لا تدرى ما يقول ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير * الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسَّا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾(٢) . ورفع عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ الوحى فالتفت إلى

(١) المجادلة ١ (٢) المجادلة ١ ـــ ٤

خولة وقال :

— مريه فليعتق رقبة .

— يا نبى الله والله ما عنده رقبة يعتقها .

— مريه فليصم شهرين متتابعين .

— يا نبى الله شيخ كبير ما به من صيام .

— فليطعم ستين مسكينا .

— يا نبى الله والله ما عنده ما يطعم .

— بلى ، سنعينه بعرق من تمر مكتمل يسع ثلاثين صاعا .

— وأنا أعينه بعرق آخر .

— قد أحسنت ، فليتصدق .

١٧

كان بدومة الجندل جمع كثير يظلمون من مر بهم ، يغيرون على القوافل يقتلون الرجال ويسبون النساء ويأخذون ما بها من أموال . وكانت دومة الجندل أقرب مدن الشام إلى المدينة فبينها وبينها ست عشرة ليلة وبينها وبين دمشق خمس ليال وهى بقرب تبوك .

كان بها أبناء دومة بن إسماعيل عليه السلام قد طال عليهم الأمد وقست قلوبهم وعبدوا الأوثان بعد التوحيد ومارسوا غزو القوافل وقطع الطريق ، وقد عزموا على أن يمدوا نشاطهم ويدنوا من المدينة ويغيروا على ما يخرج منها من قوافل أو يهاجموا أطرافها ثم يعودون بما سلبوا من غنائم وما وقع فى أيديهم من أسرى إلى مدينتهم الحصينة .

وبلغ رسول الله — ﷺ — ما يدبر رجال دومة الجندل فلم ينتظر حتى يفاجئوه بهجومهم بل ندب الناس للخروج ، فخرج فى ألف من المسلمين واستخلف على المدينة سباع بن عرفقة الغفارى ، وخرجت معه عليه السلام عائشة بنت أبى بكر فى هودجها مع نساء المسلمين . وراحوا يسيرون بالليل ويكمنون النهار ، وكان دليله عليه السلام من بنى عذرة يقال له مذكور ، حتى إذا كانوا بالبيداء انقطع عقد لعائشة فأقام رسول الله — ﷺ — على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فأتى الناس إلى أبى بكر فقالوا :

— ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله — ﷺ —

وليسوا على ماء وليس معهم ماء .

فجاء أبو بكر إلى عائشة ورسول الله — ﷺ — واضع رأسه على فخذها قد نام ، فقال :

— حبست رسول الله — ﷺ — والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء .

وغدا أبو بكر يعاتبها وجعل يطعن بيده فى خاصرتها ، ولا يمنعها من التحرك إلا مكان رأس رسول الله — ﷺ — على فخذها ، فقام رسول الله — ﷺ — حين أصبح على غير ماء . فأنزل الله تعالى : ﴿ ... وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا ﴾[1] .

فقام المسلمون مع رسول الله — ﷺ — فضربوا بأيديهم إلى الأرض ثم رفعوا أيديهم ولم ينفضوا من التراب شيئا ، فمسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب ومن بطون أيديهم إلى الآباط ثم وقفوا خلفه يصلون وقد أضاء الفجر البيداء وأشرقت نفوسهم بأنوار اليقين ، وقضيت الصلاة فقال أسيد بن الحضير :

— ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر .

وجاء أوان الرحيل فبعث رجال البعير الذى كانت عليه عائشة فوجدوا العقد ، ففرحت به عائشة . وانطلق المسلمون فى طريق الشام قاصدين دومة الجندل ليؤدبوا من يظلمون من مر بهم ولينزلوا الرعب فى قلوبهم حتى ينثنوا عن فكرة الدنو من المدينة .

---

(١) النساء ٤٣ .

ودنا رسول الله — ﷺ — من أهل دومة الجندل فإذا هم مغرّبون وإذا آثار النعم والشاء ، فهجم على ماشيتهم ورعائهم فأصاب من أصاب وهرب من هرب .

وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرقوا ، ونزل رسول الله — ﷺ — بساحتهم فلم يجد بها أحدا ، فأقام بها أياما وبث السرايا وفرقها فرجعت ولم تصب منهم واحدا وأخذ منهم رجل واحد ، فسأله رسول الله — ﷺ — عنهم فقال :

— هربوا حيث سمعوا أنك أخذت نَعَمهم .

فعرض عليه الإسلام فأسلم . ورجع رسول الله — ﷺ — إلى المدينة ، وفى رجوعه رأى عيينة بن حصن يرعى بمحل بينه وبين المدينة ستة وثلاثون ميلا لأن أرضه كانت قد أجدبت ، فصالحه عليه السلام وتركه يرعى حتى يسمن حافره وخفه ، وكان يقال لعيينة الأحمق المطاع ، كان يتبعه عشرة آلاف فتاة .

ودخل المسلمون المدينة فاتجه عليه السلام إلى المسجد فصلى لله ركعتين ، ثم بدأ ببيت ابنته الزهراء فلما دخل عليها قامت إليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلتها وراحا يتحدثان ، فما كان أحد من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله — ﷺ — من فاطمة .

وراح يدور على بيوت نسائه : سودة بنت زمعة وحفصة بنت عمر وأم سلمة ، ودخلت عائشة بنت أبى بكر دارها لتستريح من وعثاء الطريق .

وخرج عليه السلام إلى أصحابه فإذا سعد بن معاذ يقبل عليه بوجه باسر فقد ماتت أمه وهو مع رسول الله — ﷺ — ، فذهب عليه السلام

إلى قبرها وصلى عليها وقد تذكر ما كان منها يوم أُحد . إنها خرجت تعدو نحوه وهو واقف على فرسه وابنها سعد آخذ بعنان فرسه ، فقال سعد :

ــ يا رسول الله أمى .

ــ مرحبا بها .

فدنت حتى تأملته فعزاها بابنها عمرو بن معاذ ، فقالت :

ــ أما إذ رأيتك سالما فقد اشتويت المصيبة .

ــ يا أم سعد بشرى أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا فى الجنة جميعا وقد شفعوا فى أهليهم .

ــ رضينا يا رسول الله ومن يبكى عليهم بعد هذا ؟

صلى عليه السلام على قبرها بعد شهر من موتها . ولما أتم صلاته دنا منه سعد بن معاذ وقال :

ــ يا رسول الله أتصدق عنها ؟

ــ نعم .

ــ أى الصدقة أفضل ؟

ــ الماء .

فحفر بئرا وقال :

ــ هذه لأم سعد .

وراح رسول الله يطوف على أصحابه فى عالية المدينة وفى سافلها حتى أتى بنى ظفر ، فجلس على الصخرة ومعه ابن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه ، فالتفت إلى ابن مسعود فقال :

ــ اقرأ علىّ .

فقال عبد الله بن مسعود فى دهش :

— أقرأ عليك وعليك أنزل ؟

— نعم إنى أحب أن أسمعه من غيرى .

وراح ابن مسعود يتلو : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا * وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا * وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا * وآتوا النساء صدُقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا * ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا ﴾(١) .

واستمر ابن مسعود يقرأ سورة النساء حتى أتى إلى هذه الآية : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » . فقال عليه السلام :

— حسبك الآن .

فبكى رسول الله — ﷺ — حتى اضطرب لحياه وجنباه ، فقال :

— يا رب ، شهدتُ على من أنا بين ظهريه فكيف بمن لم أره ؟

ثم صمت قليلا وقال :

— شهيد عليهم ما دمتُ فيهم ، فإذا توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم .

---

(١) النساء ١ — ٥

١٨

لما أراد زيد بن حارثة أن يتزوج زينب بنت جحش جاء إلى النبى عليه السلام وقال :

ـــ يا رسول الله اخطب على .

ـــ من ؟

ـــ زينب بنت جحش .

كانت زينب ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، وكان زيد مولاه وقد اختاره على أبيه وأبى مفارقته ، فأخذ رسول الله ـــ ﷺ ـــ بيده وقام به على الملأ من قريش فأشهدهم أن زيدا ابنه وارثا وموروثا .

كانت زينب ابنة عمته وكان زيد ابنه ، ولم تكن امرأة خيرا منها فى الدين وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد بذلا فى نفسها فى العمل الذى تتصدق به وتتقرب إلى الله عز وجل ، ولم يكن شاب خيرا منه فى الدين فهو ربيب نبى الله الذى نهل الحكمة من أصفى ينابيعها وأغزرها ، وكان حب رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، فكان كفؤا لابنة عمة رسول الله عليه السلام . ولكن تقاليد الجاهلية لم تكن قد انمحت بعد من نفوس المسلمين ، وكان النبى عليه السلام يعلم ذلك فقال له :

ـــ لا أراها تفعل ، إنها أكرم من ذلك نفسا .

ـــ يا رسول الله إذا كلمتها أنت وقلت زيد أكرم الناس على فعلت .

ـــ إنها امرأة لسناء .

فذهب زيد إلى على بن أبى طالب ، إلى الرجل الذى شب معه فى كنف خديجة فى بيت النبوة فحمله على أن يكلم له النبى — ﷺ — ، فانطلق معه إلى النبى عليه السلام فكلمه ، فقال :

— إنى فاعل ذلك ومرسلك يا على إلى أهلها فتكلمهم .

وانطلق على إليها وحدث أخاها أبا أحمد بن جحش فرفض ورفضت ، وعاد على إلى النبى عليه السلام ، وأخبره بكراهتها وكراهة أخيها .

كان فى زواج زيد من زينب بنت جحش حكمة وتشريع ، ولولا ذلك ما بعث نبى الله الذى يحترم رغبة المرأة ويترك لها حق إبداء رأيها فى بعلها إلى زينب ابنة عمته وأخيها وأهلها يقول :

— قد رضيته لكم وأقضى أن تنكحوه .

ورضيت زينب بقضاء رسول الله — ﷺ — وقبلت أن تتزوج الشريفة سليلة المطلبيين عبدا ، فقد كانت مؤمنة عميقة الإيمان وكانت تعرف أنه ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم .

وساق زيد لهم عشرة دنانير وستين درهما ودرعا وخمارا وملحفة وإزارا وخمسين مدا من الطعام وعشرة من التمر ، أعطاه ذلك كله رسول الله — ﷺ — ، ولا غرو فهو زيد بن محمد .

وبنى زيد بزينب وأكد الإسلام أن الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى ولا أبيض على أسود ولا حر على عبد إلا بالتقوى ، وأن الناس لآدم وآدم من تراب ، ومن أراد أن يتفاخر فليتفاخر بالتراب .

وكان زيد أفطس الأنف ولم يكن جميل الصورة فلم ينشرح له قلب

زينب ، ولم يكتب للبيت الجديد السعادة . وأحس زيد نفورا من زوجه ، ولما كان ربيب النبى فقد غذى على الكرامة ، أبى أن يرتبط بزوجة زاهدة فيه . فذهب إلى رسول الله — ﷺ — يعرض عليه أن يطلقها فقال له النبى عليه السلام :

— ما لك ؟ أرابك منها شيء ؟

— لا والله يا رسول الله ما رابنى منها شيء ولا رأيت إلا خيرا ، ولكنها تتعظم علىّ لشرفها وإن فيها كبرا ، تؤذينى بلسانها .

— أمسك عليك زوجك .

حطم زواج زيد من زينب حلقة من تقاليد الجاهلية : ترفُّع السادة عن الزواج من العبيد وإن كانوا أتقياء أكفاء ، وكان هناك حلقة أخرى كتب على رسول الله — ﷺ — أن يحطمها ، فقد كان العرب قبل الإسلام لا يتزوجون أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا .

كانت زينب كارهة للبقاء مع زيد ، وكان زيد يأتى إلى رسول الله يلتمس منه أن يوافق على طلاق ابنه لابنة عمته عليه السلام ، وكانت الحكمة تقضى أن يقبل عليه السلام ذلك الفراق وأن يخطب ابنة عمته لنفسه لتتم شريعة الإسلام وليعوضها عن تضحيتها الغالية إطاعة لله ورسوله ، ولكنه يخشى الناس فقال لزيد :

— أمسك عليك زوجك .

وأصبحت الحياة بين زينب وزيد لا تطاق وكان لا بد من الطلاق ، فلما وقع وانقضت عدتها كان لا بد أن تتم حكمة زواج زيد من زينب ثم انفصالهما ، وما كانت تلك الحكمة لتتم إلا بأن يتقدم رسول الله — ﷺ — ليخطب زينب ، فأرسل زيد بن حارثة يخطبها له ، فذهب

زيد إليها وجعل ظهره إلى الباب فقال :

— يا زينب بعث رسول الله — ﷺ — يذكرك .

كانت زينب امرأة لم تكن امرأة خيرا منها فى الدين ، فاعتكفت تصلى لله تنتظر أمر السماء فيما عرض عليها ابن خالها رسول الله — ﷺ .

وأنزل الله تعالى : ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا * ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا * الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا ﴾(١) .

فدخل رسول الله — ﷺ — على زينب بغير إذن يتلو عليها ما أنزل الله فإذا بها تتهلل بالفرح فقد كانت تنتظر أمر الله فى هذا الزواج فإذا بالله تعالى أنكحها رسوله من فوق سبع سموات .

وفى هلال ذى القعدة سنة أربع من الهجرة تزوجها نبى الله وأولم عليها وأطعم المساكين خبزا ولحما ، وطعم القوم وتهيأ — ﷺ — للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام وقام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبى — ﷺ — ليدخل فإذا القوم جلوس فلم يدخل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلك كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم

---

(١) الأحزاب ٣٧ — ٣٩

وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا وإن ذلكم كان عند الله عظيما * إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما * لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا ﴾(١) .

ولم تنم المدينة تلك الليلة ، كان زواج النبى عليه السلام من ابنة عمته حديث الدور ، وراح المؤمنون يتلون الآيات التى نزلت على نبى الله — ﷺ — فى بيت عائشة فرحين ، بينا تكلم فى ذلك المنافقون فقالوا :

— حرم محمد نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه .

فأنزل الله عز وجل : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾(٢) .

وظل الناس ينادون زيد بن حارثة بزيد بن محمد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل * ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما ﴾(٣) .

وكانت زينب مفزع اليتامى والأرامل وأطول نساء النبى — ﷺ — يدا ، كانت تقضى نهارها فى محرابها وتقوم الليل إلا قليلا ، وقد قال رسول الله — ﷺ — لعمر :

---

(١) الأحزاب ٥٣ — ٥٥ (٢) الأحزاب ٤٠ (٣) الأحزاب ٣ — ٥

ــ إن زينب بنت جحش أوّاهة .

فقال رجل :

ــ يا رسول الله ما الأوّاه ؟

ــ الخاشع المتضرع و﴿ إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب ﴾[١] .

وأصبحت زينب بنت جحش تسامى عائشة بنت أبى بكر فى المنزلة عند رسول الله ــ ﷺ ــ ، وأخذ عائشة ما قرب وما بعد لما تعرف من جمال زينب ، وعلى الرغم من غيرتها فإنها لم تقل إلا خيرا ، قالت :

ــ ولم أر امرأة قط خيرا فى الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى يتصدق به ويتقرب به إلى الله عزو وجل .

ولا غرو فقد كانت عائشة تترعرع فى مدرسة القرآن وتتلقى العلم من رسول الله عليه السلام وتتأدب بآدابه وتنهل من كريم أخلاقه .

وكانت زينب بنت جحش التقية النقية تعرف مكانتها فى دور النبى عليه السلام ، فقد قالت لنساء النبى ذات يوم :

ــ أنا أكرمكن وليا وأكرمكن سفيرا : زوجكن أهلكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات !

(١) هود ٧٥

١٩

بلغ رسول الله — ﷺ — أن الحرث بن ضرار سيد بنى المصطَلق جمع لحرب رسول الله — ﷺ — من قدر عليه من قومه ومن العرب ، فأرسل عليه السلام بريدة بن الحُصيب ليعلم علم ذلك . واستأذن بريدة رسول الله عليه السلام أن يقول ما يتخلص به من شرهم وإن كان خلاف الواقع ، فأذن له رسول الله — ﷺ — .

وخرج بريدة من المدينة إلى بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة لهم ماء يعرف بالمريسيع وذلك الماء فى ناحية قديد حيث يقوم صنم مناة ، وكانت إلهة الأوس والخزرج قبل أن يلقى الله فى قلوبهم أنوار اليقين ومن ظل على دينه من خزاعة . واستمر بريدة يضرب فى الأرض حتى ورد عليهم ورأى جمعهم ، فقالوا له :

— من الرجل ؟

— رجل منكم قدمت لما بلغنى من جمعكم لهذا الرجل ، فأسير فى قومى ومن أطاعنى فنكون يدا واحدة حتى نستأصلهم .

فقال له الحرث :

— فنحن على ذلك فعجل علينا .

— أركب الآن فآتيكم بجمع كثير من قومى .

فسروا بذلك منه ورجع إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره خبر القوم فندب رسول الله — ﷺ — الناس إليهم فأسرعوا الخروج ، وقادوا

الخيل وهى ثلاثون فرسا عشرة للمهاجرين منها فرسان له — ﷺ : اللزاز والظرب ، وعشرون للأنصار ، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة . وخرج معه عليه السلام من نسائه عائشة وأم سلمة ، وخرج معه — ﷺ — ناس كثير من المنافقين لم يخرجوا فى غزوة قط مثلها منهم عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين وزيد بن الصلت ليس لهم رغبة فى الجهاد ولكن غرضهم أن يصيبوا من عرض الدنيا مع قرب المسافة .

وسار رسول الله — ﷺ — حتى بلغ محلا نزل به ، فأتى برجل من عبد القيس فسلم على رسول الله — ﷺ — ، فقال له عليه السلام :

— أين أهلك ؟

— بالروحاء .

— أين تريد ؟

— إياك ، جئت لأومن بك وأشهد أن ما جئت به حق وأقاتل معك عدوك .

— الحمد لله الذى هداك للإسلام .

— أى الأعمال أحب يا رسول الله ؟

— الصلاة لأول وقتها .

ووجه الحرث رجلا ليأتيه بخبر رسول الله — ﷺ — فوقع فى أيدى المسلمين ، فسأله رسول الله — ﷺ — عن الحرث والذين معه فلم يذكر من شأنهم شيئا ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فأمر رسول الله — ﷺ — عمر بن الخطاب أن يضرب عنقه فضرب عنقه وكان ذلك جزاء كل عين على الجيوش يفتضح أمره .

وبلغ الحرث مسير رسول الله — ﷺ — وأنه قتل عينه فسىء بذلك

ومن معه وخافوا خوفا شديدا ، وتفرق عنه جمع كثير ممن كان معه . وانتهى رسول الله — ﷺ — إلى المُرَيْسيع فضربت له قبة من أدم وكان معه فيها عائشة وأم سلمة ، فتهيأ المسلمون للقتال ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة ، وأمر رسول الله — ﷺ — عمر بن الخطاب أن يقول لهم :

— قولوا لا إلٰه إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم .

كان عمر سفير قريش فى الجاهلية فأصبح سفير المسلمين فى الإسلام ، فمشى إلى الحرث ومن معه وقال لهم :

— قولوا لا إلٰه إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم .

عرض عليهم رسول الله — ﷺ — أن يجنحوا للسلم وأن يدخلوا فى دين الله وكان إسلامهم أحب إليه من قتالهم ، ولكنهم أبوا السلام والإسلام فنشب القتال فتراموا بالنبل ساعة ، ثم أمر رسول الله — ﷺ — أصحابه فحملوا حملة رجل واحد ، وضج المكان بشعار المسلمين :

— يا منصور أمت .

وثبت الحرث والذين معه وصفوا للقتال ، ومشى الرجال إلى الرجال وإذا بسيوف ترتفع لتسقط على هامات الرجال ، وإذا بالله يلقى الرعب فى قلوب المشركين فقتل منهم عشرة وأسر سائرهم الرجال والنساء والذرية ، واستاق رسول الله — ﷺ — إبلهم وشياههم ، فكانت الإبل ألفى بعير والشياء خمسة آلاف شاة . واستعمل — ﷺ — على ذلك مولاة شُقران ، وكان السبى مائتى أهل بيت وكانت برة بنت الحرث سيد بنى المصطلق فيهم .

وأمر رسول الله — ﷺ — بالأسارى فكتفوا واستعمل عليهم بُرَيْدة ، ثم فرق السبى فصار فى أيدى الناس ، وبعث — ﷺ — أبا ثعلبة الطائى إلى المدينة بشيرا من المريسيع .

ووقعت برة بنت الحرث فى سهم ثابت بن قيس وابن عم له ، فجعل ثابت لابن عمه نخلات له بالمدينة فى حصته من برة ، وأرادت أن تسترد حريتها فكاتبت ثابت على تسع أواق من ذهب فوجدت أن لا طاقة لها بدفع ما طلب ، فانطلقت إلى قبة رسول الله — ﷺ — تعرض عليه أمرها .

كان النبى — ﷺ — عند عائشة فقدمت بَرَّة تلتمس مقابلة رسول الله — ﷺ — ، فوالله ما هو إلا أن رأتها عائشة بباب الخباء فكرهت دخولها على النبى — ﷺ — وعرفت أنه سيرى منها مثل الذى رأت ، كانت برة فى العشرين من عمرها جميلة ذات شخصية آسرة تأخذ بمجامع القلوب ، لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه .

ودخلت برة على رسول الله — ﷺ — فقالت له :

— يا رسول الله إنى امرأة مسلمة لأنى أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأنك رسول الله ، وإنى برة بنت الحرث سيد قومه أصابنا من الأمر ما قد علمت ووقعت فى سهم ثابت بن قيس وابن عم له ، وخلصنى ثابت من ابن عمه بنخلات فى المدينة وكاتبنى على ما لا طاقة لى به ، وإنى رجوتك فأعنى فى مكاتبتى .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— أوَخير من ذلك ؟

— ما هو ؟

— أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك .

ــ نعم يا رسول الله قد فعلت .

فأرسل رسول الله ــ ﷺ ــ إلى ثابت بن قيس فطلبها منه ، فقال ثابت :

ــ هى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى .

فأدى رسول الله ــ ﷺ ــ ما كان كاتبها عليه وأعتقها وتزوجها وسماها جُوَيْرِية .

وكان هوى خُزاعــة مع رسول الله ــ ﷺ ــ ، وقــد أراد ــ ﷺ ــ بزواجه من جويرية أن يصبح الخزاعيون أصهاره لعل ذلك يشرح صدورهم للإسلام .

ورأى المسلمون أنه ــ ﷺ ــ تزوج جويرية فقالوا فى حق بنى المصطلق :

ــ أصهار رسول الله ــ ﷺ ــ .

فأعتقوا ما بأيديهم منهم وجاءت جارية من بنات عم جويرية تخبرها الخبر ، فاغرورقت عينا جويرية من التأثر ثم خرت ساجدة لله رب العالمين أن جعلها بركة على قومها .

واختصم جَهجاه أجير لعمر بن الخطاب ، كان يقود له فرسه مع رجل من حلفاء الخزرج حليف عبد الله بن أُبَىّ بن سلول يقال له سنان بن قروة وكان المسلمون لا يزالون على ماء المريسيع فضرب أجير عمر حليف الخزرج فسال الدم ، فنادى حليف الخزرج :

ــ يا للخزرج !

ونادى أجير عمر :

ــ يالكنانة ! يا لقريش !

وسمع عبد الله بن أُبىّ بن سلول النداء فغضب وكان عنده رهط من قومه من الخزرج من المنافقين ، وكان عندهم زيد بن أرقم وهو غلام حديث السن ، فقال عبد الله بن أُبىّ :

ــ والله ما رأيت كاليوم مذلة وقد فعلوها ، نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وقريش هؤلاء إلا كما قال الأول فى أمثالهم : سمن كلبك يأكلك . والله إنى لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفا يهتف بما سمعت . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منا الأذل .

ثم أقبل على من حضر من قومه فقال :

ــ هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضا للمنايا فقُتلتم دونه فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد .

فثارت الدماء فى عروق زيد بن أرقم فقال لابن أبى :

ــ أنت والله الذليل المنقص فى قومك . ومحمد ــ ﷺ ــ فى عز من الرحمن وقوة من المسلمين .

فغاص لون ابن أبى وامتقع فقد كان يحسب أن الحاضرين كلهم من المنافقين وما كان يدرى أن عندهم غلاما حديث السن أضاء الله بصيرته وألقى فى قلبه أنوار اليقين ، فقال ابن أبى فى صوت مضطرب :

ــ اسكت ، إنما كنت ألعب .

وأقبل جمع من الجيشين وشهروا السلاح حتى كاد أن تكون فتنة عظيمة ، فخرج رسول الله ــ ﷺ ــ فقال :

ــ ما بال دعوى الجاهلية ؟

— رجل من المهاجرين ضرب رجلا من الأنصار .

إنها دعوى مذمومة تثير الأحقاد وتدعو إلى الفرقة بين المسلمين بعد أن ألف الله بينهم ، فقال — ﷺ :

— دعوها إنها مفتنة (مذمومة) ، من دعا دعوى الجاهلية كان من محشيى جهنم .

— وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم ؟

— وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم .

ثم كلموا ذلك المضروب فترك حقه فسكنت الفتنة وانطفأت ثائرة الحرب ، ولكن زيد بن أرقم كان كالمحموم يريد أن يمشى إلى رسول الله — ﷺ — ليخبره خبر عبد الله بن أبى رأس المنافقين . وفيما هو يجد فى السير نحو نبى الله عليه السلام إذ التقى بعمر بن الخطاب فقص عليه ما سمع فى مجلس النفاق ، فانطلق عمر إلى رسول الله — ﷺ — فذكره للنبى عليه السلام فدعا زيدا فحدثه ، فكره رسول الله — ﷺ — ذلك وتغير وجهه وقال له :

— يا غلام لعلك غضبت عليه !

— والله يا رسول الله لقد سمعته منه .

— لعله أخطأ سمعك .

ولامه من حضر من الأنصار وقالوا :

— عمدت إلى سيد قومك تقول عليه ما لم يقل .

وقام زيد بن أرقم يجر رجليه وقد أصابه هم لم يصبه قط لما كذبه رسول الله عليه السلام .

وانطلق إلى الخباء وهو حزين فجاء إليه عمه فقال له :

— ما أردت إلا أن كذبك رسول الله — ﷺ — ومقتك .

فقال زيد والدموع فى مآقيه :

— والله لقد سمعت ما قال ولو سمعت هذه المقالة من أبى لنقلتها إلى رسول الله — ﷺ — ، وإنى لأرجو أن ينزل الله على نبيه ما يصدق حديثى .

وجلس رسول الله فى فىء شجرة وقد تغير وجهه ، فجاء عمر إلى رسول الله — ﷺ — عنده غليم أسود يكبس ظهره فقال عمر :

— يا رسول الله كأنك تشتكى ظهرك .

— تقحمت بى الناقة الليلة (أى ألقته عليه السلام) .

— يا رسول الله ائذن لى أن أضرب عنق ابن أبى أو مر محمد بن مسلمة بقتله .

— كيف يا عمر إذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه ؟

وذهب بعض الأنصار الذين سمعوا قول النبى — ﷺ — ورده على الغلام إلى ابن أبىّ فقال له :

— يا أبا الحباب إن كنت قد قلت ما نقل عنك فأخبر به النبى — ﷺ — فليستغفر لك ولا تجحده فينزل فيك ما يكذبك ، فإن كنت لم تقله فأت رسول الله — ﷺ — فاعتذر له واحلف ما قلته .

فحلف بالله العظيم ما قال من ذلك شيئا . ثم مشى إلى رسول الله — ﷺ — فقال له رسول الله — ﷺ — :

— يا بن أبى إن كانت سبقت منك مقالة فتب .

— والذى أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك وإن زيدا لكاذب .

فقال من حضر رسول الله — ﷺ — من الأنصار :

— يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل .

— يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا يصدق عليه غلام .

وجاء عبد الله ولد عبد الله بن أبى لما بلغه مقالة عمر من قتل أبيه إلى رسول الله عليه السلام فقال :

— إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرنى أن أحمل لك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده منى . إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار .

— ما أردت قتله ولا أمرت به ، ولنحسنن صحبته ما كان بين أظهرنا .

وشاع الخبر ولم يعد للناس حديث إلا ما رواه زيد عن عبد الله بن أبى ، أناس يكذبون زيد بن الأرقم ، وأناس يصدقون مقالته . واستولى على زيد هم ثقيل فراح يبتهل إلى الله بكل كيانه أن ينزل على نبيه ما يصدق حديثه .

وخشى رسول الله — ﷺ — أن تشيع الفتنة فى الناس فأذن بالرحيل ، وكان ذلك فى ساعة لم يكن يرحل فيها لشدة الحر ، فارتحل الناس وسار رسول الله — ﷺ — فجاءه أسيد بن حُضير وقال له :

— السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته .

— وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .

— يا نبى الله لقد رحلت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها .

— أما بلغك ما قال صاحبكم ؟

— أى صاحب يا رسول الله ؟

— عبد الله بن أُبيّ بن سلول .

— وما قال ؟

— زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل .

— فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز .

وصمت أُسيد بن حضير قليلا ثم قال :

— يا رسول الله الرفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ما بقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودى ، فإنه ليرى أنك استلبته ملكا .

ثم سار رسول الله — ﷺ — بالناس سيرا حثيثا وصار يضرب راحلته بالسوط أسفل بطنها ، وسار يومهم ذلك وليلتهم وصدر ذلك اليوم الثانى حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياما ، وقد فعل — ﷺ — ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أُبى بن سلول .

وغابت ناقة رسول الله — ﷺ — القصواء من بين الإبل فجعل المسلمون يطلبونها من كل وجه وقد أرخى الليل سدوله ، فنظر زيد بن الصلت ، وكان منافقا إلى المسلمين وهم يخرجون فى طلب القصواء وقال وهو فى مجمع من الأنصار :

— أين يذهب هؤلاء فى كل وجه ؟

— يطلبون ناقة رسول الله — ﷺ — قد ضلت .

— ألا يخبره الله بمكانها ؟ كيف يدعى أنه يعلم الغيب ولا يعلم مكان

ناقته ولا يخبره الذى يأتيه بالوحى ؟

فأنكر عليه القوم وقالوا :

— قاتلك الله يا عدو الله نافقت .

وأرادوا قتله فعمد هاربا إلى رسول الله — ﷺ — متعوذا به ، فقال رسول الله عليه السلام وذلك الرجل يسمع :

— إن رجلا من المنافقين شمت أن ضلت ناقة رسول الله — ﷺ — وقال : ألا يخبره الله بمكانها ؟ والله لقد أخبرنى بمكانها ولا يعلم الغيب إلا الله وإنها فى الشعب مقابلكم قد مست زمامها بشجرة فاعمدوا نحوها .

فأتوا بها من حيث قال — ﷺ — فقام ذلك الرجل سريعا إلى رفقائه فقالوا له حين دنا :

— لا تدن منافقا .

فقال لهم فى دهش :

— أنشدكم الله هل أتى أحد منكم محمدا فأخبره خبرى ؟

— لا والله ولا قمنا من مجلسنا .

— إنى وجدت ما تكلمت به عنده .

وأوقع — ﷺ — السباق بين الإبل فسابق بلال على ناقته — ﷺ — القصواء فسبقت غيرها من الإبل . واستمر المسلمون يضربون فى الأرض قاصدين المدينة وزيد بن أرقم يسترق النظر إلى عبد الله ابن أبى وهو حزين يبتهل من أعماقه إلى الله أن يفضح ابن أبى كبير المنافقين وأن ينزل على رسوله ما يصدق حديثه .

٢٠

دنا المسلمون من المدينة راجعين فنزل رسول الله — ﷺ — والذين معه ليستريحوا قبل أن يدخلوا على أهليهم ، بعد غيبة ثماني وعشرين ليلة ملأت قلوبهم شوقا إلى الأحبة .

وجاء الليل فأذن بالرحيل ، فقامت عائشة وذهبت لتقضى حاجة حتى تجاوزت الجيش ، فلما قضت شأنها أقبلت إلى رحلها فإذا عقد لها من جزع ظفار (خرز من بلدة ظفار باليمن) كان ثمنه يسيرا لا يساوى أكثر من اثنى عشر درهما قد انقطع ، فذهبت إلى التماسه فى المحل الذى قضت فيه حاجتها وحبسها التماسه .

وأقبل أبو مويهبة مولى رسول الله ، والرهط الذين كانوا يجعلون هودجها على الرحل فاحتملوا هودجها فرحلوه على بعيرها الذى كانت تركب وهم يحسبون أنها فيه ، ولم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه فقد كان النساء خفافا لقلة أكلهن ، وساروا حتى اختفت القافلة فى جوف الليل البهيم .

ووجدت عائشة عقدها فجاءت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، وأقامت بمنزلها الذى كانت فيه وظنت أنهم سيفتقدونها فيرجعون إليها ، فبينا هى جالسة فى منزلها غلبتها عينها فنامت .

وكان صفوان السلمى على ساقة الجيش يتخلف عن الجيش ليلتقط ما يسقط من متاع ، فسار ليلا حتى أصبح عند منزل عائشة فرأى سوادا

فأتاه ، فإذا عائشة أم المؤمنين نائمة فقال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، أظعينة رسول الله ؟!

فاستيقظت عائشة باسترجاعه فخمرت (حجبت) وجهها بجلبابها ، ثم قرب البعير وقال :

— أمّة قومى فاركبى .

إنه يحترمها ويجلها ويعظمها فهى أم المؤمنين وزوج رسول رب العالمين ، وصمت ما يكلمها كلمة وأخذ برأس البعير وسار ليلحق بركب المؤمنين .

وانتهى رسول الله — ﷺ — إلى وادى العقيق فتقدم عبد الله بن عبدالله بن أبىّ بن سلول وجعل يتصفح الركاب حتى مر أبوه فأناخ به ثم وطىء على يد راحلته ، فقال أبوه :

— ماذا تريد يا لكع[1] ؟

— والله لا تدخل حتى تقر أنك الذليل وأن رسول الله — ﷺ — العزيز حتى يأذن لك رسول الله ، لتعلم أيكما الأعز من الأذل أنت أو رسول الله — ﷺ — :

— أنت من بين الناس .

— نعم أنا من بين الناس . لئن لم تقر لله ولرسوله بالعزة لأضربن عنقك .

— ويحك ! أفاعل أنت ؟

— نعم .

ولما رأى منه الجد قال :

---

(١) الكع : اللئيم .

ــ أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

ورأى زيد بن أرقم رسول الله ــ ﷺ ــ تأخذه البرحاء[١] ويعرق جبينه وتثقل يدا راحلته ، فقال :

ــ إن رسول الله ــ ﷺ ــ يوحى إليه :

وخفق قلب زيد ولفه انفعال شديد وهو يرجو أن ينزل الله تصديقه ، فلما سرى عن رسول الله أخذ بأذنه وزيد على راحلته يرفعها إلى السماء ، حتى ارتفع زيد عن مقعده ورسول الله عليه السلام يقول له :

ــ وعت أذنك يا غلام وصدق الله حديثك وكذب المنافقين .

وراح رسول الله يتلو ما أنزل إليه : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جُنَّة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم لا يفقهون * وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون * وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوَّوا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون * سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين * هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون * يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله

---

(١) البرحاء : شدة الحمى وغيرها .

ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين * ولـن يؤخـر الله نفسا إذا جاء أجلهـا والله خبير بما تعملون ﴾[١] .

ونزلت سورة المنافقين وفيها تكذيب ابن أُبى بن سلول فتهللت أسارير زيد بن أرقم وامتلأ نشوة بينا ظهر الأسى فى وجوه أصحاب ابن أبى ، إنهم سألوه من قبل أن يذهب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يعتذر إليه ويلتمس الغفران قبل أن ينزل فيه قرآن ولكنه لوى رأسه وأبى . أما وقد نزل القرآن وفيه تكذيبه فإن الأمر أصبح لا يحتمل عنادا ولا استكبارا فانطلقوا إليه وقالوا :

ـ اذهب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يستغفر لك .

فلوى رأسه ثم قال :

ـ أمرتمونى أن أومن فآمنت ، وأمرتمونى أن أعطى زكاة أموالى فأعطيت ، فما بقى إلا أن أسجد لمحمد .

وساء عبد الله بن عبد الله بن أُبى أن يصرح القرآن بنفاق أبيه . إنه غاضب على أبيه وحزين أن الله لم يطهر قلبه ، وكان جالسا إلى النبى ـ ﷺ ـ فشرب رسول الله عليه السلام فقال له :

ـ بالله يا رسول الله أما أبقيت فضلة من شرابك أسقها أبى لعل الله يطهر بها قلبه ؟

فأفضل له فأتاه بها ، فقال له أبوه عبد الله بن أبى :

ـ ما هذا ؟

---

(١) سورة المنافقون .

— هى فضلة من شراب النبى — ﷺ — جئتك بها تشربها لعل الله يطهر قلبك بها .

— فهلا جئتنى ببول أمك فإنه أطهر منها .

فغضب وجاء إلى النبى — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله بالله أما أذنت لى فى قتل أبى ؟

— بل ترفق به وتحسن إليه .

وصار قوم عبد الله بن أبى يعاتبونه ويعنفونه وقد امتلأت أفئدتهم ببغضه ، فقال — ﷺ — لعمر :

— كيف ترى يا عمر ؟ إنى والله لو قتلته يوم قلت لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته .

فقال عمر فى اقتناع :

— قد والله علمت ، لأمر رسول الله — ﷺ — أعظم بركة من أمرى .

سار صفوان بن المعطل السلمى يقود بعائشة أم المؤمنين الراحلة طوال الليل حتى أتيا الجيش بعدما نزلوا وذلك فى نحر الظهيرة وكان عبد الله بن أبى بن سلول ينزل مع جماعة من المنافقين مبتعدين من الناس فمرت عليهم فقال :

— من هذه ؟

— عائشة وصفوان .

— فجر بها ورب الكعبة .

وفغر الناس أفواههم ، لن يصدقوا فى يسر ما قال كبيرهم فعاد ابن أبى يقول :

ـــ ما برئت منه وما برىء منها .

وقدم رسول الله ـــ ﷺ ـــ المدينة هلال رمضان وما درت عائشة شيئا ولا سمع رسول الله ـــ ﷺ ـــ بما بدأ يوسوس به غريمه للناس . ودخل عليه السلام مسجده وصلى لله ركعتين ثم دخل على ابنته فاطمة الزهراء ليطفىء شوقه إليها وليضم إليه أبناءها ، ثم راح يدور على أزواجه .

واشتكت عائشة حين قدمت ، واستمر عبد الله بن أبى فى غيه وجعل يوسع الأرض إشاعة ، فأخذ بعض الناس يتقولون ، وغدا مسطح بن أثاثة الذى كان يعيش على ما يتصدق به أبو بكر عليه يخوض مع الخائضين فى حديث الإفك . ورأت حمنة بنت جحش أن تزيد النار لهيبا لعل النبى عليه السلام يطلق عائشة فيخلو وجهه لأختها زينب .

وراحت امرأة أبى أيوب الأنصارى تحدث زوجها حديث الناس فقالت :

ـــ يا أبا أيوب ألم تسمع بما تحدث الناس ؟

ـــ وما يتحدثون ؟

فحدثته بقول أهل الإفك فقال :

ـــ ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

وكان قد شاع فى بنى المصطلق ما كان من رسول الله ـــ ﷺ ـــ ومن تزوجه من جويرية ، ومن المسلمين وإكرامهم لما كان بأيديهم من السبى ، فشد الحرث بن ضرار سيد بنى المصطلق الرحال إلى المدينة ودخل على رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأعلن إسلامه ثم دخل بنو المصطلق فى دين الله أفواجا .

وسر رسول الله ـــ ﷺ ـــ بإسلام بنى المصطلق ، ولكن سرعان

ما نزل بقلبه حزن ثقيل فقد انتهى حديث الإفك إليه وإلى أبى بكر وأم رومان ، فأما أبو بكر وأم رومان فقد حزنا حتى الموت فقلباهما يحترقان ولا يحركان لسانهما بكلمة ينتظران فى قلق رحمة الله ، ولا يذكران لعائشة شيئا فهى تشتكى شكوى شديدة وإن ألم نفسيهما الذى يعانيانه لأشد من ألمها وأوجع .

ودخل أبو أيوب الأنصارى على زوجه وهو فى ضيق من حديث الإفك وقال فى حزن عميق :

— ألا ترين ما يقال ؟

فقالت أم أيوب :

— لو كنت بدل صفوان أكنت تهم بسوء لحرم رسول الله — ﷺ ؟

— لا .

— ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله — ﷺ — فعائشة خير منى وصفوان خير منك .

وآذى رسول الله — ﷺ — ما بلغه ومال إلى ألا يصدق حديث السوء فهو لا يعلم عن عائشة إلا خيرا ، ولكن ما بال الناس يتقولون عليها ؟ ودخل يعودها فلم يستطع أن يدارى ما به فلم يلاطفها كما اعتاد أن يفعل كلما وعكت ، فأنكرت عائشة منه ذلك وخطر لها أن جويرية قد شغلته عنها ، وخرج النبى ولم يمكث طويلا فانطلق إلى زينب بنت جحش وهى التى كانت تساميها من أزواج النبى فقال :

— ماذا علمت أو رأيت ؟

كانت زينب من خير الناس تقى فقالت :

— يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت إلا خيرا .

وحز الحزن فى نفس الرسول عليه السلام . إنه عزيز عليه أن يتقول الناس على عائشة الأثيرة عنده . وكان يقلقه أنه لا يملك أن يتهمها أو يبرئها ، فدخل عليها ذات يوم وأمها تمرضها فقال :

— كيف تيكم ؟

ولم يزد على ذلك فأحست عائشة فى صوته عدم اللطف الذى كانت ترى منه حين تشتكى ، فوجدت فى نفسها وعزمت على أن تترك له الدار فقالت :

— يا رسول الله لو أذنت لى فانتقلت إلى أمى فمرضتنى ؟

— لا عليك .

— وانتقلت عائشة إلى دار أمها لا تعلم شيئا ، وأحست فى نفسها موجدة على الرسول — ﷺ — فقد ولى لطفه وقد ظنت أنه تخلى عنها فى مرضها . واستمر الناس يخوضون فى حديث الإفك فضاق به صدر النبى فقام فى الناس يخطبهم :

— أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهن غير الحق ؟ والله ما علمت منهن إلا خيرا ، ويقولون ذلك لرجل ما علمت منه إلا خيرا ، وما دخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى ؟

فقال سعد بن معاذ :

— إن يكونوا من الأوس نكفيكم وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم .

فقام سعد بن عبادة وقال :

— كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة

إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو أنهم من قومك ما قلت هذا .
— كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين .
وتثاور الناس حتى كاد أن يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر ، فانشرح صدر عبد الله بن أبي بن سلول فقد أيقظ الفتنة التى نامت بالإسلام وابتدأ معول الهدم يدك دولة ابن عبد الله . ولكن محمدا — ﷺ — أخمد الفتنة قبل أن يندلع لهيبها ، فكاد ابن أبي يموت بغيظه .
وهجا حسان بن ثابت صفوان بن المعطل فذهب صفوان إليه واعترضه وضربه بالسيف ، فوثب ثابت بن قيس بن الشماس على صفوان حين ضرب حسان فجمع يديه إلى عنقه بحبل ثم انطلق به إلى دار بني الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال :
— ما هذا ؟
— أما أعجبك ضرب حسان بالسيف ؟ والله ما أراه إلا قد قتله .
قال له عبد الله بن رواحة :
— هل علم رسول الله — ﷺ — بشيء مما صنعت ؟
— لا والله .
— لقد اجترأت ! أطلق الرجل .
فأطلقه . ثم جاءوا إلى رسول الله — ﷺ — فقال حسان :
— يا رسول الله شهر على السيف فى نادى قومى ثم ضربنى ولا أرانى إلا ميتا من جراحى .
فقال — ﷺ — لصفوان :
— ولِم ضربته وحملت السلاح عليه ؟
وأظهر التغيظ على صفوان بسبب إظهاره السلاح على حسان وضربه

به ، فقال صفوان :

ـــ يا رسول الله ﷺ آذانى وهجانى فاحتملنى الغضب فضربته .

وقال عليه السلام لقوم حسان :

ـــ احبسوا صفوان فإن مات حسان فاقتلوه .

فحبسوه ، فبلغ ذلك سيد الخزرج سعد بن عبادة فاقبل على قومه ولامهم على حبسه فقالوا :

ـــ أمرنا رسول الله ـــ ﷺ ـــ بحبسه وقال لنا : إن مات صاحبكم فاقتلوه .

ـــ والله إن أحب الأمر إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ العفو عنه ، ولكن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قضى بالحق ، والله لا أبرح حتى يطلق .

فاستحى القوم وأطلقوه ، وأخذه سعد وانطلق به إلى منزله وكساه حلة وجاء به إلى المسجد ، فلما رآه ـــ ﷺ ـــ قال :

ـــ صفوان ؟

ـــ نعم يا رسول الله .

ـــ من كساه ؟

ـــ سعد بن عبادة .

ـــ كساه الله من ثياب الجنة .

ثم إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ كلم حسان فى العفو عن صفوان فقال له :

ـــ يا حسان أحسن فيما أصابك .

ـــ كل حق لى قبل صفوان فهو لك .

ـــ قد أحسنت وقبلت ذلك منك .

ونقهت عائشة وخرجت فى الليل مع أم مسطح قبل الناصع وكان

متبرزهم ، فلما فرغنا من شأنهما وأقبلتا قبل البيت عثرت أم مسطح فى مرطها فقالت :

— تعس مسطح .

— بئس ما قلت . أتسبين رجلا شهد بدرا ؟

— يا هنتاه (يا هذه) أوَلم تسمعى ما قال ؟

— وما قال ؟

فأخبرتها بقول أهل الإفك فازدادت مرضا على مرضها وقالت وهى يكاد يغشى عليها :

— وقد كان هذا ؟

— نعم .

فأخذتها حمى نافضة ورجعت إلى البيت فمكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا اكتحلت بنوم ، ثم أصبحت تبكى ما زالت تبكى حتى ظنت أن البكاء سيصدع كبدها . وأقبلت أمها فقالت لها والدموع تملأ عينيها :

— يغفر الله لك . تحدث الناس بما تحدثوا به وبلغك ما بلغك ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً .

— أى بنية خفضى الشأن ، فوالله قل ما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرت وكثر الناس عليها .

ودعا رسول الله — ﷺ — على بن أبى طالب وأسامة بن زيد يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله ، فقال أسامة :

— يا رسول الله أهلك ولا نعلم عليهن إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل .

وقال على :

ـــ يا رسول الله إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستخلف . وسل الجارية فإنها تصدقك .

ودعا رسول الله بريرة جارية عائشة يسألها :

ـــ أى بريرة ، هل رأيت من شيء يريبك ؟

ـــ لا .

فقام إليها على فضربها ضربا شديدا وهو يقول :

ـــ أصدق رسول الله .

فالتفتت إلى رسول الله وقالت :

ـــ والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا قط أُغْمِطه(١) . غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الدواجن فتأكله .

ورأت عائشة فى منامها فتى فقال لها :

ـــ ما لك ؟

ـــ حزينة مما ذكر الناس .

ـــ ادعى بهذه يفرج الله عنك .

ـــ وما هى ؟

ـــ قولى : يا سابغ النعم ، ويا دافع النقم ، ويا فارج الغمم ، ويا كاشف الظلم ، ويا أعدل من حكم ، ويا حسيب من ظُلم ، ويا أول بلا بداية ، ويا آخر بلا نهاية ، اجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا .

وفى سكون الليل راحت عائشة تبتهل إلى الله أن يبرئها مما نسب إليها ظلما ، وأصبح الصباح وعائشة تبكى وأبو بكر وأم رومان جالسان والألم

---

(١) أغمطه : لا أشكره .

الشديد يرتسم على وجهيهما ، فاستأذنت امرأة من الأنصار فى الدخول فأذن لها ، فجلست مع عائشة تسح الدموع . وبينا هم على ذلك دخل رسول الله — ﷺ — فسلم ثم جلس ، ولم يجلس عند عائشة قبلها منذ قيل ما قيل ، وقال حين جلس :

— أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، أما بعد يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله — ﷺ — مقالته قلص دمعها حتى ما تحس منه بقطرة ، فقالت لأبيها :

— أجب رسول الله — ﷺ — فيما قال .

— فوالله ما أدرى ما أقول لرسول الله — ﷺ .

فقالت لأمها :

— أجيبى رسول الله .

— والله ما أدرى ما أقول لرسول الله — ﷺ .

فقالت عائشة فى ضيق :

— لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى نفوسكم ، فلئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لا تصدقونى بذلك . ولئن اعترفت لكم بأمر يعلم الله أنى منه بريئة لتصدقنى . والله لا أجد لى ولكم مثلا إلا قول أبى يوسف إذ يقول : ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾[1] .

ثم تحولت واضطجعت على فراشها وما كانت تظن أن الله ينزل فى شأنها قرآنا يقرأ به فى المسجد ويصلى به ، ولشأنها فى نفسها كان أحقر من

---

(١) يوسف ١٨

أن يتكلم الله فيها بأمر يتلى . وكانت ترجو أن يرى رسول الله — ﷺ — رؤيا فى النوم يبرئها الله بها .

وقال أبو بكر فى أسى :

— ما أعلم أهل بيت من العرب دخل عليهم ما دخل علىّ . والله ما قيل لنا هذا فى الجاهلية حيث لا يعبد الله فيقال لنا فى الإسلام .

وأقبل على عائشة مغضبا ، فأخذ رسول الله — ﷺ — ما كان يأخذه عند نزول الوحى فغطى بثوبه فوضعت له وسادة من أدم تحت رأسه ، فأما عائشة حين رأت من ذلك ما رأت فوالله ما فزعت فإنها قد عرفت أنها بريئة وأن الله غير ظالمها ، وأما أبواها ما سرى عن رسول الله حتى أحسا لتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس .

فلما سرى عن رسول الله — ﷺ — سرى عنه وهو يضحك وإنه ليتحدر منه العرق كالجمان[1] وكان اليوم شاتيا فجعل يمسح العرق عن وجهه ، فكان أول كلمة تكلم بها :

— أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله تعالى براءتك .

فقالت عائشة :

— نحمد الله لا نحمد أحدا .

وقام إليها أبو بكر فقبل رأسها فقالت :

— هلا كنت عذرتنى ؟!

— أى بنية ، أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن قلت بما لا أعلم ؟

وقالت أم رومان لابنتها :

— قومى إليه .

---

(١) الجمان : اللؤلؤ .

— والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله .

وتناول رسول الله — ﷺ — درعها فدفعت يده عن درعها ، فأخذ أبو بكر النعل ليعلوها بها فمنعته ، فضحك رسول الله — ﷺ — وقال له :

— أقسمت عليك لا تفعل .

وخرج رسول الله — ﷺ — إلى الناس وخطبهم وتلا عليهم : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منكم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تلقّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم * يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾[1] .

---

(١) النور ١١ — ٢١

وأمر — ﷺ — بجلد أصحاب الإفك فجلد عبد الله بن أبى بن سلول سيد الخزرج وكبير المنافقين ثمانين جلدة بعد أن كاد القوم أن يملكوه عليهم يوم أن أكرمهم الله بنبيه ، فقد هان عبد الله بعد أن فضحه الله مرتين ، كذبه يوم أنكر أنه قال ليخرجن الأعز منها الأذل ، وكشف نفاقه وكذبه وحقده الدفين على رسول الله — ﷺ — لما نزلت براءة عائشة الصديقة المبرأة المطهرة من فوق سبع سموات .

ونفى حسان بن ثابت ما نسب إليه من تقول فى عائشة أم المؤمنين ؛ وقال أبياتا يمدح بها السيدة عائشة :

حصان رزان ما تُزن بريبة
وتصبح غرثى[1] فى لحوم الغوافل
فإن كنت قد قلت الذى قد زعمتمُ
فلا رفعت سوطى إلىّ أناملى
وكيف وودى ما حييت ونصرتى
لآل رسول الله زين المحافل
له رَتَب عال على الناس كلهم
تقاصر عنه سورة[2] المتطاول
فإن الذى قد قيل ليس بلائط[3]
ولكنه قول امرىء بى ماحل[4]

وجلد مسطح بن أثاثة الذى ينفق عليه أبو بكر لقرابته وفقره ثمانين

---

(١) الغرثى : الجياع (٢) سورة : شدة .
(٣) ليس بلائط : ليس بحبيب (٤) ماحل : ماكر .

جلدة ، وجلدت حمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين وأخوها أبو أحمد الضرير ، وساء أبا بكر أن يكون مسطح الذى ينفق عليه من أفصح بالفاحشة فقال :

— والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ما قال .

فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾[1] .

فقال أبو بكر :

— بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى .

فرجع إلى مسطح النفقة التى ينفق عليه وقال :

— والله لا أنزعها منه أبدا .

وكان أبو طلحة أكثر أنصارىّ بالمدينة مالا ، وكان أحب أمواله إليه بيرحا وهى حديقة كانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله يدخلها ويستظل بها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما نزلت آية : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾[2] . قام أبو طلحة إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إن الله يقول فى كتابه : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ . وإن أحب أموالى إلىّ بيرحا ، وأنه صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث شئت .

— بخ بخ ! ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح . وقد سمعت ما قلت فيها ، قد قبلناها منك ورددنا عليك ، وأرى أن تجعلها فى الأقربين .

---

(١) النور ٢٢ (٢) آل عمران ٩٢

— أفعل يا رسول الله .

كان حسان بن ثابت يجتمع مع أبي طلحة فى الجد الثالث وكان من فقراء أقاربه ، وكان حسان قد قال لرسول الله — ﷺ — لما كلمه فى العفو عن صفوان : كل حق لى قبل صفوان فهو لك ، فأراد رسول الله عليه السلام أن يكافئه على ذلك فأعطاه بيرحا بما عفا عن حقه .

وكانت مشادة قد ثارت بين سعد بن مُعاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج لما خطب عليه السلام الناس وقال : « أيها الناس ، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ؟ » حتى كادت الحرب أن تنشب بين الحيين لولا حكمة رسول الله عليه السلام . وأراد — ﷺ — أن يغسل النفوس مما قد يكون علق بها ، فإنه مكث أياما ثم أخذ بيد سعد بن معاذ فى نفر حتى دخل على سعد بن عبادة فتحدثوا ساعة ، وقرب لهم سعد بن عبادة طعاما فأصابوا منه ثم انصرفوا ، فمكث أياما ثم أخذ بيد سعد بن عبادة فى نفر فانطلقوا حتى دخلوا منزل سعد بن معاذ فتحدثوا ساعة وقرب لهم سعد ابن معاذ طعاما فأصابوا منه ثم خرجوا ، فذهب من أنفسهم ما كان ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾(١) .

---

(١) الأنفال ٦٣

٢١

زين الله تعالى رسوله بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، فكان يقول في دعائه :

ـــ اللهم جنبني منكرات الأخلاق :

وقد أدب بالقرآن وأدب الخلق به وكان يقول :

ـــ بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

وكان يوصي أصحابه باتقاء الله ، وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجار ، ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وحسن العمل ، وقصر الأمل ، ولزوم الإيمان ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وخفض الجناح ، وينهاهم أن يسبوا حكيما ، ويكذبوا صادقا ، أو يطيعوا آثما ، أو يعصوا إماما عادلا ، أو يفسدوا أرضا . وكان أحلم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس وأعف الناس ، لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه .

وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه ، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامة فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ، ويضع سائر ذلك في سبيل الله .

لا يُسأل شيئا إلا أعطاه ثم يعود على قوت عامة فيؤثر منه حتى إنه ربما

احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء . وكان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويخدم فى مهنة أهله ويقطع اللحم معهن .

وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره فى وجه أحد ، ويجيب دعوة العبد والحر ، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافىء عليها ويأكلها ، ولا يأكل الصدقة ولا يستكبر عن إجابة الأمَة والمسكين ، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه ، وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه ، عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو فى قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده فى عدد من معه ، فأبى وقال :

— أنا لا أنتصر بمشرك .

يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال ، وإن وجد تمرا دون خبز أكله ، وإن وجد شواء أكله ، وإن وجد خبز بر أو شعير أكله ، وإن وجد حلوا أو عسلا أكله ، وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به ، وإن وجد بطيخا أو رطبا أكله .

لا يأكل متكئا ولا على خوان ، لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متتالية إيثارا على نفسه لا فقرا ولا بخلا . يُجيب الوليمة ويعود المرضى ويشهد الجنائز ويمشى وحده بين أعدائه بلا حارس ، أشد الناس تواضعا وأسكنهم فى غير كبر وأبلغهم فى غير تطويل ، دائم البشر سهل الخلق ، ما أعجبه شيء من الدنيا وما أعجبه أحد قط إلا ذو تقى .

يلبس ما وجد مرة شملة ومرة برد حبرة يمانيا ومرة جبة صوف ، ما وجد من المباح لبس . وخاتمه فضة يلبسه فى خنصره الأيمن والأيسر ، يردف خلفه عبده أو غيره ، يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة يمشى راجلا يعود المرضى فى أقصى المدينة .

يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة ، ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ، ويكرم أهل الفضل فى أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم ، يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم . لا يجفو على أحد ، يقبل معذرة المعتذر إليه ، يمزح ولا يقول إلا حقا ، يضحك من غير قهقهة ، يرى اللعب المباح فلا ينكره ، يسابق أهله ، وترفع الأصوات عليه فيصبر ، وكان له لقاح(١) وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها .

ما شتم أحدا من المؤمنين شتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة ، وما لعن امرأة قط ولا خادما بلعنة ، وقيل له فى القتال :

ـــ لو لعنتهم يا رسول الله !

فقال :

ـــ إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا .

وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له . وما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب بها فى سبيل الله تعالى ؛ وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله ؛ وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك ؛ وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه فى حاجته .

وما عاب مضجعا إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض ، لا فظ ولا غليظ القلب ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح . يبدأ من لقيه بالسلام ، وما أخذ أحد

---

(١) لقاح : إبل .

بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر ، وكان إذا لقى أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته عليها .

وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله ، وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال :

ـــ ألك حاجة ؟

فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته ؛ وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة ، ولم يكن يعرف مجلسه عن مجلس أصحابه لأنه حيث انتهى به المجلس يجلس ؛ وما رؤى قط مادا رجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد إلا أن يكون المكان واسعا لا ضيق فيه ، وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة ، وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه .

وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التى تحته ، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل . وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس علية حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس إليه ، ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة ، قال الله تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾(١) .

وكان يدعو أصحابه بكناهم إكراما لهم واستمالة لقلوبهم ، ويكنى من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به . ويكنى أيضا النساء اللاتى لهن

---

(١) آل عمران ١٥٩

الأولاد ، واللاتى لم يلدن يبتدئ لهن الكنى ، ويكنى الصبيان فيستلين به قلوبهم .

وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا ، وكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ، لم تكن ترفع فى مجلسه الأصوات ، وكان إذا قام من مجلسه قال :

ــ سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد ألا إلٰه إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة ، وكان طويل السكوت ولا يتكلم فى غير حاجة ، ولا يقول المنكر ، ولا يقول فى الرضا والغضب إلا الحق ، ويعرض عمن تكلم بغير جميل ، ويكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره ، قال لامرأة رفاعة :

ــ حتى تذوقى عُسيلته ويذوق عُسيلتك .

وكان إذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده فى الحديث ، ويعظ بالجد والنصيحة ويقول :

ــ إن القرآن يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض .

وكان أكثر الناس تبسما وضحكا فى وجوه أصحابه وتعجبا مما تحدثوا به وخلطا لنفسه بهم ، ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيرا له . جاء أعرابى يوما وهو عليه السلام متغير اللون ينكره أصحابه ، فأراد أن يسأله فقالوا :

ــ لا تفعل يا أعرابى ، فإننا ننكر لونه .

ــ دعونى فوالذى بعثه بالحق نبيا لا أدعه حتى يتبسم .

فقال :

— يا رسول الله بلغنا أن الدجال يأتى الناس بالثريد وقد هلكوا جوعا ، أفترى لى بأبى أنت وأمى أن أكف عن ثريده تعففا وتنزها حتى أهلك هزالا أم أضرب فى ثريده حتى إذا تضلعت شبعا آمنت بالله وكفرت به ؟

فضحك رسول الله — ﷺ — حتى بدت نواجذه ثم قال :

— بل يغنيك الله بما يغنى به المؤمنين .

وكان من أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظة . وكان إذا سر ورضى فهو أحسن الناس رضا ، فإن وعظ وعظ بجد وإن غضب وليس يغضب إلا لله لم يقم لغضبه شيء ، وكذلك كان فى أموره كلها ، وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول :

— اللهم أرنى الحق حقا فأتبعه ، وأرنى المنكر منكرا وارزقنى اجتنابه ، وأعذنى من أن يشتبه على فأتبع هواى بغير هدى منك ، واجعل هواى تبعا لطاعتك ، وخذ رضا نفسك من نفسى فى عافية واهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم .

وكان إذا وضعت المائدة قال :

— بسم الله ، اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة .

وكان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وبين قدميه كما يجلس المصلى ، إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ، ويقول :

— أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد .

وكان لا يأكل الحار ويقول :

— إنه غير ذى بركة ، وإن الله لم يطعمنا نارا فأبردوه .

وجاء عثمان بن عفان بفالوذج فأكل منه وقال :

ـــ ما هذا يا أبا عبد الله ؟

ـــ بأبى أنت وأمى نجعل السمن والعسل فى البرمة ونضعها على النار ثم نغليه ، ثم نأخذ مخ الحنطة إذا طحنت فنقلبه على السمن والعسل فى البرمة ، ثم نسوطه حتى ينضج فيأتى كما ترى .

ـــ إن هذا الطعام طيب .

وكان يأكل خبز الشعير غير منخول ، وكان يأكل القثاء بالرطب والملح ، وكان أحب الفواكه الرطبة إليه البطيخ والعنب . وكان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر . وكان لا يأكل الثوم ولا البصل لأنه يناجى الناس . وما ذم طعاما قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يبغضه إلى غيره .

وإذا فرغ من الطعام قال :

ـــ الحمد لله ، اللهم لك الحمد أطعمت فأشبعت وسقيت فأرويت ، لك الحمد غير مكفور ولا مودوع ولا مستغنى عنه .

وأتى بإناء فيه عسل ولبن فأبى أن يشربه وقال :

ـــ شربتان فى شربة ، وإدامان فى إناء واحد !

ثم قال :

ـــ لا أحرمه ولكنى أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غدا ، وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفعه .

وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان لا يسأل أهل بيته طعاما ولا يتشهاه عليهم ، إن أطعموه أكل وما أعطوه قبل وما سقوه شرب . وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب .

وكان يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير

ذلك ، وكان يعجبه الثياب الخضر ، وكان أكثر لباسه البياض ويقول :

ـــ ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم .

وكان يلبس القباء المحشو للحرب وغير الحرب . وكان له قباء سندس فيلبسه فتحسن خضرته على بياض لونه . وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق . وكان قميصه مشدود الأزرار وربما حل الأزرار فى الصلاة وغيرها . وكانت له ملحفة مصبوغة بالزعفران ، وربما صلى بالناس فيها وحدها ، وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره .

وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول :

ـــ إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد ..

وكان له ثوبان لجمعته خاصة سوى ثيابه فى غير الجمعة ، وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه ، وربما أم به الناس فى الجنائز ، وربما صلى فى بيته فى الإزار الواحد ملتحفا به مخالفا بين طرفيه ، ويكون ذلك الإزار الذى جامع فيه يومئذ .

وكان يلبس القلانس من تحت العمائم وبغير عمامة ، وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلى إليها ، وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته .

وكانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من على ، فربما طلع على فيقول ـــ ﷺ :

ـــ أتاكم على فى السحاب .

وكان إذا لبس ثوبا لبسه من قبل ميامنه ويقول :

ـــ الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى الناس .

وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره ، وكان إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول :

— ما من مسلم يكسو مسلما من سمل ثيابه لا يكسوه إلا لله ، إلا كان فى ضمان الله وحرزه وخيره ما واراه حيا وميتا .

وكان له فراش من أدم حشوه ليف طوله ذراعان أو نحوه وعرضه ذراع وشبر أو نحوه . وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل ، تثنى طاقين تحته . وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره ، وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه ، وكان اسم رايته العقاب ، واسم سيفه الذى يشهد به الحروب ذا الفقار . وكان له سيف يقال له المخدم(١) وآخر يقال له الرسوب(٢) وآخر يقال له القضيب ؛ وكانت قبضة سيفه محلاة بالفضة . وكان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة . وكان اسم قوسه الكتوم وجعبته الكافور ، وكان اسم ناقته القصواء واسم بغلته الدلدل ، وكان اسم حماره يعفور واسم شاته التى يشرب لبنها عينة .

وكان أحلم الناس وأرغبهم فى العفو مع القدرة ، جاء رجل ذات يوم وقام على رأس رسول الله — ﷺ — بالسيف فقال :

— من يمنعك منى ؟

— الله .

فسقط السيف من يده ، فأخذ رسول الله — ﷺ — السيف وقال :

---

(١) المخدم : المفيد النافع .

(٢) الرسوب : السيف يعيب فى الضريبة .

ـــ من يمنعك منى ؟

ـــ كن خير آخذ .

ـــ قل أشهد أن لا إلـه إلا الله وأنى رسول الله .

ـــ لا . غير أنى لا أقاتـلك ولا أكـون معك ولا أكـون مع قوم يقاتلونك .

فخلى سبيله ، فجاء أصحابه فقال :

ـــ جئتكم من عند خير الناس .

وقسم رسول الله ـــ ﷺ ـــ قسمة . فقال رجل من الأنصار :

ـــ هذه قسمة ما أريد بها وجه الله .

فذكر ذلك للنبى ـــ ﷺ ـــ فاحمر وجهه وقال :

ـــ رحم الله أخى موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر .

وكان يقول ـــ ﷺ :

ـــ لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم القلب .

وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن ، يعرف فى وجهه غضبه ورضاه . وكان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة ، وكان لا يشافه أحدا بما يكرهه ؛ دخل عليه رجل وعليه صفرة فكرهها فلم يقل له شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم :

ـــ لو قلتم لهذا أن يدع هذه ؟

وجاءه أعرابى يوما يطلب منه شيئا ، فأعطاه ـــ ﷺ ـــ ثم قال له :

ـــ أحسنت إليك ؟

ـــ لا ، ولا أجملت .

فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا .

ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئا ثم قال :

— أحسنت إليك ؟

— نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال له النبى — ﷺ :

— إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك .

— نعم .

فلما كان الغد جاء فقال النبى — ﷺ :

— إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى ، أكذلك ؟

فقال الأعرابى :

— نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال — ﷺ :

— إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها هونا هونا حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها . وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار .

وكان أجود الناس كفا وأوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، وما سئل من شىء قط على الإسلام إلا أعطاه . وإن

رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين إلى قومه وقال :

ــ أسلموا ، فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة .

وما سئل شيئا قط فقال : لا . وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصر ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها . وجاء رجل فسأله فقال :

ــ ما عندى شيء ولكن ابتع علىّ فإذا جاءنا شيء قضيناه .

فقال عمر :

ــ يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ..

فكره النبى ــ ﷺ ــ ذلك ، فقال الرجل :

ــ أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا .

ــ إنها كلمته ــ ﷺ ــ التى قالها لبلال ، فتبسم النبى عليه السلام وعرف السرور فى وجهه .

وكان أنجد الناس وأشجعهم ، قال على كرم الله وجهه :

ــ لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ــ ﷺ ــ وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا . وكنا إذا احمر البأس ولقى القوم اتقينا برسول الله ــ ﷺ ــ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه .

وكان قليل الكلام قليل الحديث ، فإذا أمر الناس بالقتال تشمر ، وكان من أشد الناس بأسا ، وكان الشجاع هو الذى يقرب منه فى الحرب لقربه من العدو ، وما لقى عليه السلام كتيبة إلا كان أول من يضرب .

وكان أشد الناس تواضعا لا يقوم له أصحابه لما عرفوا لكراهيته لذلك ، وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ؛ وأتى ــ ﷺ ــ برجل فأرعد من هيبته فقال له :

ـــ هون عليك فلست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد .

وكان يجلس بين أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم ، فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل عنه ، حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلسا يعرفه الغريب ، فبنوا له دكانا من طين فكان يجلس عليه .

وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال :

ـــ لبيك .

وكان إذا جلس مع الناس إن تكلموا فى معنى الآخرة أخذ معهم ، وإن تحدثوا فى طعام أو شراب تحدث معهم ، وإن تكلموا فى الدنيا تحدث معهم رفقا بهم وتواضعا لهم . وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فيبتسم هو إذا ضحكوا ، ولا يزجرهم إلا عن حرام .

كان الإنسان الكامل ، أسوة البشرية الحسنة ، خاتم الأنبياء ورسول رب العالمين .

٢٢

كان من أخلاق رسول الله — ﷺ — أنه كان أسخى النـاس ، لا يبيت عنده دينار ولا درهم . وإن فضل ولم يجد من يعطيه ويأتيه الليل لا يأوى إلى منزله حتى يبرأ منه .

وجاءه رجل فسأله فقال :

— ما عندى شيء .

فأمر بلال أن يذهب بالرجل ليستدين ويشترى له بردة فيكسوه ويطعمه ، فانطلق بلال ومعه الرجل حتى إذا ما بلغ السوق لمحه يهودى كان يعرفه . فلما وقع بصره على الرجل فطن إلى رقة حاله وتيقن أن بلالا ما قدم إلا ليكسوه ويطعمه ، فاعترض اليهودى بلالا وقال له :

— يا بلال إن عندى سعة فلا تستقرض من أحد إلا منى .

وصمت اليهوى قليلا ثم قال :

— أعندك ما ترهنه عندى ؟

— لو كان عندى شيء ما استقرضت .

— آخذك مقابل الدين إن امتنعت عن السداد .

كان استرقاق المدين المعسر أمرا معترفا به فى القوانين الرومانية ، وكان بلال يعتزم السداد فما دار بخلده أن يماطل أو يتهرب من المدين ، فقبل الشرط ثم قال اليهودى :

— ومتى السداد ؟

ــ فى نهاية الشهر .

ــ إن عجزت عن السداد سآخذك مقابل الدين .

وقدم اليهودى المال أمام عصابة من التجار وانصرف بلال ليكسو الرجل ويطعمه .

وتهللت أسارير اليهودى فقد وقع مؤذن الرسول وخازنه فى الفخ الذى نصبه له ، وسيثأر ليهود بنى قينقاع وبنى النضير .

ــ إنه لا ينسى ذلك اليوم الذى جمع فيه محمد يهود بنى قينقاع بسوقهم ثم قال :

ــ يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم .

ــ يا محمد إنك ترى أنا قومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

وأربد وجه اليهودى وتقاصرت نفسه لما تردد على ذهنه ما كان من أمر محمد وأمر بنى قينقاع ، فقد حاصرهم ونزلوا على حكمه ورحلوا عن الديار . إنه منذ ذلك اليوم يرقب ساعة الانتقام ، ويا طالما تمنى أن ينال من محمد ولكنه عجز عن أن يصل إليه . فإن كان قد نجح فى اصطياد بلال الحبشى فهو على يقين من أن وقوع بلال فى قبضته سيحزن محمدا ويحرق قلبه .

إن ما يزيد فى غيظه أن محمدا قرنهم بالكافرين فى قرآنه وإن المسلمين يتلون فى مساجدهم : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم

وبئس المهاد * قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾(١) . وإنه لمما يحرق كبده أن اليهود قد غلبوا كما غلبت قريش من قبل وأن ما جاء فى قرآن محمد قد تحقق .

واحتلت الرؤى رأسه فاكفهر وجهه وتفصد منه العرق واستشعر كأن صديدا يسرى فى عروقه ، كان يرى سيف على بن أبى طالب وهو يهوى على رقاب سادات بنى قريظة ، ورن فى جوفه صوت حُيى بن أخطب وهو يقول :

ـــ أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل .

فراح يتساءل فى نفسه : أحقا ما وقع على يهود يثرب كان كتابا وقدرا وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل ؟! وبدأت بذور الشك تنبت فى وجدانه ، فراح يتململ ليطرد تلك الوسوسات التى كانت تهجس فى عين ذاته .

وربما حنقه لما قرع ذاكرته ما حفظ من قرآن محمد : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا ﴾(٢) .

وتصرمت الأيام واليهودى يرصد الزمن ، واقترب الشهر من نهايته فإذا اليهودى مقبل فى عصابة من التجار ، وما إن وقعت عيناه على بلال

(١) آل عمران ١٢ ـــ ١٣ (٢) الأحزاب : ٢٦ ـــ ٢٧ .

حتى قال :

ـ يا حبشي .

ـ يا لبيه .

ـ أتدرى كم بينك وبين الشهر ؟

ـ قريب .

ـ إنما بينك وبينه أربع ليال .

وأطرق بلال وقال اليهودى :

ـ أتستطيع السداد الآن ؟

ـ لا .

ـ إن لم تسدد قبل نهاية الشهر فسآخذك بالذى لى عليك ، فإنى لم أعطك الذى أعطيتك من كرامتك ولا من كرامة صاحبك وإنما أعطيتك لتصير لى عبدا فأذرك ترعى فى الغنم كما كنت قبل ذلك .

ووقع فى نفس بلال حزن ثقيل ، وانصرف اليهودى وعصابة التجار وظل بلال ساهما وهمس فى جوفه هامس : « أكتب عليه أن يعود عبدا ؟! » آه لو عاد عبدا لذلك اليهودى لفعل به الأفاعيل .

وخطر له أن يفزع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ إن نبى الله ليس عنده ما يقضى عنه فهو أعلم الناس بما عنده فهو خازنه وهو المتصرف فى أمواله . وتذكر بلال أنه لم يؤذن بعد فقام وأذن ، وصلى خلف الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو حزين وقد بللت الدموع قلبه وإن لم تترقرق فى مقلتيه .

وقضيت الصلاة ورجع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أهله وبلال غارق فى أفكاره ، وضايقه أنه استسلم ليأسه فانطلق إلى دار النبى والوجود كله

يرجع : ﴿ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾[١] .

واستأذن فى الدخول فأذن له فدخل ، وما إن وقعت عيناه على رسول الله عليه السلام حتى قال :

ـــ يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، إن اليهودى الذى ذكرت لك أنى كنت أستدين منه يطلب السداد أو أخذى بالذى علىّ ، وليس عندك ما تقضى عنى ولا عندى وهو فاضحى . فأذن لى أن آتى إلى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتى يرزق الله رسوله ما يقضى عنى .

فأطرق الرسول ولم يأذن له ، فخرج بلال حزينا وانطلق إلى داره وصور أيام رقه فى مكة تأخذ عليه تفكيره فيتلوى من الألم . وجن الليل فدخل لينام ليفر من أحزانه فنام مستقبلا بوجهه الأفق ، فقد اعتاد أن يرعى النجوم ليؤذن بالفجر ، وما استطاع حتى فى أحلك أيامه أن يغض الطرف عن السماء .

وجعل سيفه وقرابه ورمحه ونعله عند رأسه ، وغفا قليلا ثم هب مذعورا فرأى عليه ليلا فنام . وما إن استأنف نومه حتى انتبه ، وظل على هذه الحال طوال الليل حتى انفلق عمود الصبح الأول فأراد أن ينطلق ، فإذا بصوت يشق السكون المخيم على المكان :

ـــ يا بلال .. يا بلال .. أجب رسول الله .

فانطلق بلال حتى دخل على النبى ـــ ﷺ ـــ فقال له عليه السلام :

ـــ أبشر فقد جاءك الله بقضاء دينك .

ـــ الحمد لله .

ـــ ألم تمر على الركائب المناخات الأربع ؟

---

(١) الحجر ٥٦

— بلى .

— فإن لك رقابهن وما عليهن فاقبضهن إليك ثم اقض دينك .

وجرى بلال إلى الركائب ودموع الفرح تسيل على خديه وتبل لحيته فإذا عليهن كسوة وطعام أهداهن إلى الرسول عظيم من العظماء ، فحط بلال عنهن أحمالهن ثم علفهن وهو يكاد يطير من الفرح ، ثم عمد إلى تأذين صلاة الصبح . ولما قضيت الصلاة خرج إلى البقيع فجعل أصبعه فى أذنه وصاح :

— من كان يطلب من رسول الله دينا فليحضر .

وأخذ بلال يعرض ويبيع ويقضى ، وأقبل اليهودى فقال له بلال :

— خذ دينك ولن أستقرض منك أبدا .

ومكر اليهودى ومكر الله والله خير الماكرين ، وعاد اليهودى يصر على أنيابه ويجر أذيال الخيبة ، واستمر بلال يبيع مما رزقه الله حتى لم يبق على رسول الله دين فى الأرض . وبقى مع بلال أوقيتان من ذهب فانطلق إلى المسجد وقد ذهب عامة النهار ، فإذا رسول الله فى المسجد قاعد وحده ، فلما رأى بلالا قال :

— ما فعل ما قبلك ؟

— قد قضى الله كل شىء كان على رسول الله فلم يبق شىء .

— فضل شىء ؟

— نعم أوقيتان .

— انظر أن تريحنى منهما ، فلست بداخل على أحد من أهلى حتى تريحنى منهما .

فانتظر فى المسجد أن يأتيهما محتاج ولكن لم يأتهما أحد ، فبات الرسول

فى المسجد حتى أصبح الصبح ، وظل فى المسجد طول اليوم التالى ينتظر حضور محتاج ليكسوه ويطعمه بما عنده ليستريح منه ولكيلا يكون كانزا للذهب .

وجاء آخر النهار وجاء إلى المسجد راكبان محتاجان ، فأمر النبى بلالا أن ينطلق بهما ويكسوهما ويطعمهما بما عنده . ولما صلى النبى العتمة دعا بلالا وقال له :

ـــ ما فعل الذى قبلك ؟

ـــ قد أراحك الله منه .

ـــ الحمد لله .

٢٣

كان أبو سفيان بن حرب وابنه معاوية والحكم وابنه مروان وحكيم بن حِزام وحُويطب بن عبد العُزَّى العامرى وسادات قريش جالسين فى الحجر ، وكان الناس يطوفون بالبيت . وبينا كان أشراف قريش يتجاذبون أطراف الحديث إذ جاء من المدينة رجل راح يقص عليهم أنباء المسلمين وكيف أصبحت كلمة محمد بن عبد الله هى العليا بعد أن أجلى بنى النضير وقتل المسلمون ابن الأشرف .

وراح الرجل يروى شعر كعب بن مالك فى إجلاء بنى النضير وقتل كعب بن الأشرف ورد سمَّاك اليهودى عليه :

أرقت وضاقنـــى هم كبير ... بليـــل غيره ليـــل قصير
أرى الأحبار تنكـره جميعـا ... وكلهـــم له علـــم خبير
وكانوا الدارسين لكل علم ... به التوراة تفطـــن والزبـــور
قتلتم سيـــد الأحبـــار كعبـا ... وقِدْمـــا كان يأمـــن من يجير

واستمر الرجل ينشد شعر ابن مرداس فى امتداح رجال بنى النضير وشعر خوات فى الرد على ابن مرداس ، وإذا بحكيم بن حزام يشرد ويتذكر ما كان من فراره يوم بدر ، إنه نجا من الموت ولو كان قد قتل فى ذلك اليوم لقام شعراء قريش بنعيه ولرد عليهم حسان بن ثابت وابن رواحة وشعراء المسلمين .

وأحس حكيم بن حِزام برودة تسرى فى بدنه ، فسهم واحد من

السهام التى صوبت إليه وطاشت لو استقر فى قلبه لكان اليوم ذكرى . وراح يختلس النظر إلى أبى سفيان فألفاه قد ألقى إلى الرجل سمعه وقد لاح فى وجهه الاهتمام ، ولا غرو فأبو سفيان يطمع فى أن يكون سيد العرب ولا يقف فى سبيل تحقيق أمنيته إلا قيام ابن عبد الله بدعوته التى تتفاقم على مر الأيام .

وقرعت ذهن حكيم ذكريات عمته خديجة بنت خُويلد الطاهرة وسيدة نساء قريش ؛ إنما كانت فاضلة راجحة العقل وإن إيمانها بدعوة زوجها وتصديقه لشيء يحيره . إنه على يقين أن محمدا كان على خلق عظيم لم يشك طرفة عين فى أمانته ولم ينكر عليه إلا دعوته ، فما كان يستطيع أن يصدق أن بشرا يتلقى الوحى من السماء !

وشرد حويطب بن عبد العزى وغدا يفكر فى آلهة قريش ، إنه ليجدها كما يقول محمد بن عبد الله أصناما لا تملك نفعا ولا ضرا . وسرى إلى ضميره همس رقيق انبعث من أغواره : ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون * إلـٰهكم إلـٰه واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون * لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين * وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين * ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ﴾(١) .

وغشيته رقة وأحس مولد نور فى فؤاده ، وتذكر النضر بن الحارث وسخريته من محمد بن عبد الله وما حاق به من القتل فدثره خوف . إن

---

(١) النحل ٢٠ ـــ ٢٥ .

الأيام تمر وإنه ليخشى أن يحيق به ما حاق بالمكذبين .

ونظر الحكم إلى وجه حويطب ففطن إلى ما يحتمل فى صدره فقد هم حويطب بالإسلام غير مرة ولكنه كان فى كل مرة يثنيه عن غرضه ، وفطن حويطب إلى أن الحكم يسترق إليه النظر فاستأذن وقام . وما ابتعد عن القوم خطوات حتى لحق به الحكم وقال له :

ـــ فيم تفكر ؟

ـــ فى الذهاب إلى المدينة لأعلن إسلامى .

فقال الحكم فى غضب :

ـــ تضع شرفك وتدع دين آبائك لدين محدث وتصير تابعا ؟

وتذكر حويطب ما لقى عثمان بن عفان من الحكم حين أسلم فآثر السلامة ، وما كان من قريش أحد من كبرائها الذين بقوا على دين قومهم أكره لما هو عليه منه ، فلقد شهد بدرا مع قومه ورأى عبرا فقال فى نفسه :

ـــ هذا رجل ممنوع .

وأراد أن يسلم ولكن الحكم عوقه ومنعه .

وراحت الأيام تمر وقريش تسلم رجلا رجلا وحويطب بن عبد العزى يميل إلى الإسلام والحكم يثنيه عن عزمه وينهاه ويعوقه فيستسلم له ، إنه يريد الإسلام ويأبى الله عز وجل إلا ما يريد .

٢٢

نزلت آية : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا * أولئك هم الفاسقون ﴾[1] . فقال سعد بن عبادة سيد الأنصار :

ـ أهكذا نزلت يا رسول الله ؟

فقال ـ ﷺ ـ :

ـ ألا تسمعون يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم ؟

ـ يا رسول الله إنه رجل غيور . والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته .

فقال سعد :

ـ والله يا رسول الله إنى لأعلم أنها حق وأنها من عند الله . ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاعا قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء . والله إنى لا آتى بهم حتى يقضى حاجته .

فما لبثوا إلا يسيرا حتى جاء هلال بن أمية عشيا فوجد عند أهله رجلا فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهيجه حتى أصبح وغدا على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال :

---

(١) النور ٤

— يا رسول الله إنى جئت أهلى عشيا فوجدت عندها رجلا فرأيت بعينى وسمعت بأذنى .

فكره رسول الله — ﷺ — ما جاء به واشتد عليه ، فقال سعد بن عبادة :

— الآن يضرب رسول الله — ﷺ — هلال بن أمية ويبطل شهادته فى المسلمين .

وقال هلال :

— لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا فإن تكلم جلدتموه وإن قتل قتلتموه ، وإن سكت سكت على غيظ .

فقال — ﷺ — :

— اللهم افتح .

وجعل يدعو حتى نزل عليه الوحى ، وكان إذا نزل عليه عرفوا ذلك فى تربد جلده ، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحى ، فنزلت : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين * والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين * ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ﴾[1] .

فسرى عن رسول الله — ﷺ — فقال :

— أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجا ومخرجا .

فقال هلال :

---

(١) النور ٦ — ١٠

— قد كنت أرجو ذاك من ربى .

فجاء هو وامرأته إلى رسول الله — ﷺ — فتلاعنا ، فشهد الرجل أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، ثم لعن الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فذهبت لتلتعن فقال رسول الله — ﷺ :

— مه .

فلعنت ، فلما أدبرت قال عليه السلام :

— لعلها أن تجىء به أسود جعدا .

فجاءت به أسود جعدا ليقام عليها حد الله .

وكان لعبد الله بن أُبىّ كبير المنافقين ست جوار كان يكرههن على الزنا ويأخذ أجورهن ، وهن معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقُتيلة ، فجاءت إحداهن ذات يوم بدينار ، وجاءت أخرى بدونه ، فقال لهما :

— ارجعا فازنيا .

فقالتا :

— والله لا نفعل ، قد جاءنا الله بالإسلام وحرم الزنا .

فأتيا رسول الله — ﷺ — وشكتا إليه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾[1] .

كان القرآن ينزل بأحكام الله ، وكان رسول الله — ﷺ — فى المسجد يبين للناس الحلال والحرام بعد إجلاء بنى النضير ، وكان المسلمون آمنين . ولكن سادات بنى النضير لم يسكتوا على ما نزل بهم من تحقير فبيتوا العزم على أن يثأروا لما نالهم من ضيم ، فخرج سيدهم حُيى بن

---

(١) النور ٣٣

أخطب وعظيمهم سلام بن مشكم ورئيسهم كِنانة بن أبي الحقيق هوذة ابن قيس وأبو عامر الفاسق إلى أن قدموا على قريش يدعونهم ويحرضونهم على حرب رسول الله — ﷺ — وقالوا :

— إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

فقال أبو سفيان :

— مرحبا وأهلا ، وأحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد .

وخرج من بطون قريش خمسون رجلا ، وتحالفوا وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة متعلقين بأستارها ألا يخذل بعضهم بعضا ويكونون كلهم يدا واحدة على محمد — ﷺ — ، وتحالفت قريش ويهود بني النضير على استئصال محمد والمسلمين ووطدوا النفس على أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

التذييـل

حاول أعداء الإسلام فى كل العصور أن يوجهوا إليه اتهامات باطلة مغرضة لينالوا منه ، ولو نظروا إلى تلك المزاعم نظرة منصفة لوجدوا أن ما عدوه من مثالب الإسلام إنما هو مفخرة لهذا الدين الحنيف ؛ فقد قالوا إن الإسلام جاء بتعدد الزوجات ، ولو تعمقوا المسألة قليلا لوجدوا أن الإسلام إنما جاء ليحد من حرية الرجال فى اتخاذ ما يشتهون من النساء ، فقد كان للرجل أن يتخذ ما يشاء من الزوجات ما دام قادرا على الإنفاق عليهن ، وكان بلاط الملوك فى كل العصور يموج بمئات الزوجات والمحظيات . وإذا ما عدنا إلى التوراة التى بين أيدينا وجدنا أن جميع الأنبياء قد تزوجوا أكثر من واحدة ، وأن سليمان قد اتخذ له ألف زوجة !

كان للرجال حرية مطلقة فى أن يتزوجوا أى عدد من النساء قبل الإسلام ، وكان العرب فى الجاهلية يرهنون زوجاتهم لقاء كأس خمر أو دين قمار ، وما كان لهم شأن قبل أن ينزل الله فيهن ما أنزل . وإن حديث عمر بن الخطاب لخير دليل على ما كانت عليه المرأة فى جزيرة العرب قبل مبعث محمد — ﷺ — ، يقول عمر : « والله إنا كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم ... » فجاء الإسلام لينظم هذه الفوضى وليحد من هذه الحرية التى كانت تضع النساء فى مصاف الأنعام . فحدد عدد الزوجات بأربع

وشرط العدل بينهن : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[(١)] . فكان الإنصاف يقتضى أن يقال إن الإسلام قد جاء ليحدد لا ليعدد ، ولكنها العداوة للإسلام ونبى الإسلام .

وقال خصوم الإسلام إنه أقر نظام الرق ، ولو أنصفوا لقالوا إنه شرع نظام العتق ليصبح الناس جميعا أحرارا ولتستقر فى النفوس عقيدة المساواة بين جميع الناس أمام الله وأمام شريعة الله .

عرف الرق منذ فجر التاريخ وقد امتزج فى كل العصور بنظام الثروة ونظام المعاملات ، ففى مصر الفرعونية كان الأرقاء ملكا للتاج أو المعبد وكانوا يتبعون الخزينة شأنهم فى ذلك شأن الأرض أو الماشية . وكان موظفو بيت الخزينة يتجولون مرافقين ضابطا ومعه جنوده لكى يسجلوا فى قوائمهم ويدمغوهم بخاتم إداراتهم . وكان الكتاب يعتبرون هؤلاء العبيد الأرقاء أشخاصا حقيرين لا « قلب لهم » أى لا « عقل عندهم » يجب أن يساقوا بالضرب كالأنعام .

وقد نظمت هذه الأبيات الشعرية عند العبيد الأرقاء فى مصر القديمة :

إن الولد ينشأ (فقط) . .

لكى ينتزع من بين ذراعى أمه .

وعندما يبلغ مبلغ الرجال .

فإن عظامه تدق .

وكان أكثر هؤلاء العبيد الأرقاء أسرى حرب يؤخذون من الغنائم والأسلاب ويسلمون إلى الجهات التى تكون فى حاجة إليهم وينتقلون من إدارة إلى إدارة كما لو كانوا ثيرانا أو حميرا . وكان يصيبهم نفس ما يصيب

---

(١) النساء ٣

الماشية والحمير أحيانا عندما تتبادلهم أيدى الموظفين المختلفين إذ كانوا يختفون ولا يتركون أثرا .

وقام اقتصاد بابل وآشور على أكتاف الأرقاء أسرى الحروب ، فكانوا يقومون بفلاحة الأرض ويخرجون إلى الأسواق . وكان للسادة أن يبيعوا عبيدهم ولهم أن يؤدبوهم أو يقتلوهم إذا ما بدر منهم ما يغضب ساداتهم فما كان لهم حقوق .

وكان أسرى الحرب يقتلون فى أول الأمر ، ثم تطورت الأفكار فى عهد الرومان واليونان إلى استرقاقهم عوضا عن قتلهم للانتفاع بهم ، وكانوا غالبا يكلفون بأشق الأعمال ولا يحسن إليهم فى مأكلهم وملبسهم ، وكان كل ما يكسبون ملك ساداتهم فما كانت لهم حرية مدنية تؤهلهم لعقد العقود وتحمل الالتزامات وتملك العقار والمنقول والتصرف فيما يملكون .

وجاءت اليهودية وكانت تعتبر أن اليهود هم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم ، كلاب البشرية ، فلم تنظر إلى أسرى الحروب نظرة إنسانية ، فما اكتفت بقتل الأسرى وحسب بل شرعت قتل جميع النساء والأطفال والحيوان وكل ما يوجد فى المدن التى يقودها سوء طالعها لأن تقع فى أيديهم .

جاء فى التوراة التى بين أيدينا فى سفر التثنية ، الإصحاح العشرين على لسان موسى :

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ،

وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك .فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريما : الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفريزيين والحوبيين واليبوسيين لكى لا يعلموكم أن تعلموا حسب جميع أرجاسهم التى عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم » .

فشريعة التوراة التى كتبت فى بابل أيام الأسر تحرض اليهود على استعباد الأعداء إذا جنحوا للسلم ، أما الأعداء الذين يحاربون بنى إسرائيل فجزاء رجالهم ضرب الرقاب ، وأما النساء والأطفال فيصبحون عبيدا للمنتصرين وكل ما يقع فى أيديهم فهو غنيمة لليهود . ولم يستنكر أحد من المستشرقين ولا من أعداء الإسلام هذه الوحشية التى ابتدعها حكماء صهيون ودسوها فى توراتهم التى خطوها بأيديهم بعد أن حملهم نبوخذنصر إلى بابل أسرى !

وجاء حكماء اليونان وأيدوا نظام الرق ، فأفلاطون فى جمهوريته الفاضلة يكتب الذل على العبيد ويقضى بحرمانهم حق المواطنة وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من ساداتهم أو من السادة الغرباء ، ومن تطاول منهم مع سيد غريب أسلمته الدولة إليه ليقتص منه كما يريد .

ويزعم أرسطو أن فريقا من الناس مخلوقون للعبودية لأنهم يعملون عمل الآلات التى يتصرف فيها الأحرار ذوو الفكر والمشيئة ، فهم آلات حية تلحق فى عملها بالآلات الجامدة . ويُحمد للسادة الذين يستخدمون

تلك الآلات الحية أن يتوسموا فيها القدرة على الاستقلال والتمييز فيشجعوها ويرتقوا بها من منزلة الأداة المسخرة إلى منزلة الكائن العاقل الرشيد .

وشريعة قدماء اليونان لا تعترف بالحقوق المدنية كاملة لمن لا يحمل الجنسية اليونانية ، فأفراد الشعوب الأخرى — بحسب هذه الشريعة — مجردون من جميع الحقوق المدنية إذا كانوا من طبقة الرقيق أو من كثير من هذه الحقوق إذا كانوا من طبقة الموالى ، ولم تكن لهم منزلة فى البلاد اليونانية غير هاتين المنزلتين .

كان قدماء اليونان يعتقدون أنهم وحدهم كاملو الإنسانية قد زودوا بجميع ما يمتاز به الإنسان عن الحيوان من قوى العقل والإرادة ، على حين أن الشعوب الأخرى ناقصة الإنسانية مجردة من هذه القوى لا تزيد كثيرا على فصائل الأنعام ، وأنهم قد خلقوا ليكونوا عبيدا مسخرين لليونان .

وكانت قوانين الرومان ونظمهم الاجتماعية تجرد غير الرومانى من جميع ما يتمتع به الرومانى من حقوق مدنية أو من معظمها وتنظر إليه على أنه من فصيلة إنسانية وضيعة ، وأنه لم يخلق إلا ليكون رقيقا للرومان .

وتجرد شريعة الهنود البرهميين طبقة من طبقات الشعب وهى طبقة السودرا أو المنبوذين من معظم حقوقهم المدنية وتنزلهم منزلة الرقيق ، فتقرر كتبهم المقدسة « أن السيد الأعلى لم يعط هذه الطبقة إلا وظيفة واحدة وهى أن يكونوا خدما للبرهميين » . وهم فوق ذلك نجس ورجس فلا يصح لمسهم ولا مؤاكلتهم ولا مصاهراتهم ولا الارتباط بهم بأية علاقة غير علاقة السيد بالمسود .

وقال هيرودوت : إن الفرس فى زمانه كانوا يمنعون عقاب العبد على الهفوة الأولى ولكنهم يبيحون للسيد أن يقتل عبده أو يعذبه إذا أذنب مرة

بعد أخرى . وكانت شريعة الفرس أرفق بالعبد على الجملة من شرائع اليونان والرومان لأنها كانت ترخص له فى الراحة وتكره العدوان عليه ، وربما سرى إليهم أدب الشريعة هذا من عادة التسرى واقتناء الزوجات من الإماء . ووافق ذلك معيشة الحضارة فى المدن الكبيرة وقلة الحاجة إلى إرهاق الأرقاء لتحصيل ضرورات المعيشة .

وجاءت المسيحية ولم تحاول أن تصفى نظام الاسترقاق ، ولم يرد فى أى من الأناجيل الأربعة نص صريح يستنكر أن يستعبد الإنسان أخاه الإنسان ، بل كل ما جاء فى الأناجيل التى بين أيدينا : أن الناس كلهم إخوان وأنه يجب عليهم أن يحب بعضهم بعضا . ولم تعن هذه الأخوة القضاء على العبودية فإن الحواريين قد أيدوا نظام الرق ، فبطرس قد أوصى الأرقاء بطاعة ساداتهم وقال إن الرق كفارة عن ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم .

وكتب بولس الذى استولى على كرسى السيد المسيح وراح يشرع للمسيحيين رسالة إلى أهل « أفسيس » أوصى فيها العبيد بالإخلاص فى الولاء لساداتهم كما يخلصون فى الولاء للسيد المسيح ، قال : « أيها العبيد أطيعوا ساداتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب » .

وذهب كثير من القديسين إلى أن الرق فى الديانة المسيحية فكرة يتدين بها الرقيق ويتقرب بها إلى الله ، فقد قال القديس « أسيلوس » من آباء الكنيسة اليونانية فى بعض كتبه بعد أن أورد ما جاء فى رسالة بولس إلى أهل

« أفسيس » : « وهذا يدل على أن العبد يجب عليه طاعة مولاه بقلب سليم تمجيدا لله العلى العظيم » .

وقال بعض القساوسة مخاطبا أحد الأرقاء : « إنى لأنصحك بالبقاء فى الرق حتى ولو عرض عليك مولاك تحريرك ، فإنك بذلك تحاسب حسابا يسيرا لأنك تكون خدمت مولاك الذى فى السماء ومولاك الذى فى الأرض » .

وجاءت الكنيسة فأقرت نظام الرق واعتمده أحبار رومة ، وتغالى بعضهم فجعل فكرة الرق قانونا طبيعيا لا يمكن مخالفته وقال : « إن الطبيعة خصصت بعض الناس ليكونوا أرقاء » .

وأيد الرق توماس الأكوينى كبير فلاسفة النساك والقسيسين وتلميذ أرسطو الذى اشتهر بالعلم والتقوى فى القرن الثالث عشر للمسيح ، فاستند إلى أقوال رسل المسيحية كما استند إلى أقوال أرسطو فى كتابه عن السياسة أن الرق حالة من الحالات التى خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما يناقض الإيمان ، أن يقنع الإنسان من الدنيا بأهون نصيب » .

وما كان يعترف للرقيق بحق الزواج ولا بحق أن تكون لهم أسرة ، وكان الاتصال بين ذكورهم وإناثهم لا يعتبر زواجا وإنما كان يتم باختيار مواليهم وفى صورة يقصد منها مجرد التناسل وتكاثر عدد الرقيق كما يحدث بين الأنعام .

وكان يحظر على المرء أن يتزوج من أمة وعلى الحرة أن تتزوج برقيق ، بل إن معظم هذه الشرائع كانت توقع على الحرة التى تتزوج رقيقا عقوبة شديدة وصلت فى القانون الرومانى إلى حد الإعدام .

كان الرق نظاما اجتماعيا فى كل مجتمعات العالم قبل ظهور الإسلام ، فالرقيق منتشرون فى البيوت والمزارع والمرافق العامة تقوم على سواعدهم الحياة الاقتصادية فى كل أنحاء الأرض . وقد زعم الفلاسفة ورجال الدين المسيحى أن الرق نظام طبيعى ، ومع وضوح هذه الحقائق لم يستح بعض المستشرقين المسيحيين وأعداء الإسلام من أن يوجهوا إلى الإسلام تهمة إباحة استرقاق بنى الإنسان !

إن الإسلام عندما جاء لم يتهيب النظام القائم فى المجتمعات القديمة كما تهيبته اليهودية والمسيحية وفلاسفة اليونان والرومان ، فلم يقل إن الرق نظام طبيعى ولم يخدع العبيد بأن يقول لهم إن طاعة ساداتهم كفارة عن ذنوب ارتكبوها فى الأرض ، بل واجه المشكلة بشجاعة وعالجها علاجا حاسما لو طبق فى أمانة لقضى على المشكلة قضاء مبرما فى أجيال قليلة . ولكنها الأهواء التى فسرت وأولت وحادت عن الجادة فطالت فترة الرق فى الإسلام دون سند من شريعة الله أو سنة رسول الله عليه السلام .

يقول الأستاذ العقاد فى كتابه « بلال داعى السماء » : كان فى وسع الدعوة الإسلامية أن تمر بنظام الرق فى العالم العربى وفى العالم بأسره ثم تتركه حيث كان فلا يحسب عليها ذلك — فى حينها — إغضاء معيبا تسأل عنه ، لأن مسألة الرق لم تبلغ يومئذ أن تكون من المسائل الناطقة التى يؤول السكوت عنها بالإغضاء أو المداراة .

ومن المحقق أن الدعوة الإسلامية لم تكن تخسر شيئا لو أنها أهملت مسألة الرق فى أول ظهورها ، لأن المسلمين على نقيض ذلك كانوا يتجشمون خسارة لا يطيقونها فى إعتاق العبيد والإماء ، كلما ساءت حالهم عند ساداتهم بدخولهم (فى الإسلام) ؛ وكان أبو قحافة يمثل الرأى الحصيف

وهو يأخذ على ابنه الصديق بذل المال الكثير فى سبيل رهط من الضعاف المهازيل يثقلون كاهله ولا يغنون عنه أقل غناء .

فلم يكن ثمة من باعث إلى النظر فى إنصاف الأرقاء وهدم نظام الرق القديم غير باعث الفضيلة المثالية التى تعنى بطلب الكمال ولا تحفل بالمصلحة المادية أقل احتفال » .

وهناك سؤال غالبا ما يثور فى رءوس الناس : لماذا لم يحرم الإسلام الرق تحريما قاطعا دفعة واحدة كما حرم الزنا والخمر والميسر وأكل الميتة ولحم الخنزير ؟ والرد على ذلك أن الإسلام لو كان قد شرع تحريم الرق تحريما فوريا لزلزل اقتصاد الدولة الإسلامية الناشئة ، فكثير من أوجه النشاط الاقتصادى كان ينهض به الأرقاء ، وكان ينزل فى نفس الوقت ضربة قاصمة بالأرقاء المسنين والإماء المسنات الذين لم يكونوا يعرفون سبيلا للعيش غير دور ساداتهم . فلو شرع الله سبحانه وتعالى تحرير العبيد طفرة واحدة لهام هؤلاء الناس على وجوههم فى دنيا الضياع ، ولكتب على طبقة من الرقيق الموت جوعا أو دفعهم إلى الفساد فى الأرض ، فكان من الحكمة ألا يقر الإسلام الرق فى صورة مطلقة دائمة وإنما أقره فى صورة تؤدى هى نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج ، ولو طبقت نصوص الشريعة الإسلامية تطبيقا أمينا لانمحى الرق فى الإسلام فى جيلين ، وما جيلان فى حياة الشعوب بشىء يذكر .

عمل الإسلام على أن يقطع السبل التى يتدفق منها سيل الرق وعلى أن يفتح كل السبل التى تفضى إلى العتق ، فحرم استرقاق المسلم أصلا ، ومحا التفرقة بين الأجناس والأقوام ، وعلم الناس أن المؤمنين إخوة وأنه لا فضل لمسلم على مسلم بغير التقوى .

وكانت بعض قبائل العرب تشن هجوما على قبائل أخرى فتخطف الرجال والنساء والولدان وتبيعهم فى الأسواق بيع الأنعام ، وكان الخطف والقرصنة والسبى وسائل مشروعة قبل الإسلام ، وكانت بعض الدول تمارس هذا النوع من سلب حرية الناس ، وقد حرم الإسلام هذا النوع من الاسترقاق ولم يقر النخاسة ، فإن كان بعض المسلمين قد شنوا الغارات على الآمنين وخطفوا الرجال والنساء والولدان وعرضوهم فى الأسواق عرض الحيوان ، فما ذلك من الدين فى شىء . وإن مثلهم مثل المسلم الذى يشرب الخمر أو يرتكب الفواحش ، فليس معنى شرب بعض المسلمين الخمر أن الإسلام يبيح المسكرات ، وليس معنى أن بعض المسلمين يقربون الزنا أن الإسلام يشجع الفساد ويقر البغاء .

وكان المدين فى بعض الشرائع قبل الإسلام إذا عجز عن سداد دينه فى ميعاد الاستحقاق يحكم عليه بالعبودية لمصلحة دائنه ، وكان ذلك شائعا بين اليهود واليونان والرومان . فلما جاء الإسلام نظر إلى المدين المعسر نظرة رحمة ، فقال تعالى فى محكم كتابه : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾(١) . ولم يكتف بذلك بل جعل للغارمين نصيبا من زكاة القادرين وصدقاتهم : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾(٢) .

وكانت بعض الشرائع تقر أن يبيع الوالد المعسر فى حالة عوزه أولاده ذكورهم وإناثهم فى بعض الشعوب ، أو إناثهم وحسب فى شعوب أخرى . ولكن العرب فى حالة الإملاق كانوا يقتلون أولادهم ويئدون

---

(١) البقرة ٢٨٠ (٢) التوبة ٦٠

بناتهم ، فجاء الإسلام ينهى عن قتل الأولاد خشية إملاق ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾[(١)] . ونهى عن الوأد : ﴿ وإذا الموءودة سئلت * بأى ذنب قتلت ﴾[(٢)] .

وكان القاتل فى بعض الشعوب يسبى ، وكذلك الزانى والسارق . فلما جاء الإسلام شرع النفس بالنفس إذا كان القتل عمدا ، أما إذا كان القتل خطأً فدفع الدية لأولياء القتيل ، وأمر بجلد الزانى ثمانين جلدة إذا لم يكن محصنا وبرجمه إذا كان متزوجا ، أما السارق فقد أمر بقطع يده .

وكان للإنسان أن يبيع نفسه لقاء ثمن يفرج به أزمته ، فلم يوافق الإسلام على هذا النوع من الاسترقاق الذى يحط من بشرية الإنسان ، فالإنسان فى الإسلام يولد حرا ، وقد قال عمر : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » . وأن ليس للإنسان حق التصرف فى حريته التى منحها الله له ، كما أنه ليس له حق التصرف فى روحه التى نفخها الله فيه .

ولم يكن الاسترقاق عند العرب عداء لعنصر أو عداء لجنس أو عداء للون ، فإذا قالوا العبد فهم لا يقصدون الزنجى ولا يخصون سواد اللون بالمهانة ، ولكنهم يقصدون كل أسير لم يفك إساره ، وكل جليب يباع ويشرى فى الأسواق ومنهم صفر الوجوه وبيض الوجوه .

كان عبادة بن الصامت زنجيا وكان صاحبيا جليلا شهد المشاهد كلها مع رسول الله — ﷺ — وأرسله رسول الله — ﷺ — يجمع بعض الصدقات ، وأرسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعد فتح الشام إلى حمص ليفقه أهلها فى الدين ، وقد بعثه عمرو بن العاص لما فتح مصر إلى

---

(١) الإسراء ٣١ .   (٢) التكوير ٨ ، ٩

« المقوقس » عظيم القبط على رأس وفد ليفاوض المقوقس فى الصلح .

فلما قدم عبادة على رأس أصحابه ، قال المقوقس :

— نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره ليكلمنى .

— إن هذا أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله .

— وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغى أن يكون دونكم ؟

— كلا ، إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعا وأفضلنا سابقة ورأيا وعلما . وليس ينكر السواد فينا .

وألقى المقوقس عظيم القبط إلى عبادة بن الصامت الزنجى سمعه وأذعن لشروطه .

وكان بلال مؤذن الرسول من أبناء الحبشة المولدين وكان آدم شديد الأدمة ، ولم يقف لونه ولا جنسه فى سبيل أن يصل إلى المكانة التى يستحقها فى دين فتح أبوابه للبشرية جمعاء لا فرق بين أبيض ولا أسود ولا عربى ولا أعجمى ، وأن الناس فيه يتفاضلون بالتقوى ، فقد كان بلال صحابيا جليلا وكان خازن الرسول — ﷺ .

لم يقر الإسلام القرصنة والخطف والسبى ولم يعترف بأن هناك طبقة منبوذة بالمولد كتب عليها القدر أن ترسف فى ذل العبودية حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، ولم يحكم بالرق على المدين المعسر ، ولم يقر سلطة الوالد فى بيع أولاده ، ولا حق الإنسان فى أن يتنازل عن حريته ، ولا حق الدولة فى أن تسلب أحدا حريته إذا ما ارتكب جريمة خطيرة كالقتل

أو السرقة أو الزنا . كل ما أقره الإسلام من أنواع الرق نوعين : رق الوراثة ورق الحرب ، وقد قيدهما بقيود لو اتبعها المسلمون بإخلاص لقضى على الرق فى الإسلام قضاء مبرما .

أراد الإسلام أن يقضى على رق الوراثة بالتدريج حتى لا يلقى بالعبيد فى الطرقات إذا ما شرع إلغاء الرق طفرة واحدة ، فقرر أن من تأتى به الجارية من سيدها يولد حرا ويلتحق نسبه بالسيد وتصبح الجارية مستحقة لحريتها بعد وفاة سيدها .

وقد قال — ﷺ — حينما ولدت منه جاريته مارية القبطية « إبراهيم » : « أعتقها ولدها » . وهذا التشريع يرد الحرية التى يقدسها الإسلام إلى الأولاد وأمهات الأولاد فى جيل واحد . ولهذه الحكمة لم يحدد الإسلام عدد ما كانت تملكه يد المسلم من نساء ، لأن تسرية رجل قادر بعدد مهما بلغ من النساء يفضى إلى تحرير أولاده منهن فى حياته وإلى تحريرهن جميعا بعد وفاته ، فإن كان فى هذا تضحية بجيل من النساء الضائعات فهى تضحية واجبة لإنقاذ أجيال من ذل العبودية التى كانت تفرضها عليهم الشرائع السابقة على الإسلام .

وقد كان هذا التشريع الحكيم كفيلا بأن يقضى على رق الوراثة بعد جيل واحد لو أن المسلمين ساروا على هدى شريعة الله وسنة رسول الله — ﷺ — الذى قرر فى وضوح أن ابنه إبراهيم قد أعتق جاريته مارية القبطية التى أهداها إليه المقوقس عظيم القبط ، ولو أن روافد الرق الأخرى قد جفت — وكان لا بد لها أن تجف لو أن أصحاب الأغراض من المسلمين قد اتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم دون أن يحللوا ما حرم الله .

قيد الإسلام رق الوراثة بقيود كانت كفيلة بالقضاء عليه ، وقيد رق

الحرب بقيود كانت هى الأخرى كفيلة بالقضاء عليه وإعادة الحرية التى يقدسها الإسلام إلى جميع البشر لا فرق بين عربى أو عجمى ولا مسلم ولا غير مسلم . وقد أباح الإسلام الحرب التى اصطلح فقهاء القانون الدولى أخيرا على أنها الحرب المشروعة وهى :

١ ـــ حرب الدفاع عن النفس لدفع اعتداء واقع بالفعل وهو دفاع مشروع فى كل القوانين .

وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾(١) . ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾(٢) . وهذه الآية تقيد رد الاعتداء بالقدر اللازم لذلك دون مجاوزة أو تنكيل .

٢ ـــ أن تكون الحرب لحماية حق ثابت للدولة انتهكته دولة أخرى دون مبرر ، وقد أقر الإسلام الحرب فى حالة نكث العهد والكيد للإسلام ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾(٣) . وفى حالة إثارة الفتن وتعرض الدولة لفتن تهدد سلامتها : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾(٤) .

وإن ما جاء به الإسلام سبق فقهاء القانون الدولى بأربعة عشر قرنا ، فهو أول من فرق بين الحرب المشروعة وغير المشروعة ، وأول من وضع للحرب آدابا وتقاليد . وكان أول من نادى بفكرة الحرب العادلة والحرب

---

(١) البقرة ١٩٠ (٢) البقرة ١٩٤

(٣) التوبة ١٢ (٤) البقرة ١٩٣

غير العادلة بعد القرآن وحكام المسلمين هو القديس توماس فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ثم تجددت الفكرة وتبلورت بإباحة الأولى وتحريم الثانية فى كتابات الفقيهين الدينيين فيتوريا وسوارس . ويعترف فيتوريا نفسه بأن الإسلام قد سبق كل المشرعين فى هذا المضمار ، ويعترف أيضا بأن مبدأ وجوب إعلان الحرب وعدم المباغتة مبدأ إسلامى نقله فيما بعد فقهاء القانون الدولى الأوروبى .

أبقى الإسلام على رق الحرب وقيده بقيود ، فهو لا يضرب على الذين يؤسرون فى حرب بين طائفتين من المسلمين سواء أكانوا من الطائفة الباغية أم من الطائفة الأخرى ، ولكنه يضرب على أسرى الحرب على شريطة أن تكون الحرب شرعية يعلنها غير المسلمين على المسلمين ، وذلك تخويفا لغير المسلمين من أن يشنوا على المسلمين حربا تكون مغبتها أن يفقدوا حريتهم وأن يصبحوا عبيدا . ومع ذلك لم يجعل الإسلام استرقاق أسرى الحرب قاعدة بل ترك الخيار للإمام فله أن يمن على الأسرى بدون مقابل أو يطلق سراحهم لقاء فدية أو عمل يؤدونه أو فى نظير أسرى للمسلمين قد وقعوا فى أيدى العدو . والقرآن الكريم لم يذكر الرق من بين الأمور التى يباح للإمام أن يعامل بها الأسرى واقتصر على المن والفداء : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾[1] .

كان أسرى الحروب قبل الإسلام يقتلون ، وكانت اليهودية لا تكتفى بقتل أسرى الحروب فحسب بل تأمر بقتل جميع النساء والأطفال والحيوان . وتطورت الأفكار فى عهد الرومان واليونان إلى استرقاق

---

(١) محمد ٤

الأسرى ، فلما كانت غزوة بدر أخذ رسول الله — ﷺ — من أغنياء الأسرى الفدية ومنّ على فقرائهم فأطلق سراحهم دون مقابل ، ومن كان يعرف القراءة والكتابة منهم جعل فداءه أن يعلم عددا من أولاد المسلمين القراءة والكتابة .

ومنّ رسول الله — ﷺ — على أهل مكة يوم الفتح وقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . وقد أتى الحجاج بن يوسف الثقفى بأسير فقال لعبد الله بن عمر : أقدم فاقتله . فقال ابن عمر : ما بهذا أمرنا . وتلا قوله تعالى : ﴿ فإما منّا بعد وإما فداء ﴾(١) .

ويقول الأستاذ المستشار على على منصور فى كتابه « الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام » : إن استرقاق الأسرى فى الإسلام كان من قبيل المعاملة بالمثل .

وجاء بعد ذلك عصر الصحابة رضوان الله عليهم واشتد الالتحام بين المسلمين والمجوس فى الشرق والمسلمين والروم فى الغرب ، وكان استرقاق الأسرى نظاما متبعا فى الحروب إذ ذاك وقد أسروا فعلا من المسلمين واسترقوهم وباعوهم ، فاضطر قواد المسلمين إلى السير على سنة المعاملة بالمثل . ولم يكن من المعقول أن يسترق أعداؤهم أسرى المسلمين ويمن المسلمون على الأسرى منهم فإن ذلك يدفع إلى كلب الأعداء فيهم واستمراء أفعالهم ، ولم يجد قواد المسلمين نصا قويا يمنع من الاسترقاق ولا نصا قرآنيا صريحا ينهى عنه ، ووجدوا قانون المعاملة بالمثل يوجب ذلك فى قول الله تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾(٢) وقوله تعالى : ﴿ والحرمات قصاص ﴾(٣) .

---

(١) محمد ٤ (٢) البقرة ١٩٤ (٣) البقرة ١٩٤

أقر الإسلام رق الوراثة ولم يصدر تشريعا يحرمه طفرة واحدة ، لأن الشارع الحكيم رأى أن القدرة تحقق الغاية دون أن يلقى بعبيد مسنين وأطفال رضع وفتيات جميلات فى عرض الطرقات فتهتز أركان مجتمع آخذ فى الاستقرار وتشيع فيه القسوة وغلظ الأكباد والفواحش التى جاء ليقضى عليها ، وقيده بقيود كانت كفيلة بالقضاء عليه . وأقر الإسلام رق الحروب وقيده بقيود وكان الهدف من إباحته تخويف غير المسلمين من أن يشنوا حربا على المسلمين ، وقد ترك للإمام أن يفدى أو يمن ، ولم ينص نصا صريحا على الاسترقاق ، فلو أن المسلمين قد اتبعوا روح القرآن لقضى على رق الوراثة ورق الحرب لو جنح أعداء الإسلام إلى السلم واحترموا العهود والمواثيق ولم يحاولوا أن يسترقوا أسرى المسلمين .

إن ريتشارد قلب الأسد قد قتل ثلاثة آلاف من أسرى المسلمين أمام بيت المقدس بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم ، ولم يدفع ذلك صلاح الدين الأيوبى إلى قتل أسرى الصليبيين واكتفى باسترقاق بعض وفداء بعضهم الآخر . وقد اضطر لاسترقاق الصليبيين لما وجد من قسوة قوادهم فى معاملة أسرى المسلمين .

وأين ما فعله ريتشارد قلب الأسد مما فعله رسول الإسلام والسلام — ﷺ — يوم بدر وما فعله المسلمون ؟ فقد كانوا يؤثرون الأسرى بالطعام على أنفسهم ، وقد قال أحد أسرى بدر : « كان المسلمون يقدموننا على أنفسهم فكانوا يؤثروننا بالأدم ويكتفون هم بالتمر » .

كان هدف الإسلام تصفية الرق وإشاعة الحرية ، فلم يدع سبيلا لتحرير العبيد إلا سلكه وحبب المسلمين فيه . وقد عدد الدكتور على عبدالواحد وافى فى كتابه : « الحرية فى الإسلام » أسباب العتق فى

الإسلام فقال :

شرع الإسلام للعتق أسبابا كثيرة يرجع أهمها إلى الأمور الآتية :

١ ــ أن يجرى على لسان السيد فى صورة ما لفظ يدل صراحة على عتق عبده ، سواء أكان قاصدا معنى اللفظ أم لم يكن قاصدا له بأن جرى خطأ على لسانه ، وسواء أكان جادا فى إصداره أم كان هازلا ، وسواء أكان مختارا أم كان مكرها عليه ، وسواء أكان فى حالة عادية أم كان فاقدا لرشده بفعل الخمر وما إليها من المحرمات . وفى هذا يقول الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه : « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد ... » . وعد منها العتق . ومن هذا يظهر أن الإسلام يتلمس أوهى الأسباب لتحرير العبيد .

٢ ــ ومن أسباب العتق كذلك أن يجرى على لسان السيد فى صورة ما لفظ يفيد « التدبير » أى يدل على الوصية بتحرير العبد بعد موته ، فبمجرد أن تصدر من السيد عبارة تدل على هذا المعنى تصبح الحرية مكفولة للعبد بعد وفاة سيده . وقد اتخذ الإسلام جميع وسائل الحيطة لضمان الحرية لهذا النوع من العبيد ، فحظر على السيد فى أثناء حياته أن يبيع عبده المدبر أو يرهنه أو يهبه أو يتصرف فيه تصرفا ينقل ملكيته إلى شخص آخر . وإذا كان المدبر جارية فإن حكمها يسرى على من تلده بعد تدبيرها فيعتق معها بعد وفاة سيدها ، أقر ذلك ورثته أم لم يقروه .

٣ ــ ومن أسباب العتق فى الإسلام كذلك أن يأتى السيد من جاريته بولد ، ففى هذه الحالة يعتبر الولد حرا من يوم ولادته وتصبح الأم نفسها مستحقة للحرية بعد وفاة سيدها . وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام فى سُرِّيَّته مارية حينما جاء منها بإبراهيم : « أعتقها ولدها » . أى أن مجيئها منه

بهذا الولد جعلها مستحقة للحرية بعد وفاته ، ويسمى الفقهاء هذا النوع من الجوارى « أمهات الأولاد » . وقد اتخذ الإسلام لضمان الحرية لهن الاحتياطات نفسها التى اتخذها حيال المدبرين ، فحظر على السيد فى أثناء حياته أن يبيع أم ولده أو يهبها أو يتصرف فيها أى تصرف ينقل ملكيتها ويعوق حريتها . وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « أم الولد لا تباع ولا توهب ، وهى حرة من جميع المال » .

ويقول عمر منكرا على من كانوا يحاولون بيع أمهات أولادهن : « أفبعد أن اختلطت دماؤكم بدمائهن ولحومكم بلحومهن تريدون بيعهن ؟! » . وإذا جاءت أم الولد بعد ذلك بولد من غير سيدها فإن حكمها يسرى عليه فيعتق بعد وفاة السيد .

ومن هذا يتبين أن معاشرة السيد لجاريته ومجيئه منها بولد كانا يؤديان فى الإسلام إلى حريتها وحرية جميع نسلها إلى يوم القيامة . ويبدو أن الإسلام قد أباح للموالى معاشرة إمائهن ليكون ذلك وسيلة إلى التحرير ، وأنه قد استغل ميول الغريزة للقضاء على أهم رافد من روافد الرق وإشاعة الحرية بين الناس .

ومن ثم تظهر لنا الحكمة فى أن الإسلام قد أجاز للسيد أن يتسرى جواريه بدون أن يقيد هذا التسرى بعقد ولا بعدد ، فلم يقيده بتعاقد ولا بإيجاب وقبول ، لأن وسيلة تؤدى إلى حرية الجارية وحرية نسلها إلى يوم القيامة لا يصح أن تتوقف على رأيها ولا على قبولها ، بل ينبغى أن تذلل سبلها وتنتهز بمجرد إقدام السيد عليها . ولم يقيده الإسلام بعدد بل أجاز للسيد أن يتسرى كل من يرغب التسرى بهن من جواريه بالغا ما بلغ عددهن ، لأن وسيلة تؤدى إلى حرية الجوارى واتصال نسب أولادهن

بالموالى وحرية جميع نسلهن إلى يوم القيامة لا يصح أن تقيد بعدد ، لأن تقييدها بذلك معناه تقييد منافذ الحرية والإبقاء على روافد الرق . بل إنه مما يتسق مع الغرض النبيل الذى يرمى إليه الإسلام ألا تدخر وسيلة لإغراء الموالى باتخاذ السرارى والإكثار من عددهن ، حتى تشمل نعمة الحرية أكبر عدد ممكن ويقضى على الرق فى أقصر وقت مستطاع .

٤ — ومن أسباب العتق فى الإسلام كذلك أن يكاتب السيد عبده ، أى يتفق معه على أن يعتقه إذا دفع له مبلغا من المال . وقد ذلل الإسلام لهذا النوع من العبيد جميع وسائل الحصول على المال فى صورة تدل أوضح دلالة على شدة حرصه على تصفية الرق وإشاعة الحرية بين الناس ، فأباح لهم أن يتصرفوا تصرف الأحرار فيبيعوا ويشتروا ويتاجروا ويعقدوا العقود حتى يستطيعوا أن يجمعوا المبالغ التى كوتبوا عليها فتتحرر رقابهم ، وحث جميع المسلمين على مساعدتهم والتصدق عليهم ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾(١) .

ويدل ظاهر القرآن فى هذه الآية على أنه لا يجوز للسيد أن يمتنع عن قبول المكاتبة متى أبدى العبد رغبته فى تحرير نفسه لقاء مبلغ يدفعه . وقد سأل ابن جريج عطاء بن أبى رباح : « أواجب علىّ إذا طلب مملوكى الكتابة أن أكاتبه ؟ » . فأجابه بقوله : « ما أراه إلا واجبا » . واستدل بالآية الكريمة السابقة .

وإذا كان المكاتب جارية فإن حكمها يسرى على ما تلده بعد مكاتبتها ، فيعتق معها بدون عوض بمجرد أدائها المبلغ الذى تعاقدت مع

---

(١) النور ٣٣ .

سيدها عليه .

٥ ـــ ذهب جماعة من الفقهاء على رأسهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن إيذاء السيد لعبده إيذاء بليغا يؤدى إلى عتقه فى صورة تلقائية بدون أى إجراء قضائى . بل لقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن مجرد ضرب السيد لعبده أو لطمه له يؤدى فى صورة تلقائية لعتقه ، مستندين فى ذلك إلى ما رواه ابن عمر عن الرسول عليه السلام أنه قال : « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه » .

٦ ـــ عمد الإسلام إلى طائفة كبيرة من الجرائم والأخطاء التى يكثر حدوثها وجعل كفارتها تحرير الرقيق ، فبينما كانت الجرائم فى الشرائع السابقة للإسلام تؤدى إلى استرقاق الأحرار إذا بها فى شريعة الإسلام تصبح مؤدية إلى تحرير العبيد . فالإسلام ينظر إلى تحرير العبد على أنه قربة كبيرة يتقرب بها العبد إلى ربه ويكفر بها خطاياه ، فجعل الإسلام تحرير الرقيق تكفيرا للقتل الخطأ وما فى حكمه ، قال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ﴾(١) . وجعله كذلك كفارة للحنث فى اليمين . قال تعالى : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ﴾(٢) .

وجعله كذلك وسيلة لمراجعة المرأة إذا أوقع عليها زوجها ظهارا بأن قال لها : « أنت علىّ كظهر أمى » . أو عبارة من هذا القبيل ، قال تعالى : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة

---

(١) النساء ٩٢ (٢) المائدة ٨٩ .

من قبل أن يتماسا ﴾(١) .

وجعله كذلك كفارة للإفطار العمد فى رمضان ، فعن أبى هريرة قال : « جاء رجل إلى النبى — ﷺ — فقال : هلكت يا رسول الله ! قال : وما أهلكك ؟ قال : وقعت على امرأتى فى رمضان ! قال : هل تجد ما تعتق به رقبة ؟.. » .

وتقرر الشريعة الإسلامية أن من وجبت عليه كفارة من هذه الكفارات ولم يكن يملك عبدا وجب عليه أن يشترى عبدا ويعتقه متى كان قادرا على ذلك ؟

٧ — خصص الإسلام سهما من مال الزكاة ، أى جزءا من ميزانية الدولة ، لشراء العبيد وتحريرهم ومساعدة من يحتاج منهم إلى المساعدة فى سبيل تحريره كالمكاتبين ومن إليهم ، قال تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب ﴾(٢) . أى فى فك قيود الرق عن رقاب العبيد .

والمقصود بالصدقات فى الآية : الزكاة التى كان يتألف منها أهم جزء من موارد الدولة ، فبينما كان بعض الشرائع السابقة للإسلام يفرض على المولى الذى يعتق عبده غرامة يدفعها إلى بيت المال ، إذا بشريعة الإسلام تخصص جزءا من ميزانية الدولة لإنفاقه فى تحرير الرقيق . وكانت الحكومات الإسلامية تحترم هذا المصرف وتخصص له نصيبه ، بل لقد كان ينفق فيه أحيانا أكثر من نصيبه ، فقد ذكر يحيى بن سعد أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد بعثه على صدقات إفريقية ، أى على جمع الزكاة من أهلها ، فاقتضاها وطلب فقراء يعطيهم منها فلم يجد ، لأن عمر بن

---

(١) المجادلة ٣ (٢) التوبة ٦٠

عبد العزيز كان قد أغنى جميع الناس ، فاشترى بها كلها رقابا وأعتقها .

٨ — حبب الإسلام إلى الناس تحرير الرقيق وجعله أكبر قربة يتقرب بها العبد إلى ربه ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة ﴾(١) . أى أن اقتحام العقبة الكبرى التى لا بد من اقتحامها للوصول إلى الجنة تقتضى أن يتقرب المؤمن فى حياته إلى ربه بعمل جليل من أعمال البر كتحرير الرقيق . ولقد بلغ من تعظيم الإسلام لهذه القربة أن النبى — ﷺ — يضرب بها المثل فى جلال العمل وعظيم الأجر فيقول : « من فعل كذا فكأنما أعتق رقبة » . أو « يكون ثوابه عند الله ثواب من أعتق رقبة » .

جاء الإسلام وديانات تقر الرق وتوصى بقتل أسرى الحرب ، وفلسفات ترى أن الرق نظام طبيعى وأن الحرة إذا ما تزوجت عبدا كان جزاؤها الإعدام ، فلم يتهيب النظم القائمة فى المجتمعات القديمة بل قابلها وجها لوجه ، وأعلن رسول الله أن لا إلـه إلا الله ولا مولى إلا الله وأن الناس جميعا لآدم وأن لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وراح الإسلام يعمل على إشاعة الحرية للناس جميعا وعلى محق الرق فى هوادة . وقد كان رسول الإسلام — عليه صلوات الله وسلامه — أول من طبق أوامر الله ليكون أسوة حسنة للمسلمين ، فأمر ابنة عمته زينب بنت جحش أن تتزوج ربيبه زيد بن حارثة ليقضى على ترفع السادة عن الزواج من العبيد . وما كان رسول الله — ﷺ — يفرض رأيه فى أمر الزواج فقد كان يستشير بناته فى أزواجهن ويترك لهن الخيار ، وقد أوصى بأن يؤخذ رأى البنات فى الأزواج . ولكنه أمر زينب بنت جحش أن تتزوج زيدا لحكمة

---

(١) البلد ١١ — ١٣

أرادها الله . ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾[1] .

وفضل الإسلام الزواج بالأمة المؤمنة على الزواج بالحرة المشركة : وأوصى نبى الإسلام عليه السلام بالرقيق خيرا فكان يقول : « لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » . وكان عليه السلام يشفق عليهم من الكلمة الجارحة فيقول : « لا يقل أحدكم عبدى ، أمتى .. وليقل فتاى وفتاتى وغلامى » .

وكان عليه السلام يؤاكلهم ويلبى دعوتهم إلى الطعام ويقول للمسلمين : « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وكان يقول : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » . وكانت وصية النبى — ﷺ — قبيل وفاته : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

لم يقر الإسلام القرصنة والخطف والسبى وبيع الأسرى فى الأسواق بيع الحيوان ، فإن كان بعض النخاسين من المسلمين قد جابوا الصحراء وخطفوا الرجال والنساء والأطفال وباعوهم فى الأسواق فما ذلك من الدين ، فما أباح الإسلام اختطاف الناس من السود أو البيض ، وما جاء الإسلام إلا لإشاعة الحرية وتقويض ما يقيد حرية الإنسان .

ولم يقر الإسلام فرض الرق على أسرى الحروب ، بل إن القرآن الكريم

---

(١) الأحزاب ٣٦

قد وضع أساس معاملة أسرى الكفار فى وضوح ، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًّا بعد وإما فداء ﴾(١) . فإن كان بعض أمراء المسلمين قد فرضوا الرق على أسرى الحروب التى شنوها فما ذلك من الدين ، فما ينبغى الاستدلال على صحة الدين أو فساده بما يفعل أهله . وقد يكون أمراء المسلمين قد اضطروا إلى استرقاق أسرى الحروب لما رأوا أن الأعداء قد استرقوا أسرى المسلمين كما يقول الأستاذ المستشار على على منصور فى كتابه « الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام » .

ولم يقر الإسلام مبدأ استرقاق المدين إذا عجز عن سداد دينه ، بل أوصى الدائن أن ينظر مدينه إلى ميسرة حتى يتمكن من السداد . ولم يقر حق الوالد فى بيع أولاده ذكورهم وإناثهم ولا حق الإنسان فى أن يتنازل عن حريته ويبيع نفسه .

وقيد الإسلام رق الوراثة ووسع منافذ العتق ؛ ولو اتبع المسلمون شريعة الله دون تأويل لصفى الرق فى جيل أو جيلين على الأكثر دون أن تحدث فى المجتمع الإسلامى هزات اقتصادية ونكبات إنسانية من جراء تحريم الرق طفرة واحدة ، ولكنها أهواء الناس وانحرافات الأمراء وجشع النخاسين التى أبقت الرق فى الإسلام دون سند من شريعة الله أو سنة رسول رب العالمين .

القاهرة فى ١٩٦٨/١٢/٢٢

---

(١) محمد ٤

المراجـــع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

صحيح البخارى

السيرة النبوية — لابن هشام

السيرة الحلبية — لعلى برهان الدين الحلبى

الروض الآنف — للسهيلى

تاريخ الطبرى

أسباب النزول

الجامع لأحكام القرآن — للقرطبى

شرح نهج البلاغة — لابن أبى الحديد

المقدمة — لابن خلدون

الحرية فى الإسلام — للدكتور عبد الواحد وافى

الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام — للمستشار على على منصور .

المستشرقون والإسلام — للمهندس زكريا هاشم زكريا

أبناء أبى بكر الصديق — للمؤلف

بلال داعى السماء — لعباس محمود العقاد

حسان بن ثابت — للدكتور سيد حنفى حسنين

نساء النبى — للدكتورة بنت الشاطىء

أهل بيت النبى　　للمؤلف

الرسول . حياة محمد　　ر . ف بودلى ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار

A Literary History of the Arabs By Nichilson

Muslim Institutions By Maurice Gauderoy – Demombynes.

الأغانى　　لأبى الفرج الأصفهانى

بلوغ الأرب　　للألوسى

نهاية الأرب　　للنويرى

للمؤلف

		الطبعة الأولى
أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج).		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل بيت النبى		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨

الطبعة الأولى

أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربي الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	أكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	اكتوبر سنة ١٩٧٢
هذه حياتي		فبراير سنة ١٩٧٥
مذكرات سينائية		ابريل سنة ١٩٧٥

القصص الديني

(للأطفال)

قصص الأنبياء	في ١٨ جزءا
قصص السيرة	في ٢٤ جزءا
قصص الخلفاء الراشدين	في ٢٠ جزءا
العرب في أوروبا	في ٢٤ جزءا

محمد رسول الله ﷺ

والذين معه

في عشرين جزءا

١	ـــ إبراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢	ـــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	ـــ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	ـــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	ـــ قريش	مايو ١٩٦٧
٦	ـــ مولد الرسول	يولية ١٩٦٧
٧	ـــ اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨	ـــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	ـــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	ـــ عام الحزن	مارس ١٩٦٨
١١	ـــ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢	ـــ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	ـــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	ـــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	ـــ صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦	ـــ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	ـــ غزوة تبوك	نوفمبر ١٩٧٠
١٨	ـــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	ـــ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	ـــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠



رقم الإيداع ٣٠٢٤
الترقيم الدولى ٥ ــ ٢٤٣ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

السيرة النبوية



غزوة الخندق

عبد الحميد جوده السحار

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما * من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا * ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما * ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا * وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ .

(قرآن كريم)

١

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد ذهب إلى بنى النضير فى نفر من أصحابه ، وكان بنو النضير قد أضمروا الغدر به وهموا بإلقاء صخرة عليه وقالوا فيما بينهم :

ـــ نقتله ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكة فنبيعهم من قريش .

وبلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ ما هموا به فرجع ، فبينا بنو النضير يتهيأون لإلقاء الحجر إذ جاء رجل من اليهود من المدينة فقال لهم :

ـــ ما تريدون ؟

ـــ قتل محمد وأسر الذين معه .

ـــ أين محمد ؟

ـــ هذا محمد .

ـــ والله لقد تركت محمدا داخل المدينة .

فأسقط فى أيديهم وقالوا :

ـــ قد أُخبر بأمرنا .

فأرسل إليهم محمد بن مسلمة أن اخرجوا من بلدى فلا تساكنونى بها ، فقد هممتم بما هممتم به من الغدر .

فسكتوا و لم يقولوا حرفا ، قال :

ـــ ويقول لكم قد أجّلتكم عشرا ، فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه .

نقض يهود بني النضير العهد وخفروا الذمة بما بيتوا من غدر لرسول الله ـ ﷺ، فأصدر عليه السلام حكمه عليهم بالجلاء من جواره، فتشاوروا مع رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول ، وانتهى قرارهم إلى العصيان والتأهب للحرب فتجهزوا وتحصنوا فى حصونهم ، وأرسل زعيمهم حُيى ابن أخطب إلى الرسول قائلا :

ـ إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك .

فسار إليهم جيش المسلمين وحاصرهم حتى أجهدهم الحصار ، فأرسلوا من يقول لرسول الله ـ ﷺ :

ـ نحن نخرج من المدينة .

فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذراريهم ، وأن يحملوا من متاعهم وأموالهم ما تستطيع الإبل حمله عدا أسلحتهم فلا يأخذون منها شيئا .

وخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام ، وكان من أشرافهم ممن سار إلى خيبر سلام بن أبى الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب ، فقال رسول الله ـ ﷺ :

ـ هؤلاء فى قومهم بمنزلة بنى المغيرة فى قريش .

وكانت بنو النضير صفيا لرسول الله ـ ﷺ ، خالصة له حُبسا لنوائبه ، لم يخمِّسها و لم يُسهم منها لأحد ، إلا أنه أعطى ناسا من أصحابه ووسع فى الناس ، فكان ممن أعطاه رسول الله ـ ﷺ ـ من المهاجرين أبو بكر الصديق أعطاه بئر حجر ، وعمر بن الخطاب بئر جِرم ، وعبد الرحمن بن عوف سوالة ، وصهيب بن سنان الصراطة ، والزبير بن العوام وأبو سلمة بن عبد الأسد البُويلة ، وسهل ابن حنيف وأبو دجانة مالا يقال

له مال ابن حرشة . ولما أجلى رسول الله — ﷺ — بنى النضير قال :

— امضوا فإن ذلك أول الحشر وأنا على الأثر .

واستقر أشراف بنى النضير وساداتهم فى خيبر وفى قلوبهم مرض مما نزل بهم على يدى رسول الله — ﷺ ، فما استطاعوا أن ينسوا يوما أنه أخرجهم من ديارهم ، ففكروا فى أن يخرجوا إلى قريش وإلى قبائل العرب ليحزبوهم على رسول الله — ﷺ — ويزينوا لهم قتال المسلمين واستئصال شأفتهم قبل أن تشتد سواعدهم ويضعوا أيديهم على بلاد العرب جميعا . فانطلق نفر من أشرافهم ووجوههم منهم سلام بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس الوائلى وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل حتى قدموا مكة ، فهرعت قريش لاستقبالهم والحفاوة بهم . وفى دار الندوة دارت المفاوضات ودعا أشراف بنى النضير سادات قريش إلى حرب رسول الله — ﷺ — وقالوا :

— إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

عداوة بدت من أفواههم وما تخفى قلوبهم أكبر ، ودعوة محببة إلى قلوب أعداء محمد — ﷺ — من وجوه قريش وساداتها ، ولكن ذلك الدين الذى جاء به ابن عبد الله كان يشغل عقول القوم فلم يلبوا الدعوة إلى الحرب دون نقاش ، بل قالوا :

— يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟

كان أشراف اليهود ووجوههم يرون رأى العين الأصنام التى كانت حول الحرم ، وكانوا يعلمون أن جوف أول بيت وضع للناس قد كدست

فيه تماثيل آلهة كل شعوب الأرض وصار مخزنا للشرك بعد أن كان منارة للتوحيد ، وعلى الرغم من كل ذلك قال أهل الكتاب الأول دون خجل :

— بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه .

يا للسخرية ! أصحاب الكتاب الأول وحملة رسالة التوحيد يزعمون أن الوثنية خير من دعوة تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، إنها ضلالة تستحق اللعن وقد لعنهم الله من فوق سبع سموات : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا * أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما * فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا ﴾[1] .

وسر قريش قول اليهود ودب النشاط فيهم وراحوا يتأهبون للحرب ، فاجتمعوا فى دار الندوة وراح حكيم بن حزام وأبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وبنو المغيرة يدبرون للقضاء على نبى الإسلام والمسلمين .

وخرج كنانة بن أبى الحقيق يسعى فى بنى غَطَفان ويحضهم على قتال رسول الله — ﷺ — على أن لهم نصف تمر خيبر ، وأعلمهم أن قريشا قد بايعوهم على ذلك فأجابه عُيينة بن حصن الفزارى وكتبوا إلى حلفائهم من بنى أسد فأقبل إليهم طليحة بن أسد فيمن أطاعه .

وخرج من بطون قريش خمسون رجلا وتحالفوا وقد ألصقوا أكبادهم

---

(١) النساء ٥١ — ٥٥ .

بالكعبة معلقين بأستارها ، أن لا يخذل بعضهم بعضا ويكونوا كلهم يدا واحدة على محمد — ﷺ .

وعقد اللواء فى دار الندوة وحمله عثمان بن طلحة بن أبى طلحة وقد ملأ الغيظ قلبه ، فأبوه طلحة قتل يوم أحد ، وكذا عماه عثمان بن أبى طلحة وأبو سعيد بن أبى طلحة ، وإخوته الأربعة وهم مسافح بن طلحة والحرث ابن طلحة وكلاب بن طلحة والجلاس بن طلحة ، وكان يتحرق شوقا للقاء المسلمين ليثأر لأهله ، وبات يتمنى أن يقتل على بن أبى طالب الذى أذاق الأعزة المنون .

وخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب وقد جمعوا أحابيشهم ومن تبعهم من العرب ، وكانوا أربعة آلاف ومعهم ثلاثمائة فرس وألف بعير . انطلقوا حتى نزلوا مر الظهران فجاءهم من أجابهم من بنى سليم وهم سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية . وخرجت بنو أسد يقودهم طليحة بن خويلد الأسدى ، وخرجت غطفان وفزارة معهما ألف بعير يقودهم عيينة بن حصن بن حذيفة ، وخرجت بنو مرة وهم أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى ، وخرجت أشجع وهم أربعمائة يقودهم مسعر بن رُخيلة بن نُويرة بن طَريف ، وخرج معهم غيرهم .

وكانت الأحزاب عشرة آلاف وهم ثلاثة عساكر وملاك أمرها لأبى سفيان . وبدأ الزحف إلى المدينة وما من أحد من الخارجين يشك فى أنها جولة واحدة ثم يصبح الإسلام والمسلمون كأمس الدابر ، فما كان لهم أن يصمدوا لصناديد قريش وفرسان العرب المتعطشين للدماء .

كانت خزاعة تميل إلى رسول الله — ﷺ — وكان مسلمهم وكافرهم

يحبه عليه السلام . فلما تهيأت قريش للخروج انطلق ركب من خزاعة قاصدا المدينة ، وراح الرجال يُغذون السير حتى بلغوا مسجد الرسول فى أربع ليال فدخلوا عليه وأخبروه خبر سادات بنى النضير ودعوتهم قريشا وقبائل العرب لحرب رسول الله — ﷺ ، وخروج أبى سفيان لاستئصال الإسلام والمسلمين . فلما سمع رسول الله — ﷺ — دعا الناس وأخبرهم خبر عدوهم وقال لهم :

— هل نبرز من المدينة أو نكون فيها ؟

وأسقط فى أيدى الناس ؛ إنهم أشاوروا عليه بالخروج يوم أحد وأكرهوه عليه فكانت الهزيمة التى منوا بها . وتمنى الأنصار والمهاجرون لو أن الله أوحى إلى رسوله بما يفعله وجحافل قريش والعرب يتقدمون ليطعنوا الإسلام طعنة قاضية . ولم تذهب نفوس المؤمنين شعاعا فقد كانوا على ثقة بأن الله ناصر من ينصره وأن الله موهن كيد الكافرين .

عشرة آلاف مقاتل يزحفون وقلوبهم تفيض بالحقد على نبى الإسلام والمسلمين ، فقد هجم المسلمون على غطفان حلفاء قريش لما أرادوا أن يتحركوا للثأر لسادات قريش الذين جدلوا يوم بدر ، ومشوا إلى بنى سليم وأجبروهم على أن يتحصنوا فى الدور ، وطردوا يهود بنى النضير لما أضمروا من عداوة وغدر ؛ رجال ينشدون الخلاص من المتاعب التى أطلت عليهم من المدينة بعد أن هاجر إليها محمد وصحبه وألف بالدين الجديد بين قلوب عاشت على مر الزمن متنافرة قد ألقيت بينهم العداوة والبغضاء ! وثلثمائة فرس يمتطيها فرسان تحت إمرة خالد بن الوليد قد عزموا على أن ينالوا نصرا مثل ذلك النصر الذى أحرزوه يوم أحد ، وآلاف الدروع تعكس أشعة الشمس فتملأ قلب أبى سفيان أملا بالنصر المبين .

عرف محمد — ﷺ — فضل الفرسان فى المعارك فأنشأ مراكز للإكثار من نسل الخيول ، بيد أن المدة بين أحد وبين هذه المعركة لم تكن كافية لتمده بكل ما يحتاج إليه جيش المسلمين من جياد . إنه يمتلك خمسين فرسا وما كان يمتلك يوم أحد غير فرسين ، ولكن ماذا يفعل خمسون فارسا من المؤمنين أمام ثلثمائة فارس من صناديد قريش وغطفان وبنى سليم ويهود بنى النضير ؟.

وكان عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فى المدينة يرقب فرصته ليسدد إلى قلب الإسلام ضربة قاضية . ترى لو خرج رسول الله — ﷺ — لحرب الأحزاب الذين تعاهدوا على استئصال المسلمين أيقف ابن أبى والمنافقون يشاهدون المعركة دون أن يطعنوا المسلمين من الخلف ؟

ويهود نبى قريظة الذين بقوا فى المدينة والذين عاهدوا رسول الله — ﷺ — على أن يشتركوا معه فى الدفاع عن المدينة ، أيوفون بعهدهم ويقومون بإخلاص فى الدفاع عن المدينة حتى لو ساءت الأمور ، وقد وقر فى أذهانهم أن نبى الإسلام قد طرد من جواره بنى قينقاع وبنى النضير أقوى قبائل يهود ؟

والمسلمون الذين ذاقوا طعم الهزيمة فى أحد ، أكانوا قادرين على أن يستعيدوا الثقة فى أنفسهم وأن يواجه ثلاثة آلاف مقاتل منهم عشرة آلاف من صناديد العرب الذين يأكل الحقد أكبادهم ؟

كان الخروج من المدينة للقاء هذه القوة الهائلة التى لم تكن أرض العرب قد عرفتها من قبل مخاطرة لا تحمد مغبتها ، وكان الواجب هو الدفاع عن المدينة ، وما كان ذلك أمر سهلا ، فدور المدينة ملتصقة بعضها ببعض إلى مسافة طويلة فهى سور منيع ، والحدود الشمالية يحرسها حائط جرف

منحدر ، وبنو قريظة آخر قبيلة يهودية باقية فى المدينة تحرس مؤخرة المدينة فهم ينزلون فى حصن منيع ينبغى أن يدك قبل أن يستطيع عدو اجتيازه .
وكانت المعضلة المباشرة هى جنوب المدينة المكشوف ، والجنوب الشرقى وهو الجانب الذى تنطلق فيه الطرق إلى حدائق المدينة ، وما أيسر أن يخترق العدو هذا الجزء وأن يتدفق منه إلى المدينة إذا ما شن عليه هجوما شديدا فتنهار فى لحظة كل التحصينات الأخرى !

وفكر المسلمون وأجهدوا عقولهم لرسم خطة الدفاع عن المدينة فأعيتهم الحيل ، فلن يستطيع خمسون فارسا أن يصدوا هجوم ثلثمائة فارس ، ولن يقدر ثلاثة آلاف مقاتل أن يوقفوا زحف عشرة آلاف مجهزين أحسن تجهيز .

وكان سلمان الفارسى فى المسلمين يفكر مع المفكرين ، وكان فى قرارة نفسه راضيا متفرحا فى الله فقد عاونه رسول الله — ﷺ — والمسلمون على أن يتحرر من رقه فصار حرا طليقا كما كان فى بيت أبيه قبل أن يخرج للبحث عن الحقيقة . وأضاء الله ذهنه بالفكرة التى أضنت كل الرءوس ، فتقدم إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا .

اقترح سلمان الفارسى حفر خندق عميق وواسع على طول الجهة المفتوحة من المدينة ، وكان ذلك شيئا جديدا على العرب فقد اعتادوا أن يبرز رجل لرجل وأن يقاتلوا يدا ليد ؛ أما أن يضربوا حول المدينة خندقا فما عرفوا ذلك من قبل . وقد كره بعض المسلمين الرأى وحسبوه ضربا من الجبن ، لكن رسول الله — ﷺ — قبله فاقتنع الناس به .

وركب رسول الله — ﷺ — فرسا له ومعه عدة من المهاجرين

والأنصار وخطط مكان الخندق ، واستعار المسلمون من بنى قريظة آلة كثيرة من مساحى وكرارين ومكاتل وراحوا يعملون فى حفر الخندق فى جد وسلمان الفارسى يقدم إليهم نصائحه ، فقد كان عليهم أن ينتهوا منه قبل أن يقدم إليهم أبو سفيان بن حرب والأحزاب الذين تعاهدوا على استئصال الإسلام والمسلمين .

وراح المنافقون يحاولون أن يثبطوا الناس عن رسول الله — ﷺ ، فجعلوا يقولون لإخوانهم :

— ما محمد وأصحابه إلا أكلة[1] رأس ؛ ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، دعوا هذا الرجل فإنه هالك .

وأرسل اليهود إلى المنافقين وقالوا :

— ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان ومن معه ؟ فإنهم إن قدروا عليكم هذه المرة لم يستبقوا منكم أحدا ، وإنا لنشفق عليكم . أنتم إخواننا وجيراننا هلم إلينا .

فأقبل عبد الله بن أبى وأصحابه على المؤمنين يعوقونهم ويخوفونهم بأبى سفيان ومن معه وقالوا :

— ما ترجون من محمد ؟ فو الله ما يُرْقدنا (يعيننا) بخير وما عنده خير .. ما هو إلا أن يقتلنا ههنا .. انطلقوا إلى إخواننا وأصحابنا .

وطفق عبد الله بن أبى والمنافقون يزينون الانطلاق إلى اليهود والدخول معهم فى حصونهم وترك رسول الله — ﷺ — وأصحابه للأحزاب ليلقوا مصيرهم ، فلم يزدد المؤمنون بقول المنافقين إلا إيمانا واحتسابا .

---

(١) أى هم قليل يشبعهم رأس واحد .

٢

استخلف ـــ ﷺ ـــ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، وخرج رسول الله عليه السلام بالمسلمين حتى عسكر بهم إلى سفح سَلع وهو جبل بسوق المدينة وجعل سلعا خلف ظهره ، وغدا المسلمون يعملون فى حفر الخندق وراح عليه السلام يعمل فيه ترغيبا للمسلمين فى الأجر ويأمرهم بالجد ويعدهم النصر إن هم صبروا .

وحمل عليه السلام التراب على ظهره ، وجعل المسلمون يبادرون قدوم العدو ، وكان من جملة من يعمل فى الخندق جُعَيل فغيَّر ـــ ﷺ ـــ اسمه وسماه عَمرا فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون :

سماه من بعد جُعَيل عَمرا

فيقول عليه السلام :

ـــ عَمرا .

فيقولون :

وكان للبائس يوما ظهرا

فيقول عليه السلام :

ـــ ظهرا .

وظل عليه السلام ينقل التراب وقد وارى الغبار جلد بطنه ، فراح يتمثل بقول ابن رواحة ويقول :

لا همَّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلنْ سكينة علينا ... وثبت الأقدام إذ لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا   وإن أرادوا فتنة أبينا
ولو عبدنا غيره شقينا   يا حبذا ربا وحبّ دينا

وجدوا فى العمل ودأبوا ، وأبطأ عن رسول الله — ﷺ — وعن المسلمين فى ذلك العمل رجال من المنافقين ، وجعلوا يورُّون بالضعف عن العمل ويتسللون إلى أهليهم بغير إذن رسول الله — ﷺ . وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة ذكرها لرسول الله — ﷺ — واستأذنه ، فيأذن له فإذا قضى حاجته رجع إلى عمله فى الخندق ، فأنزل الله تعالى فى أولئك من المؤمنين قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم ﴾[١] .

ثم قال تعالى فى المنافقين : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا[٢] فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[٣] .

وكان سلمان رجلا قويا يعمل عمل عشرة رجال فى الخندق ، فكان يحفر فى كل يوم خمسة أذرع فى عمق خمسة أذرع ، فتنافس فيه المهاجرون والأنصار فقال المهاجرون :

— سلمان منا .

وقالت الأنصار :

---

(١) النور ٦١ .   (٢) اللواذ : الاستتار بالشيء عند الهرب .

(٣) النور ٦٣ .

ـــ سلمان منا .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ سلمان منا أهل البيت .

وارتفعت منزلة سلمان بعد رقه فالمصطفى قد عده من أهل بيته .

وكان الغلمان بأجمعهم يعملون فى حفر الخندق من بلغ ومن لم يبلغ ، وكان بين الغلمان عبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى والبراء بن عازب ، وكان زيد بن ثابت ممن ينقل التراب فقال رسول الله فى حقه :

ـــ أما إنه نعم الغلام .

وغلبته عينه فنام فى الخندق فأخذ عمارة بن حزم سلاحه وهو نائم ، فلما قام فزع على سلاحه فقال له ـــ ﷺ :

ـــ يا بار قد نمت حتى ذهب سلاحك .

ثم قال :

ـــ من له علم بسلاح هذا الغلام ؟

فقال عمارة :

ـــ أنا يا رسول الله وهو عندى . .

ـــ رده عليه .

ونهى أن يروع المسلم ويؤخذ متاعه لاعبا .

واشتد على الصحابة كدية (محل صلب) فشكوا ذلك لرسول الله ـــ ﷺ ، فأخذ المعول وضرب فصارت رملا سائلا لا ترد فأسا ولا مسحاة .

كانت الأيام عسرة وكان المسلمون يعملون فى الخندق دون ملل ،

فكان أبو بكر وعمر يحملان التراب فى ثوبيهما إذا لم يجدا مكاتل ، وكان الرجال يدأبون فى العمل طوال النهار حتى إذا ما جن الليل استراحوا .

وضربت قبة من أدم لرسول الله — ﷺ ، وكان — ﷺ — يعقب فيها بين ثلاث من نسائه عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش فتكون عائشة عنده أياما . وكان طعام القوم أيسره . وكانت كل زوجة تحاول أن تبعث إلى زوجها بما يقوم به أوده ، فدعت عمرة بنت رواحه ابنة لها فأعطتها حفنة من تمر فى ثوبها ثم قالت :

— أى بنية اذهبى إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما .

فأخذتها وانطلقت بها إلى أبيها بشير بن سعد وخالها عبد الله ، فمرت برسول الله — ﷺ ، وهى تلتمس أباها وخالها فقال :

— تعالى يا بنية ، ما هذا معك ؟

— يا رسول الله هذا تمر بعثتنى به أمى إلى أبى بشير بن سعد وخالى عبد الله بن رواحة يتغديانه .

— هاتيه .

فصبته فى كفى رسول الله — ﷺ ، ثم أمر بثوب فبسط له ، ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان عنده :

— اصرخ فى أهل الخندق أن هلم إلى الغداء .

فاجتمع أصحاب الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه باسم الله وعلى بركة الله .

ومرت الأيام والمسلمون يحفرون والعرق يتفصد منهم والمنافقـون يتظاهرون بالعمل ولا يعملون ، ويهود بنى قريظة فى الحصون يتأهبون ليفوا بعهدهم لرسول الله عليه السلام أن يدافعوا معه عن المدينة إذا ما دهمها

خطر خارجى .

وعلى مر الأيام بدأ يظهر خندق عميق واسع أمام الجهة المفتوحة من المدينة كان من المتعذر على فرس أن يتخطاه ، وراح سلمان يضرب الأرض فى قوة وعزم وإذا بكدية تشتد عليه ، ورأى — ﷺ — سلمان وقد عجز عن تحطيم الكدية فنزل إليه وأخذ المعول من يده وقال :

— بسم الله .

وضرب ضربة فكسر ثلثها وبرقت برقة فخرج نور من قبل اليمن كالمصباح فى جوف ليل مظلم ، فكبر رسول الله — ﷺ — وقال :

— أعطيت مفاتيح اليمن ، إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى الساعة كأنها أنياب الكلاب .

ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر ، فخرج نور من قبل الروم فكبر رسول الله — ﷺ — وقال :

— أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأبصر قصورها .

ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر وبرق برقة فكبر وقال :

— أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب من مكانى هذا .

وراح جمع من المنافقين يتبادلون النظرات فى استخفاف ، وقال معتب ابن قشير معبرا عما يدور فى خلدهم :

— ألا تعجبون من محمد ؟ يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفَرق[1] لا تستطيعون أن تبرزوا .

---

(١) الفَرق : الخوف .

وتصبب العرق من الأجسام وخوت البطون، وتذكر جابر بن عبد الله أن عنده شويهة غير جد سمينة فقال فى نفسه :

ـــ والله لو صنعناها لرسول الله ـــ ﷺ .

فأمر امرأته فطحنت لهم شيئا من شعير فصنعت لهم منه خبزا ، وذبحت تلك الشاة فشووها لرسول الله ـــ ﷺ ، فلما أمسوا وأراد رسول الله الانصراف من الخندق قال جابر :

ـــ يا رسول الله إنى قد صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئا من خبز هذا الشعير ، فأحب أن تنصرف معى إلى منزلى .

وإنما يريد جابر أن ينصرف معه رسول الله وحده ، ولكن رسول الله ﷺ ـــ ما كان يؤثر نفسه بشىء دون سائر أصحابه فقال لجابر :

ـــ نعم .

ثم أمر صارخا فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى بيت جابر بن عبد الله .

فقال جابر فى خوف :

ـــ إنا لله وإنا إليه راجعون .

فأقبل رسول الله ﷺ ، وأقبل الناس معه ، فجلس وأخرج جابر الشويهة إليه فأكل رسول الله عليه السلام وأكلوا بسم الله وعلى بركة الله .

وانقضى خمسة عشر يوما والرجال والغلمان يعملون فى حفر الخندق حتى انتهى الحفر ، فأمر عليه السلام من لم يبلغ خمس عشرة سنة أن يرجع إلى أهله وأجاز من بلغ خمس عشرة سنة ؛ فممن أجازه عبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى والبراء بن عازب . ولم يكن حصن أحصن من حصن بنى حارثة فجعل النبى ـــ ﷺ ـــ النساء والصبيان

والذرارى فيه .

وأرسل عليه السلام سُليطا وسُفيان بن عَوف طُليعة للأحزاب فرأيا جيشا يكسو وجه الصحراء يتحرك فى بطء شديد من كثرة عدده وثقل ما يرتدى رجاله من دروع ، إنه جيش لا قبل للمسلمين به . ووقف الرجلان مشدوهين حتى وقعا فى الأسر فقتلهما أبو سفيان بن حرب وقد استبشر خيرا وما خامره أدنى شك فى الانتصار ، فما كان للمسلمين قبل بقريش وغطفان وبنى سليم ومن انضم إليهم فى زحفهم من الأعراب .

وأعطى عليه السلام لواء المهاجرين لزيد بن حارثة ولواء الأنصار لسعد ابن عبادة ، وخرج رسول الله ﷺ يوم الاثنين لثمان مضين من ذى القعدة وعسكر بمن معه إلى سفح سلع ، وأقبلت قريش ومن معها تحدوهم الآمال العريضة فلما رأوا الخندق اربدت وجوههم وانقبضت أفئدتهم وانهارت قصور الأمانى التى بنوها فى الهواء وقالوا فى غيظ :

ـــ والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها !

وكان أكثرهم غيظا حيى بن أخطب فهو الذى خرج بالموتورين من بنى النضير ليحرض الموتورين من قريش وغطفان وبنى سليم وقبائل العرب ويحضهم على قتال رسول الله عليه السلام ، وكان طوال الرحلة يستشعر راحة بل إنه ذاق بوهمه لذة الانتصار أكثر من مرة ، وإذا بجميع أحلامه تنهار فجأة أمام عمق الخندق الذى أصبح يفصل بين جيش الأحزاب وجيش الإسلام .

أتذهب كل الجهود التى بذلها هباء ؟! وهذه الجيوش التى أغراها بدهائه ودهاء اليهود على أن تتحرك للانتقام أتعود من حيث جاءت دون أن تثأر من عدوه وعدوهم ؟ إن فى المدينة يهودا قد عاهدوا محمدا على أن

يقوموا بالدفاع معه عن مدينتهم ، فلو أمكنه أن يغريهم على نقض عهدهم فإن تحصين المدينة كله سينهار وسيصبح القضاء على المسلمين ونبى الإسلام أمرا لا مفر منه .

إنه قادر على أن يغرى بنى قريظة على نقض عهدهم . سيقنعهم أن نبى الإسلام صياد اليهود فإن كان سيستعين بهم اليوم فلن يكون مصيرهم إلا مصير بنى قينقاع وبنى النضير غدا ؛ سيطردهم من جواره شر طردة . واستراح حيى بن أخطب إلى أفكاره بعض الشىء فقد عاوده الأمل بعد أن كاد أن يقبر فى ذلك الخندق العميق الذى ضربه المسلمون حول المدينة .

ونزلت قريش بمجمع الأسيال ونزل عيينة فى غطفان ومن معهم من أهل نجد إلى جانب أحد ، وسار المشركون يتناوبون فيغدو أبو سفيان فى أصحابه يوما ويغدو خالد بن الوليد يوما ويغدو عمرو بن العاص يوما ويغدو هُبيرة بن أبى وهب يوما ويغدو عكرمة بن أبى جهل يوما ويغدو ضِرار بن الخطاب يوما ، فلا يزالون يجيلون خيلهم ويفترقون مرة ويجتمعون أخرى ويناوشون أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يكن بينهم حرب إلا الرمى بالنبل والحصا .

وكان عَبَّاد بن بشر على حرس قبة رسول الله ـ ﷺ ـ مع غيره من الأنصار يحرسونه كل ليلة ، وكان النساء والصبيان والذرارى فى الحصن وقد قال عليه السلام للنساء إن جاءكن أحد فألمعن بالسيف ، فجاءهن رجل من بنى ثعلبة بن سعد يقال له نجدان أحد بنى جحاش ، على فرس حتى كان فى أصل الحصن ثم جعل يقول للنساء :

ـ انزلن إلى خير لكن .

فحركن السيف فأبصره أصحاب رسول الله ـ ﷺ ، فأسرع إلى

حصن بنى حارثة قوم فيهم رجل من بنى حارثة يقال له ظفر بن رافع ، وحاول نجدان أن يختبئ أو يلوذ بالفرار بيد أن ظفر رآه فقال :

ـــ يا نجدان ابرز .

فبرز إليه فحمل عليه ظفر فقتله .

واستبشر النساء والصبيان والذرارى بقتل نجدان ، ولكن جرأة ذلك الرجل الثعلبى كانت إيذانا بأن الذرارى لم يكونوا فى مأمن من الغدر والخيانة وأن الأمر قد أصبح يستوجب أن يقوم رجال بحراستهم .

وراحت الأيام تمر والمشركون فى غيظ شديد فالخندق يحول بينهم وبين المسلمين ، وبلغ الحنق غايته بنوفل بن عبد الله بن المغيرة فأقبل على فرس ليوثبه الخندق فوقع فيه مع فرسه ، فراح المسلمون يرمونه بالحجارة فجعل يقول :

ـــ قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب !

فنزل إليه على بن أبى طالب فضربه بالسيف فقطعه نصفين ، وارتج المكان بالتكبير . وكبر ذلك على المشركين فأرسلوا إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن أرسل إلينا بجسده ونعطيك اثنى عشر ألفا .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ لا خير فى جثته ولا فى ثمنه ، ادفعوه إليهم فإنه خبيث الجسد خبيث الدية .

٣

كان حُيى بن أخطب سيد بنى النضير يقول لقريش فى مسيره معهم :

ــ إن قومى بنى قريظة معكم وهم أهل حلقة (سلاح) وافرة ، وهم سبعمائة مقاتل وخمسون مقاتلا .

فلما رأى الأحزاب الخندق وتيقنوا أن لن ينالوا من محمد ــ ﷺ ــ والذين معه إلا إذا خان يهود بنى قريظة العهد الذى كان بينهم وبين المسلمين وطعنوا نبى الإسلام ومن معه من الخلف فيسروا دخول الموتورين ليقضوا على ثورة المدينة قضاء مبرما ، عندئذ قال أبو سفيان لسيد بنى النضير :

ــ ائت قومك حتى ينقضوا العهد الذى بينهم وبين محمد .

فخرج حيى حتى أتى كعب بن أسد القرظى سيد بنى قريظة وولى عهدهم الذى عاهدهم عليه رسول الله ــ ﷺ ، فدق عليه باب حصنه فأبى أن يفتح له ، وألح عليه فى ذلك فقال له :

ــ ويحك يا حيى إنك امرؤ مشئوم ! وإنى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بينى وبينه ، و لم أر فيه إلا وفاء وصدقا .

ــ ويحك افتح لى أكلمك .

ــ ما أنا بفاعل .

فغاظه فقال له :

ــ والله ما أغلقت دونى إلا تخوفا على جشيشتك (الدشيش) أن آكل معك منها .

ففتح له فقال له :

ــ ويحك يا كعب ! جئت بعز الدهر . جئتك بقريش حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال ، وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أحد ، قد عاهــدونى وعاقدونى ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه .

ــ جئتنى والله بذل الدهر وكل ما يخشى ، فإنى لم أر فى محمد إلا صدقا ووفاء . ويحك يا حيى دعنى وما أنا عليه .

فلم يزل حيى بكعب حتى أعطاه عهدا من الله وميثاقا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يقتلوا محمدا ، أن يكون معه فى حصنه ويصيبه ما أصابه .

كان ما يعرضه حيى بن أخطب على كعب جد خطير : إنه نقض لعهد رجل يزن الأمور بميزان العدل لا يميل مع الهوى بل سبيله الحق ودرء كل خطر عن الدين الذى يدعو إليه ، فإن أخفق تدبير حيى وكعب فسيدفع يهود بنى قريظة أفدح ثمن يدفعه ناقضو العهود ، وإن نجح ذلك التدبير فستحقق أغلى أمنية لليهود : أن يقتل الرجل الذى اعترف بالسيد المسيح وبالحمل الطاهر فسفه بذلك أحلام آبائهم الذين أبوا أن يقروا أن عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول .

وكان فى عرض حيى شىء جذاب وإن كان محفوفا بالمخاطر ، فدعا كعب رؤساء قومه وهم الزبير بن مطا وشاس بن قيس وعزال بن ميمون وعقبة بن زيد وراحوا يتبادلون قداح الرأى . وكان حيى بن أخطب فى اليهود شبيها بأبى جهل فى قريش يخشى الناس أن يعصوا له أمرا . فانتهى الرأى إلى نقض العهد وقاموا إلى الصحيفة التى كان فيها العقد بينهم وبين رسول الله ــ ﷺ ــ فمزقوها ، ولم يصبح أمام الفريقين إلا أحد أمرين : أن يقضى على رسول الله ــ ﷺ ــ وعلى الذين معه جميعا وأن يمحق

الإسلام ، وما كان اليهود يشكون فى ذلك ، أو يؤيد الله حزبه ويفلت المسلمون من الغدر الذى بيت بليل ويواجه بنو قريظة مصيرهم المحتوم جزاء وفاقا على نقض العهد وتعريض المسلمين جميعا للقتل . وقد أعمى الله بصيرتهم لما أراد الله فى هلاكهم .

وجاء الخبر إلى عمر بن الخطاب فسعى إلى رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله بلغنى أن بنى قريظة قد نقضت العهد وحاربت .

فاشتد الأمر على رسول الله — ﷺ ، فنقض العهد يجعل المدينة كلها بمن فيها لقمة سائغة للأحزاب . وأرسل سعد بين معاذ سيد الأوس وسعد ابن عبادة سيد الخزرج وأرسل معهما ابن رواحة وخوات بن جُبير وأسيد ابن حُضير وقال لهم :

— انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم ، فإن كان حقا فألحنوا إلى لحنا أعرفه دون القوم ، وإلا فاجهروا بذلك بين الناس .

كان رسول الله — ﷺ — يريد من القوم أن يوروا ويكنوا فى كلامهم بما لا يفهمه القوم إذا كان بنو قريظة قد غدروا لكيلا يدب فيهم الوهن والضعف ولا تتضعضع روحهم المعنوية .

فخرجوا حتى أتوا بنى قريظة فوجدوهم قد نقضوا العهد وقالوا فى استخفاف :

— من رسول الله ؟!

وتبرءوا من عقده وعهده وقالوا :

— لا عهد بيننا وبين محمد .

فشتمهم سعد بن معاذ وكانوا حلفاءه ، وأغلظ لهم القول سعد بن

عبادة وكان فيه حدة وشاتموه .

وقال سعد بن معاذ لسعد بن عبادة :

ـــ دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة .

ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فكنوا له عن نقضهم العهد ، قالوا :

ـــ عضل والقارة .

أى غدروا غدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ الله أكبر ! أبشروا يا معاشر المسلمين نصرة الله تعالى وعونه .

وتقنع ـــ ﷺ ـــ بثوبه واضطجع ومكث طويلا ، فاشتد على الناس البلاء والخوف حين رأوه ـــ ﷺ ـــ اضطجع ثم رفع رأسه فقال :

ـــ أبشروا بفتح الله ونصره .

وانتشر الخبر بين المسلمين فعظم عند ذلك البلاء عليهم ، والتفتوا إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ يلتمسون منه العون فقال عليه السلام :

ـــ حسبنا الله ونعم الوكيل !

وخيف على النساء والذرارى من بنى قريظة ، فبعث عليه السلام سلمة ابن أسلم فى مائتى رجل وزيد بن حارثة فى ثلثمائة رجل يحرسون المدينة ويظهرون التكبير ليلقوا الرعب فى قلوب بنى قريظة الذين خانوا عهدهم .

وجاءهم قريش والأحزاب من فوقهم ، وتحركت بنو قريظة من أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ، وتقدم رماة الأحزاب يرمون .

وظهر النفاق من المنافقين حتى قال بعضهم :

ـــ كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على نفسه أن يذهب إلى الغائط . ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا .

ولما رأى رسول الله — ﷺ — شدة الأمر بعث إلى عُيينة بن حصن الفَزارى وإلى الحرث بن عَوف المرِّى فى أن يقطعهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه ، فجاءا مستخفيين من أبى سفيان وطلبا نصف ثمار المدينة ، فأبى عليهما إلا الثلث فرضيا ، وأحضرت الصحيفة والدواة فكتب عثمان بن عفان الصلح ، فلما أراد رسول الله — ﷺ — أن يوقع الصلح على ذلك بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه فقالا :

— يا رسول الله أمرا تحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا .

— إن كان أمرا من السماء فامض له ، وإن كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى فسمع وطاعة ، وإن كان إنما هو الرأى فما لهم عندنا إلا السيف .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— لو أمرنى الله لما شاورتكما . والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما .

فقال له سعد بن معاذ :

— يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا قرى أو بيعا ، وإن كانوا ليأكلون العلهز[1] فى الجاهلية من الجهد ، أفحين أكرمنا

---

(١) العلهز : طعام من الدم والوبر كان يتخذ فى المجاعة .

الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نقطعهم أموالنا ؟! ما لنا بهذا من حاجة . والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فقال رسول الله — ﷺ :

— فأنت وذاك .

وذهب عليه السلام إلى عيينة والحرث وقال لهما رافعا صوته :

— ارجعا بيننا وبينكم السيف .

واجتمع رؤساء الأحزاب يتشاورون . إن بنى قريظة قد نقضت عهدها وإن عليهم أن يقتحموا هذا الخندق لتدور بينهم وبين المسلمين معركة فاصلة ، فهم من فوقهم وبنو قريظة من أسفل منهم وإن هى إلا ضربات متتابعات ثم يمسى الإسلام والمسلمون ذكرى يجر عليها الزمن أذيال النسيان .

وصاروا إلى مكان ضيق أغفله المسلمون وأكرهوا خيولهم على اقتحام الخندق ، وفيهم عِكرمة بن أبى جهل وهُبيرة بن أبى وهب زوج أم هانئ أخت على بن أبى طالب وضرار بن الخطاب وعمرو بن عبد ود . فتقدم عمرو بن عبد ود وكان من أشهر فرسان العرب أصيب فى بدر بجراحات ثم ولى الأدبار ولم يشترك فى أحد ، وقد جاء مع الأحزاب ليمحو عار فراره وليعلن للملأ أنه لا يزال الفارس الذى لا يشق له غبار ، ثم قال :

— من يبارز ؟

فقام على كرم الله وجهه وقال :

— أنا له يا نبى الله .

فقال — ﷺ — له فى إشفاق :

— اجلس إنه عمرو بن عبد ود .

ثم كرر عمرو النداء قال :

ـــ من يبارز ؟

فلم يقم إليه أحد ، فجعل يوبخ المسلمين ويقول :

ـــ أين جنتكم التى تزعمون أنه من قتل منكم دخلها ؟! أفلا يبرزن لى رجل ! وأنشد :

ولقد بححت من النـدا ء بجمعكم هل من مبارز ؟

إن الشجاعـة فى الفتـى والجود من خير الغرائـز

فقال على كرم الله وجهه فقال :

ـــ أنا له يا رسول الله .

ـــ إنه عمرو .

ثم نادى عمرو الثالثة :

ـــ من يبارز ؟

فقال على كرم الله وجهه فقال :

ـــ أنا له يا رسول الله :

ـــ إنه عمرو .

ـــ وإن كان عمرا !

فأذن له رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأعطاه سيفه ذا الفقار وألبسه درعه ، وتقدم على وهو ينشد :

لا تعجلـن فقـد أتـا ك مجيب قولك غير عاجـز

ذو نيـــة وبصيرة والصدق منجى كل فائـز

وشخص ـــ ﷺ ـــ ببصره إلى السماء وقال فى حرارة :

ـــ إلهى أخذت عبيدة منى يوم بدر ، وحمزة يوم أحد ، وهذا على أخى

وابن عمى فلا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين . اللهم أعنه عليه .

ومشى على إلى عمرو بن عبد ود فقال له :

ــ يا عمرو إنك كنت قد عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه .

ــ أجل .

ــ فأنا أدعوك إلى الله وإلى رسوله ــ ﷺ ــ وإلى الإسلام .

ــ لا حاجة لى بذلك .

ــ فإنى أدعوك إلى البراز .

فضحك عمرو وقال :

ــ إن هذه لخصلة ما كنت أظن أن أحدا من العرب يروعنى بها .

وتأهب على كرم الله وجهه للقتال ، فقال له عمرو :

ــ لم يا بن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك .

فقال له على :

ــ ولكنى والله أحب أن أقتلك .

فأخذت عمرا الحمية وتقدم على فرسه ، فقال له على :

ــ كيف أقاتلك وأنت على فرسك ؟ انزل معى .

كان عمرو بن عبد ود يكره أن يقتل عليا فأبو طالب كان صديقا وكان عمرو له نديما ، ولكن عليا كرم الله وجهه أثار حفيظته فغضب فاقتحم عن فرسه وسل سيفه كأنه شعلة نار فعقر فرسه وضرب وجهه وأقبل على علىّ كرم الله وجهه . ولم يستطع رسول الله ــ ﷺ ــ أن يتابع المعركة ببصره فقد أشفق على نفسه من أن يرى مصرع ربيبه وحبيبه وأخيه وابن عمه وزوج الزهراء .

واستقبل على بن أبى طالب عمرو بن عبد ود بدرقته ، فضربه عمرو فيها فقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه ، فانخلعت قلوب المسلمين ورسول الله عليه السلام يناشد ربه أن يعين أبا الحسن والحسين على خصمه الذى تمرس على القتال على مر السنين . وغافل على كرم الله وجهه عمرا فضربه على حبل عاتقه ضربة فسقط يخبط فى دمه ، وكبر المسلمون . فلما سمع رسول الله ـ ﷺ ـ التكبير عرف أن عليا الحبيب قتل عمرا ، فانقشعت مخاوفه وتهللت أساريره وتقدم ليستقبل فارس الإسلام وهو مسرور ، وأقبل علىّ وهو متفرح بنصر الله فقال له عليه السلام :

ـ كيف وجدت نفسك معه يا على ؟

ـ وجدته لو كان أهل المدينة كلهم فى جانب وأنا فى جانب لقدرت عليهم .

وحين قتل عمرو رجع من وصل إلى الخندق من المشركين بخيلهم هاربين ، فتبعهم الزبير بن العوام فحمل على هبيرة بن أبى وهب فضرب ثغر فرسه فقطعه ، وسقطت درع كان جعلها على مؤخر ظهرها فأخذها الزبير ؛ وألقى عكرمة بن أبى جهل رمحه وهو منهزم ؛ وحمل ضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبى وهب على علىّ كرم الله وجهه ، فأقبل على عليهما فأما ضرار فولى هاربا و لم يثبت ، وأما هبيرة فقد ثبت ثم ألقى درعه وهرب ، وكان فارس قريش وشاعرها .

وراح المسلمون ينادون بشعارهم :

ـ حم لا ينصرون .

ورمى حيان بن العرقة سعد بن معاذ بسهم فأصاب أكحله (عرق فى

وسط الذراع) فقال :

ـــ خذها وأنا ابن العرقة .

سميت بذلك لطيب عرقها .

فقال سعد بن معاذ :

ـــ اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقنى لها . فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وأخرجوه وكذبوه .

وفرت خيل الأحزاب حتى اقتحمت من الخندق ، ثم اجتمع رؤساؤهم وقرروا أن يشنوا هجوما عنيفا على المسلمين فى الغد ، فباتوا يعبئون أصحابهم وفرقوا كتائبهم حتى إذا ما كان النهار اقتحمت كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد الخندق ، فدار قتال عنيف بين المسلمين والمشركين ، قتال لا هوادة فيه ولا رحمة . وظل المسلمون لا يقدرون أن يزولوا من موضعهم ، فلم يصلوا الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء فقد كان القتال من سائر جوانب الخندق من فوقهم ومن أسفل منهم ، وصار المسلمون يقولون :

ـــ ما صلينا .

فيقول ـــ ﷺ :

ـــ ولا أنا .

وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ومضى من الليل ثلثه والقتال الرهيب دائر . ثم كشف الله الكافرين وحلفاءهم فرجعوا متفرقين إلى منازلهم وعسكرهم وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله ـــ ﷺ ، وقام أسيد بن حُضير على الخندق فى مائتين من المسلمين . وكر خالد بن الوليد فى خيل من المشركين يطلبون غرة من المسلمين فناوشوهم ساعة

ومع المشركين وحشى ، فزرق الطفيل بن النعمان بمزراقه فقتله ، وصمد المسلمون لخالد بن الوليد ومن معه ، ثم شنوا عليهم هجوما فاضطروهم إلى العودة إلى عسكرهم .

سار رسول الله — ﷺ — إلى قبته بعد أن ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، وأمر بلالا فأذن وأقام فصلى العصر ، ثم أمره فأذن وأقام فصلى المغرب ، ثم أمره فأذن وأقام فصلى العشاء .

وخرجت طائفة من الأنصار ليدفنوا ميتا منهم بالمدينة فصادفوا عشرين بعيرا لقريش محملة شعيرا وتمرا وتبنا حملها ذلك حُيى بن أخطب شدادا وتقوية لقريش ، فأتوا بها رسول الله — ﷺ — فتوسع بها أهل الخندق ، ولما بلغ أبا سفيان ذلك قال :

— إن حييا لمشئوم قطع بنا ؛ ما نجد ما نحمل عليه إذا رجعنا .

٤

صار أبو سفيان بن حرب ورؤساء الأحزاب يرسلون الطلائع بالليل يطمعون فى الغارة فأقام المسلمون فى شدة من الخوف ، ودعا رسول الله — ﷺ — على الأحزاب فقال :

— اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم وزلزهم .

وقام فى الناس فقال :

— يأيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإن لقيتم العدو فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .

ودعا — ﷺ — بقوله :

— يا صريخ المكروبين ، يا مجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فإنك ترى ما نزل بى وبأصحابى .

وقال له المسلمون :

— هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر ؟

— نعم قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا .

وكان — ﷺ — يختلف إلى ثلمة فى الخندق ، فإذا أخذه البرد جاء إلى قبته فأدفأته عائشة فى حضنها ، فإذا دفىء خرج إلى تلك الثلمة ويقول :

— ما أخشى أن يؤتى المسلمون إلا منها .

فبينا رسول الله — ﷺ — فى حضن عائشة صار يقول :

— ليت رجلا صالحا يحرس هذه الثلمة الليلة .

فسمع صوت السلاح فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ من هذا ؟

فقال سعد بن أبى وقاص :

ـــ سعد يا رسول الله ، أتيتك أحرسك .

ـــ عليك هذه الثلمة فاحرسها .

ونام رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى غط ، وقام ـــ ﷺ ـــ فى قبته يصلى فقد كان إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة ، ثم خرج ـــ ﷺ ـــ من قبته فقال :

ـــ هذه خيل المشركين تطيف بالخندق :

ـــ يا عباد بن بشر .

ـــ لبيك .

ـــ هل معك أحد ؟

ـــ أنا فى نفر حول قبتك يا رسول الله .

وكان ألزم الناس لقبة رسول الله ـــ ﷺ ـــ يحرسها فبعثه ـــ ﷺ ـــ يطيف بالخندق ، فذهب فى جوف الليل ينظر فإذا بخيل المشركين تطيف بهم وإذا أبو سفيان فى خيل يطيفون بمضيق من الخندق ، فنادى بشر المسلمين فرماهم المسلمون حتى رجعوا ورسول الله ـــ ﷺ ـــ يدعو ربه :

ـــ اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم واغلبهم لا يغلبهم غيرك .

وكان نُعيم بن مسعود الأشجعى قد سار مع الأحزاب . إنه خرج مع قومه غطفان وهو على دينهم فلما حاصرت الأحزاب المسلمين راح نعيم يفكر فى ذلك الدين الذى جعل أهله يتمنون لقاء أعدائهم وهم

مستبشرون . وعكف على إمعان الفكر فى الإسلام فأضاء الله صدره بأنوار اليقين وقذف فى قلبه الإيمان والتصديق ، فخرج حتى أتى رسول الله ـ ﷺ ـ بين المغرب والعشاء فوجده يصلى ، فلما رآه جلس ؛ ثم قال له النبى ـ ﷺ :

ـ ما جاء بك يا نعيم ؟

ـ جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق .

وصمت نعيم قليلا ثم قال :

ـ يا رسول الله إنى قد أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت .

ـ إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديما فى الجاهلية ، فقال :

ـ يا بنى قريظة قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم .

ـ صدقت ، لست عندنا بمتهم .

ـ إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم . البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهزة (فرصة) أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم ليكونوا بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه .

ـ لقد أشرت علينا بالرأى .

كانوا قد عاهدوا رسول الله ـ ﷺ ، ثم غدروا وأعلنوا الخيانة على الملأ ومزقوا صحيفة العهد ، فلما جاءهم نعيم لم يندموا على ما فعلوا و لم يذهبوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يستغفرون ويتوبون إلى الله بل ظلوا على غدرهم وقبلوا رأى نعيم زيادة فى الحيطة والأمان !

ثم خرج نعيم حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان ومن معه :

ـ قد عرفتم ودى لكم وفراق محمدا ، وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت منه علىّ حقا أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا عنى .

ـ نفعل ، فما هو ؟

ـ اعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين ـ قريش وغطفان ـ رجالا من أشرافهم ونعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى تستأصلهم ؟ فأرسل إليهم نعم .

فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا .

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال :

ـ يا معشر غطفان إنكم أهلى وعشيرتى وأحب الناس إلىّ ولا أراكم تتهمونى .

ـ صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

ـ فاكتموا عنى .

ـ نفعل .

ثم قال لهم مثلما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم . فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة ابن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم :

— إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ فيما بيننا وبينه .

فأرسلوا إليهم :

— إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ، وقد كان بعضنا أحدث فيه حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم . ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا ، فإنا نخشى إن ضرستكم (طحنتكم) الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان :

— والله الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق .

فأرسلوا إلى بنى قريظة :

— إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا :

— إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق . ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل .

فأرسلوا إلى قريش وغطفان :

ــ إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنا .

فأبوا عليهم وقال أبو سفيان :

ــ ألا أرانى أستعين بإخوة القردة والخنازير !

وجاء نعيم بنى قُريظة وقال لهم :

ــ كنت عند أبى سفيان وقد جاءه رسولكم فقال : لو طلبوا منى عناقا(١) ما دفعتها لهم .

وضايق حيى بن أخطب أن تختلف كلمة الأحزاب وبنى قريظة فجاء حيى لبنى قريظة وراح يزين لهم الخروج لقتال محمد ، فلم يجد منهم موافقة له وقالوا :

ــ لا نقاتل معهم حتى يدفعوا إلينا سبعين رجلا من قريش وغطفان رُهُنا عندنا .

ووقع الاختلاف والخذلان بينهم ، وبعث الله تعالى ريح الصفا فى ليال شديدة البرد فنقلت بيوتهم وقطعت أطنابها ، وكفأت قدورهم على أفواهها ، وصارت تلقى الرجال على أمتعتهم ، وأطفأت نيرانهم . وكانت الريح صفراء ملأت عيونهم ودامت عليهم .

كانت تلك الليلة شديدة البرد والريح فى أصوات ريحها أمثال الصواعق ، شديدة الظلمة ، فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون :

ــ إن بيوتنا عورة وحيطانها قصيرة يخشى عليها السرقة ، فأذن لنا أن نرجع إلى نسائنا وأبنائنا وذرارينا .

فيأذن ــ ﷺ ــ لهم . ولم يبق معه عليه السلام تلك الليلة إلا

---

(١) العناق : الأنثى من ولد المعز .

ثلاثمائة .

وبلغ رسول الله — ﷺ — اختلاف كلمتهم فقال :

— ألا رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟ أسأل الله أن يكون معي يوم القيامة .

فما قام أحد من شدة الخوف والجوع والبرد .

وكرر عليه السلام قوله : ألا رجل يأتيني بخبر القوم يكون معي يوم القيامة ؟ فلم يجبه أحد .

فقال أبو بكر الصديق :

— يا رسول الله حذيفة .

فمر رسول الله — ﷺ — على حذيفة بن اليمان وما يحميه من العدو والبرد إلا مرط لامرأته ما يجاوز ركبتيه . وهو جاث على ركبتيه فقال عليه السلام :

— من هذا ؟

— حذيفة .

— حذيفة ؟!

فتقاصر حذيفة بالأرض قال :

— بلى يا رسول الله .

— أما سمعت صوتي ؟

— نعم .

— فما منعك أن تجيبني ؟

— البرد .

— لا برد عليك حتى ترجع . قم !

فقام حذيفة فقال عليه السلام :

— إنه كائن فى القوم خبر فأتنى بخبر القوم .

— والله ما بى أن أقتل ، ولكن أخشى أن أوسر .

— إنك لن تؤسر ، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته .

فلما ولى ناداه عليه السلام فقال له :

— لا ترم بسهم ولا حجر ولا تضربن بسيف حتى تأتينى .

فانطلق حذيفة والريح تزجر وتقطع أطناب الخيام وتلقى القدور حتى جاء إليهم ودخل فى غمارهم ، فسمع أبو سفيان يقول :

— يا معشر قريش ليتعرف كل امرىء منكم جليسه واحذروا الجواسيس والعيو ن .

وخشى حذيفة أن يفطن به فأخذ بيد جليسه على يمينه وقال :

— من أنت ؟

— معاوية بن أبى سفيان .

وقبض يد من على يساره وقال :

— من أنت ؟

— عمرو بن العاص .

فقال أبو سفيان :

— يا معشر قريش والله إنكم لستم بدار مقام ولقد هلك الكراع والخف ، واختلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل .

ووثب على جمله وكان الجمل معقولا ، فلما ضربه وثب على ثلاث

قوائم . ثم حل عقاله فقال له عِكرمة بن أبى جهل :

ــ إنك رأس القوم وقائدهم تذهب وتترك الناس ؟

فاستحيا أبو سفيان وأناخ جمله وأخذ بزمامه وهو يقوده وقال :

ــ ارحلوا .

فجعل الناس يرحلون وهو قائم ، ثم قال لعمرو بن العاص :

ــ يا أبا عبد الله نقيم فى جريدة من الخيل بإزاء محمد وأصحابه ، فإنا لا نأمن أن نُطلب .

فقال عمرو :

ــ أنا أقيم .

وقال لخالد بن الوليد :

ــ ما ترى أبا سليمان ؟

ــ أنا أيضا أقيم .

فأقام عمرو وخالد فى مائتى فارس وسار جميع العسكر . ورأى حذيفة ابن اليمان أبا سفيان وحده ، إنه يفكر فى أن يصوب إليه سهما ويقضى عليه لولا عهد رسول الله ــ ﷺ ــ حين بعثه أن لا يحدث شيئا .

وسمعت غطفان بما فعلت قريش فدخلت العسكر ، فإذا الناس فى عسكرهم يقولون :

ــ الرحيل الرحيل لا مقام لكم .

والريح تقلبهم على بعض أمتعتهم وتضربهم بالحجارة . فلما اطمأن حذيفة إلى أن الأحزاب قد شدوا الرحال للرحيل عاد إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فوجده قائما يصلى ، فأخبره الخبر فضحك حتى بدت ثناياه فى سواد الليل .

وعاود حذيفة البرد فجعل يقرقف ، فأومأ إليه رسول الله — ﷺ — بيده فدنا منه فسدل عليه من فضل شملته فنام ، ولم يزل نائما حتى الصبح . فلما أن أصبح قال له رسول الله — ﷺ :

— قم يا نومان .

ونظر رسول الله — ﷺ — إلى عسكر الأعداء فإذا بالأحزاب قد رحلوا ، فقال عليه السلام :

— الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم .

وأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا * إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا * وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا * وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا * ولو دُخِلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا * ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا * قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذًا لا تمتعون إلا قليلا * قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا * قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا * أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يُغشَى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد

أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا * يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا * لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا *ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾[1] .

---

(١) الأحزاب ٩ ـ ٢٢ .

٥

هزم الله الأحزاب وحده بعد أن زاغت أبصار المؤمنين وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنون ، فنادى أبو سفيان بالرحيل ليلحق بمكة وقد انهارت آمال الأحزاب فى استئصال المسلمين . وقد عبر أبو سفيان فى كتاب أرسله إلى رسول الله – ﷺ – عن مشاعره عقب الانسحاب جاء فيه : « باسمك اللهم . فإنى أحلف باللات والعزى وإساف ونائلة وهبل ، لقد سرت إليك فى جمع وأنا أريد أن لا أعود إليك أبدا حتى أستأصلكم فرأيتك قد كرهت لقاءنا واعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها وإنما كانت تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها ، وما فعلت هذا إلا فرارا من سيوفنا ولقائنا ولك منى يوم كيوم أحد » .

فأرسل إليه ﷺ – جوابه فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى صخر بن حرب ، أما بعد فقد أتانى كتابك وقديما غرك بالله الغرور . أما ذكرت أنك سرت إلينا وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإسافا ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك يا سفيه بنى غالب » .

ورجع رسول الله – ﷺ – من الخندق بعد حصار شديد دام خمس عشرة ليلة ابتلى فيه المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا، واستشهد منهم أنس بن أوس بن عتيك من بنى عبد الأشهل قتله خالد بن الوليد ، وعبد الله بن سهل الأشهيلى وثعلبة بن عَنَمة بن عدى قتله هُبيرة بن أبى وهب ، وكعب

ابن زيد من بنى دينار قتله ضرار بن الخطاب والطُّفيل بن النعمان ، وجرح سعد بن معاذ جرحا شديدا . وقتل من المشركين عثمان بن أمية بن منبه من بنى عبد الدار ، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة ، وعمرو بن عبد ود وابنه حِسْل بن عمرو قتلهما على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وبلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ المدينة وقت الظهر فصلى بالناس الظهر ، ثم دخل بيت عائشة ودعا بماء فاغتسل ، ودعا بالمجمرة ليتبخر . وبينا هو يستريح وقد وضع السلاح إذ نادى مناد :

ـــ عذيرك من محارب (أى من يعذرك) .

فارتاع لذلك رسول الله ـــ ﷺ ، ووثب وثبة منكرة ، وخرج وخرجت عائشة فى أثره فإذا رجل على دابة والنبى ـــ ﷺ ـــ يكلمه ، فرجعت عائشة وقال الرجل وكان جبريل عليه السلام :

ـــ أوَ قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟

ـــ نعم .

ـــ ما وضعتُ السلاح .

وكيف يضع جبريل السلاح وهناك بنو قريظة الذين نقضوا العهد أثناء المعركة ، إن ما فعلوه ليس بخيانة فحسب بل هو تآمر على الدولة ، ولولا فضل الله لقضى على نبى الإسلام والإسلام ، فقال جبريل عليه السلام :

ـــ إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم الحصون .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ إن فى أصحابى جهدا فلو نظرتهم أياما .

ـــ انهض إليهم .

ودخل رسول الله عليه السلام داره فقالت عائشة :

— من ذلك الرجل الذى كنت تكلمه ؟

— ورأيته ؟

— نعم .

— بمن تشبهينه ؟

— بدحية الكلبى .

— ذاك جبريل عليه السلام أمرنى أن أمضى إلى بنى قريظة .

فأمر عليه السلام بلالا أن يؤذن فى الناس : « من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » . وبعث مناديا ينادى :

— يا خيل الله[1] اركبى .

وتجمع المسلمون فى عدة القتال ، وخرج رسول الله — ﷺ — وقد لبس السلاح — الدرع والمغفر والبيضة — وأخذ قناة وتقلد السيف وركب فرسه اللُّجيف ، فالتفت الناس حوله قد لبسوا السلاح وركبوا الخيل وهم ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثون فرسا له منها ثلاثة ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

وكان اللواء على حاله لم يُحلّ من مرجعه — ﷺ — من الخندق ، فدفعه إلى على بن أبى طالب . فاندفع على بن أبى طالب فى زقاق بنى غنم من بنى النجار فإذا الغبار يتصاعد حتى كاد يحجب الرؤيا . فلما دنا على بن أبى طالب من الحصن ومعه نفر من المهاجرين والأنصار وغرز اللواء عند أصل الحصن ، سمع من بنى قريظة مقالة قبيحة فى حقه — ﷺ — وحق أزواجه ، فسكت

---

(١) يا فرسان الله .

المسلمون وقالوا :

ـــ السيف بيننا وبينكم .

وكره على كرم الله وجهه أن يسمع رسول الله ـــ ﷺ ـــ من بنى قريظة ما يسيئه . فلما رأى رسول الله عليه السلام مقبلا أمر أبا قتادة الأنصارى أن يلزم اللواء ورجع إليه ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ يا رسول الله لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث .

ـــ لعلك سمعت منهم لى أذى .

ـــ نعم يا رسول الله .

ـــ لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا .

فلما دنا رسول الله ـــ ﷺ ـــ من حصونهم قال :

ـــ يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ أتشتمونى ؟

فجعلوا يحلفون ويقولون :

ـــ ما قلنا .

ـــ يا أبا القاسم ما كنت جهولا .

وتقدم أسيد بن حُضير إلى يهود فقال لهم :

ـــ يا أعداء الله لا تبرحوا من حصنكم حتى تموتوا جوعا ، إنما أنتم بمنزلة ثعلب فى جحر .

ـــ يا بن الحضير نحن مواليك .

وخافوا ، قال :

ـــ لا عهد بينى وبينكم .

وكيف يكون بينه وبينهم عهد وقد نقضوا عهد رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى الوقت الذى جاءت الأحزاب لتستأصل المسلمين والإسلام ، ولم

يكتفوا بنقض العهد بل تآمروا على سلامة الدولة .

وشغل جماعة من الصحابة ما لم يكن لهم منه بد عن المسير لبنى قريظة ليصلوا بها العصر ، فأخروا صلاة العصر إلى أن جاءوا بعد عشاء الآخرة وبعضهم قال :

ـــ نصلى ، ما يريد رسول الله ـــ ﷺ ـــ منا أن ندع الصلاة ونخرجها عن وقتها ، وإنما أراد الحث على الإسراع .

فصلوا فى أماكنهم ثم ساروا فما عابهم الله فى كتابه ولا عنفهم رسول الله ـــ ﷺ .

واستمر حصار بنى قريظة وطعام الصحابة التمر يرسل به سعد بن عبادة . وكان حيى بن أخطب دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد ، فلما جهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب وأيقنوا أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، قال كعب بن أسد لهم :

ـــ يا معشر يهود قد نزل بكم ما ترون ، وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم .

ـــ ما هى ؟

ـــ نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل وأنه الذى تجدونه فى كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم ، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب حيث لم يكن من بنى إسرائيل . ولقد كنت كارها لنقض العهد و لم يكن البلاء والشؤم إلا من هذا الجالس .

والتفتت العيون إلى حُيى بن أخطب وقد ملئت حقدا . واستمر كعب

فى مقالته :

ـــ أتذكرون ما قال لكم ابن خراش حين قدم عليكم : إنه يخرج بهذه القرية نبى فاتبعوه وكونوا له أنصارا وتكونوا آمنتم بالكتاب الأول والآخر . ..

فارتفعت الأصوات قائلة :

ـــ لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره .

فقال كعب فى يأس :

ـــ فإذا أبيتم على هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا يخشى عليه ، وإن نظفر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء ؟

ـــ نقتل هؤلاء المساكين ؟! فما خير العيش بعدهم ؟

ـــ فإن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت وإن عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة .

ـــ نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من علمت وأصابه ما لم يخف عليك ؟

ولم يكن عمرو بن سعدى معهم لما نقضوا عهد رسول الله ـــ ﷺ ، إنه قال لهم قبل أن يقدم النبى ـــ ﷺ ـــ لحصارهم :

ـــ يا بنى قريظة لقد رأيت عبرا : رأيت دار إخواننا خالية بعد ذلك العز والجلد والشرف والرأى الفاضل والعقل . تركوا أموالهم قد تملكها غيرهم وخرجوا خروج ذل . لا والتوراة ما سلط هذا على قوم قط ولله بهم

حاجة . وقد أوقع ببنى قينقاع وكانوا أهل عدة وسلاح ونخوة ، فلم يخرج أحد منهم رأسه حتى سباهم ، فكلم فيهم فتركهم على إجلائهم من يثرب .

يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فأطيعونى وتعالوا نتبع محمدا ، فوالله إنكم لتعلمون أنه نبى وقد بشرنا به علماؤنا .

ثم لا زال يخوفهم بالحرب والسبى والجلاء ، ثم أقبل على كعب بن أسيد وقال :

ـــ والتوراة التى أنزلت على موسى عليه السلام يوم طور سيناء إنه للعز والشرف فى الدنيا .

فبينا هم على ذلك لم يرعهم إلا مقدمة النبى ـــ ﷺ ـــ قد حلت بساحتهم فقال :

ـــ هذا الذى قلت لكم .

كان ذلك منه عقب الخندق ، فلما طال الحصار واشتد الجدل قال :

ـــ قد خالفتم محمدا فيما خالفتموه و لم أشرككم فى غدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية ، فوالله ما أدرى يقبلها أم لا ؟

ـــ نحن لا نقر للعرب بخراج فى رقابنا يأخذونه ، القتل خير من ذلك .

ـــ فإنى برئ منكم .

وخرج فى تلك الليلة فمر بحرس رسول الله ـــ ﷺ ـــ وعليه محمد بن مسلمة ، فقال محمد بن مسلمة :

ـــ من هذا ؟

— عمرو بن سعدى .

— مر ، اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام .

وغاب عمرو بن سعدى فى سواد الليل ، ثم وجدت رمته وأخبر رسول الله — ﷺ — خبره فقال :

— هذا رجل نجاه الله بوفائه .

٦

مرت الأيام ويهود بنى قريظة فى الحصون وقد استمر المسلمون فى حصارهم ، وبدأت المؤن تنفد ووجفت القلوب فالموت جوعا يهدد الذين فجروا فى عهدهم وانقادوا إلى حيى بن أخطب المشئوم .

وراح زعماء بنى قريظة يتشاورون فرأوا أن يرسلوا بنباش بن قيس إلى رسول الله ــ ﷺ ــ أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير من أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة (السلاح) فأبى رسول الله ــ ﷺ ــ أن يحقن دماءهم ويسلم لهم نساءهم والذرية .

وعاد زعماء بنى قريظة يتشاورون وقد ألقى الرعب فى قلوبهم وقد ملأت جريمتهم أقطار رءوسهم : إنهم قبلوا أن يسلموا محمدا عليه السلام والذين معه إلى أعدائهم وإن الحكم فى مثل هذه الخيانة هو الإعدام ، فإن استطاعوا أن ينقذوا رءوسهم فقد نالوا خيرا كثيرا ، فأرسلوا ثانية بنباش ابن قيس إلى رسول الله ــ ﷺ ــ بأنه لا حاجة لهم بشىء من الأموال لا من الحلقة ولا من غيرها ، فأبى رسول الله ــ ﷺ ــ إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ــ ﷺ .

وعاد نباش بن قيس إلى الحصن وقد نكس رأسه ولاح فى وجهه أعمق الأسى وقد ذهبت نفسه شعاعا ، وما إن أعلن تصميم رسول الله ــ ﷺ ــ على أن ينزلوا على حكمه حتى زاغت الأبصار وطاشت العقول وتعلقت العيون بساداتهم وقد ملئت ضراعة أن يهتدوا إلى رأى ، فقد كادوا جميعا أن يموتوا من الجزع والخوف .

كان أبو لُبانة مناصحا لهم وكان ولده وعياله فيهم ، فأرسلوا إلى رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ ابعث إلينا أبا لبانة لنستشيره فى أمرنا .

فدعا رسول الله ـــ ﷺ ـــ أبا لبانة وقال له :

ـــ اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس .

فذهب إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه من شدة الحصار وتشتيت مالهم ، فرق لهم فقام كعب بن أسيد فقال :

ـــ يا أبا بشير قد عرفت ما بيننا ، وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا ومحمد لا يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه ، فلو زال عنا لحقنا بأرض الشام أو خيبر ولم نطأ له أرضا ولم نكثر عليه جمعا أبدا . ما ترى ـــ قد اخترناك على غيرك ـــ أننزل على حكم محمد ؟

فقال أبو لبانة :

ـــ نعم فانزلوا .

وأومأ إلى حلقه بالذبح فوالله ما زالت قدماه من مكانهما حتى عرف أنه خان الله ورسوله ، فندم وقال فى خوف شديد .

ـــ إنا لله وإنا إليه راجعون .

وسربله الخزى وعلاه القهر وجعل ضميره يؤنبه ويخزه وخزا شديدا ، فقال له كعب :

ـــ مالك يا أبا لبانة ؟

فقال فى صوت متهدج وقد غلفه الندم :

ـــ خنت الله ورسوله .

وملأت عينيه الدموع ، ثم انطلق على وجهه فلم يأت رسول الله ﷺ ، وذهب إلى المسجد وكان الحر شديدا ، ولكن النار التى تلظت فى جوفه كانت أشد حرا ففكرة أنه خان الله ورسوله كانت تلسعه لسعا يعذبه عذاب الهون .

وارتبط بالمسجد إلى عمود من عمده بسلسلة ثقيلة، وكان العمود عند باب أم سلمة زوج النبى ـ ﷺ ، وكان أكثر تنقل رسول الله ـ ﷺ ـ عند ذلك العمود ، وكان ينصرف إليه من صلاة الصبح فكان يستبق إليه الفقراء والمساكين ومن لا بيت له إلا المسجد ، فيجئ إليهم ـ ﷺ ، ويتلو عليهم ما أنزل إليه من ليلته ويحدثهم ويحدثونه .

وكان ما فعله أبو لبانة غير مألوف ، فخف إليه أناس من المسلمين يسألونه الخبر فقال فى انفعال شديد :

ـ والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على مما صنعت .

وعاهد الله أن لا يطأ بنى قريظة أبدا ولا يرى فى بلد خان الله ورسوله فيه أبدا .

واستبطأ رسول الله عليه السلام أبا لبانة ، وفيما هو يرقب وفوده عليه إذ جاء أناس من المدينة وأخبروه عليه السلام خبره فقال :

ـ أما لو جاءنى لاستغفرت له ، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه حتى يتوب الله عليه .

وظل أبو لبانة مرتبطا فى العمود تأتيه امرأته فى كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم تعود فتربطه . وكان فى مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ خيام يداوى بها جرحى الخندق ، وكان سعد بن معاذ سيد الأوس فى خيمة

لامرأة من أسلم يقال لها رفيدة كانت تداوى الجرحى محتسبة .

وما كان أمام يهود بنى قريظة إلا أن يسلموا أو يموتوا جوعا ، فنزلوا على حكمه — ﷺ ، فأمر بهم فكتفوا وجعلوا ناحية وكانوا سبعمائة وخمسين مقاتلا ، وأخرج النساء والذرارى من الحصون وجعلوا ناحية وكانوا ألفا ، واستعمل إليهم عبد الله بن سلاّم .

وتذكر الأوس أن رسول الله — ﷺ — قد وهب بنى قينقاع لعبد الله ابن أبى بن سلول بعد أن نزلوا على حكمه عليه السلام ، فطمعوا فى أن يهب إليهم حلفاءهم فتواثبت الأوس وقالوا :

— يا رسول الله موالينا وحلفاؤنا وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد فعلت .

طلبت الأوس من رسول الله — ﷺ — أن يهب لهم بنى قريظة كما وهب بنى قينقاع للخزرج ، ولكن شتان بين جريمة بنى قينقاع وجريمة بنى قريظة ؛ لقد سخر بنو قينقاع بامرأة مسلمة بينما تآمر بنو قريظة على أمن الدولة ، ولولا لطف الله لا ستأصلت الأحزاب الإسلام والمسلمين . فلما كلمته الأوس أبى أن يفعل ببنى قريظة ما فعله ببنى قينقاع ثم قال :

— أما ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟

قالوا :

— بلى .

فقال رسول الله — ﷺ — ليهود بنى قريظة :

— اختاروا من شئتم من أصحابى .

— ننزل على حكم سعد بن معاذ .

كان سعد بن معاذ فى المسجد فى خيمة رفيدة ، وقد كان — ﷺ — قال لقوم سعد بن معاذ حين أصابه السهم فى الخندق : « اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده عن قرب » . فأتاه قومه فحملوه على حمار ووطئوا له وسادة من أدم ثم أتوا به رسول الله — ﷺ — وهم يقولون له :

— يا أبا عمرو أحسن فى مواليك ، فإن رسول الله — ﷺ — إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم .. فأحسن فيهم فقد رأيت ابن أبى وما صنع فى حلفائه .

فلما أكثروا عليه قال :

— لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم .

فقال بعضهم :

— واقوماه !

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد لكلمته التى سمع منه ، فقد كان واضحا وضوح النهار أن جزاء الخيانة التى تهدد أمن الدولة هو القتل إن أراد القاضى العدل المطلق دون أن يتأثر بهوى أو حلف ، وقد أعلنها سعد بن معاذ ناصعة لاشية فيها أن قد آن له ألاّ تأخذه فى الله لومة لائم .

وانتهى سعد إلى رسول الله — ﷺ — والمسلمين ، فقال رسول الله — ﷺ :

— قوموا إلى سيدكم فأنزلوه .

فقال عمر بن الخطاب :

— السيد هو الله .

وقال المهاجرون من قريش :

— إنما أراد رسول الله الأنصار .

والأنصار يقولون :

— قد عم بها رسول الله — ﷺ .

فقاموا إليه فقالوا :

— يا أبا عمرو إن رسول الله — ﷺ — قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم .

وانتهى إلى رسول الله — ﷺ — فقال عليه السلام :

— احكم فيهم يا سعد .

— الله ورسوله أحق بالحكم .

— قد أمرك الله أن تحكم فيهم .

فالتفت سعد إلى الناحية التى ليس فيها رسول الله — ﷺ — فقال :

— عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت ؟

— نعم .

وأشار إلى الناحية التى فيها رسول الله — ﷺ — وهو معرض عن رسول الله عليه السلام إجلالا له فقال :

— وعلى من ههنا مثل ذلك ؟

فقال رسول الله — ﷺ — :

— نعم .

قال سعد لبنى قريظة :

— أترضون بحكمى ؟

— نعم .

فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن الحكم ما حكم به ثم قال :

ــ فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتغنم الأموال وتسبى الذرارى والنساء وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار .

فقالت الأنصار :

ــ إخواننا لنا معهم .

فقال سعد :

ــ إنى أحببت أن يستغنوا عنكم .

فقال رسول الله ــ ﷺ ــ لسعد :

ــ لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات .

وأمر ــ ﷺ ــ أن يجمع ما وجد فى حصونهم من الحلقة والسلاح وغير ذلك فجمع ، فوَجد فيها ألفا وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع وألفى رمح وخمسمائة ترس وجحفة ، ووجد أثاثا كثيرا وآنية كثيرة وجمالا نواضح يسقى عليها الماء وماشية وشياها كثيرة . وخمس ذلك مع النخل والسبى حتى الرثة وهى السقط من أمتعة البيت خمسة أجزاء ، فوزع أربعة أسهم على الناس فجعل للفارس ثلاثة أسهم سهما له وسهمين لفرسه ، وللراجل سهما وهو أول فىء وقعت فيه السهام ، وأخذ هو ــ ﷺ ــ جزءا وهو الخمس ليرده على الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات .

ووجد جرار خمر فأهريق و لم يخمس . ثم إن رسول الله ــ ﷺ ــ أمر بالأسارى أن يكونوا فى دار أسامة بن زيد . والنساء والذرية فى دار ابنة الحرث النجارية ، فقد كانت تلك الدار معدودة لنزول الوفود من العرب . وبالمتاع أن يحمل ، وترك المواشى هناك ترعى الشجر .

وانصرف رسول الله — ﷺ — إلى المدينة ، وانطلق أسارى بنى قريظة والأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون وقد نكسوا رءوسهم خزيا وما دروا بحكم سعد بن معاذ فيهم ، ولو كان قد بلغهم حكمه لانطلقت أصوات الجزع من الحناجر ولسالت الدموع على الخدود ، وحبس الأسارى فى دار أسامة بن زيد ، ووضع النساء والذرية فى دار بنت الحارث ، وبات يهود بنى قريظة ينتظرون ما يفعل بهم .

٧

خرج رسول الله ــ ﷺ ــ إلى سوق المدينة فحفر بها خنادق وجلس هو وأصحابه ، وجاء سعد بن عبادة والحباب بن المنذر فقالا :

ــ يا رسول الله إن الأوس قد كرهت قتل بنى قريظة لمكان حلفهم .

فقال سعد بن معاذ :

ــ ما كرهه أحد من الأوس فيه خير ، فمن كرهه فلا أرضاه الله .

فقام أسيد بن حضير فقال :

ــ يا رسول الله لا تبق دارا من دور الأوس إلا فرقتهم فيها .

ففرق بعضهم فى دور الأوس ليضربوا أعناقهم ، وبعث إلى من بقى منهم فى دار أسامة بن ثابت فجاءوا إليه أرسالا . فالتفت بعضهم لسيدهم كعب بن أسد وقال :

ــ يا كعب ما تراه يصنع بنا ؟

ــ فى كل موقع لا تعقلون ، ألا ترون أن من يذهب منكم لا يرجع ، هو والله القتل ، قد دعوتكم إلى غير هذا فأبيتم على .

ــ ليس حين عتاب .

وأوتى بحُيى بن أخطب وعليه حلة له فى لون الورد حين هم أن يتفتح ، قد شقها عليه من كل ناحية قيد أنملة لئلا يُسلَبها ، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل . فلما نظر إلى رسول الله ــ ﷺ ــ قال :

ــ أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك ، ولكن من يَخذل الله يُخذل .

ثم أقبل على الناس فقال :

ـــ أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كُتبت على بنى إسرائيل . ثم جلس فضرب عنقه ، فقال جبل بن جوّال الثعلبى :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه
ولكنه من يخذل الله يُخذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عُذرها
وقلقل[1] يبغى العز كل مقلقل

وراح على بن أبى طالب والزبير بن العوام يقطان الرءوس على شعل السعف فى جوف الليل ، وقد صاحت نساء بنى قريظة وشقت جيوبها ونشرت شعورها وضربت خدودها وملأت المدينة نواحا ، وأوتى بكعب ابن أسيد فاشتد العويل وضرب الخدود فسيد بنى قريظة قد جلس ليضرب عنقه ، فقال له ـــ ﷺ ـــ :

ـــ يا كعب .

ـــ نعم يا أبا القاسم .

ـــ ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم وكان مصدقا بى ، أما أمركم باتباعى وإن رأيتمونى تقرئونى منه السلام ؟

ـــ بلى والتوراة يا أبا القاسم ، ولولا أن تعيرنى يهود بالجزع من السيف لا تبعتك ولكنه على دين يهود .

فأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يضرب عنقه .

ودخلت امرأة من نسائهم يقال لها بنانة امرأة الحكم القرظى على عائشة أم المؤمنين وكانت جارية حلوة ، فطفقت تتحدث مع عائشة وتضحك

---

(١) قلقل : تحرك .

ظهرا وبطنا ورسول الله عليه السلام يقتل رجالها فى السوق ، إذ هتف هاتف باسمها فقالت :

ــ أنا والله .

فقالت لها عائشة فى دهش :

ــ ويلك ؟ ما لك ؟

ــ أُقتل .

ــ ولم ؟

ــ قتلنى زوجى .

ــ كيف قتلك زوجك ؟

ــ أمرنى أن ألقى رحى على أصحاب محمد كانــوا تحت الحصن مستظلين فى فيئه ... كان بينى وبينه كأشد ما يتحاب الزوجان . فلما اشتد أمر المحاصرة قلت لزوجى : يا حسرتى على أيام الوصال كادت أن تنقضى وتتبدل بليالى الفراق . وما أصنع بالحياة بعدك ؟ فقال زوجى : إنك صادقة فى دعوى المحبة ، تعالى فإن جماعة من المسلمين جالسون فى ظل حصن فألقى عليهم حجر الرحا لعله يصيب واحدا منهم فيقتله . فإن ظفروا بنا فإنهم يقتلونك بذلك . فألقيت عليهم حجر الرحا فأدركت خلاد بن سويد فشدخت رأسه فمات وأنا أقتل به .

وخرجت للقتل ، وعائشة أم المؤمنين تعجب لطيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل .

وكان الزبير بن باطا القرظى وكان يكنى أبا عبد الرحمن قد منَّ على ثابت بن قيس بن شمَّاس فى الجاهلية يوم بعاث ، أخذه فجزَّ ناصيته ثم خلا سبيله ، فجاءه ثابت وهو شيخ كبير فقال :

ـــ يا أبا عبد الرحمن هل تعرفنى ؟

ـــ وهل يجهل مثلى مثلك !

ـــ إنى قد آن أن أجزيك بيدك عندى .

ـــ إن الكريم يجزى الكريم .

ثم أتى ثابت رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ يا رسول الله قد كان للزبير عندى يد وله علىّ منّة . وقد أحببت أن أجزيه فهب لى دمه .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ هو لك .

فأتاه فقال :

ـــ إن رسول الله ﷺ قد وهب لى دمك .

ـــ شيخ كبير لا أهل له ولا ولد ، فما يصنع بالحياة ؟

فأتى ثابت رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ يا رسول الله أهله وولده .

ـــ هم لك .

فأتاه فقال :

ـــ إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد أعطانى امرأتك وولدك فهم لك .

ـــ أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك ؟

فأتى ثابت رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ يا رسول الله ماله .

ـــ هو لك .

فأتاه فقال :

— إن رسول الله — ﷺ — قد أعطانى مالك فهو لك .

— أى ثابت ، ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحى ، كعب بن أسيد ؟

— قُتل .

— فما فعل سيدُ الحاضر والبادى حيى بن أخطب ؟

— قتل .

— فما فعل مقدّمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا كررنا عزّال بن صموئيل ؟

— قتل .

— ما فعل المجلسان ؟

وفهم ثابت أنه يقصد بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة فقال :

— ذهبوا وقتلوا .

— فإنى أسألك بيدى عندك يا ثابت إلا ألحقتنى بالقوم ، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء خير . أأرجع إلى دار قد كانوا حلولا فيها فأخلد فيها بعدهم ؟! لا حاجة لى فيها . ألحقنى بهم فلست معابرا عنهم إفراغة دلو حتى ألقى الأحبة .

— ما كنت لأقتلك .

— لا أبالى من قتلنى .

فقتله الزبير بن العوام . ولما بلغ أبا بكر مقالته « ألقى الأحبة » قال :

— يلقاهم والله فى نار جهنم خالدا فيها مخلدا .

كان القتل لكل من أنبت ، ومن لم ينبت يكون فى السبى . وكان عطية القرظى غلاما فوجدوه لم ينبت فخلوا سبيله عن القتل ، وقد شرح الله قلبه

للإسلام بعد ذلك فدخل فى دين الله . وكان رفاعة قد أنبت فأرادوا قتله فلاذ بسلمى بنت قيس أم المنذر وكانت إحدى خالات جده عبد المطلب ، فقالت :

— بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، هب لى رفاعة .

فوهبه لها ، فألقى الله فى قلبه أنوار اليقين فأسلم وجهه لله رب العالمين .

وكان سعد بن معاذ ينظر إلى قتل بنى قريظة وهو راضى النفس ، فإنه لما أصيب بالسهم فى الخندق قال يناجى ربه : لا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة ، وقد أقر الله عينه وشفى صدره فلم يعد يحفل على أى جنب يموت .

وانفجر جرح سعد بن معاذ وسال الدم ، واحتضنه — ﷺ — فجعلت الدماء تسيل على رسول الله — ﷺ ، فمات منه وحمل إلى منزله . وراح أشراف الرجال يحفرون قبر سعد بن معاذ سيد قومه وفى القلوب حسرة وفى الحلوق غصة وفى العيون دمع ، وحمل نعش سعد وكان جسيما فلم يستشعر الذين حملوه ثقله فالحزن الذى نزل بالأفئدة كان ثقيلا ، أنسى الرجال وطأة الجسم الثقيل الذى كانوا يحملونه .

ودفن سعد ، ورسول الله — ﷺ — ينظر وقد لاح فى وجهه الأسى العميق ومن حوله صحابته من الأنصار والمهاجرين ، فسبح رسول الله — ﷺ ، فسبح الناس معه ، ثم كبر فكبر الناس معه .

وجاءت أم سعد ونظرت إليه فى اللحد وقالت وهى تشرق بدموعها :

— أحتسبك عند الله .

وعزاها رسول الله — ﷺ — وهو واقف على قدميه على القبر ، فلما

سوى التراب على قبره ناحت عليه أمه ، فقال ـ ﷺ :

ـ كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ .

ثم أمر رسول الله ـ ﷺ ـ بالغنائم فجمعت ، فاصطفى لنفسه ريحانة بنت عمرو بن خناقة إحدى نساء عمرو بن قريظة . ثم أخرج الخمس من المتاع والسبى ، ثم أمر بالباقى فبيع فيمن يزيد وقسمه بين المسلمين . وكانت السُّهمان على ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهما ، للفرس سهمان ولصاحبه سهم . واستعمل عليه السلام محمية بن جزء الزبيدى وكان من مهاجرة الحبشة على الأخماس ، فكان رسول الله ـ ﷺ ـ يعتق منه ويهب ويخدم منه من أراد . وقال عليه السلام لمن أخذوا السبايا :

ـ من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة .

كان المسلمون لا يمتلكون إلا جوادا واحدا يوم بدر . وقد نصرهم الله ببدر وهم أذلة . وكانت غزوة أحد وقد فعل فرسان المشركين بالمسلمين الأفاعيل ، فرأى رسول الله ـ ﷺ ـ أن يهتم بفرسان المسلمين وأن يسلحهم تسليحا خفيفا ، فاهتم بتربية الخيل ولكن ذلك يحتاج إلى وقت طويل . فلما أصبحت الأموال بين يديه بعد غزوة بنى قريظة بعث سعد ابن زيد الأنصارى إلى نجد ليبتاع لهم خيلا وسلاحا ، وبعث سعد بن عبادة إلى الشام ليشترى سلاحا ، فصار عنده ـ ﷺ ـ خيل كثير وسلاح كثير فقسمها على المسلمين . وكون عليه السلام أول فرق فرسان المسلمين تلك الفرق التى ستزلزل ملك الروم وتدك حصون الفرس وترفع رايات الإسلام خفاقة على الحصون .

ودخل عليه السلام المدينة فاستقبله المسلمون بالتكبير . وتجاوبت فى أرجاء المكان على طول الطريق أهازيج النصر المبين ودخل عليه السلام

المسجد ليصلى ركعتين لله شكرا قبل أن يتجه إلى دار ابنته فاطمة الزهراء ليحيى أهل البيت قبل أن يدخل على نسائه ، فإذا بأبى لبانة لا يزال مربوطا بسلاسل إلى أسطوانة قريبة من دار أم سلمة ، فهو ينتظر أمر الله فيه ، فلم يتقدم عليه السلام ليفكه فما كان له أن يفعل بعد أن قال أبو لبانة : « والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علىّ » .

وعاد المسلمون إلى دورهم والحر شديد ، وأبو لبانة قد ارتبط بالمسجد إلى عمود من عمده وقد دب فى جسده الوهن وراح العرق يتفصد من جسده ، تأتيه امرأته أو ابنته فى وقت كل صلاة فتحله للصلاة ، ثم يعود فيربط بالعمود حتى كاد يذهب سمعه وبصره .

وفى عماية الصبح خرج رسول الله — ﷺ — يتنفل عند الأسطوانة التى ارتبط بها أبو لبانة . ثم انصرف إليها بعد صلاة الصبح فراح يستبق إليها الفقراء والمساكين ومن لا بيت له إلا المسجد ، فراح رسول الله عليه السلام يتلو عليهم ما أنزل إليه : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا ﴾(١) .

وجعل أبو لبانة يرهف سمعه لعله يسمع أن الله قد تاب عليه ، ولكن رسول الله عليه السلام قد تلا ما أنزل إليه من ربه وما كان فيه إشارة إلى توبة الله عليه ، فاستشعر حزنا على حزنه وإن لم يقنط من رحمة ربه ، فقد كان على يقين من أن الله يغفر الذنوب جميعا .

---

(١) الأحزاب ٢٦ — ٢٧ .

وأبت ريحانة بنت عمرو الإسلام فعزلها — ﷺ — ووجد فى نفسه لذلك ، فبينا هو فى مجلس من أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال :

— إن هاتين لنعلا مبشرى بإسلام ريحانة .

فجاء رجل وأخبره أن ريحانة أسلمت فسر بذلك فأعتقها . وبعد استبرائها بحيضة تزوجها وأصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشا . و لم يشأ أن تكون فى ملكه يطؤها بالملك فقد جاء عليه السلام ليجفف روافد الرق ويشجع الناس على العتق .

ودخل عليه السلام بيت أم سلمة ، حتى إذا ما كان السحر سمعت أم سلمة رسول الله — ﷺ — يضحك فقالت :

— مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك ؟

— تيب على أبى لبانة .

فتهللت أم سلمة بالفرح وقالت :

— أفلا أبشره يا رسول الله ؟

— بلى إن شئت .

فقامت على باب حجرتها فقالت :

— يا أبا لبانة أبشر فقد تاب الله عليك .

كانت فاطمة الزهراء تنظر إلى أبى لبانة وقد ارتبط بأسطوانة المسجد والأيام تمر فتستشعر أعمق الأسى ، فلما مس أذنيها نداء أم سلمة أحست قلبها يخفق بالفرح ، فثارت إليه مع الناس الذين هُرعوا إليه ليطلقوه ، فلما رأوا الزهراء تتقدم لتحل وثاقه تأخروا ، ولكن أبا لبانة أبى أن تطلقه وقال :

— لا والله حتى يكون رسول الله — ﷺ — هو الذى يطلقنى بيده .

وبلغ ذلك رسول الله — ﷺ — فقال :

— فاطمة بضعة منى .

وخرج رسول الله — ﷺ — ليصلى الصبح ، فلما مر عليه السلام على أبى لُبانة أطلقه فإذا بالدموع تنهمر من عينى الرجل ويقول فى انفعال :

— من تمام توبتى أن أهجر دار قوم أصبت فيها الذنب ، وأن أخلع من مالى .

— يكفيك الثلث أن تتصدق به .

و لم يأمره — ﷺ — أن يهجر تلك الدار التى أصاب فيها الذنب ، وراح المسلمون يتلون فى المساجد ما أنزل الله فيه : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ﴾[1] .

---

(١) التوبة ١٠٢ .

٨

عاد عمرو بن العاص بعد غزوة الخندق إلى مكة فراحت الأفكار تنثال على رأسه ، وراح يفكر فى تلك الريح التى هبت فاقتلعت خيامهم وكفأت قدورهم على أفواهها وصارت تلقى الرجال على أمتعتهم وأطفأت نيرانهم بعد أن قبلت بنو النضير أن تفجر فى عهدها لمحمد وصحبه وكاد النصر أن يتم للأحزاب ، فاستشعر فى أعماقه أن قوة قادرة تساند ابن عبد الله وتمده بالعون وتؤيده ، وأن كل الدلائل لتدل أنه سيظهر على قومه وسيكون صاحب الكلمة العليا على قريش بل وعلى الأحزاب !

وتقاصرت نفس عمرو وتذكر ما كان يفعله برسول الله عليه السلام أيام أن كان بمكة ؛ إنه كان يؤذيه ويشتمه ويضع فى طريقه الحجارة ، ويا طالما هجا رسول الله ـــ ﷺ ـــ وآله هجاء كثيرا كان يعلمه صبيان مكة فينشدونه ويصيحون برسول الله إذا مر بهم رافعين أصواتهم بذلك الهجاء ، فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو يصلى بالحجر : « اللهم إن عمرو بن العاص هجانى ولست بشاعر ، فالعنه بعدد ما هجانى » .

ورن فى أغوار عمرو هجاء حسان بن ثابت له حيث هجاه مكافئا له عن هجاء رسول الله ـــ ﷺ :

أبوك أبو سفيان لا شك قد بدت
لنا فيك منه بينات الدلائل
ففاخر به إمّا فخرت ولا تكن
تفاخر بالعاص الهجين[1] بن وائل

---

(١) الهجين : كريم الأب .

وإن التى ذاك يا عمرو حُكِّمت
فقالت رجاءً عند ذاك لنائل
من العاص عمرو تخبر الناس كلما
تجمعت الأقدام عند المحافل

وتفصد العرق من جبينه فالطاعنون فى نسبه يقولون إن أمه النابغة كانت أمة لرجل من عنزة فسبيت ، فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمى بمكة فكانت بغيا ، ثم أعتقها فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب وأمية بن خلف الجمحى وهشام بن المغيرة المخزومى وأبو سفيان بن حرب والعاص ابن وائل السهمى فى طهر واحد ، فولدته فادعاه كلهم ، فحكمت أمه فيه فقالت :

ـــ هو من العاص بن وائل .

وذاك لأن العاص بن وائل كان ينفق عليها كثيرا ، وقال الطاعنون فى نسبه إنه أشبه بأبى سفيان !

وغمره خزى وخوف فقد ملأت رأسه صورته هو وعقبة بن أبى معيط وعمرو بن هشام وقد حملوا بينهم سَلا(١) جمل ووضعوه على رأس محمد ابن عبد الله وهو ساجد بفناء الكعبة ، فصبر و لم يرفع رأسه وبكى فى سجوده ودعا عليهم ، فجاءت ابنته فاطمة وهى باكية فاحتضنت ذلك السلا فرفعته عنه فألقته وقامت على رأسه تبكى .

ورن فى جنبات عمرو قول محمد فى ذلك الوقت : « اللهم عليك بقريش ... إنى مظلوم فانتصر ... إنى مظلوم فانتصر » . فإذا بقشعريرة

---

(١) كرش الجمل .

تسرى فى ابن العاص من الرأس إلى القدم .

ورأى عمرو نفسه وقد خرج مع الذين خرجوا إلى زينب بنت محمد لما خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة فروعوها وقرعوا هودجها بكعوب الرماح حتى أجهضت جنينا ميتا من أبى العاص بن الربيع .

وطافت بذهنه رحلته إلى الحبشة ؛ إنه خرج يريد النجاشى مع أصحاب السفينة ليأتى بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة . وسرى فى وجدانه ذلك الشعر الذى قاله لما خرج من مكة إلى النجاشى :

تقول ابنتى أين هذا الرحيل ... وما السير منى بمستنكَر
فقلت : ذرينى فإنى امرؤ ... أريد النجاشى فى جعفر
لأكويَه عنده كيَّة ... أقيم بها نخوة الأصْعَر [1]
وشانِئ أحمد من بينهم ... وأقوَلُهم فيه بالمنكر
وأجرى إلى عتبة جاهدا ... ولو كان كالذهب الأحمر
ولا أنثنى عن بنى هاشم ... وما اسطعت فى الغيب والمحضر
فإن قبل العتب منى له ... وإلا لويت له مشفرى

إنه هجا محمدا بسبعين بيتا من الشعر وأعلن عداوته لبنى هاشم فلا مقام له فى مكة ، وهو يحس أن أمر محمد يعلو وأن مكة أصبحت قريبة من قبضته ، فجمع رجالا من قريش كانوا يرون رأيه ويسمعون منه فقال لهم :

— والله إنى لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا ، وإنى قد رأيت رأيا فما ترون فيه ؟

— ما رأيت ؟

---

(١) الأصعر : الذى يميل بخده كناية عن التكبر .

ــ أرى أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومه أقمنا عند النجاشي ، فأن نكون تحت يده أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد ، فإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير .

ــ إن هذا الرأى .

ــ فاجمعوا ما نهدى له .

وكان أحب ما يأتيه من أرض الحجاز الأدم فجمعوا له أدما كثيرا ، فانطلقوا إلى مرفأ مكة وركبوا البحر وعمرو بن العاص يفكر فيما كان بينه وبين عمارة بن الوليد يوم أن خرجا معا إلى أرض الحبشة ليؤلبا النجاشي على جعفر بن أبي طالب وصحبه ، كان عمارة شاعرا عارما فاتكا وكان رجلا جميلا وسيما تهواه النساء صاحب محادثة لهن ، فركبا البحر ومع عمرو بن العاص امرأته ، حتى إذا صاروا فى البحر ليالى أصاب من الخمر معهما ، فلما انتشى عمارة قال لامرأة عمرو بن العاص :

ــ قبلينى .

وكانت الخمر قد لعبت برأس عمرو فقال لامرأته :

ــ قبلى ابن عمك .

فقبلته فهويها عمارة وجعل يراودها عن نفسها فامتنعت منه .

ورأى عمرو بعين خياله نفسه وقد جلس على سكّان السفينة يبول فدفعه عمارة فى البحر .

فلما وقع سبح حتى أخذ بسكان السفينة ، ورن فى أذنيه قول عمارة كأنما قد أتى من جوف بئر :

ــ أما والله لو علمت أنك سابح ما طرحتك ، ولكننى كنت أظن أنك لا تحسن السباحة .

وخفق قلب عمرو بين جنبيه ، ومد بصره إلى الأفق البعيد وقد تحرك حقده على أخي خالد بن الوليد الذى أراد قتله ، وسرعان ما تذكر ما أرسل به إلى أبيه . إنه ما إن وطأت قدماه أرض الحبشة حتى أرسل إلى أبيه العاص بن وائل أن اخلعنى وتبرأ من جريرتى إلى بنى المغيرة وسائر بنى مخزوم .

ورفت على شفتى عمرو بسمة خفيفة فقد علم بعد عودته أن أباه مشى إلى رجال بنى المغيرة وبنى مخزوم لما قدم عليه الكتاب فقال :

ـــ إن هذين الرجلين قد خرجا حيث قد علمتم وكلاهما فاتك صاحب شر غير مأمونين على أنفسهما ولا أدرى ما يكون منهما ، وإنى أبرأ إليكم من عمرو وجريرته فقد خلعته .

فقال عند ذلك بنو المغيرة وبنو مخزوم :

ـــ وأنت تخاف عمرا على عمارة ! ونحن فقد خلعنا عمارة وتبرأنا إليك من جريرته ، فخل بين الرجلين .

ـــ قد فعلتُ .

واتسعت ابتسامة عمرو والسفينة تمخر عباب الماء ، وإنه كان أذكى من أن يقتل عمارة وأن يثير العداوات بين بنى سهم وبنى المغيرة وبنى مخزوم . إنه داهية لم يعرض عنقه لسيف خالد بن الوليد ، فعمارة الوسيم الجميل ما اطمأن بأرض الحبشة حتى دب لامرأة النجاشى فأدخلته فاختلف إليها وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبره بما كان من أمره فيقول :

ـــ لا أصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك .

ورأى من حاله وهيئته وما تصنع المرأة به إذا كان معها ، ما أكد له صدق قوله. إنه يأتيه مع السَّحَر وكانا فى منزل واحد ، فلو احتال عليه ليأتيه بشىء لا يستطاع دفعه لرفع شأنه إلى النجاشي وجعله يحفر قبره بأظافره ، فقال له فى بعض ما يتذاكرون من أمرها :

ـــ إن كنت صادقا فقل لها فلتدهنك بدهن النجاشي الذى لا يدهن به غيره فإنى أعرفه ، وائتنى بشىء منه حتى أصدقك .

ـــ أفعل .

ووقع عمارة الجميل الصبيح الوسيم فى الفخ الذى نصبه له ، فعاد من عندها يفوح منه أطيب عبير وقد أعطته شيئا فى قارورة فقال له :

ـــ أشهد أنك قد صدقت ! لقد أصبت شيئا ما أصاب أحدٌ من العرب مثله قط ، ونلت من امرأة الملك شيئا ما سمعنا بمثل هذا .

ثم سكت عنه حتى اطمأن ودخل على النجاشي فقال :

ـــ أيها الملك إن معى سفيها من سفهاء قريش وقد خشيت أن يعرَّنى عندك أمرُه وأردت أن أعلمك بشأنه ، وألا أرفع ذلك إليك حتى أستثبت أنه قد دخل على بعض نسائك فأكثر ، وهذا دهنك قد أعطته وادَّهن به .

فلما شم النجاشي الدهن قال :

ـــ صدقت ، هذا دهنى الذى لا يكون إلا عند نسائى .

فلما أثبت أمره دعا بعمارة ثم ألقاه فى الأحراش ليهيم على وجهه مع الوحوش ، وراح عمرو يفرك يديه سرورا وهو يغدو ويروح على ظهر السفينة فقد انتقم من عمارة شر انتقام دون أن يرتكب حماقة تثير الحروب بين بنى سهم وبنى المغيرة .

وراح يترنم بأبيات يذكر فيها ما صنع بعمارة وما أراد عمارة من

امرأته :

تعلَّم عُمار أن من شر سنَّة
على المرء أن يُدعى ابن عم له ابنما
أئن كنت ذا بردين أحوى مُرَجَّلا
فلست براع لابن عمك محرما
إذا المرء لم يترك طعاما يحبه
ولم ينه قلبا غاويا حيث يمما
قضى وطرا منه يسيرا وأصبحت
إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

ومرت أيام وليالى والسفينة تشق طريقها فى الماء ، وعمرو بن العاص يذكر ما كان بينه وبين ابن عبد الله وما كان بينه وبين المسلمين فى الحبشة وفى مكة وفى المدينة أثناء يقظته ومنامه ، فلم يعد يشغل تفكيره غير الإسلام ونبى الإسلام . وفى جوف الليل وقد أطبق الظلام على الكون واختفت نجوم السماء ، رأى نفسه وهو يسير فى طرقات قصر النجاشى يستأذن فى الدخول عليه ، فلما أذن له قدم هدايا الملك إليه ثم قال :

— أيها الملك قد فر إلى بلادك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، جاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا فيهم إليك أشراف قومنا من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاينوه منهم .

وسرعان ما دوى فى عين ذاته صوت جعفر بن أبى طالب وهو يكلم الملك كأنه هزيم الرعد :

— أيها الملك إنا كنا قوما فى جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى

الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله عز وجل علينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا عليه نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن التجاور والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن سائر الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا وبالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا . وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأصنام والأوثان من عبادة الله ونستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

وعجب عمرو بن العاص من نفسه ، فما أكثر أن رنت هذه المقالة فى أعماقه فلم ينفعل بها انفعاله بها فى تلك الليلة . ترى أيرجع تأثره إلى أنه خرج من مكة إلى الحبشة وقد اختار بلد النجاشى وجوار النجاشى على من سواه كما فعل جعفر والذين معه من قبل ؟! إن جعفرا وصحبه قد فروا من اضطهاد قريش خشية أن يفتنوا عن دينهم ، فما الذى دعاه إلى الفرار ؟ إنه يرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا وأن قريشا كلها ستصحو ذات يوم لتجد نفسها فى قبضته ، فهل تشخص الأيام عما يثبت فراسته وثاقب رأيه أم أنه قد فر من وهم ؟

وانبعث من أعماقه صوت يتلو ﴿ كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده

زكريا * إذ نادى ربه نداء خفيا * قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا و لم أكن بدعائك رب شقيا * وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ﴾[١] .

فأحس رقة تكتنفه ومولد عبرات تزحف لتترقرق فى عينيه وبصيص نور يجاهد ليتألق فى ظلام فؤاده .

ورست السفينة فانطلق عمرو بن العاص إلى قصر صديقه النجاشى ، وبينما هو ينتظر الإذن بالدخول إذ قدم عمرو بن أمية الضمرى وكان رسول الله — ﷺ — بعثه إلى النجاشى فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه .

ودخل عمرو بن أمية ليخبر النجاشى أن رسول الله عليه السلام يطلب عودة جعفر وأصحابه بعد أن استقر الإسلام فى المدينة وأيده الله بنصره ، فجعل النجاشى يصغى إلى الضمرى متهلل الأسارير وقد وعد بأن يحمل المسلمين إلى رسول الله — صلى الله عليه وآله .

وخرج عمرو بن أمية الضمرى من عند النجاشى فقال عمرو بن العاص لأصحابه :

— هذا عمرو ن أمية لو دخلت على النجاشى فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قد أجزأت عنها (قمت مقامها) ، قتلت رسول محمد .

فدخل عمرو بن العاص عليه فسجد له ، فقال :

— مرحبا بصديقى . أهديت إلى من بلادك شيئا ؟

(١) مريم ١ — ٦ .

ـــ نعم أيها الملك . قد أهديت لك أدما كثيرة .

ثم قربه إليه فأعجبه واشتهاه ، ثم قال له :

ـــ أيها الملك إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا .

فغضب الملك ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظن عمرو بن العاص أنه قد كسره ، فلو انشقت له الأرض لدخل فيها فرقا من الملك ، ثم قال :

ـــ أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه .

ـــ أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله ؟

ـــ أيها الملك أكذلك هو ؟

ـــ إى والله ! أطعنى ويحك واتبعه فإنه والله لعلى حق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده .

وترادفت على ذهن عمرو بن العاص صور مثيرة : رأى أتباع محمد عليه السلام يقتلون آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وأعمامهم ما يزيدهم ذلك إلا إيمانا وتسليما . ومضوا على الجادة والصراط المستقيم وصبروا على مضض الألم وجدوا فى جهاد العدو ، ولقد كان الرجل منهم والآخر من عدوهم يتصاولان تصاول الفحلين يتخالسان أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كأس المنون ، فمرة لهم من عدوهم ومرة لعدوهم منهم ، فلما رأى الله صدقهم أنزل بعدوهم الكبت وأنزل عليهم النصر .

إنه ليحس الساعة أن الإسلام صدق وأن رسالة محمد ـــ ﷺ ـــ حق . وايم الله لتحتلبنها قريش دما ولتتبعنها دما ندما إن لم تدخل فى دين الله ، فقال عمرو للنجاشى :

— فبايعنى له على الإسلام .

فبسط النجاشى يده فبايعه على الإسلام .

واغرورقت عينا عمرو بالدموع . إنه كان أشد الناس على رسول الله ﷺ ، فلو مات قبل أن يبايع النجاشى على الإسلام لوجبت له النار ، وامتلأ رغبة فى أن ينطلق إلى المدينة ليبايع رسول الله عليه السلام ، فخرج إلى الميناء ليستقل سفينة تحمله إلى مكة ليأتى محمدا عليه صلوات الله وسلامه ليبايعه على أن يغفر له ما تقدم من ذنبه .

٩

أصاب الأشرف دما فى الجاهلية فأتى المدينة فحالف بنى النضير فشرف منهم وتزوج عقيلة بنت أبى الحقيق فولدت له كعبا ، وكان طويلا جسيما ذا بطن وهامة ، وكان سعيدا مجيدا ، وكان ساد يهود الحجاز بكثرة ماله ، وكان يعطى أحبار اليهود ويصلهم ، فلما قدم النبى ـــ ﷺ ـــ المدينة جاءه أحبار يهود من قينقاع وبنى قريظة لأخذ صلته على عادتهم فقال لهم :

ـــ ما عندكم من أمر هذا الرجل ؟

ـــ هو الذى كنا ننتظر ما أنكرنا من نعوته شيئا .

ـــ قد حرمتم كثيرا من الخير فارجعوا إلى أهليكم فإن الحقوق فى مالى كثيرة .

فرجعوا عنه خائبين ثم رجعوا إليه وقالوا له :

ـــ إنا أعجلناك فيما أخبرناك به ، ولما استثبتنا علمنا أنا غلطنا وليس هو المنتظر .

فرضى عنهم ووصلهم وجعل لكل من تابعهم من الأحبار شيئا من ماله .

ولما انتصر ـــ ﷺ ـــ يوم بدر ، وقدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة مبشرين لأهل المدينة بذلك وصاروا يقولون قتل فلان وفلان وأسر فلان وفلان من أشراف قريش ، صار كعب يكذب فى ذلك ويقول :

ـــ هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس . والله إن كان محمد قتل هؤلاء

القوم فبطن الأرض خير من ظهرها .

فلما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة فجعل يهجو رسول الله — ﷺ — والمسلمين ويمدح عدوهم ويحرضهم عليه وينشد الأشعار ويبكى من قتل ببدر من أشراف قريش ، فقال — ﷺ :

— اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت .

كان كعب بن الأشرف قد وضع رحله عند عبد المطلب بن وداعة ، وأكرمته زوجة عبد المطلب وهى عاتكة بنت أسيد ، فدعا رسول الله — ﷺ — حسان وأخبره بذلك فهجا المطلب وزوجته ، فلما بلغها هجاء حسان ألقت رحله وقالت :

— ما لنا ولهذا اليهودى ؟

وصار كلما تحول عند قوم من أهل مكة صار حسان يهجوهم فيلقون رحله ، فاضطر إلى أن يعود إلى المدينة . فلما وصل إلى المدينة لم يمسك لسانه وصار يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهن ، فقال رسول الله — ﷺ :

— من ينتدب لقتل كعب بن الأشرف ؟ إنه يؤذى الله ورسوله .

فقال له محمد بن مسلمة الأوسى :

— أنا لك به يا رسول الله ، هو خالى أنا أقتله .

وخرج محمد بن مسلمة فى نفر من الأوس إلى كعب بن الأشرف فقتلوه ، وعند ذلك أصبحت يهود مذعورين فأتوا النبى — ﷺ — فقالوا :

— قتل سيدنا غيلة .

فذكر لهم النبى — ﷺ — صنيعه من التحريض عليه وأذيته المسلمين فازدادوا خوفا . .

ولما قتلت سرية محمد بن مسلمة — وكانت من الأوس — كعب بن الأشرف الأوسى ، تذاكر الخزرج من يشابه كعب بن الأشرف فى العداوة لرسول الله — ﷺ — من الخزرج ، فذكروا أبا رافع سلام بن أبى الحقيق لأنه كان يؤذى رسول الله — ﷺ ، ولأنه كان ممن أعان غطفان وغيرهم من مشركى العرب بالمال الكثير على رسول الله — ﷺ ، وهو الذى حزب الأحزاب يوم الخندق .

كان الأوس والخزرج يتنافسان فيما يقرب إلى والله وإلى رسول الله — ﷺ ، لا تفعل الأوس شيئا من ذلك إلا فعلت الخزرج نظيره ويقولون :

— والله لا يذهبون بها فضلا علينا أبدا.

فانتدب لقتل ابن أبى الحقيق خمسة من الخزرج هم عبد الله بن عتيك ومسعود بن سنان وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة الحارث بن رِبْعى وخزاعى ابن أسود حليف لهم من أسلم ، واستأذنوا رسول الله — ﷺ — فى أن يتكلموا بما يتوصلون به إليه من الحيلة فأذن لهم وأمر عليهم عبد الله بن عتيك ، وأمرهم أن لا يقتلوا وليدا ولا امرأة .

فخرجوا حتى قدموا خيبر فكمنوا ، فلما هدأت الرجل جاءوا إلى منزله فصعدوا درجة له ، وقدموا عبد الله بن عتيك لأنه كان يرطن باليهودية فاستفتح وقال :

— جئت أبا رافع بهدية .

ففتحت له امرأته وقالت :

ـــ ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه .

فلما دخلوا عليه أغلقوا عليهم وعليها باب الحجرة ، فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح فأشار إليها ابن عتيك بالسيف فسكتت . ووجدوه وهو على فراشه ما دلهم عليه فى الظلمة إلا بياضه كأنه قبطية بيضاء ، فابتدروه بأسيافهم ، ووضع عبد الله بن أنيس سيفه فى بطنه وتحامل عليه حتى أنفذه وهو يقول :

ـــ قطنى قطنى (يكفينى يكفينى) .

وعند ذلك صاحت المرأة ، فلما صاحت جعل الرجل منهم يرفع عليها سيفه ثم يتذكر نهى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فيكف يده . وخرجوا من عنده وكان عبد الله بن عتيك رجلا سيء البصر فوقع من الدرجة فوثبت رجله وثبا شديدا ، فحمله صاحباه حتى أتيا محلا استخفوا فيه ، وكان ذلك المحل من أفنيتهم التى يلقون فيها كناستهم .

وصك صياح المرأة آذان القوم فهرعوا إليها ، فلما علموا بمقتل ابن أبى الحقيق أوقدوا النيران وتفرقوا فى كل وجه يطلبونهم . كانوا ثلاثة آلاف يحملون المشاعل يتلفتون كأنهم كلاب صيد ، حتى إذا أيسوا رجعوا إلى ابن أبى الحقيق فاكتنفوه وهو بينهم يجود بنفسه .

وقال بعض المسلمين لبعض :

ـــ كيف نعلم أن عدو الله مات ؟

ـــ أنا أذهب فأنظر لكم .

فانطلق حتى دخل فى الناس فوجد امرأة ابن أبى الحقيق تنظر فى وجهه وفى يدها المصباح ، ورجال يهود حوله وهى تحدثهم وتقول :

ـ أما والله لقد سمعت ابن عتيك ثم أكذبت نفسى .

ثم أقبلت تنظر فى وجه زوجها ثم قالت :

ـ فاضت وإله يهود .

وتيقن الرجل أن ابن أبى الحقيق قد فاضت روحه ، فما سمع من كلمه كانت ألذ إلى نفسه منها .

ثم جاء وأخبر أصحابه فوجد ابن عتيك قد عصب رجله وانطلق حتى جلس على الباب ، وقال :

ـ لا أخرج الليلة حتى أعلم أنى قتلته أولا .

فلما صاح الديك قام الناعى على السور فقال :

ـ أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز .

فقام ابن عتيك يمشى لا يحس بالألم لما هو فيه من الاهتمام . ولما وصل إلى أصحابه وعاد عليه المشى أحس بالألم ، فحمله أصحابه حتى قدموا المدينة على النبى ـ ﷺ ، فلما رآهم قال :

ـ أفلحت الوجوه .

قالوا :

ـ أفلح وجهك يا رسول الله .

وأخبروه بقتل ابن أبى الحقيق واختلفوا عنده ـ ﷺ ـ فى قتله كل منهم ادعاه ، فقال رسول الله ـ ﷺ :

ـ هاتوا أسيافكم .

فجاءوه بها فنظر إليها فقال لسيف عبد الله بن أنيس :

ـ هذا قتله ، أرى فيه أثر الطعان .

وقال حسان بن ثابت فى قتل سلام بن أبى الحقيق وكعب بن الأشرف :

لله در عصابـــة لاقيتَهـــم ... يابن الحقيق وأنت يابن الأشرف
يسرون بالبيضِ الخفاف إليكـمُ ... مرحا كأسد فى عرين مُغْرِف(١)
حتـى أتَـوْكم فى محل ديـــارِكم ... فسقوكمُ حَتْفا ببيض ذُفَّف(٢)
مستنصرين لنصر دين نـبيهم ... مستصغرين لكل أمر مجحف(٣)

---

(١) البيض الرقاق : السيوف . مرحا : نشطا . العرين : غابة الأسد . ومغرف : ملتف الأغصان .

(٢) بيض ذفف : سيوف سريعة القتل .

(٣) مجحف : ذاهب بالنفوس والأموال .

٩٠

جاء الليل وصلى المسلمون العشاء خلف رسول الله ـــ ﷺ ، وانصرف الناس إلى دورهم ، ولكنهم لم ينصرفوا عن الله فقد صار الله فى وجدانهم يذكرونه قياما وقعودا وعلى جنوبهم . وفى جوف الليل راح المؤمنون والمؤمنات يدعون ربهم وقد تعلقت به أفئدتهم ، فالارتفاع إلى النبع الروحى وقرع أبواب الملكوت يملأ الصدور نورا على نور .

وراح رسول الله ـــ عليه صلوات الله وسلامه ـــ يقول :

ـــ سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت . أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه .

اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى وأقل عثراتى واحفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوق ، وأعوذ بك أن أغتال من تحتى .

اللهم لا تؤمنى مكرك ، ولا تولنى غيرك ، ولا تنزع عنى سترك ، ولا تنسنى ذكرك ، ولا تجعلنى من الغافلين .

اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت . خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

اللهم عافنى فى بدنى وعافنى فى سمعى وعافنى فى بصرى ، لا إله إلا أنت . اللهم إنى أسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك الكريم ، وشوقا إلى لقائك من غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أعتدى أو يعتدى على ، أو أكسب خطيئة أو ذنبا لا تغفره .

اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ، والعزيمة فى الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وحسن عبادتك ، وأسألك قلبا خاشعا سليما ، وخلقا مستقيما ، ولسانا صادقا ، وعملا متقبلا ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، فإنك تعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب .

اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى فإنك أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شىء قدير ، وعلى كل غيب شهيد .

اللهم إنى أسألك إيمانا لا يرتد ، ونعيما لا ينفد ، وقرة عين الأبد . اللهم إنى أسألك الطيبات ، وفعل الخيرات ، وترك المنكرات وحب المساكين . أسألك حبك ، وحب من أحبك ، وحب كل عمل يقرب إلى حبك وأن تتوب على وتغفر لى وترحمنى ، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون .

اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفنى ما كانت الوفاة خيرا لى . أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وكلمة العدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، ولذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك ، وأعوذ بك من

ضراء مضرة ، وفتنة مضلة .

اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين ، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة .

اللهم املأ وجوهنا منك حياء ، وقلوبنا منك فرقا ، وأسكن فى نفوسنا من عظمتك ما تذلل به جوارحنا لخدمتك ، واجعلك اللهم أحب إلينا ممن سواك ، واجعلنا أخشى لك ممن سواك .

اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا ، وأوسطه فلاحا ، وآخره نجاحا . اللهم اجعل أوله رحمة ، وأوسطه نعمة ، وآخره تكرمة ومغفرة . الحمد لله الذى تواضع كل شيء لعظمته ، وذل كل شيء لعزته ، وخضع كل شيء لملكه ، واستسلم كل شيء لقدرته . والحمد لله الذى سكن كل شيء لهيبته ، وأظهر كل شيء بحكمته ، وتصاغر كل شيء لكبريائه .

اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت التواب الرحيم ، وبحلمك عنى اعف عنى إنك أنت الغفار الحليم ، وبعلمك بى ارفق بى إنك أنت أرحم الراحمين ، وبملكك لى ملكنى نفسى ولا تسلطها على إنك أنت الملك الجبار . سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت تحملت سوءا وظلمت نفسى ، فاغفر لى ذنبى ، إنك أنت ربى ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت . اللهم ألهمنى رشدى وقنى شر نفسى . اللهم ارزقنى حلالا لا تعاقبنى عليه ، وقنعنى بما رزقتنى ، واستعملنى به صالحا تقبله منى . أسألك العفو والعافية وحسن اليقين والمعافاة فى الدنيا والآخرة ، يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة ، وهب لى ما لا يضرك ، وأعطنى ما لا ينقصك .

ربنا أفرغ علينا صبرك وتوفنا مسلمين . أنت وليى فى الدنيا والآخرة

توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين . أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة إنا هدنا إليك . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم . ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين .

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم . ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا . ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد .

كان يقوم الليل ويناجى ربه آناء الليل وأطراف النهار . وكانت عينه تنام ولا ينام قلبه فانكشف له الأمر وفاض على صدره النور ، فمن كان لله كان الله له ، وكان أسوة حسنة لأتباعه فكانت عائشة أم المؤمنين تدعو :

ـــ اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد ـــ ﷺ ، وأسألك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين .

وقال رسول الله — ﷺ — لفاطمة الزهراء سيدة نساء المؤمنين .

— يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به أن تقولى: يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث ، لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله .

وعلّم رسول الله — ﷺ — أبا بكر الصديق أن يقول :

— اللهم إنى أسألك بمحمد نبيك ، وإبراهيم خليلك ، وموسى نجيك ، وعيسى كليمك وروحك ، بتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ، وزبور داود ، وفرقان محمد ، وبكل وحى أوحيته . أو قضاء قضيته ، أو سائل أعطيته ، أو غنى أفقرته ، أو فقير أغنيته ، أو ضال هديته ، وأسألك باسمك الذى أنزلته على موسى ، وأسألك باسمك الذى بثث به أرزاق العباد ، وأسألك باسمك الذى وضعته على الأرض فاستقرت ، وأسألك باسمك الذى وضعته على السماء فاستقرت ، وأسألك باسمك الذى وضعته على الجبال فرست ، وأسألك باسمك الذى استقل به عرشك . باسمك الطهر الطاهر الأحد الصمد الوتر ، المنزل فى كتابك من لدنك من النور المبين ، وأسألك باسمك الذى وضعته على النهار فاستنار ، وعلى الليل فأظلم ، وبعظمتك وكبريائك ، وبنور وجهك الكريم ، أن ترزقنى القرآن والعلم به وتخلطه بلحمى ودمى وسمعى وبصرى ، وتستعمل به جسدى بحولك وقوتك ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين .

وقال — ﷺ — لبُريدة الأسلمى :

— يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيرا علمهن إياه ، ثم لم يُنسهن إياه أبدا ؟

— بلى يا رسول الله .

— قل اللهم إنى ضعيف فقوّ فى رضاك ضعفى ، وأخذ إلى الخير

بناصيتي ، واجعل الإسلام منتهى رضاى . اللهم إنى ضعيف فقونى ، وإنى دليل فأعزنى ، وإنى فقير فأغننى ، يا أرحم الراحمين .

وراح أبو الدرداء يدعو بما علمه رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ اللهم أنت ربى لا إله ألا أنت ، عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم . لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ما شاء الله كان وما يشأ لم يكن . أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا . اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم .

كانوا فى الليل يتوجهون بكل قلوبهم إلى الله فتهب عليهم نسائم الألطاف وتنكشف الحجب عن أعين الأفئدة بلطف خفى من الله تعالى ، فيلمع فى القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم كالبرق الخاطف ، وتتلألأ فيها حقائق الأمور الإلهية . ولا غرو فقد كانوا يعيشون فى الله وبالله ولله . يدعونه مخلصين له الدين فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض . فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهن جنات تجرى من تحتها الأنهار . ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب .

١١

اجتمعت قريش يوما فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويدورون به ، وكان ذلك عيدا لهم فى كل سنة يوما ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا هم ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش ــ وكانت أمة أميمة بنت عبد المطلب ــ وعثمان بن الحويرث بن أسد وزيد بن عمرو بن نفيل ، ثم قال بعضهم لبعض :

ــ تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض .

ــ أجل .

ــ تعلمّوا والله ما قومكم على شيء ! لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم ! ما حجر نُطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ! يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا فإنكم والله ما أنتم على شيء .

فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ، فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب ، ومات قبل أن يؤمر رسول الله ــ ﷺ ــ بأن ينذر عشيرته الأقربين .

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتوجه وولاه أمر مكة ، فلما جاءهم بذلك أنفوا أن يدينوا للملك وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى :

ــ ألا إن مكة حى لقاح لا تدين للملك .

فلم يتم له مراده فعاد إلى قيصر وتنصر وحسنت منزلته عنده ، وكان

يقال له البطريق . ومات بالشام مسموما سمه عمرو بن جفنة الغسانى الملك .

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموءودة وقال :

ـــ أعبد رب إبراهيم .

وبادى قومه يعيب ما هم عليه ، وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول :

ـــ يا معشر قريش ، والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى . اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه .

ثم يسجد على راحلته . ومات زيد قبل أن يبعث رسول الله عليه السلام .

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس وتزوج رملة بنت أبى سفيان زعيم مكة وسيد بنى أمية ، وكان الزفاف يليق بسليلة حرب بن أمية وسليل بنى أسد وبنى هاشم ، وما انقضت شهور حتى ذاع فى مكة نبأ اتصال محمد بن عبد الله بالسماء ونزول الوحى عليه ، فطغى هذا الحدث العظيم على كل الأحداث .

وانقسمت مكة إلى فريقين فريق آمن بالله ورسوله وفريق كفر بما جاء به ابن عبد الله ، وكان على رأس ذلك الفريق أبو سفيان بن حرب . وشرح الله صدر رملة للإسلام وألقى فى قلبها أنوار اليقين فآمنت برسالة السماء ، ودخل زوجها عبيد الله بن جحش فى دين الله .

وكاد أبو سفيان أن يجن لما اكتشف أن ابنته رملة صبأت عن دين قومها

وأنها قد تبعت دين أبى كبشة ، فغدا يحاول أن يثنيها عن عزمها يمحو ما لحقه من خزى ، ولكنها ثبتت على دين محمد وعجز أبو سفيان عن أن يفتنها أمام إرادتها الصلبة التى زادها الإيمان قوة ومضاء .

ووثبت القبائل على من أسلم منها فاحتمل المسلمون ألوان العذاب وذاقوا مرارة الاضطهاد ، حتى إذا ما طفح الكيل فكروا فى الفرار بدينهم فاستأذنوا رسول الله فى الهجرة فأذن لهم أن يهاجروا إلى الحبشة ، فهاجر عبيد الله بن جحش فيمن هاجر وحمل زوجه رملة وكانت حاملا ، حتى إذا ما استقروا فى الحبشة وضعت رملة ما فى بطنها فكانت أنثى ، وكانت حبيبة بنت عبيد الله فكنيت بها فأصبحت تدعى أم حبيبة .

وكان المسلمون فى أرض الغربة يتزاورون ، فكانت أم حبيبة وأم سلمة وأسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبى طالب ورقية بنت رسول الله — ﷺ — يجتمعن ويتذاكرن أيام مكة وفى القلوب حنين وفى العيون دموع وفى الحلوق غصص . وما كان يخفف عنهن أسى الغربة إلا إيمانهن العميق بأنهن على الصراط وأنهن يتحملن ما يتحملن فى سبيل الله ومرضاة لرب العالمين .

وراح عبيد الله يختلف إلى الرهبان والقساوسة ويطيل المكث معهم فكان يعجب بهم على مر الأيام ، وذات ليلة أدخلت أم حبيبة مخدعها فنامت فرأت عبيد الله بأسوأ صورة ، فقامت من نومها مفزوعة مبهورة الأنفاس ، ولم يسكن روعها أبدا فقد حفر الحلم المروع فى وجدانها حتى صار أصدق من الحقيقة وأعمق أثرا من الواقع الذى كانت تعيش فيه .

وفى الصباح جاءها تأويل ما رأت ، قال لها عبيد الله إنه ارتد عن الإسلام وإنه اعتنق المسيحية ، وحاول أن يردها عن الإسلام فـأبت

وصبرت على دينها .

وكان لا بد من الفراق فاعتكفت أم حبيبة فى دارها لا تزور ولا تزار تمضى سحابة نهارها تمضغ أساها وتقوم الليل تناجى ربها وتبثه همومها وتشكو إليه حالها ، فهى لا تستطيع أن تعود إلى مكة ليفتنها أبوها عدو الإسلام اللدود عن دينها ، ولا تستطيع أن تهاجر إلى المدينة فهى لا تريد أن تكون كلا على زينب بنت جحش أخت زوجها عبيد الله .

وهزم الله الأحزاب وحده ونزلت بنو قريظة على حكم رسول الله ـــ ﷺ ، وبلغه عليه السلام أن أم حبيبة بنت أبى سفيان المسلمة المؤمنة التى هاجرت فى سبيل الله إلى الحبشة تعيش فى الغربة وحدها بعد أن ارتد زوجها عن دينه ، فرأى أن يكرمها وأن يجزيها خيرا عن صبرها وعن تمسكها بأهداب دينها . فعزم على أن يتزوجها وأن يشرفها بأن تكون أما للمؤمنين .

كانت أم حبيبة قد تجاوزت الأربعين وما كانت رائعة الجمال ، ولكنه عليه السلام قد وطد العزم على أن يرفعها فوق مكانتها لو أنها ظلت على دين قومها واستقرت فى بيت أبى سفيان ، وإنه بذلك الزواج سيحقق إحدى الحسنيين : جدع أنف أبيها عدوه اللدود ، أو أن يلين قلبه الغليظ فينشرح صدره للإسلام .

وبعث رسول الله ـــ ﷺ ـــ فيها إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى ، فبينا كانت أم حبيب فى دارها تفكر فى وحدتها وفيما صار إليه أمرها بعد أن هاجر ابن خالها عثمان بن عفان إلى المدينة ، إذ برسول النجاشى جارية يقال لها أَبرهَة كانت تقوم على ثيابه ودهنه تستأذن عليها ، فأذنت لها فقالت :

— إن الملك يقول لك إن رسول الله — ﷺ — قد كتب إلى أن أزوجكه .

فأحست أم حبيبة بالفرح يغمرها ولم تستطع أن تسيطر على عواطفها ، فقالت وهى متفرحة متهللة :

— بشرك الله بخير .

— يقول لك الملك وكّلى من يزوجك .

فأرسلت إلى خالد بن سعيد فوكلته ، وأعطت أبرهة سوارى فضة كانا عليها وخواتم فضة كانت فى أصابعها سرورا بما بشرتها .

فلما كان العشى أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب ومن هناك من المسلمين يحضرون ، وخطب النجاشى بعد أن بايع عمرو بن العاص على الإسلام فقال :

— الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم . أما بعد فإن رسول الله — ﷺ — كتب إلى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله عليه السلام ، وقد أصدقتها أربعمائة دينار .

ثم سكب الدنانير بين يدى القوم ، فتكلم خالد بن سعيد فقال :

— الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

أما بعد فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله — ﷺ — وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان فبارك الله لرسوله .

ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها ، ثم أرادوا أن يقوموا فقال النجاشي :

ـــ اجلسوا فإن سنة الأنبياء عليهم السلام إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج .

فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا . وغدا المسلمون الذين كانوا بالحبشة يتأهبون للهجرة إلى المدينة فقد استقر بها الإسلام ، وكانوا فى شوق إلى لقاء رسول الله ـــ ﷺ ـــ والأحبة ، وكانت أم حبيبة أكثرهم شوقا ولهفة ، فما إن تدخل دور النبى عليه السلام حتى تصبح أم حبيبة أم المؤمنين ، وإنها لأمنية غالية قد نالتها بإيمانها وصبرها وإنه لشرف عظيم يتقاصر دونه كل شرف .

١٢

تأهب رسول الله ـــ ﷺ ـــ للخروج من داره فراح يقول :

ـــ اللهم إنى أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر . اللهم إنى أعوذ بك من طبع يهدى إلى طمع ، ومن طمع فى غير مطمع ، ومن طمع حيث لا مطمع .

اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ودعاء لا يسمع ، ونفس لا تشبع . وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، ومن الخيانة فإنها بئس البطانة .

وخرج عليه السلام إلى أصحابه فبعث محمد بن مسلمة إلى القرطاء وهم بنو بكر بن كلاب فى ثلاثين راكبا ، فإذا برهبان الليل يصبحون فى غمضة عين فرسان النهار ، وأمره أن يسير الليل ويكمن النهار ، وأمره أن يشن عليهم الغارة ، فقد كان عليه السلام يبعث السرية فى إثر السرية إلى القبائل التى تتجمع لقتال المسلمين قبل أن تلم شملها ، وكانت مفاجأة الأعداء فى عقر دورهم تحبط كل عمل وتلقى الرعب فى قلوب أعداء الإسلام .

وسار محمد بن مسلمة الليل وكمن النهار ، وصادف فى طريقه ركبانا نازلين فأرسل إليهم رجلا من أصحابه يسأل من هم ؟ فذهب الرجل ثم رجع إليه فقال :

ـــ قوم من محارب .

فنزل قريبا منهم ثم أمهلهم حتى إذا بركوا الإبل حول الماء أغار عليهم فقتل نفرا منهم وهرب سائرهم ، واستاق نعما وشاء ولم يتعرض للنساء ، ثم انطلق حتى إذا كان بموضع يطلعه على بنى بكر بعث عابد بن بشير إليهم ، وخرج محمد بن مسلمة فى أصحابه فشن عليهم الغارة فقتل منهم عشرة واستاقوا النعم والشاء ، وأخذوا فيمن أخذوا ثمامة بن أثال الحنفى من بنى حنيفة وكان سيد أهل اليمامة وهم لا يعرفونه .

وانحدر محمد بن مسلمة والذين معه إلى المدينة فخمس رسول الله ـــ ﷺ ـــ ما جاء به وعدل الجزور بعشرة من الغنم ، وكان النعم مائة وخمسين بعيرا والغنم ثلاثة آلاف شاة .

وجيء بثمامة إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال لهم :

ـــ أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفى فأحسنوا إساره .

فربط بسارية من سوارى المسجد ، فدخل ـــ ﷺ ـــ على أهله فقال :

ـــ اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه .

وأمر له ـــ ﷺ ـــ بناقة يأتيه لبنها مساء وصباحا ، وما كان ذلك الطعام ليرضى سيد أهل اليمامة . وكيف يقع طعام الزاهدين عند من اعتاد أن ينحر كل يوم شاة موقعا من كفايته ؟!

وجاء إليه رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ ما لك يا ثمام ، هل أمكن الله منك ؟

ـــ قد كان ذلك .

واستمر ثمامة مربوطا بسارية من سوارى المسجد يرى صلاة المسلمين ويصغى إلى أحاديث رسول الله ـــ ﷺ ، ويمتلئ عجبا باجتماع رسول الله

كل ليلة بأهل الصفة من فقراء المسلمين الذين انقطعوا للعبادة بالمسجد . إنه لا يأكل إلا معهم ويسبغ عليهم عطفه ويغمرهم بحنان لا يتدفق إلا من قلب كبير .

وصار رسول الله — ﷺ — يأتيه فيقول :

— ما عندك يا ثمامة ؟

— يا محمد عندى خير : إن تقتل تقتل ذا كرم ، وإن تعفُ تعفُ عن شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

وكان أهل الصفة يلقون سمعهم إلى هذا الحوار فيقولون :

— نبينا — ﷺ — ما يصنع بدم ثمامة ، والله لأكلة جزور سمينة من فدائه أحب إلينا من دم ثمامة .

وانصرف عنه رسول الله — ﷺ ، وما كان عليه السلام يفكر فى أكلة جزور سمينة بل كان يحب أن يهدى الله سيد أهل اليمامة إلى الإسلام ، فاليمامة فى أرض اليمن كانت ريفا لأهل مكة إنما تمدهم بالحنطة ، فإسلام سيد اليمامة يهدد قريش بقطع الميرة عنهم .

ونقضى يومان والحوار دائر بين رسول الله عليه السلام وثمامة .

وبذور من الإيمان تلقى فى أعماق سيد أهل اليمامة وأحقاد الرجل تكشط برقة رسول الله — ﷺ ، ثم إن رسول الله — ﷺ — فى اليوم الثالث قال :

— أطلقوا ثمامة .

ثم التفت إلى ثمامة وقال :

— قد عفوت عنك يا ثمامة .

لم يطلب منه مالا بل أطلق سراحه دون مقابل وهو يعلم أن أهل اليمامة

أشد الناس بغضا له ولرسالته . إن سيد بنى اليمامة مبهور بسماحة نبى الإسلام وكرمه . إنه قد سعد وهو فى إساره بالحكمة التى كانت تتدفق من فم ابن عبد الله ... إنه استشعر كأن النور المنبعث من مسجد الرسول عليه السلام قد ملأ جوانحه وفاض ، فانطلق إلى ماء جار قريب من المسجد فاغتسل وطهر ثيابه ثم دخل المسجد وقال فى انفعال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

وسالت عبرات رقيقة على لحيته ، ثم دنا من رسول الله عليه السلام وقال :

— يا محمد والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إلىّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلىّ . والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلىّ من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الدين كله إلىّ . والله ما كان بلد أبغض إلىّ من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلىّ .

فلما أمسى جيء له بما كان يأتيه من الطعام فلم ينل منه إلا قليلا و لم يصب من حلاب الناقة إلا يسيرا ، فعجب المسلمون فقال رسول الله ﷺ :

— مم تعجبون ؟ أمن رجل أكل أول النهار فى مِعَى كافر وأكل آخر النهار فى مِعَى مسلم ؟ إن الكافر ليأكل فى سبعة أمعاء وإن المسلم يأكل فى معًى واحد .

تحرر قلب ثمامة فلم يعد مأخوذا بسحر الملموس والمرئى المسموع ، بل تعلم مراقبة الضمير فاكتسبت ذاته عمقا وخصبا وثراء فإذا بأنوار المعارف تشرق من باطن قلبه ، وإذا به يستشعر أنه قد اقترب من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة ، وأن الله افتتح عليه من مزايا لطفه ورحمته

المبذولة بحكم الجود والكرم . وقد تيقن بعد أن ذاق حلاوة الإيمان أن القلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله ، وأنها محرومة من الكشف عن باب الفوز الأكبر .

نهل ثمامة من معين النبوة فأصبح متفرحا بالله يعيش فى الله وبالله ومع الله ، قد امتلأ فؤاده بحب رسول الله — ﷺ — حتى إنه صار لا يطيق أن يفارقه . ولكن حتى متى يبقى سيد أهل اليمامة فى المدينة ؟ وإذا بقى فى المدينة أيحمل أمواله إليها ؟ إنه يرى أن عودته إلى اليمامة أكثر نفعا للإسلام من بقائه مع صحابة رسول الله — ﷺ . إنه هناك سيدعو قومه إلى دين الله وإنه ليرجو أن يشرح الله صدورهم للإسلام ، ولكنه رأى أن يستشير رسول الله عليه السلام قبل أن يتخذ قرارا ، فأتى النبى — ﷺ — وقال له :

— يا رسول الله إنى خرجت معتمرا وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة ، فإذا ترى ؟

فأمره أن يعتمر فامتطى راحلته وانطلق إلى مكة فإذا به يرى الكعبة بخياله وقد خلت من أصنام قومه ، إنها كعبة أبيه إبراهيم خليل الرحمن منارة التوحيد وأول بيت وضع للناس .

إنه حصل بالإسلام على شرف المعلومات وأمد قلبه بجنود العلم والحكمة والتفكر ، وسعد طوال الرحلة بمشاهدة ربه ومراقبته والنظر إلى وجهه الكريم . وتهلل بالفرح لما انجلى فى فؤاده حقيقة الحق فى الأمور كلها فهانت فى عينيه كل القوى الأرضية . واستصغر كل سلطان بعد أن عرف سلطان الله وحوله وقوته فعزم على أن يعلن إسلامه فى مكة معقل الشرك وحصن أعداء الإسلام الحصين .

وقدم بطن مكة ورأى الناس يطوفون بالحرم وقد امتلأ بالأصنام ونداءات الشرك ترتفع هنا وهناك ، فلبى بصوت جهورى :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

وتعلقت أنظار سادات قريش بسيد أهل اليمامة وقد ملئت عجبا ، فما بال ثمامة لا يشرك فى تلبيته كما يشركون ؟ إن تلبيتهم كانت منذ تفتحت أعينهم على الدنيا : لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وقاموا إليه يناقشونه فى أمر هذه التلبية وكانت أول تلبية فى مكة يعلن فيها أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، واشتد الحوار وأعلن ثمامة على الملأ أنه قد أسلم وأنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

وثارت الدماء حارة فى العروق فأخذت قريش فقالوا :

— لقد اجترأت علينا ، أنت صبوت يا ثمامة .

ولم يحفل بثورتهم ، كان مطمئنا .. إنه عرف الهدى بعد الضلالة ، وتفتح قلبه على النور بعد الظلمات ، وذاق لذة الأنس بالله وحمل الأمانة والنظر إلى ملكوت السماء . كان على نور من ربه فقال وهو ثابت الجنان :

— أسلمت وتبعت خير دين ، دين محمد . والله لا يصل إليكم حبة من حنطة حتى يأذن فيها رسول الله — ﷺ .

وغضبوا غضبا شديدا فهذا القول يعلى شأن ابن أبى كبشة فى أرض عداوته ، ويفتن أناسا تميل قلوبهم إلى دين ابن عبد الله ، ويزيد فى هوة الشقاق الذى بدت ملامحه فى قريش ، فارتفعت أصوات حانقة تقول :

— اضربوا عنقه .

فقدموه ليضربوا عنقه فإذا هو ثابت كالطود ، وإذا بدهشة مشوبة بإعجاب قد ملأت العيون التى امتدت إلى سيد بنى اليمامة ، وإذا بذكريات خبيب وأتباع محمد الذين تلقوا الموت مستبشرين تعود إلى الأذهان ، وإذا بأسئلة حائرة تدور فى العقول .

— أكانوا يتلقون الموت فرحين لو كانوا يؤمنون بسراب ؟! وقال قائل منهم :

— دعوه فإنكم تحتاجون إلى اليمامة .

حقا إنهم يحتاجون إلى اليمامة فقد كانوا يعتمدون عليها فى ميرتهم فهى أرض الحنطة ، وإن قتل سيدهم حتى لو عرف أنه قد أسلم سيدفعهم إلى حبس الحنطة عنهم إن لم يثأروا لدمه .

فخلوا سبيله وما كان أمامهم إلا أن يفعلوا ، فخرج ثمامة إلى اليمامة فمنع قومه أن يحملوا إلى مكة شيئا فقد كان يعنى ما يقول عندما أعلنهم أنه لن يصل إليهم حبة من حنطة حتى يأذن فيها رسول الله — ﷺ .

وأضر بقريش الجوع بعد أن منع ثمامة عنهم ما كان يأتى من اليمامة ، وفكروا فى أن يبعثوا إلى رسول الله — ﷺ — كتابا يلتمسون فيه أن يأمر ثمامة بأن يخلى بينهم وبين ميرتهم ، ولكنهم رأوا فى ذلك إذلالا لهم ، فتواصوا بالصبر انتظارا للفرج . ومن أين يأتيهم ذلك الفرج بعد أن عادوا الله ورسوله ! وبعثوا إلى ثمامة يسألونه أن يعدل عن قراره فقال لهم :

— إنى أقسمت برب الكعبة لا يصل إليكم من اليمامة شىء مما تنتفعون به حتى تتبعوا محمدا عن آخركم .

إن ما يسألهم ثمامة إنما هو شىء قد رفضوه وخاضوا فى سبيله حروبا وفقدوا الآباء والأبناء والأحبة لكيلا يقروا بالإسلام ودعوة ابن عبد الله ،

أفيخضعون لضغط ثمامة دفعا للجوع ؟ إن المسلمين تحملوا الجوع أيام حصارهم فى شعب أبى طالب حتى أكلوا خشاش الأرض وهم ليسوا أقل إيمانا بآلهتهم من إيمان أصحاب محمد .

وصبروا على الجوع وراحوا يخلطون الدم بأوبار الإبل ويشوى على النار ، إنه العلهز أسوأ الطعام . وما استطاعوا أن يحتملوا ما احتمل المسلمون أيام الحصار فكتبوا إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقد جللهم الذل واستشعروا الهزيمة فى أعماقهم :

« ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع . عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم وتحث عليها ، وإن ثمامة قد قطع عنا ميرتنا وأضرَّ بنا ، فإن رأيت أن تكتب إليه أن يخلى بيننا وبين ميرتنا فافعل » .

فكتب إليه رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن خلِّ بين قومى وبين ميراتهم ، وحملت الحنطة من اليمامة إلى مكة ففرح الناس بها ، وقد فعل كرم محمد عليه السلام وشهامته فى قلوب المكيين الذين كان هواهم مع نبى الإسلام عليه السلام فعل السحر ، فقد زادت فى صدورهم دائرة النور وأصبحوا أكثر رغبة فى أن ينطلقوا إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ليشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .

١٣

كان أبو سفيان بن حرب وخالد بن الوليد وحكيم بن حزام وصفوان ابن أمية مجتمعين عند الحرم وقلوبهم شتى ، وإن كان كل تفكير هم يدور حول محمد بن عبد الله وما جاء به من دين . فأبو سفيان يجتر ذكريات مجده وما فعله لتكون له السيادة فى قومه ، إنه تزوج فى قبائل العرب والعشائر وأصهر بنيه لسادات القوم وأدخل بناته على ذوى الحسب والجاه حتى يكون الأصهار والأنسباء ذو عدد وذوى جاه وذوى قوة ليكسب بهم شيئا يضيف به سببا إلى الأسباب التى تمهد له السيادة والسلطان .

كانت زعامة قريش هدفه وكانت كل أمله ومحور تفكيره ومصدر أفعاله والمتحكمة فى كل تصرفاته وعلاقته بالناس . وكان يحسب أن صحبة أبيه حرب بن أمية لبشر بن عبد الملك أخى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ستعلى من شأنه فى أعين قومه . ولما قدم بشر إلى مكة وتزوج الصهباء بنت حرب أخته أثلج صدره فما من أحد غيره فى قومه قد ارتبطت الأسباب بينه وبين الملوك !

إنه سافر إلى فارس ودخل على كسرى وعاهد ملوك الحيرة وارتفع شأنه ، و لم يعد فى قريش من ينافسه الزعامة بعد أن مات أبو طالب والزبير ابن عبد المطلب وشيوخ الهاشميين . وقد تأكدت زعامته يوم أن أهدى ملك اليمن عشر جزائر إلى مكة وأمر أن ينحرها أعز قريش ، إنها قدمت وهو عروس بهند بنت عتبة وبلغها ما قال ملك اليمن فقالت له :

ـــ لا يشغلنك النساء عن هذه المكرمة التى لعلها أن تفوتك .

فقال لها :

— يا هذه دعى زوجك وما يختاره لنفسه ، والله ما نحرها غيرى إلا نحرته .

وظلت النحائر فى عقلها حتى خرج فى اليوم السابع وكان ذلك بمثابة تتويجه والاعتراف بزعامته على قريش بلا منازع .

واطمأن إلى السؤدد والسلطان وظن أن الزعامة قد انتزعت من البيت الهاشمى لتستقر فى البيت الأموى ، حتى إذا ما كادت تثبت فى الضمائر هذه الحقيقة قام محمد بن عبد الله يدعو إلى دين جديد ويقول إنه نبى يأتيه الوحى من السماء ، فقام فى وجه دعوته يقاومه فى ضراوة فقد أحس أن شرف النبوة لا يمكن أن يدانيه شرف ، ولو أن هذه الدعوة قد بقيت فى الأرض فلن يدرك بيت — مهما سما — ذلك الشرف الذى ناله البيت الهاشمى ، فأقسم أن لا يؤمن به أبدا ولا يصدقه .

إنه يعلم أن محمدا صدوق لا يكذب ، ولكنه قد جاء أمرا لا يبقى معه شرف . فراح يقاوم دعوته ويؤلب سادات قومه وسفهاءها على الهاشمى الذى سينتزع منه الرياسة والشرف ، فما كان يستطيع بنشأته أن يتصور أن هناك ما وراء الملك وسلطان الأرض .

وأسلمت ابنته أم حبيبة فاستشعر مرارة الخزى والعار ، فدعوة محمد الهاشمى قد دخلت عقر داره ووجدت استجابة من إحدى فلذات كبده ، وزعزع ذلك إيمانه الواهى بعدالة قضيته فلم يشأ أن يخدع نفسه واعترف فى عين ذاته لذاته أنه يقاتل ابن عبد الله حمية وكراهة أن يذهب شرفه .

وهاجرت ابنته أم حبيبة مع من هاجر إلى الحبشة فعادت تؤكد أن حبها الله ورسوله يفوق حبها أهلها وعشيرتها . إنها تركت الأهل والأوطان فرارا

بدينها خشية الفتنة فأعلنت على الملأ أن ما جاء به محمد بن عبد الله يهون فى سبيله الآباء والأبناء ، فجللته مرة أخرى بالعار .

وكان القتال فى بدر وإذا بأبى جهل وعتبة وسادات قريش يلقون مصارعهم ، وإذا بهزيمة حماة البيت تنتشر فى القبائل ، وإذا بالحزن ينزل فى فؤاد أبى سفيان حتى ليكاد أن يمزقه . وفى ظلمات اليأس لمع بصيص من أمل ؛ ارتد عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة عن دين محمد واعتنق النصرانية دين الأحباش . إن هى إلا أيام حتى تعود أم حبيبة إلى دار أبيها باكية نادمة مستغفرة ، وستكون عودتها طعنه قاتلة للدعوة الجديدة . ولكن الأيام مرت والسنين كرت وأم حبيبة هناك فى الحبشة صابرة على دينها قد آثرت العزلة وقطعت عن قلبها جواذب الدنيا لتنجـذب إلى السماء .

وطاف بذهن أبى سفيان بن حرب ما كان بينه وبين محمد وصحبه يوم أحد فهمت نفسه أن تنشرح ، ولكن سرعان ما تذكر تلك الريح التى قلبت قدورهم واقتلعت خيامهم يوم الخندق وذلك الهمس الذى سرى فى ذلك اليوم بين الناس بأن إله محمد قد منعه ، فاضطرب نفسه وخفق قلبه واربد وجهه فغدا يتلفت بعيون زائغة هنا وهناك حتى لا يفطن جالسوه إلى ما يعانى من كرب .

وجاشت الذكريات فى وجدانه وكانت جميعها تخز نفسه وخزا أليما ، فقد أثارتها ابنته أم حبيبة بعد أن جاء من الحبشة من يخبره أن محمدا كتب إلى النجاشى أن يزوجه بنت أبى سفيان وأنها قد وكلت خالد بن سعيد ليزوجها من نبى الإسلام .

وتململ أبو سفيان فى مجلسه فلم يحتمل نار الغيظ التى اندلعت فى

جوفه ، وزاد فى حنقه أن الرسول الذى جاءه من الحبشة أخبره أن ابنته كادت تطير من الفرح لما علمت أن محمد بن عبد الله قد بعث يخطبها ، وأنها أعطت الجارية التى بشرتها سوارين ، وأنها قالت لها بعد أن قبضت الصداق : « كنت أعطيتك السوارين بالأمس وليس بيدى شىء من المال ، وقد جاءنى الله عز وجل بهذا » . فأبت الجارية أن تأخذ شيئا وردت السوارين وقالت : « إن الملك أجزل لها العطاء وأمرها ألا تأخذ من أم المؤمنين شيئا » .

أم المؤمنين ؟! ابنته أم حبيبة تصبح أما لأعدائه ؟ لقد دارت به الأرض لما بلغه النبأ وبذل جهدا عظيما ليبدو هادئا ، ولكن الكلمات فرت من بين شفتيه فقال :

ـــ هذا الفحل لا يجدع أنفه .

* * *

وشرد حكيم بن حزام يفكر وهو حزين ؛ إنه يخشى إن ظهر محمد أن تذهب دار الندوة مكرمة قريش ، إنه صاحبها وقد دخلها وهو ابن خمس عشرة سنة و لم يدخلها أحد من قريش للمشورة حتى يبلغ أربعين سنة .

ورأى الناس يطوفون بالبيت العتيق فامتلأ فؤاده شفقة أن يأتى يوم ينقطع فيه الطواف حول البيت ، ولكن سرعان ما انقشع خوفه لما رن فى أعماق نفسه ما جاء فى قرآن محمد عن الحرم : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » . إنه يوقر البيت وقد جعله قبلة أتباعه ، ولكنه يسفه الآلهة وسائلهم إلى الإله الأعظم .

أيريد محمد أن يكفروا بود وسواع ويغوث ويعوق ونسر واللات والعزى ومناة وهبل وإساف ونائلة ، وأن يؤمنوا بأن لهذا الكون العريض

إلها واحدا لا شريك له وأنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟! إنه لا يستطيع أن يؤمن أن الأجساد تبعث بعد أن تصبح ترابا وعظاما ، وراح ينشد مرثية أهل بدر :

فماذا بالقليب ــ قليب بدر ــ   من « الشيزى » تكلل بالسنام
يخبرنا الرسول : بأن سنحيا   وكيف حياة أصداء وهام

إنه كان يحب محمدا زوج عمته خديجة ، وكان يهرع إلى دار الطاهرة سيدة نساء قريش ليلقى سمعه إلى الأمين قبل أن يزعم أن الخبر يأتيه من السماء ، أما بعد أن قال زوج عمته إنه رسول رب العالمين فقد ابتعد وتبرأ منه ، فما استطاع أن يؤمن أن الله يبعث بشرا رسولا .

* * *

وكان قلب صفوان بن أمية يطفح بالحقد على محمد ؛ إنه لا يستطيع أن ينسى أنه قد وتره وقتل أباه أمية بن خلف يوم بدر وقتل عمه أبيَّ بن خلف يوم أحد ، ولن تخمد النار التي تتلظى في أحشائه قبل أن يدرك منه ثأره ، فوطن النفس على محاربة محمد ولو لم يبق في قريش على عداوته غيره .

كان يحز في نفسه أن الإسلام أخذ يتفشى في قريش وأن بعض الموتورين قد نسوا ثأرهم وخرجوا إلى المدينة وأتوا ابن أبي كبشة وأعلنوا إيمانهم برسالته ، وما كان بقادر على أن يتصور أن أنوار اليقين قد أشرقت في قلوبهم . وكيف لمن أعمى الغضب بصيرته أن ينظر إلى ملكوت السماء ؟

١٤

جلس رسول الله ـــ ﷺ ـــ يحدث أصحابه فألقوا إليه السمع مستبشرين متفرحين فى الله ، فقد أصبحوا يعيشون مع الله وبالله وفى الله ، يستشعرون هدوءا نفسيا وإن كانت أفئدتهم ترتجف فرقا من خشية الله . فقد عرفوا لذة النظر إلى الله والأنس به وتصفية قلوبهم وتزكيتها وجلاءها بذكره ، ففاضت عليهم الرحمة وانشرحت صدورهم ، وأشرقت فيها الأنوار وانكشفت الأسرار وتألقت فيها حقائق الأمور ، فهم على نور من ربهم قد توكلوا على الله وكفى بالله وكيلا .

كانوا يعيشون فى فراغ دينى وفراغ سياسى ليس بينهم إلا الأحقاد والشحناء والبغضاء يخشون أن يتخطفهم الموت ، قد ران عليهم حزن أبدى ، تقشعر جلودهم كلما راودتهم فكرة الفناء ويزيد شقاوتهم ذلك النفور الشديد بين العقل والوجدان ويحرك شجن أصحاب الضمائر الحية منهم ذلك الظلم الذى ينزله الأقوياء بالضعفاء وهضم الأغنياء لحقوق الفقراء . فلما اصطفى الله رسوله وآتاه الحكمة والعلم والكتاب المنير ، وهداهم ربهم إلى الصراط المستقيم إذا بهم يتحررون من الخوف والقلق ورهبة الموت ، فالتعاليم التى تنزل على الرسول من السماء تؤكد لهم أن الدنيا دار ممر وأن الآخرة دار مقر ، فخضدت أشواك الموت وفتحت أبواب الخلود لشباب دائم قرير العين . وكبحت جماح الطغيان ، وبذرت فى سويداء القلوب الحب فحببت الأغنياء فى الفقراء وحببت الفقراء فى الأغنياء ، وقضت على ما كان يمكن أن ينشأ من صراع بين الطبقات .

وكان لهم فى رسول الله أسوة حسنة ؛ إنه يعمل ولكنه لا يعمل لجمع المال بل لإسعاد البشرية جمعاء ، لا فضل لعربى عنده على عجمى إلا بالتقوى . إذا ما حصل على أموال وكثيرا ما أفاء الله عليه فقد كان ينفقها على الفقراء والمساكين لا يدخل بيته إلا بعد أن يتخلص من كل صفراء وبيضاء عنده ، فضمرت النزعات المادية التى كانت تسيطر على المجتمع المكى والمجتمع اليثربى على السواء ، واشتدت الطاقات الروحية الإبداعية فاتسعت منابع الرحمة والعمل الصالح لوجه الله . وكانوا جميعا يعملون بعد أن لقنوا أن العمل عبادة ، ونصرة المظلوم عبادة ، ومساعدة الضعفاء عبادة ، وأن استقبال الناس بالبشر صدقة .

كانت ظلمات الجهل تجثم على يثرب ، وما كان يتنفس فيها إلا أساطير اليهود وبعض قشور من العلم الأول والكتاب الأول ، وكان العرب يرنون إلى ذلك العلم مبهورين . فلما جاء الرسول الكريم إلى المدينة ووضع أسس مجتمع جديد يشرع له رب العالمين إذا بمدينة الرسول تصبح مدينة مثالية تفوق كل المدن الفاضلة التى ما كان لها وجود إلا فى مخيلة طائفة من الفلاسفة الحالمين ، وإذا بملكوت الله الذى ابتهل السيد المسيح فى صلواته أن يأتى قد أصبح حقيقة واقعة فى الأرض يتنزل عليها العلم من العليم والحكمة من أحكم الحاكمين ؛ فإذا برعاة الإبل يتهيأون ليكونوا رعاة الشعوب .

وما كان يستمد سلطانه من ملك عظيم أو إمبراطور جليل بل من رب العالمين ، فكانت كلمته قانونا فما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، وكانت أفعاله سنة ، فهم يقرعون فى المساجد قول الله تعالى : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن

كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾[(١)] . وقد فجّر بأعماله ثورة اجتماعية تدعو إلى مكارم الأخلاق ، وبذر بذور الروحية التى كبحت جماح التحلل الاجتماعى ، وغرس فى النفوس دعائم قوية قادرة على حمل أمانة العمل على نشر دين عالمى رسالته إسعاد البشرية والأخذ بأيدى الناس من غياهب القلق والفناء إلى رحاب الطمأنينة والخلود .

إنه رأى سلمان الفارسى يوم أن كانوا يحفرون الخندق قد عجز عن تحطيم الكدية التى اعترضته فنزل — ﷺ — إليه وأخذ المعول من يده وضرب ضربة فكسر ثلثها ، وبرثت برقة فخرج نور من قبل اليمن كالمصباح فى جوف ليل مظلم فكبر رسول الله وقال : أعطيت مفاتيح اليمن ، ثم ضرب الثانية فقطع ثاثا آخر فخرج نور من قبل الروم فكبر رسول الله — ﷺ — وقال : أعطيت مفاتيح الشام ، ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر وبرق برقة فكبر وقال : أعطيت مفاتيح فارس . وقد بات أصحابه منذ ذلك الوقت يؤمنون أنهم ورثة الفرس والروم .

لقد انبثق من المدينة ضوء وكان رسول الله — ﷺ — وصحبه على ثقة بأن ذلك الضوء سيغمر العالمين ، ولكن جيران المدينة من مكيين وغطفانيين وأسديين ويهود يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . فكان عليه السلام لا ينتظر حتى يفجأه عدوه فى عقر داره ، بل يبعث السرايا شأن القائد المحنك الخبير ليشتت الجموع قبل أن تتحرك ، ويلقى الرعب فى قلوب أعدائه ، فما كان يؤمن بالسلام الموهوم وقد تعلم من القرآن أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض

(١) الأحزاب ٣٣ .

لفسدت الأرض .

صار المسجد ملاذ المؤمنين من الفراغ قد وجدوا فى تعاليم السماء خلاص نفوسهم البشرية ، وكان رسول الله عليه السلام يشعل طاقات إبداعية فى المجتمع الذى كان هاجعا من أمد قريب ، ويرشد الناس إلى الطريق لينكشف للناس باب الفوز الأكبر .

أصبحت القلوب صالحة صافية تطلب الحق قد حسنت صلاتها بالله وبالآخرين ، ولا جرم فرسول الله يعلمهم الجهاد فى الله ليهديهم الله سبله ويقول لهم على الدوام : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . فاستطاع أن يؤلف بين العقل والوجدان ، وأن يقضى على الشعــور بالوحدة ، وأن يجعل للحياة هدفا أسمى من جمع المال وتغذية الحياة المادية وأمجاد الأرض .

وكان رسول الله — ﷺ — يحدث أصحابه والحزن يعتصر فؤاده ، فقد وجد على عاصم بن ثابت وأصحابه أصحاب الرجيع وجدا شديدا ، فقد بعثهم عيونا إلى مكة يتحسسون أخبار قريش ليأتوه بها وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى .

إن عمه العباس بن عبد المطلب كان يبعث إليه بأخبار قريش وكانت خزاعة تحمل إليه أنباء أعدائه ، ولكنه كان يبعث أصحابه ليعرف أخبار مكة التى أبت أن تخلى بينه وبين العرب .

وراح عاصم وأصحابه يسيرون الليل ويكمنون النهار حتى إذا كانوا بالرجيع — وهى ماء لهذيل — نفر إليهم ما يقرب من مائة رام من بنى لحيان فاقتفوا آثارهم حتى وجدوا نوى تمر أكلوه فى منزل نزلوه ، فلما أحس عاصم والذين معه باللحيانيين صعدوا فى جبل هناك فقال لهم اللحيانيون :

— انزلوا ولكم العهد أن لا نقتل منكم أحدا .

فقال عاصم :

— أما أنا فلا أنزل على ذمة وعهد كافر .

فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما وستة منهم ، ونزل إليهم ثلاثة على العهد وهم خبيب وزيد وعبد الله بن طارق ، فلما أمسكوهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوا خبيبا وزيدا وامتنع عبد الله وقال :

— هذا أول الغدر بعهد الله ، لا أصحبكم .

والتفت إلى القتلى وقال :

— إن لى بهؤلاء أسوة .

فعالجوه فأبى أن يصحبهم فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب وزيد ودخلوا بهما مكة فى شهر القعدة فباعوهما بأسيرين من هذيل كانا فى مكة ، فحبس خبيب وزيد إلى أن تنقضى الأشهر الحرم .

فلما انقضت الأشهر الحرم خرجوا بخبيب من الحرم ليقتلوه فى الحل ، فلما قدم للقتل قال لهم : دعونى أصلى ركعتين ، فتركوه فركع ركعتين وقال لهم : والله لولا أن تحسبوا أن ما بى من جزع لزدت . ثم صلبوه ليراه الوارد والصادر فيذهب بخبرها إلى الأطراف ثم قالوا له :

— ارجع عن الإسلام نخل سبيلك وإن لم ترجع لنقتلنك .

قال :

— إن قتلى فى سبيل الله لقليل ، اللهم إنه ليس هنا أحد يبلغ رسولك عنى السلام فبلغه أنت عنى السلام وبلغه ما يصنع بنا .

كان رسول الله جالسا مع أصحابه فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحى فسمعه أصحابه يقول :

— وعليه السلام ورحمة الله وبركاته .

فلما سرى عنه — ﷺ — قال :

— هذا جبريل عليه السلام يقرئنى من خبيب السلام ، خبيب قتلته قريش .

لم ينس نبى الإسلام عليه السلام ما لقى أصحابه من غدر بنى لحيان فأظهر أنه يريد الشام ، وعسكر لغرة هلال شهر ربيع الأول سنة ست من مهاجره فى مائتى رجل معهم عشرون فارسا واستخلف على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم ، ثم أسرع المسير حتى انتهى إلى بطن غُران وبينها وبين عُسفان خمسة أميال حيث كان مصاب أصحابه ، فترحم عليهم ودعا لهم ، فسمعت بهم بنو لحيان فهربوا فى رءوس الجبال فلم يقدر منهم على أحد ، فأقام يوما أو يومين فبعث السرايا فى كل ناحية فلم يقدروا على أحد ، ثم خرج حتى أتى عسفان ، ثم انصرف — ﷺ — إلى المدينة بعد أن غاب أربع عشرة ليلة وهو يقول :

— آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون . أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء النظر فى الأهل والمال .

١٥

ركب أبو ذر راحلته وانطلق فى الفضاء العريض وقد خلف غفار وراءه . إنه خارج إلى مدينة الرسول وقد عزم على أن لا يفارق نبى الإسلام عليه السلام بعد أن فاته خير كثير ، فهو لم يخرج إلى مياه بدر مع البدريين ولم يشهد أول انتصار للمسلمين ، ولم يذب بسيفه عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ يوم أحد ، ولم يعمل فى الخندق مع العاملين . وإن ما نزل من القرآن فى هذه المواقف العظيمة يتراقص على شفتيه ويجعل الدموع تترقرق فى مقلتيه . وراح يرن فى وجدانه قول الله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم » .

وراح أبو ذر يقلب وجهه فى معبد الله وهو مشدوه؛ كانت الروابى والهضاب وسفوح الجبال والشوامخ والشواهق قد كسيت بالنوار الأصفر، وزادها روعة تلك الفضة التى كانت تنسكب على الأرض من القمر الذى اكتمل بدرا، والسماء الصافية الزرقاء التى كانت تلثم عند الأفق البعيد البساط الأصفر الذى يموج باللجين، فامتلأت نفس أبى ذر نشوة، واستشعر أنه قريب من الله قربا بالمعنى والحقيقة والصفقة، وإذا به ينادى بكل وجوده : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ﴾[1] .

* * *

---

(١) آل عمران ١٩١ .

وشرد أبو ذر يتذكر تلك الأيام التى كان يخرج فيها مع رفاقة من غفار ليشن الغارة على القوافل ويقطع الطريق ؛ إنه كان ينقض على المسافرين الآمنين انقضاض الليث على فريسته ، وكان الرفاق الذين يعيشون على السلب يغمرونه بالمديح ولكن كان بين جنبيه قلب متأهب لاستقبال النور ، فما إن مد عينيه إلى مواقع النجوم وفكر فى سر السماوات والأرض حتى اهتدى إلى أن لهذا الكون ربا ، فهجر قطع الطريق وراح يصلى لله ويتوجه حيث وجهه الله ؛ قد استعد لمعرفة ربه بقلبه لا بجارحة من جوارحه .

وقد بلغه أن رجلا ظهر بمكة يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء وأن قومه كذبوه وآذوه ومنعوا الناس عنه فلا يمر به أحد إلا حذروه إياه ، فشد الرحال إلى الحرم ، وقاده على بن أبى طالب إلى حيث كان رسول الله — ﷺ .

ورن فى ضميره صوت النبى عليه السلام وهو يقرأ عليه القرآن ثم قوله له :

— ممن أنت يا أخا العرب ؟

— من غفار .

إنه ليرى وهو يخب على راحلته فى سكون الليل وجه النبى عليه السلام وقد أشرق بابتسامة خفيفة وهو يرفع بصره فيه ويصوبه تعجبا لما كان يعلم من غفار ، وداعب أذنيه قول النبى عليه السلام :

— إن الله يهدى من يشاء .

— إن أحداث تلك الأيام قد حفرت فى عين ذاته ؛ إنه شهد وهو مستريح الضمير أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وإن رسول الله —

ﷺ — قال له :

— يا أبا ذر اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك فإذا بلغك ظهورنا فأقبل .

ولكنه كان واثقا بربه معتزاً بدينه فقال :

— والذى بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم .

وخرج إلى المسجد فقال :

— يا معشر قريش إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

فقاموا إليه ومالوا عليه وضربوه ، وأقبل العباس فأكب عليه ثم أقبل على القوم فقال :

— ويلكم ! تقتلون رجلا من غفار وتجركم وممركم على غفار !

فأقلعوا عنه فذهب إلى زمزم وغسل عنه الدم ، وفى صبيحة اليوم التالى انطلق إلى الحرم ووقف وصاح بأعلى صوته :

— يا معشر قريش .. يا معشر قريش . إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

فقاموا إليه وأشبعوه ضربا فخر مغشيا عليه ، وأقبل العباس يواسيه . العباس ؟! إنه فى حيرة من أمر هذا الرجل ، إنه يخف لتخليص المسلمين من أذى قريش ، وقد خرج مع ابن أخيه يوم العقبة ليأخذ له البيعة من الأنصار ، وإن الرسل لتمشى بينه وبين رسول الله عليه السلام بالأخبار . وقد نهى رسول الله عن قتله يوم بدر !

وراح أبو ذر يتذكر يوم جاء رسول الله — ﷺ — إلى غفار ، فقد خرج الناس لاستقبال الرسول الكريم ، فلما رآه أبو ذر هتف : « هو والله رسول الله » . فقال الجميع فى فرح : « جاء نبى الله » . وجعل الولائد

والصبيان والإماء يقولون : « هذا رسول الله قد جاء » .

ونزل رسول الله عن راحلته وسار أبو بكر معه ، وقد أقبل الناس يسلمون على النبى الحبيب وفى الوجوه استبشار وفى العيون عبرات وفى الصدور فرح فياض . وجلس الرسول عليه السلام وقام أبو بكر يذكر الناس ، ثم قرأ النبى القرآن وراح يدعو الناس إلى الإسلام فأقبلوا يبايعون .

وطلب خفاف بن رحضة الغفارى من النبى — ﷺ — أن يكتب كتابا لقومه ، فكتب عليه السلام لبنى غفار : أنهم من المسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، وأن النبى عقد لهم ذمة الله وذمة الرسول على أموالهم وأنفسهم والنصر على من بدأهم بالظلم ، وأن النبى إذا دعاهم لينصروه أجابوه وعليهم نصره إلى من حارب فى الدين ما بل بحر صوفة ، وأن هذا الكتاب لا يحول دون إثم .

ثم قال عليه السلام : « غفار غفر الله لها » .

ونامت غفار التى كانت تعيش على السطو وقطع الطريق فى رعاية الله ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

* * *

ولاحت المدينة لعينى أبى ذر فخفق قلبه شوقا ، إن هى إلا مرحلة حتى يدخل المدينة التى افتتحت بالقرآن وعمرت بالوحى والتنزيل وتردد بها جبريل وضجت جنباتها بالتقديس والتسبيح وانتشرت منها أنوار اليقين .

إن بين ضلوعه لوعة وصبابة وتشوقا متوقد الجمرات للرسول ومدينة الرسول وأهلها الذين دعا لهم النبى — ﷺ — فقال : « اللهم بارك لهم فى مكيالهم وبارك لهم فى صاعهم ومُدِّهم » .

وورد أبو ذر المدينة فترجل ومشى باكيا فقد بلغ الانفعال غايته ، إنه

يرى مسجد الرسول وإن هى إلا أن يجتاز باب الرحمة حتى يرى محمدا الحبيب . وتقدم على استحياء ودلف إلى المسجد فإذا سوارى من جذوع النخل طرحت عليها العوارض والخصف والإذخر وإذا هو أقل من مائة فى مائة ، وراح يتلفت فى رهبة فإذا برسول الله — ﷺ — جالس فى مجلس المهاجرين عند الأسطوانة التى بعد أسطوانة التوبة إلى الروضة ، وهى عمود من عمد المسجد ارتبط فيه أبو لبانة لما خان الله ورسوله حتى تاب الله عليه .

ووجب قلب أبى ذر ، وسار وهو مأخوذ بروعة اللقاء حتى إذا قام على رأس الجالسين قال :

— السلام عليك يا رسول الله .

ورحب النبى عليه السلام بفتى غفار وجلس أبو ذر يصغى إلى سحر البيان حتى إذا حان أوان الصلاة قام بلال على منارة فى دار حفصة أم المؤمنين يؤذن، فأقبل الناس ليصلوا خلف رسول الله — ﷺ، وقام أبو ذر ليصلى أول صلاة مع نبى الإسلام والمهاجرين والأنصار .

وجاء الليل فانضم أبو ذر إلى أهل الصفة ، وكانوا قوما عاكفين على العبادة قد أعرضوا عن الدنيا وزينتها لا منازل لهم وما لهم مأوى غير المسجد ، يدعوهم الرسول إليه إذا تعشى فيفرقهم على أصحابه وتتعشى طائفة منهم معه ، وقد كان أبو ذر من هذه الطائفة .

وانكف الناس وطرح رسول الله — ﷺ — حصيرا وراء بيت فاطمة ووقف فى المحراب فكان يساره إلى باب عثمان ، وراح يصلى وأبو ذر يرقبه وقد ألقى إليه سمعه فإذا به عليه السلام يقرأ : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك

وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾[1] .

إن رسول الله عليه السلام يركع ويسجد بها طوال الليل حتى أصبح ، فقام أبو ذر إليه فقال :

ــ يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع وتسجد بها .

فقال عليه السلام :

ــ فإنى سألت الله الشفاعة فأعطانيها وهى نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله عز وجل .

وصار أبو ذر يمضى فى المسجد النهار والليل ، يرى على بن أبى طالب وهو يقوم الليل عند الأسطوانة التى خلف أسطوانة التوبة ، فتوطدت بينهما الصداقة وكان حبهما لله وفى الله ، ويصغى إلى أحاديث رسول الله فيمتلئ حكمة ، ويشارك أبا بكر وعمر وعثمان وسلمان وسادات المهاجرين والأنصار مجالسهم فأشرقت أنوار المعرفة فى قلبه فإذا هو على نور من ربه .

وذات يوم دخل عمر المسجد وأبو ذر جالس وحده ، فقال عمر :

ــ لم تجلس وحدك ؟

ــ اجلس ! الصاحب الصالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من صاحب السوء ، ومملى الخير خير من مملى الشر ، والأمانة خير من الخاتم[2] ، والخاتم خير من ظن السوء .

ونال أبو ذر الحظوة عند النبى ــ ﷺ ، فكان عليه الصلاة والسلام

---

(١) المائدة ١١٨ .

(٢) أوهى أثر يظهر .

يبتدئه إذا حضر ويتفقده إذا غاب . وذات يوم أتى أبو ذر رسول الله — ﷺ وهو نائم وعليه ثوب أبيض ، ثم أتاه وقد استيقظ ، فقال الرسول لما رأى أبا ذر :

— ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة .

— وإن زنى وإن سرق ؟

— وإن زنى وإن سرق .

— وإن زنى وإن سرق ؟

— وإن زنى وإن سرق .

— وإن زنى وإن سرق ؟!

— وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبى ذر .

١٦

خرجت قريش يوم الأحزاب وقائدها أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فى بنى فزارة ، والحارث بن عوف بن حارثة المرى فى بنى مرة ، ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع .

وكانت تتبع عيينة بن حصن عشرة آلاف فتاة فكان يعرف بالأحمق المطاع ، فلما اشتد حصار الأحزاب للمسلمين بعث رسول الله ـ ﷺ ـ إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة فى ذلك .

فلما أراد رسول الله ـ ﷺ ـ أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما ، فقالا له :

ـ يا رسول الله أمر تحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟

ـ بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال سعد بن معاذ :

ـ يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة

الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى[١] أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم :

— فأنت وذاك .

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال :

— ليجهدوا علينا .

وهزم الله الأحزاب وحده ، وفتح المسلمون قريظة ، ثم خرج عليه السلام إلى بنى لحيان يطلب بأصحاب الرجيع ، ثم قدم المدينة فلم يقم بها إلا ليالى قلائل حتى أغار عيينة بن حصن فى خيل من غطفان على لقاح[٢] لرسول الله — ﷺ — بالغابة[٣] وفيها ابن أبى ذر وامرأته ليلى ، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة فى اللقاح .

وغدا يريد الغابة سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمى متوشحا قوسه ونبله ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله معه فرس له يقوده . حتى إذا علا ثنية الوداع نظر إلى بعض خيول عيينة والذين معه فأشرف فى ناحية سَلْع ثم صرخ :

— واصباحاه !

ثم خرج يشتد فى آثار القوم وكان مثل السبع حتى لحق بالقوم ، فجعل

---

(١) القرى : ما يصنع للضيف من طعام .

(٢) اللقاح : الإبل الحوامل ذات الألبان .

(٣) الغابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام ، فيه أموال لأهل المدينة .

يردهم بالنبل ويقول إذا رمى :

ـــ خذها وأنا ابن الأكوع ، اليوم يوم الرُّضع[١] .

فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هاربا ، ثم عارضهم فإذا أمكنه الرمى رمى ، ثم قال :

ـــ خذها وأنا ابن الأكوع ، اليوم يوم الرضع .

فيقول قائلهم :

ـــ أَوَ يُكعنا هو أول النهار .

وبلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ صياح ابن الأكوع ، فصرخ فى المدينة :

ـــ الفزع الفزع ! يا خيل الله اركبى .

فترامت الخيول إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، وكان أول من انتهى إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ من الفرسان المقداد بن عمرو حليف بنى زهرة ، ثم كان أول فارس وقف على رسول الله ـــ ﷺ ـــ بعد المقداد من الأنصار عباد بن بشر بن وقش أحد بنى عبد الأشهل ، وسعد بن زيد أحد بنى كعب بن عبد الأشهل ، وأسيد بن ظهير أخو بنى حارثة بن الحارث ، وعكاشة بن مِحْصن أخو بنى أسد بن خزيمة ، ومُحْرز بن نضلة أخو بنى أسد بن خزيمة ، وأبو قتادة الحارث بن رِبْعى أخو بنى سلمة ، وأبو عياش وهو عبيد بن زيد بن الصامت أخو بنى زُريق ، فلما اجتمعوا إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ أمر عليهم سعد بن زيد ثم قال :

ـــ اخرج فى طلب القوم حتى ألحقك فى الناس .

وقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لأبى عياش .

---

(١) الرضع : جمع راضع وهو اللئيم . والمعنى : اليوم يوم هلاك اللئام .

— يا أبا عياش لو أعطيت هذا الفرس رجلا هو أفرس منك فلحق بالقوم ؟

— يا رسول الله أنا أفرس الناس .

ثم ضرب الفرس فوالله ما جرى به خمسين ذراعا حتى طرحه ، فعجب أن رسول الله — ﷺ — يقول لو أعطيته أفرس منك وهو يقول أنا أفرس الناس . فأعطى رسول الله عليه السلام فرس أبى عياش معاذ بن ماعص ، فخرج الفرسان فى طلب القوم حتى تلاحقوا .

وكان أول فارس لحق بالقوم محرز بن نضلة أخو بنى أسد بن خزيمة ، فوقف لهم بين أيديهم ثم قال :

— قفوا يا معشر بنى اللكيعة[1] حتى يلحق بكم من وراءكم من أدباركم من المهاجرين والأنصار .

وحمل عليه رجل منهم فقتله واستلب فرسه ، وتلاحقت الخيل فقتل أبو قتادة الحارث بن ربعى أخو بنى سلمة حبيب بن عيينة بن حصن وغشاه برده ثم لحق بالناس .

واستعمل رسول الله — ﷺ — على المدينة ابن أم مكتوم ، ثم أقبل فى المسلمين فإذا حبيب مسجى ببرد أبى قتادة فقال الناس :

— إنا لله وإنا إليه راجعون . قُتل أبو قتادة .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— ليس بأبى قتادة ولكنه قتيل لأبى قتادة وضع عليه برده لتعرفوا أنه صاحبه .

---

(١) اللكيعة : اللئيمة .

وأدرك عكاشة بن محصن أوبارا وابنه عمرو بن أوبار وهما على بعير واحد ، فانتظمهما بالرمح فقتلهما جميعا واستنقذوا بعض اللقاح .

وسار رسول الله — ﷺ — حتى نزل بالجبل من ذى قَرَد وتلاحق به الناس ، فنزل رسول الله عليه السلام به وأقام عليه يوما وليلة ، وقال له سلمة بن الأكوع :

— يا رسول الله لو سرحتنى فى مائة رجل لاستنقذت بقية السرح وأخذت بأعناق القوم .

فقال له رسول الله — ﷺ — :

— إنهم الآن ليغبقون[1] فى غطفان .

فقسم رسول الله — ﷺ — فى أصحابه فى كل مائة جزورا وأقاموا عليها ، ثم رجع رسول الله — ﷺ — قافلا حتى قدم المدينة .

وأقبلت ليلى امرأة ابن أبى ذر على العضباء من إبل رسول الله — ﷺ — حتى أقبلت عليه فأخبرته كيف فرت من القوم فرغت ، قالت :

— يا رسول الله إنى قد نذرت لله أن أنحرها إن نجانى الله عليها .

فتبسم رسول الله — ﷺ — ثم قال :

— بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها ! إنه لا نذر فى معصية الله ولا فيما لا تملكين ، إنما هى ناقة من إبلى فارجعى إلى أهلك على بركة الله .

---

(١) يغبقون : يسقون اللبن بالعشى .

١٧

لما بنى رسول الله ـــ ﷺ ـــ مسجده بنى بيتين لزوجتيه عائشة وسودة على نعت بناء المسجد من لبن وجريد النخل ، وكان لبيت عائشة مصراع واحد من صاج ، ولما تزوج رسول الله ـــ ﷺ ـــ حفصة بنت عمر بنى لها حجرة ما بين بيت عائشة إلى الباب الذى يلى باب النبى عليه السلام .

وتزوج عليه السلام زينب بنت خزيمة فبنى لها حجرة إلى جوار حجرة حفصة ، وماتت أم المساكين ، فلما تزوج رسول الله ـــ ﷺ ـــ أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب أسكنها حجرة أم المساكين ، فلما تزوج زينب بنت جحش بنى لها حجرة إلى جوار حجرات أمهات المؤمنين . وقد ضرب النبى ـــ ﷺ ـــ الحجرات ما بينه وبين القبلة والشرق إلى الشامى ولم يضربها فى غربيه . وكانت خارجة من المسجد مديرة به إلا من المغرب ، وكانت أبوابها شارعة فى المسجد على أبوابها مسوح من شعر أسود ، وذرع الستر ثلاثة أذرع فى ذراع .

وكان بيت فاطمة خلف بيت النبى ـــ ﷺ ـــ عن يسار المصلى إلى الكعبة ، وكان فيه خوخة إلى بيت النبى ـــ ﷺ . وقد مال إليها رسول الله عليه السلام وأحبها فكان يدخل عليها إذا عاد من سفره ويطيل المكث عندها قبل أن يدخل على أزواجه ، أو ابنته زينب التى عاشت معه سنين بعد أن تركت زوجها أبا العاص بن الربيع ، أو يذهب لزيارة أم كلثوم فى بيت زوجها عثمان بن عفان .

كانت فاطمة شديدة الاعتزاز بأبيها فكانت تتهلل بالفرح إذا ما سمعت

من قائل أن أبناءها أشبه بأبيها ، وكانت تتغنى بذلك إذا ما رقصت أحدهم أو داعبته ، فلم يكن أحب إلى قلبها من أن يقال لها إن أسباط رسول الله يشبهون رسول الله .

وكانت مفطورة على التدين ، ولا جرم فرسول رب العالمين وإمام المتدينين المتقين أبوها ، وأمها خديجة بنت خويلد سيدة نساء قريش وحاضنة الإسلام التي وهبت حياتها وأموالها لإعلاء كلمة الله وبزوغ أنوار اليقين من دارها ، فورثت عن نبي الإسلام إرهاف الحس الديني ، وعن حاضنة الإسلام عمق الإيمان ونصاعة التصديق الذى لا يشوبه شائبة من شك ، فنشأت شديدة التحرج فيما اعتقدته من أوامر الدين .

دخل عليها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأكل عرقا فجاء بلال بالأذان فقام عليه السلام ليصلى ، فأخذت بثوبه فقالت :

— يا أبه ! ألا تتوضأ ؟

— مم أتوضأ يا بنية ؟

— مما مست النار .

— أو ليس أطيب طعامكم ما مست النار ؟

وهمت أن أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء .

وأكرم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاطمة إكراما عظيما ، فقال أكثر من مرة فى أكثر من مناسبة :

— فاطمة سيدة نساء العالمين .

وقال إنها عديلة مريم بنت عمران ، وأنها إذا مرت فى الموقف نادى مناد من جهة العرش :

— يا أهل الموقف غضوا أبصاركم لتعبر فاطمة بنت محمد .

وما أكثر ما قال عليه السلام :

ـــ يؤذيني ما يؤذيها ويغضبني ما يغضبها ، وإنها بضعة مني يريبني ما رابها .

وقد أكل هذا التعظيم والتبجيل قلب عائشة بنت أبي بكر زوج النبي الأثيرة عنده ، ولم يخل قلب فاطمة من الضغن على بنت الصديق . وكان أول بدئه أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ تزوج عائشة عقيب موت خديجة فأقامها مقامها ، فكان ذلك بداية كدر ابنة خديجة وتغير قلبها على عائشة .

كانت فاطمة تكره ميل أبيها إلى امرأة غريبة ، ولما كانت النساء محدثات الليل فقد نجحت الزهراء في أن تنقل ما في قلبها إلى قلب زوجها على بن أبي طالب ، كانت تكثر الشكوى من عائشة حتى إنها طلبت ذات يوم من أبيها أن يسد الخوخة التي كانت بين بيته وبيتها حتى لا ترى عائشة ما يجرى في دارها .

وكان جيران بيتها يأتين لزيارتها فكن ينقلن إليها كلمات عن عائشة ، ثم يذهبن إلى بيت عائشة فينقلن إليها كلمات عن فاطمة ، وكما كانت فاطمة تشكو إلى بعلها كانت عائشة تشكو إلى أبيها لعلمها أنها لا تستطيع أن تشكو فاطمة إلى رسول الله عليه السلام ، فحصل في نفس أبي بكر أثر ما .

وتزايد تقريظ رسول الله عليه السلام لعلى بن أبي طالب وتقريبه واختصاصه فأحدث ذلك حسدا له وغبطة في نفس أبي بكر عنه وهو أبوها ، وفي نفس طلحة وهو ابن عمها ، وهي تجلس إليهما وتسمع كلامهما وهما يجلسان إليها ويحادثانها فأعدى إليها منهما كما أعدتهما .

وكان على عليه السلام ينفس على أبي بكر سكون النبي ـــ ﷺ إليه ،

وثناءه عليه ويحب أن ينفرد هو بهذه المزايا والخصائص دونه ودون الناس أجمعين ، ومن انحرف عن إنسان انحرف عن أهله وأولاده فتأكدت البغضة بين هذين الفريقين .

ثم كان من أمر القذف ما كان ، ولم يكن على عليه السلام من القاذفين ولكنه كان من المشيرين على رسول الله — ﷺ — بطلاقها تنزيها لعرضه من أقوال الشنأة والمنافقين . قال له لما استشاره :

— إن هى إلا شِسْع[1] نعلك .

وقال له :

— سل الخادم وخوفها وإن أقامت على الجحود فاضربها .

وبلغ عائشة هذا الكلام كله وسمعت أضعافه مما جرت عادة الناس أن يتداولوه فى مثل هذه الواقعة ، ونقل النساء إليها كلاما كثيرا عن على وفاطمة وأنهما قد أظهرا الشماتة جهارا وسرا بوقوع هذه الحادثة لها ، فتفاقم الأمر وغلظ .

ثم إن رسول الله — ﷺ — صالحها ورجع إليها ونزل القرآن ببراءتها ، فكان منها ما يكون من الإنسان ينتصر بعد أن قهر ويستظهر بعد أن غلب ويبرأ بعد أن اتهم من بسط اللسان وفلتات القول ، وبلغ ذلك كله عليا وفاطمة فاشتدت الحال وغلظت وطوى كل من الفريقين قلبه على الشنآن لصاحبه .

وذات يوم استدنى رسول الله عليا فجاء حتى قعد بينه وبينها وهما متلاصقان ، فقالت :

---

(١) الشسع : النعل التى تشد إلى زمامها .

— أما وجدت مقعدا لك إلا فخذى ؟

إنها لا تكنى عنه فهيجت ما فى نفس على .

وساير النبى عليه السلام عليا يوما وأطال مناجاته ، فجاءت وهى سائرة خلفهما حتى دخلت بينهما وقالت :

— فيم أنتما فقد أطلتما ؟

فغضب رسول الله — ﷺ — ذلك اليوم ، وغضب على ولا شك وإن كان قد كتم غضبه فى قلبه .

ثم اتفق أن فاطمة ولدت أولادا كثيرة بنين وبنات ولم تلد هى ولدا ، وأن رسول الله — ﷺ — كان يقيم بنى فاطمة مقام بنيه ويسمى الواحد منها « ابنى » ويقول :

— دعوا لى ابنى .. وما فعل ابنى ؟

كان ذلك القول يلسع قلب عائشة فقد حرمت الولد من البعل ، ثم رأت البعل يتبنى بنى ابنته من غيرها ويحنو عليهم حنو الوالد المشفق !

ولم تسغ عائشة مرارة الضرائر ، ولم تسترح من ألم حرمانها الأبناء ، ولم تعوضها كنيتها بأم عبد الله عن الحقيقة الأليمة التى كانت تتجرع غصصها كلما نظرت إلى أبناء الزهراء ، ولم تستطع معرفتها بأنها حبيبة رسول الله أن تمحق تلك الغيرة التى كانت تكابدها من بنت رسول الله عليه السلام ومن بعلها من الضرائر الجميلات وذوات الأحساب .

كانوا بشرا فكانت أفئدتهم تخفق بالغيرة وتشرق فى نفس الوقت بأنوار اليقين ، إنهم يجاهدون بالعبادات لتصفية القلوب وتزكيتها وجلائها ومحو الصفات المذمومة ، فكانوا كثيرا ما يرتفعون ليطرقوا أبواب ملكوت السماوات ولكنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من آدميتهم وما توسوس به

نفوسهم .

كان رسول الله — ﷺ — قدوتهم وكانوا جميعا يحاولون أن يترسموا خطاه ، ولكن أين هم ممن اصطفاه ربه ليبلغ رسالته ويكون أسوة حسنة للمؤمنين ؟ إنهم تعلموا من رسول الله عليه السلام الخير كله ، وإن عبد الله ابن عمر يتبع آثار النبى — ﷺ — فى منازله فهو ينظر ماذا يفعل عليه السلام فى كل أمر ليحاكيه ، وأين صلى ليصلى فى ذات المكان ، وأين وقف يدعو ربه فيقف خاشعا يدعو الله ، وأين جلس يناجى الرحمن فيجلس فى نفس المكان للمناجاة .

ورأى ابن عمر فى نومه كأن بيده قطعة من إستبرق وكأنه لا يريد مكانا من الجنة إلا طارت به إليه ، ورأى كأن اثنين أتياه وأرادا أن يذهبا به إلى النار فتلقاهما ملك فقال :

— لا تُرع .

فخليا عنه .

فذهب إلى أخته حفصة أم المؤمنين وقد وجب قلبه وقص عليها رؤياه وهو يرجو أن تعرف أخته من رسول الله — ﷺ — تأويل ما رأى ، فقصت حفصة على النبى — ﷺ — رؤياه فقال رسول الله — ﷺ — :

— نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل فيكثر .

ولم يدع ابن عمر بعدها قيام الليل فى حله ولا ترحاله .

١٨

كانت المدينة تشرق كل صباح ومساء بوحى السماء ، وكان رسول الله ــ ﷺ ــ منارة النور قد التف حوله رجال يقتبسون منه العلم والحكمة وأضواء الهداية إلى الطريق . وما كانوا رجالا ضعافا يفرون من قيظ الحياة إلى الدعة والطمأنينة والهدوء ، بل كانوا سادات فى قريش وصفوة المدينة التى فتحت أبوابها طائعة لتستقبل الرسول الكريم فى ترحيب وتهليل ، بعد أن فتح القرآن المجيد أفئدتهم لما ألقوا إليه أسماعهم وقد برأت من الحسد نفوسهم ، ورجالا فقراء فى أسمال بالية ولكن بين جوانحهم قلوبا كبيرة تهفو إلى أنوار اليقين . وكانوا جميعا على استعداد لأن يجودوا بأرواحهم وأموالهم وأن يقفوا فى وجه الدنيا بأسرها فى سبيل إعلاء كلمة الحق ، فى وقت كان رسول الله عليه السلام يقول لهم لا أملك لكم نفعا ولا ضرا ولا أدرى ما يفعل بى ولا بكم .

تنازل أبو بكر الصديق عن طيب خاطر عن كل ما كان ينتظره من مجد إذا ما قبل أن يكون سيد بنى تيم بعد أن هلك عبد الله بن جدعان ، وآثر أن يتبع النور وأن ينفق كل ما جناه من تجارته فى سبيل إشراق النور . إنه ما إن ألقى سمعه إلى القرآن حتى انهملت عيناه وتسربل بالخشوع وارتدى بالحزن وتلألأت فى قلبه الأنوار ، فهجر كل مجد ليقفو أثر مجد الله ، فكان الصاحب الأمين ورفيق الهجرة ، وقد جعل حركاته فى تقوى الله ، وجعل الله ثقته ورجاءه فأصبح من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون .

وكان عمر بن الخطاب جبار الجاهلية يصب جام غضبه على المسلمين ، وذات يوم أقسم بآلهته وكل عزيز لديه أن يقتل الصابئ الذى فرق بين الناس فخرج يريد رسول الله عليه السلام ، وفيما هو منطلق والشرر يقدح من عينيه قال له قائل قوم بيتك قبل أن تسفك دم نبى الإسلام عليه السلام . فلما علم أن أخته قد أسلمت ذهب إلى بيت ختنه سعيد بن زيد فسمع همهمة فدخل غاضبا كالعاصفة يسأل عن هذه الهمهمة ، ويضرب أخته ويضرب زوجها . ولما يسيل الدم من رأس أخته تقول فى شجاعة المؤمنين إنها كانت تقرأ القرآن ، فيطلب الصحيفة ليقرأ فيها فتقول له إنه نجس وأن عليه أن يتطهر قبل أن يمس كلام الله . ويخضع الجبار لامرأة مسلمة منحها الإسلام مضاء عزيمة انهارت أمامها عزيمةابن الخطاب ، ودخل ليتطهر ثم خرج يقرأ فى الصحيفة آيات الذكر الحكيم فإذا بدواء القرآن يشفى داء قلبه ، وإذا بالكفر يتبخر من نفسه ، وإذا بجذور الضلال تقتلع من أعماقه ، وإذا بالغى يجتث من عين ذاته ، وإذا بالزيت الذى فى مشكاة قلبه يضىء ويصبح نورا على نور ، فيخرج من دار أخته يسأل عن رسول الله ﷺ — لا ليهريق دمه بل ليعلن إسلامه وتصديقه لرسالة الرسول ويصغى إلى الذكر الحكيم ، فقد هدى إلى الصراط المستقيم .

وكان عثمان بن عفان يغدو ويروح بين أسواق الروم وأسواق الفرس وأسواق العرب ليجمع الأموال التى يشرف بها الرجال فى قريش ، وقد صار من أغنياء الأمويين يعيش فى أمن ودعة وسلام . ولكن ما إن مس أذنيه القرآن المجيد حتى تفتح له فؤاده وانشرح له صدره فآمن برسالة النبى عليه السلام وهانت الدنيا فى عينيه ، وذاق حلاوة الإيمان والأنس برب العالمين ، وتحمل اضطهاد عمه الحكم بن العاص فى صبر حتى إذا ما نفد

صبره هاجر إلى الحبشة فرارا بدينه وقد ترك أمواله وهجر تجارته ورحمة ربك خير مما يجمعون .

وتفتح قلب الصبى على بن أبى طالب على القرآن العظيم فعلم أنه الناصح الذى لا يغش ، والهادى الذى لا يضل ، والمحدث الذى لا يكذب . وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان : زيادة فى هدى أو نقصان من عمى ، وعلم أنته ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد قبل القرآن من غنى ، فاستشفه من أدوائه ، واستعان به على لأوائه ، وكرس حياته ليكون ربيبه ، واستعد ليبذل روحه فى سبيله .

وبلال بن رباح عبد بنى جمح الحبشى يصغى ذات يوم إلى رسول الله عليه السلام وهو يتلو بعض ما أنزل إليه من ربه ، فإذا بنور الله يستقر فى سويداء قلبه فينقلب العبد الذليل إلى حر طليق وإن كان لا يزال فى الأرض من طبقة العبيد . إنه فى قرارة نفسه قد خلع كل عبودية إلا عبوديته لله وحده ، فلما عرف إسلامه وعذب أشد العذاب كان نشيده : أحد .. أحد ، وصبر على العذاب حتى إن ساداته فى الأرض راحوا يلتمسون منه أن يذكر آلهتهم بكلمة خير ليطلقوه فكان يقول : إن لسانى لا يحسنه .

كانت آيات الله البينات النور الذى اتبعه ، الفصل بين الضلال والهدى ، فلم يغفل منذ أن أسلم عن قراءة القرآن صباحا ومساء فأحيا موات قلبه وأكسب ذاته عمقا وخصبا وثراء ، وبات لا يخشى العالم ، وكيف يخشى الناس وهو يحس بكل وجوده أنه مع الله وأن الله معه ؟!

وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، شباب قريش وفخر بيوت شرفها ما إن أعاروا رسول الله عليه السلام سمعهم وأنصتوا إلى كلام الله حتى انبلجت لقلوبهم

الحقيقة فأشرقت بالأنوار ، وهجروا كل مباهج الدنيا فى سبيل وجه الله ، وعكفوا على قراءة القرآن ففاضت عيونهم بالدمع و لم يروا أن أحدا أوتى أفضل مما أوتوا ، فصبروا فى الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وضحوا بالأموال وراحة البال فى سبيل سعادة البشر .

وكان مصعب بن عمير أعطر أهل مكة ، ما من فتى بمكة أنعم عند أبويه منه . كان مدللا يرفل فى الحرير ولكنه كان يهاب أمه خناس بنت مالك فقد كانت صاحبة شخصية قوية ترهب كل الناس .

وسمع مصعب أن محمد بن عبد الله يدعو فى دار الأرقم إلى دين جديد فذهب إلى الصفا واستأذن فى الدخول فأذن له ، فجلس يصغى إلى ما يقرأ رسول الله عليه السلام من آيات الله البينات ، فإذا بفؤاده يتألق بالنور ، وإذا بصدره ينشرح للإسلام ، فيبسط يده ليبايع رسول الله عليه السلام — ويعلن وهو متفرح فى الله إسلامه .

ومنذ ذلك اليوم لم يستطع صبرا عن رسول الله عليه السلام فكان يأتيه ليلقى إليه سمعه ليسعد بعذوبة القرآن . فأمسى يقوم الليل إذ الناس نائمون ، ويصوم النهار إذ الناس مفطرون ، ويغمره الحزن إذ الناس يفرحون ، ويجهش بالبكاء إذ الناس يضحكون ، ويمتلئ بالخشوع إذ الناس يختالون .

وأبصر به عثمان بن طلحة وهو يدخل خفية إلى دار الأرقم ، ثم رآه يصلى مع المسلمين فطار إلى أم مصعب وألقى إليها نبأ إسلام ابنها فثارت وحاولت أن تثنى ابنها عن الدين الذى دخل فيه ، ولكن محاولاتها باءت بالإخفاق فما كان القلب الذى عرف النور ليرضى بالعودة إلى الظلمات ، فاستعانت خناس بنت مالك بعشيرتها وحبست ابنها فى ركن من الدار إلى

أن يعود الصابىء إلى دين آبائه وقومه .

واشتد إيذاء قريش للمسلمين ففروا بدينهم إلى الحبشة ، وغافل مصعب أمه وحراسه ولحق بإخوانه المهاجرين وقد خفف من لوعته على فراق الأهل والأوطان أنسه بالله وتلاوته القرآن العظيم .

وعاد بعض مهاجرى الحبشة إلى مكة وعاد مصعب مع العائدين ، ودخل على أمه وهو يرجو أن يشرح الله صدرها للإسلام فراح يتلو عليها القرآن . ولكن لا تعمى العيون ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور فأصرت على الكفر والضلال .

و لم يقنط فقال لها وهو يحاورها :

ـــ يا أمه ، إنى لك ناصح وعليك شفوق فاشهدى أنه لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

فلجت فى الكفر وأعرضت عنه فآثر مصعب نور الله على حياة الدعة ورغد العيش، فتركها وخرج وهو سعيد بما يحمل من قرآن عظيم، وانطلق إلى يثرب ليفقه الأنصار الذين بايعوا رسول الله عند العقبة فى الدين.

وجاء أبو ذر من غفار يسعى إلى مكة ليقابل ذلك الرجل الذى يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء . فما إن ألقى سمعه إلى نبى الإسلام عليه السلام وهو يتلو بعض آيات الذكر الحكيم حتى أشرق النور فى فؤاده وانشرح صدره وانكشف له سر الملكوت . إنه جاء يطلب الهداية فعاد إلى غفار وهو يحمل النور ويتلو ما حفظ من الكتاب المنير ، فطوبى لأمة ينزل عليها هذا ! وطوبى لأجواف تحمل هذا ! وطوبى لألسنة تنطق بهذا !

وقدم الطفيل بن عمرو الدوسى مكة وكان رجلا شريفا شاعرا لبيبا ، فمشى إليه رجال من قريش فقالوا له :

— يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا .

فما زالوا به حتى أجمع أن لا يسمع منه شيئا ولا يكلمه حتى حشا فى أذنيه حين غدا إلى المسجد قطنا فرقا من أن يبلغه شىء من قوله وهو لا يريد أن يسمعه ، فغدا إلى المسجد فإذا رسول الله — ﷺ — قائم يصلى عند الكعبة فقام منه قريبا ، فأبى الله إلا أن يُسمعه بعض قوله فسمع كلاما حسنا فقال فى نفسه :

— واثكل أمى ، والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته .

فمكث حتى انصرف رسول الله — ﷺ — إلى بيته فاتبعه ، حتى إذا دخل بيته دخل عليه فقال :

— يا محمد إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف[1] لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك فسمعته قولا حسنا ، فاعرض على أمرك .

فعرض عليه رسول الله — ﷺ — الإسلام وتلا عليه القرآن فأحس كأن الجهل الذى ران على قلبه قد كشط ، وأنه ينظر إلى ملكوت السماء بعد أن هبت عليه نسائم الألطاف . إنه وهو الشاعر اللبيب لم يسمع قولا

---

(١) بقطن

قط أحسن مما يتلوه رسول الله عليه السلام فأسلم وشهد شهادة الحق ورجع إلى دوس ليفتحها للإسلام بالقرآن المجيد .

ولقى رسول الله — ﷺ — عند العقبة رهطا من الخزرج فقال لهم :

— من أنتم ؟

— نفر من الخزرج .

— أمن موالى يهود ؟

— نعم .

— أفلا تجلسون أكلمكم ؟

— بلى .

فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فأحسوا كأنما جعل الله لهم نورا يمشون به فى الناس ، فصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا :

— إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله — ﷺ — ودعوهم إلى الإسلام وتلوا عليهم القرآن ، فأشرقت أنوار المعارف فى قلوبهم وارتفعت عنها الحجب بلطف من الله تعالى فامتلأت صدورهم بأنوار اليقين ، وفشى الإسلام فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله — ﷺ .

قام محمد بن عبد الله — ﷺ — فى مكة وحده أعزل من كل سلاح إلا سلاح القرآن ، يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ويتلو

عليهم ما أنزل عليه من ربه ، فلما سمع أولو الألباب آيات الله البينات فاضت عليهم الرحمة وأشرق النور فى أفئدتهم وتلألأت فيها حقائق الأمور فأعرضوا عن زخرف الحياة الدنيا وأقبلوا بكنه الهمة على الله فكانوا لله وكان الله لهم .

فتح عليه السلام القلوب المغلقة بالقرآن ، وما إن سمعت المدينة آيات الذكر الحكيم حتى فتحت أبوابها للوافد الكريم خاتم المرسلين . ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون * هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[1] .

---

(١) الحشر ٢١ — ٢٤ .

١٩

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . إنه منح من السخاء والجود ما فاق به كل جواد ، وقد فتح الله له حصون اليهود وأنفله قوافل قريش فما اقتنى دينارا ولا درهما . لا يأكل إلا الغليظ من الطعام ولا يلبس إلا الخشن ويصبر على الجوع .

وكان ـــ ﷺ ـــ إذا سئل وهو مُعدِم وعد لم يرد وانتظر ما يفتح الله . إنه كان جالسا فى مسجده فجاء رجل إليه يسأله ولم يكن عنده ما يعطيه فقال :

ـــ اجلس سيرزقك الله .

ثم جاء آخر ثم آخر فقال لهما :

ـــ اجلسا .

وجلس الرجال الثلاثة وقد مالت الشمس للغروب ، فجاء رجل بأربع أواق فأعطاه إياها وقال :

ـــ يا رسول الله هذه صدقة .

فدعا الأول فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثانى فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية ، وبقيت معه أوقية واحدة فعرض بها للقوم فما قام أحد . فلما كان الليل دخل بيت عائشة ووضع الأوقية تحت رأسه وفراشه عباؤه فجعل لا يأخذه النوم فيرجع فيصلى ، فقالت له عائشة :

ـــ يا رسول الله حل بك شيء ؟

ـــ لا .

— فجاءك أمر من الله ؟

— لا .

— إنك صنعت منذ الليلة شيئا لم تكن تفعله .

فأخرج الأوقية وقال :

— هذه التي فعلت بى ما ترين ، إنى خشيت أن يحدث أمر من الله و لم أمضها .

و لم تعجب عائشة فهى تعرف إرهاف حسه وكرمه وجوده وخشيته من الله ، إنه يقول :

— أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن ترك دينا فعلى ، ومن ترك مالا فلورثته .

وكان أصحابه يحبونه حبا يفوق حبهم أهليهم وأبناءهم ، ويطيعونه طاعة لم ير ملك ولا حاكم مثلها من رعاياه وشعبه مهما بلغ حب الشعب إياه ، ولا جرم فقد كان رسول الله ﷺ — على خلق عظيم يأتيه الوحى من السماء . ولم يمنع ذلك الحب والتبجيل أصحابه من أن يسألوه عن أشياء التماسا لطمأنينة النفوس . قالت له الأنصار يوم بدر وقد نزل بمنزل لم يستصلحوه :

— أنزلت هذا المنزل عن رأى رأيت أم بوحى أوحى إليك ؟

قال :

— بل عن رأى رأيته .

قالوا :

— إنه ليس لنا بمنزل ، ارحل عنه .

ورحل عنه ونزل إلى حيث أشار أصحاب المكيدة والحرب .

وقال له سعد بن معاذ وسعد بن عبادة يوم الخندق وقد عزم على مصالحة غطفان ببعض تمر المدينة .

ــ قالا :

ــ لا والله لا نعطيهم منها تمرة واحدة وأيدينا فى مقابض سيوفنا !

ولم يغضب لأنهما خالفا رأيه وما أشار به بل نزل على مشورتهما وهو راضى النفس ، حتى جاء الله بالنصر .

وكان عليه السلام يمقت الظلم فيقول : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة . وكان يقول : الظلم ظلمات يوم القيامة .

إنه عليه السلام سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال :

ــ إنما أنا بشر وإنه يأتى الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها .

وعلى الرغم من مقته للظلم والظالمين فإنه كان يحب أن يخرج الناس عن ظلمهم فيقول :

ــ من كانت له مَظلَمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلّله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم . إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه .

وكان ــ ﷺ ــ يتلو ما أنزل إليه من ربه : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون

فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور * ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾[1] .

وكان عليه الصلاة والسلام يحاول بكل ما أوتى من عزم أن يعطى كل ذى حق حقه وأن يرسى فى الأرض أسس العدل ، فقد كان للأشعث بئر فى أرض ابن عم له فاختصما إلى رسول الله عليه السلام ، فقال — ﷺ — لأشعث :

— شهودك ؟

— ما لى شهود .

— فيمينه .

قال أشعث :

— يا رسول الله إذًا يحلف .

وخشى رسول الله عليه السلام أن يحلف معدان بن الأسود ابن عم أشعث يمينا فاجرة يذهب بها حق صاحب الحق ، فقال :

— من حلف على يمين يقتطع بها مال امرىء هو عليها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان . فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾[1] .

ولم يكن عليه السلام يقف عند حقوق الناس بل كان يحض على توفير حقوق الأبدان بله الآبار والطرق والأرضين . كان يقول : إن لبدنك

---

(١) الشورى ٤٠ — ٤٤ .

(٢) آل عمران ٧٧ .

عليك حقا . وقال للأنصار :

ـــ إياكم والجلوس على الطرقات .

فقالوا :

ـــ ما لنا بد ، إنما هى مجالسنا نتحدث فيها .

ـــ فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها .

ـــ وما حق الطريق ؟

ـــ غضن البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

وكان ـــ ﷺ ـــ يقول : إماطة الأذى عن الطريق صدقة .

وجلس ذات يوم يحدث أصحابه قال :

ـــ بينا رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل :

« لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى » .

فنزل البئر فملأ خفه ماء فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له .

قالوا :

ـــ يا رسول الله وإن لنا فى البهائم لأجرا ؟

ـــ فى كل ذات كبد رطبة أجر .

وكان أصحاب الرسول عليه السلام يزرعون الأرض بالثلث والربع والنصف ، فقال النبى ـــ ﷺ :

ـــ من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ، فإن أبى فليمسك أرضه .

وكان عليه السلام يحض أصحابه على العمل فيقول : إن الإنسان

ليؤجر إن قامت الساعة وفى يده عمل فأتمه . ويقول : إن الإيمان هو العمل ، بل ذهب إلى أن الإنسان يعمل فى الآخرة . إنه كان يوما يحدث وعنده رجل من أهل البادية فقال :

ـــ إن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه فى الزرع فقال له : ألست فيما شئت ؟ قال : بلى . ولكنى أحب أن أزرع . فبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال ، فيقول الله تعالى : دونك يابن آدم فإنه لا يشبعك شىء .

فقال الأعرابى :

ـــ والله لا تجده إلا قرشيا أو أنصاريا فإنهم أصحاب زرع ، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع .

فضحك النبى ـــ ﷺ .

وإنه ـــ ﷺ ـــ جاء ليتمم مكارم الأخلاق ، فكان يوصى الإنسان بوالديه إحسانا . وقد سأله ذات يوم عبد الله بن مسعود كاتم سره :

ـــ أى العمل أحب إلى الله ؟

ـــ الصلاة على وقتها .

ـــ ثم أى ؟

ـــ ثم بر الوالدين .

ـــ ثم أى ؟

ـــ الجهاد فى سبيل الله .

وجاء رجل إلى رسول الله عليه السلام فقال :

ـــ يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟

ـــ أمّك .

— ثم من ؟
— أمّك .
— ثم من ؟
— أمّك .
— ثم من ؟
— ثم أبوك .
وقال رجل للنبى — ﷺ — :
— أجاهد .
— لك أبوان ؟
— نعم .
— ففيهما فجاهد .
وقال رسول الله — ﷺ — :
— إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه .
— يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟
— يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه .
وقال رسول الله — ﷺ — لأصحابه :
— ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟
— بلى يا رسول الله .
— الإشراك بالله وعقوق الوالدين .
وكان متكئا فجلس فقال :
— ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور .
فما زال يقولها حتى قيل لا يسكت .

وجاءت إلى أسماء بنت أبى بكر أمها وكانت مشركة ، فذهبت أسماء إلى رسول الله — ﷺ — فقالت :

— آصلها .

— نعم .

فأنزل الله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾[1] .

وجاء أعرابى إلى النبى — ﷺ — وكان عنده الحسن بن على ، فقبل رسول الله عليه السلام الحسن فقال الأعرابى :

— تقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم .

فقال النبى — ﷺ — :

— أوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟

وكان عليه السلام يرى أن حسن العهد من الإيمان . إنه كان يذكر خديجة بنت خويلد حاضنة الإسلام على الدوام . وكان إذا ذبح الشاة يهدى أحباءها منها حتى إن عائشة أم المؤمنين كانت تقول :

— ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، وقد هلكت قبل أن يتزوجنى بثلاث سنين لما كنت أسمعه يذكرها .

وكان عليه السلام يقول :

— من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله

---

(١) الممتحنة ٩ .

واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت .

ويقول :

ـــ والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن .

قيل :

ـــ من يا رسول الله ؟

ـــ الذى لا يأمن جاره بوائقه .

وقال عليه السلام :

ـــ ما زال يوصيني جبريل بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .

وكان يعلم أصحابه أن الكلمة الطيبة صدقة ، وأن الله يحب الرفق فى الأمر كله ، وأن من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ، ولم يكن عليه السلام فاحشا ولا متفحشا وكان يقول :

ـــ إن من أخيركم أحسنكم خلقا .

واستأذن رجل على النبى ـــ فلما رآه قال :

ـــ بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة .

فلما جلس تطلّق النبى ـــ ﷺ ـــ فى وجهه وانبسط إليه ، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة :

ـــ يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ، ثم تطلّقت فى وجهه وانبسطت إليه .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ يا عائشة متى عهدتنى فحاشا ؟ إن شر الناس منزلة يوم القيامة من

تركه الناس اتقاء شره .

كان عليه السلام أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قِبَل الصوت فاستقبلهم النبى — ﷺ — قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول :

— لن تراعوا ، لن تراعوا .

وهو على فرس لأبى طلحة عرى ما عليه سَرْج فى عنقه سيف ، فقال :

— لقد وجدته بحرا(١) .

وما سئل عليه السلام عن شىء قط فقال لا ؛ فقد جاءت امرأة إليه ببردة فقالت :

— يا رسول الله أكسوك هذه .

فأخذها النبى — ﷺ — محتاجا إليها فلبسها ، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال :

— يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها .

— نعم .

فلما قام النبى — ﷺ — لامه أصحابه قالوا :

— ما أحسنت حين رأيت النبى — ﷺ — أخذها محتاجا إليها ثم سألته إياها ، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئا فيمنعه .

— رجوت بركتها حين لبسه النبى — ﷺ — لعلى أكفن فيها .

وخدم أنس النبى — ﷺ — فما قال له أف ! ولا لم صنعت ؟ ولا ألا صنعت ؟ وكان عليه السلام فى مهنة(١) أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى

---

(١) أى واسع الجرى مثل البحر .

(٢) خدمة .

الصلاة ، وكان يقول :

ـــ لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله ، حتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله ، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وكان ينهى أصحابه عن الظن فيقول :

ـــ إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث . ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ، وكونوا عباد الله إخوانا .

وكان عليه السلام متواضعا لله وأشد الناس خشية لله ، وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، فإذا رأى شيئا يكرهه عرف فى وجهه ، وكان يقول :

ـــ الحياء لا يأتى إلا بخير .

وقد مر على رجل وهو يعاتب أخاه فى الحياء يقول :

ـــ إنك لتستحى ، قد أضر بك .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ دعه فإن الحياء من الإيمان .

وكان عليه السلام يحب التخفيف واليسر على الناس ، وقد قالت عائشة أم المؤمنين :

ـــ ما خير رسول الله ـــ ﷺ ـــ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم لنفسه فى شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم بها الله .

وكان يقول :

ـــ يسروا ولا تعسروا ، وسكنوا ولا تنفروا .

وبال أعرابى فى المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به ، فقال لهم رسول الله — ﷺ :

— دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبا[١] من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين و لم تبعثوا معسرين .

وأخبر عليه السلام أن عبد الله بن عمرو يقوم الليل ويصوم النهار ، فدخل عليه فقال :

— ألم أُخبَر أنك تقوم الليل وتصوم النهار !

— بلى .

— فلا تفعل ، قم ونم وصم وأفطر ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزورك[١] عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا .

وكان عليه السلام يقول :

— ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس .

مر رجل على رسول الله — ﷺ — فقال لرجل عنده جالس :

— ما رأيك فى هذا ؟

— رجل من أشراف الناس ، هذا والله حرى إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع .

فسكت رسول الله — ﷺ ، ثم مر رجل آخر فقال رسول الله ﷺ :

— ما رأيك فى هذا ؟

— يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين . هذا حرى إن خطب

---

(١) أى لزائرك وضيفك .

ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا .

وبينا الصحابة جلوس مع النبى — ﷺ — فى المسجد دخل رجل على جمل فأناخه فى المسجد ثم عقله ، ثم قال لهم :

— أيكم محمد ؟

والنبى — ﷺ — متكئ بين ظهر انيهم فقالوا :

— هذا الرجل الأبيض المتكئ .

فقال له الرجل :

— ابن عبد المطلب .

فقال له النبى — ﷺ — :

— قد أجبتك .

— إنى سائلك فمشدد عليك فى المسألة ، فلا تجدْ علىَّ فى نفسك .

— سل عما بدا لك .

— أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟

— اللهم نعم .

— أنشدك بالله آلله أمرك أن نصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة ؟

— اللهم نعم .

— أنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة ؟

— اللهم نعم .

— أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فنقسمها على فقرائنا ؟

— اللهم نعم .

— آمنت بما جئت به .

وأتى عتبان بن مالك ، وهو من أصحاب رسول الله — ﷺ — ممن شهد بدرا من الأنصار ، رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله قد أنكرت بصرى وأنا أصلى لقومى ، فإذا كانت الأمطار سال الوادى الذى بينى وبينهم لم أستطع أن آتى مسجدهم فأصلى بهم ، ووددت يا رسول الله أنك تأتينى فتصلى فى بيتى فأتخذه مصلى .

فقال له رسول الله — ﷺ — :

— سأفعل إن شاء الله .

فغدا رسول الله — ﷺ — وأبو بكر حين ارتفع النهار ، فأستاذن رسول الله — ﷺ — فأذن له ، فلم يجلس حين دخل البيت ، ثم قال :

— أين تحب أن أصلى من بيتك ؟

فأشار له إلى ناحية من البيت ، فقام رسول الله — ﷺ — فكبر ، فقاموا فصفهم فصلى ركعتين ثم سلم .

وحبسوه على خزيرة(١) صنعوها له ، فجاء فى البيت رجال من أهل الدار ذوو عدد فاجتمعوا فقال قائل منهم :

— أين مالك بن الدُّخشن ؟

فقال بعضهم :

— ذلك منافق لا يحب الله ورسوله .

فقال رسول الله — ﷺ — :

---

(١) الحساء من الدسم والدقيق .

— لا تقل ذلك ، ألا تراه قد قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله ؟

— الله ورسوله أعلم ، فإنا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين .

قال رسول الله — ﷺ :

— فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله .

كان رقيق القلب على خلق عظيم فتعلقت به القلوب وهفت إليه :

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾(١) .

---

(١) آل عمران ١٥٩ .

٢٠

كان القرآن المجيد ينزل على رسول الله ــ ﷺ ــ فيشرع للناس عباداتهم وسلوكهم ويقود حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ويغرس فى نفوسهم عقيدة سمحة تحكم الوجدان وواقع الحياة ، فصار الدين نبض المدينة وروح مجتمعها وباعث نشاطها الحى الخلاق .

وصار القرآن مصدر كل حركة والإشعاع الذى تقتبس منه الأفئدة النور الذى يرشدها إلى طريق الرشاد فى الدنيا والآخرة : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما * وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾[١] .

وأصبح القانون الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو الشريعة التى يتبعها المسلمون ، فإذا بالمجتمع القبلى الذى كان يسوده الفردية والتباغض والتشاحن يغدو أمة متماسكة انبعثت فى أبنائها يقظة روحية ويقظة فكرية فتحت القلوب لأنوار اليقين ، فظهرت ينابيع الحكمة فى الأفئدة على الألسن وفى السلوك .

---

(١) الأحزاب ٣٥ ــ ٣٦ .

وقد نجح وحى الله فى أن يكون فى بضع سنين مجتمعا متكاملا غاية التكامل ناضجا غاية النضج ، لم تعرف له طفولة أو شباب بل فحولة بلغت غاية رشدها العقلى ورشدها الروحى . ولا غرو فما كان مجتمعا من صنع البشر يحتاج فى تطوره إلى أجيال وقرون بل كان من صنع الله الذى أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون .

عدَّل كتاب الله المناخ التفكيرى للمؤمنين وقضى على كل صراع بين منطق البيئة وشريعة الله لمن شاء أن يستقيم . كانت يثرب موئل صاحبات الرايات الحمر وكان شباب الجزيرة العربية وشيوخها الماجنون يشدون إليها الرحال لينعموا بالبغايا من سادات الأوس والخزرج وبنات اليهود ، فنزل القرآن الكريم يحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن فاقتلعت ثقيفة صاحبات الرايات الحمر واجتثت من المدينة عادة إكراه السادات إماءهم على البغاء رجاء عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم .

وكانت القوافل تأتى بالخمور من الشام وما كان مجلس من مجالس العرب يخلو من الشراب ، وكان شعر الشعراء حتى المسلمين منهم يفيض بالخمريات ، فلما أنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾[1] . كسر المسلمون دنان الخمر وأهريقت فى الطريق فجرت فى طرقات المدينة أنهارا ، وحرمت على المؤمنين .

وكانت البيئة تحتقر المرأة لا تستنكر وأدها صغيرة ولا طردها من البيت

---

(١) المائدة ٩٠ .

زوجة فى المحيض : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم *يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾[١] . فجاء القرآن ليرد للمرأة كرامتها فى عالم لا يعرف لها كرامة : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾[٢] . ولم يكن لها حق الملك ولا التصرف فيما تملك ، وما كانت تورَّث فما كانت تقاتل فى سبيل شرف القبيلة فجاء الكتاب المنير ليقرر لها حقوقا رغم أنف العرف والتقاليد وما جبلت عليه البيئة : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾[٣] .

وكان الكرم للزهو والفخر والأحاديث والذكر وما كان ينبع من وجدان حى ، وما كان الأغنياء يتصورون أن للفقراء حقا معلوما فى أموالهم ، وما خطر لهم على قلب أن الأموال التى يخزنونها مال الله وأنهم مستخلفون فيها ، فجاء القرآن يشرع لهم فى أعز ما يملكون ، فى زينة الحياة الدنيا ، فقبلوا ما جاء من عند الله طائعين دون صراع بين الطبقات ودون حمامات من الدم لانتزاع الحقوق : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دُولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾[٤] .

وقد حضهم رسول الله — ﷺ — على العمل وفتح لهم أبواب التجارة

---

(١) النحل ٥٨ — ٥٩ .　　(٢) النساء ٧ .

(٣) آل عمران ١٩٥ .　　(٤) المائدة ٥ .

وقال : تسعة أعشار الرزق فى التجارة فترك لهم حرية العمل دون أن يخشى استبداد الأموال فى تسير دفة الحكم ، فقد نظم الله للمجتمع العملاق الذى أقامه فى المدينة طريقة التصرف فى ثمرة العمل ، فزين للمسلمين الإنفاق : ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾(١) . ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾(٢) . ووعد الذين يكنزون الذهب والفضة بعذاب أليم : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾(٣) .

وفرض على الأغنياء الزكاة : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾(٤) . ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾(٥) ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ﴾(٦) ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾(٧) .

وإن الله قد أوحى إلى رجال المدينة الفاضلة التى أقامها فى الأرض فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾(٨) . ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾(٩) .

---

(١) إبراهيم ٢١ (٢) البقرة ٢١٩ . (٣) التوبة ٢٤ — ٢٥
(٤) التوبة ١٠٢ (٥) الأعلى ١٤ . (٦) فاطر ٦٨ .
(٧) النور ٣٧ — ٣٨ (٨) الأنبياء ٧٣ (٩) النور ٢١ .

وشرع نظام التوريث لتفتيت الثروات لكيلا يتكدس المال فى أيدى قلة من الأغنياء فيتعطل عن تأدية رسالته : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما * ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين مضار وصية من الله والله عليم حليم * تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم * ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين ﴾(١) .

وكان منطق البيئة أن تكون الكلمة العليا لزعيم القبيلة يحكم فى الناس حسب هواه أو حسب العرف والتقاليد إن أراد أن يعرف عنه العدل بين الناس ، فجاء الإسلام وركنه الأول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فبدأ بنفى الربوبية عن كل خلقه ليثبتها لله وحده فصار للناس

---

(١) النساء ١١ — ١٤ .

إله واحد وسيد واحد له وحده حق التشريع ورسم منهج الحياة لعباده ؛ وشهادة أن محمدا رسول الله هى شهادة تصديق بأن الأوامر والنواهى التى جاءت فى القرآن العظيم هى من عند الله ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾(١) . فلم يكن منطق البيئة ليحول بين شهادة الحق وأفئدة الناس فتحرروا من اتخاذ بعضهم لبعض أربابا و لم يشهدوا إلا بربوبية الله وحده لا شريك له .

وكانوا ينظرون إلى ساداتهم نظرة إجلال وإكبار يقيسون عظمتهم بمقدار ما عندهم من أموال أو لهم من نفوذ ، حتى إذا ما نزل القرآن على رسول الله — ﷺ — أظهروا العجب . ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾(٢) .

وكانت البيئة لا تقر زواج العبد من سيدة شريفة ، وكانت ترى فى مثل ذلك الزواج ثلما للشرف وجرحا للكرامة وعارا تحمله الأجيال ، ولما كان رب الناس خالق البشر يريد أن يرسى قواعد حقيقة أن الناس سواسية وأنهم لآدم وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، فقد أمر رسوله أن يزوج ابنة عمته زينب بنت جحش الشريفة التى تزهو بنسبها إلى عبده زيد ابن حارثة . فلما أرسل عليه السلام إلى أهلها يخطبها لزيد غضبت وغضبوا فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾(٣) . فقالت زينب سمعا وطاعة لله ولرسوله ،

---

(١) التوبة ٢١ . (٢) الزخرف ٣١ — ٣٢ (٣) الأحزاب ٣٦ .

وتزوجت زينب بنت جحش الشريفة ذات الحسب من زيد بن حارثة مولى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فكسرت تقليدا جائرا يحط من كرامة الإنسانية ، وأخذت بيد الإنسان لترفعه إلى قمة البشرية .

وكانت البيئة تنفر أشد النفور من زواج السيد من مطلقة من تبناه ، وقد تبنى رسول الله ـــ ﷺ ـــ زيدا وزوجه ابنة عمته بأمر الله ، وإن زيدا يأتيه يطلب منه أن يطلق زوجته فكان رسول الله عليه السلام يقول له :

ـــ أمسك عليك زوجك .

وكان الله يريد أن يغسل ضمائر المؤمنين مما وقر فيها من عادات الجاهلية وأن يعيد للبشرية كرامتها وأن يكافئ زينب بنت جحش على طاعتها لأوامر الله ورسوله فأنزل : ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾[1] .

جاء الإسلام ليمحو آثار شطط الجاهلية من النفوس ثم يساير الفطرة التى فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، وما كان ليلقى بالا لمنطق البيئة إذا ما كان ذلك المنطق يتعارض مع الفطرة بل كان يجتث من نفوس المؤمنين كل عرف أو عادة أو تقليد يحط من شأن البشرية بأمر سماوى . فلم يعد لأحد فى الإسلام من أمر بل لله الأمر جميعا ، له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شىء عليم .

---

(١) الأحزاب ٣٧ .

وقد شرع الله للمسلمين ما وصى به كل المؤمنين فى كل العصور ، فلم تكن تعاليم الله تعرف التطور فالعبادة ثابتة ثبات الإله والعقيدة ثابتة والقيم الأخلاقية ثابتة . وقد قال عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب * وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب * فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمِرْت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير * والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد * الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب * يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إنّ الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد * الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ﴾(١) .

كان محمد ــ ﷺ ــ خاتم النبيين أمره الله أن يبلغ رسالته وأنزل عليه قرآنا كتب الله على نفسه أن يحفظه بعد أن ضيع الناس كل ما نزل على الرسل من ربهم : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾(٢) . وقد جعل الله صحابة محمد من خير البشر ليحفظوا فى صدورهم كتابه حتى

---

(١) الشورى ١٢ ــ ١٩ .　　(٢) الحجر ٩ .

يحين وقت التدوين : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون * لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾[٣] .

(١) آل عمران ١١٠ — ١١١ .

٢١

تحقق كيان الإنسان فى المدينة وأشرقت فيها الأنوار ، وقد عميت عنها قلوب القبائل المجاورة لها وحسبت أن نور الله إن هو إلا ثورة على معتقدات الآباء وتسفيه أحلامهم حق عليهم إخمادها ، فكانت تلك القبائل تحاول أن تجمع الجموع لتشن هجوما على الصابئين . ولكن رسول الله ـــ ﷺ ـــ كان يبعث السرايا قبل أن يتمكن أعداؤه من أن يتجمعوا ليلقى الرعب فى قلوبهم صيانة لذلك المجتمع الناشئ الذى سيحمل الأمانة إلى العالمين .

بلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن بنى أسد قد جمعوا جموعهم عند ماء الغمر ليسيروا إلى المسلمين فلم ينتظر عليه السلام حتى يفجئوه فى عقر داره ، فوجه إليهم عكاشة بن محصن الأسدى فى أربعين رجلا ، فخرج يسرع فى السير إلى أن وصل إلى ماء الغمر فوجد القوم علموا بهم فهربوا .

و لم يجد عكاشة والذين معه فى دارهم أحدا ، فبعث عكاشة شجاع بن وهب طليعة يطلب خبرا ويرى أثرا ، فانطلق شجاع ثم عاد يخبر أنه رأى أثر نعم قريبا . فانطلقوا حتى وجدوا رجلا نائما فسألوه عن خبر الناس فقال :

ـــ وأين الناس ؟ لقد لحقوا بعليات بلادهم .

ـــ فالنعم ؟

ـــ معهم .

فضربه أحدهم بسوط فى يده فقال :

ـــ تؤمنونى على دمى وأطلعكم على نعم لبنى عم لى لم يعلموا بمسيركم

إليهم ؟

ــ نعم .

فأمنوه فانطلقوا معه ، فأمعن فى الطلب حتى خافوا أن يكون ذلك غدرا منه لهم فقالوا له :

ــ والله لتصدقنا أو لنضرب عنقك .

ــ تطلعون عليهم من هذا المحل .

فلما طلعوا منه وجدوا نعما روائع فأغاروا عليها فاستاقوها فإذا هى مائة بعير . وشردت الأعراب فى كل وجه ولم يطلبوهم وانحدروا إلى المدينة بتلك الإبل وقدموا على رسول الله ــ ﷺ ــ ولم يلقوا كيدا .

وفى شهر ربيع الآخر سنة ست من مهاجره بلغه ــ ﷺ ــ أن بنى ثعلبة وبنى عوال من ثعلبة يجمعون جموعهم ليغيروا على أطراف المدينة ، فبعث محمد بن مسلمة فى عشرة نفر ليتحسسوا الأخبار ، فلما بلغوا ذا القَصَّة وهى موضع قريب من المدينة نزلوا ليبيتوا ليلتهم ، فكمن القوم وهم مائة رجل لمحمد بن مسلمة وأصحابه وأمهلوهم حتى ناموا وأحدقوا بهم فما شعروا إلا وقد خالطهم القوم ، فوثب محمد بن مسلمة فصاح فى أصحابه :

ــ السلاح .. السلاح .

فوثبوا وتراموا فى جوف الليل ساعة ، ثم حمل القوم عليهم بالرماح فقتلوهم . ووقع محمد بن مسلمة جريحا فضربوا كعبه فلم يتحرك فظنوا موته فجردوه من الثياب وانطلقوا ، ومر بمحمد وأصحابه رجل من المسلمين فقال :

ــ إنا لله وإنا إليه راجعون .

فلما سمعه محمد بن مسلمة يسترجع تحرك له فأخذه وحمله إلى المدينة ، فعند ذلك بعث رسول الله — ﷺ — أبا عبيدة بن الجراح فى أربعين رجلا إلى مصارعهم فلم يجدوا أحدا ووجدوا نعما وشاء فانحدروا بها إلى المدينة .

وأجدبت بلاد بنى ثعلبة وأنمار ووقعت سحابة بالمراض إلى تَغْلَمين ، والمراض على ستة وثلاثين ميلا من المدينة ، فسارت بنو محارب وثعلبة وأنمار إلى تلك السحابة واجتمعوا أن يغيروا على سرح المدينة وهو يرعى بهيفا على سبعة أميال من المدينة ، فبعث رسول الله — ﷺ — أبا عبيدة فى أربعين رجلا من المسلمين حين صلوا المغرب ، فمشوا ليلتهم حتى وافوا ذا القصة فى عماية الصبح فأغاروا فأعجزوهم هربا فى الجبال . وأصاب أبو عبيدة رجلا واحدا فأسلم فتركه ، وأخذ نعما من نعمهم فاستاقه ورثة(١) من متاعهم وقدم المدينة بذلك ، فخمسه رسول الله — ﷺ — ، وقسم ما بقى عليهم .

وكان بنو سُلَيم حلفاء قريش لا ينفكون عن جمع الجموع لشن الغارات على أطراف المدينة ، وكانت منازهم فى عالية نجد بالقرب من خيبر وكانوا يعيشون على الغارات والغنائم . ففى شهر ربيع الآخر سنة ست من الهجرة بعث رسول الله ﷺ — زيد بن حارثة إلى بنى سليم ، فسار هو ومن معه حتى ورد الجموم ناحية بطن نخل عن يسارها ، وبطن نخل من المدينة على أربعة برد ، فأصابوا عليه امرأة من مزينة يقال لها حليمة ، فدلتهم على محلة من محال بنى سُلَيْم فأصابوا فيها نعما وشاء وأسرى فكان فيهم زوج حليمة المزينة . فلما قفل زيد بن حارثة بما أصاب وهب رسول الله — ﷺ —

---

(١) الرثة : سقط المتاع .

للمزنية نفسها وزوجها ، فقال بلال بن الحارث المازنى فى ذلك :

لعمرك ما أخنى المسول ولا ونت
حليمة حتى راح ركبهما معا

وبلغ رسول الله أن عيرا لقريش قد أقبلت من الشام ، فبعث زيد بن حارثة فى سبعين ومائة راكب ليعترضها ، وكان فيها أبو العاص بن الربيع شاردا يفكر فى زوجه زينب بنت محمد التى فرق بينه وبينها الإسلام . ست سنوات قد مضت مذ آخر مرة رأى فيها امرأته يوم أن خرجت بعد أن عاد من الأسر فى بدر .

* * *

إنه ليذكر والأسى يملأ قلبه يوم أن جاءه أشياخ قريش وساداتها بعد أن زعم محمد أن الخبر يأتيه من السماء وقالوا له :

ــ فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش .

فقال لهم :

ــ لا والله إنى لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش .

إن المشهد لا يزال حيا فى وجدانه وإن الدموع لتبلل روحه كلما تذكر زينب ، فهو يحبها بكل مشاعره ونبض حياته .

ولولا أن تعيره قريش لهاجر إليها وترك تجارته وأمواله .

إنه وقع فى الأسر يوم بدر فجاء أخوه عمرو بن الربيع فى فدائه فقال لحمية :

ــ بعثتنى زينب بنت محمد بهذا فى فداء زوجها أخى أبى العاص بن الربيع .

كانت قلادة خديجة وهبتها ابنتها ليلة زواجها ، قلادة غالية حبيبة ما إن رآها رسول الله — ﷺ — حتى خفق قلبه رقة ورحمة ، إنها ذكرته بحاضنة الإسلام وسيدة نساء قريش وبعثت فى نفسه أحب ذكريات حياته ، فقال فى صوت مشحون بالانفعال :

— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما لها فافعلوا .

وهز تأثر نبى الإسلام عليه السلام قلوب المؤمنين فقالوا :

— نعم يا رسول الله .

وعاد ابن هالة بنت خويلد أخت خديجة أم المؤمنين إلى مكة ليرسل زينب مع زيد بن حارثة ورفيق له ليصحباها إلى أبيها بالمدينة ...

وأحاط زيد بن حارثة والذين معه بعير قريش فلم ير القرشيون إلا أن يسلموا أنفسهم وتجارتهم لأصحاب محمد وكان فيها فضة كثيرة لصفوان ابن أمية وأن يحقنوا دماءهم ، فقد كانوا أهون من أن يقاتلوا رجالا قد أطلت من أعينهم المنون فساروا مطأطئى الرءوس يرجون عدل محمد — ﷺ .

وراح أبو العاص بن الربيع يفكر وهم منطلقون إلى المدينة ، فهناك زينب حبيبة الفؤاد من يهفو إليها كل كيانه فاختلطت المشاعر فى جنبات صدره . إنه لا يدرى أيحزن أم يفرح ؟ أيقطب الجبين أم تفتر عن فمه ابتسامة ؟ أيسير الهوينى أم يطير على جناح الشوق إلى الحبيبة ؟

إنه يعرف أين تعيش فيا طالما سأل عنها كل من زار المدينة من أصحابه ، إنها هناك فى دور محمد وإن قلبه سيرشده إليها دون رسول . ولاحت لعينيه المدينة ومسجد النبى وقد ألحقت بها دور نسائه وإن كان الظلام يلف كل شىء ، فقد صار يرى بعين بصيرته ويسمع بوجدانه حفيف أمانيه .

وترامى فى جنبات المدينة صوت بلال وهو يؤذن بالفجر فخف زيد بن حارثة والذين معه ليصلوا خلف الرسول وتركوا عير قريش فى حراسة عدد قليل من المسلمين ، فراح أبو العاص بن الربيع يتلفت ثم انسل فى عماية الصبح إلى دور الرسول — ﷺ .

ووقف عليه السلام فى المحراب واصطف المسلمون خلفه ، فلما دخلوا فى الصلاة إذا بصوت زينب يدوى فى المسجد ويهتك السكون :

— أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

وقضيت الصلاة وسلم رسول الله — ﷺ — وأقبل على الناس وقال :

— هل سمعتم ما سمعت ؟

— نعم .

— أما والذى نفسى بيده ما علمت بشىء من هذا .

ثم انصرف — ﷺ — فدخل على ابنته وقال :

— قد أجرنا من أجرت . المؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أدناهم ..

وسألته أن يرد على أبى العاص ما أخذ منه ، فصمت عليه السلام قليلا ثم قال :

— أى بنية ، أكرمى مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له .

كانت مسلمة وكان مشركا وقد حرم الله نكاح المؤمنات على المشركين . وراح كل منهما يرنو إلى الآخر وفى القلب شوق وفى الصدر لوعة لا يحول بينها وبينه إلا حد الله ، ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾[1] .

---

(١) الطلاق ١ .

وخرج رسول الله — ﷺ — إلى السرية وقال لهم :

— إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالا . فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى فاء عليكم فأنتم أحق به .

— بل يرد عليه ما أخذ منه .

وردت إلى أبى العاص بن الربيع أمواله فخرج إلى مكة وهو يذكر ما قيل له فى المدينة ، قال له قائل : يا أبا العاص إنك فى شرف من قريش وأنت ابن عم رسول الله — ﷺ ، فهل لك أن تسلم فتغنم ما معك من أموال أهل مكة ؟

أجل ، إنه ابن عم رسول الله — ﷺ — فهو يلتقى معه فى جده عبد مناف ، وهو زوج ابنته . ولكن ما قيل له لم يكن ليتفق مع من قال فيه رسول الله — ﷺ : إنا صاهرنا أبا العاص فنعم الصهر وجدناه . إنه عرف فى قومه بالأمين كما عرف عليه السلام بذلك من قبل فما كان ليقبل ما عرض عليه فقال :

— بئسما أمرتمونى ، أفتتح دينى بالغدر وعدم الوفاء !

واحتل كل وجدانه ما لقيه من محمد — ﷺ ، إن ما عومل به ما كان ليخطر له على قلب ، أكرم أهل البيت مثواه ، قالوا له قولا لينا وقال له عليه السلام قولا معروفا أضاء بالأنوار سويداء فؤاده ، إنه يحس بكل كيانه أن محمدا — ﷺ — أشعل سراج عقله وأرشده إلى الطريق .

إنه رأى فى المدينة الشرف والكرامة والرفعة والسمو الروحى ونور الله. قد أذهله ما صار إليه مستضعفو مكة بالأمس فقد أصبحوا رهبانا بالليل فرسانا بالنهار ، تتلألأ فى وجوههم الأنوار ، تعرف فيها نضرة النعيم . إن

كل شيء يسير فى يسر ولين بينا حاسة الشرف تهدر كالوحش الضارى فى مكة وإن كانت كل الأفعال لا تمت إلى الشرف ؛ غضب هادر ودماء تسيل وقسوة تملأ القلوب والفساد قد استشرى فى سادات مكة ، إن محمد بن عبد الله قد أخرج قومه من الظلمات إلى النور .

ودخل أبو العاص بن الربيع أم القرى وطاف بالبيت العتيق وهو يستشعر كأنما خلق خلقا آخر . هانت فى عينيه آلهة آبائه وأجداده ، رآها لأول مرة حجارة لا تملك لنفسها نفعا أو ضرا فإذا بنفسه تتقاصر ، وإذا بعرق الخجل يتفصد من كل كيانه ، وإذا به يجاهد لتسمو روحه فوق كل ما حوله من ماديات لتقرع أبواب الملكوت لعل نسائم الألطاف تهب وتنكشف الحجب عن قلبه .

وذهب إلى أهل مكة وقد استوى بصره وأرشد إلى الطريق فأدى كل ذى حق حقه ، ثم قام فقال :

— يأهل مكة هل بقى لأحد منكم مال لم يأخذه ؟ هل وفت ذمتى ؟

— اللهم نعم ، فجزاك الله خيرا فقد وجدناك وفيا كريما .

فقال وهو متفرح فى الله :

— إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، والله ما منعنى عن الإسلام عنده إلا خشية أن تظنــوا إنى إنما أردت أن آكل أموالكم .

ثم خرج إلى المدينة منشرح الصدر لا يطمع فى مال ولا سلطان ولا جاه بل يريد وجه الله ، إنه يريد نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر فيها ، إنه فى شوق إلى الله بعد أن ذاق حلاوة الإيمان . فمن لم يذق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشتق ومن لم يشتق لم يطلب ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك

بقى من المحرومين .

إنه يسير فى معبد الله يفكر فى جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه فصار ذلك ألذ عنده من كل نعيم . وبات يستشعر أنه لا يزاحم الناس فى دنياهم ولو اهتدى أهل الأرض جميعا ما زاحموه فى لذته بل زادت لذته بمشاركتهم له فى الأنس بربه ، وإنه ليحس أنه تحرر من كل شر ، من عبودية الأهواء والغرائز والجهل . إن ذاته قد تحررت مذ أن عرف ما يريد وماذا يريد واتضحت له حقيقة الطريق .

أشرق وجوده بالاندماج فى الوجود بكل حريته ، وأضحى ثابت الجنان ثبات الأرض التى تطويها راحلته ، يحس من أعمق أعماق ذاته وجود قوة متعالية ترعاه وتحميه وتبارك خطاه ما دام يشتد على الصراط المستقيم .

كان جوهر وجوده الإنسانى يتألق بالأنوار ، إنه اعتنق الإسلام بعد تدبر وتأمل وتفكير ، اعتنقه بمحض حريته بعد أن تخلص من ربقة ما ورثه من سخافات ، ومن الضرورة العمياء التى فيها يغلب الانفعال على الفعل ، واهتدى إلى أن الفضيلة علم والرذيلة جهل والحكمة معرفة قوانين الوجود والعمل على أن تطابق الإرادة الباطنية تلك القوانين .

إنه يحس لأول مرة وفاقا بين قلبه وعقله وهداية إلى محبة الناس أجمعين ، وأن الحياة دون الله لا معنى لها ، وأن ملكوت الله هو ميدان العمل المثمر الوحيد . كانت حياته قبل أن يشرق فؤاده بالأنوار ضياعا فأصبحت له رسالة ألا وهى الارتفاع بالنفس البشرية إلى النبع الروحى مصدر كل سعادة وإلهام .

وبلغ المدينة وقد محق كل زائف فى نفسه وثبت الحق وتلقى الضياء الربانى ، فاتجه إلى دور الرسول عليه السلام فاستقبل بالترحاب . وكانت زينب بنت نبى الإسلام عليه السلام أكثر الناس فرحا بعودة أبى العاص بن الربيع بعد أن أرشد إلى الطريق وتلقى الحكم من السماء وأصبح من الراشدين .

٢٢

تولى هرقل حكم الإمبراطورية الرومانية فأهمل روما واستقر فى بيزنطة وخاض غمار معارك رهيبة مع دولة الفرس ، فبعد أن نهب الساسانيون بيت المقدس وغزوا مصر استطاع هرقل أن يكر عليهم وأن يطردهم من الأراضى التى استولوا عليها ، ومنذ ذلك الوقت صار هرقل ينتقل بين قصوره فى بيت المقدس والقسطنطينية فازدهرت الحضارة فى الشام وفى بصرى خاصة واصطبغت بالصبغة الهيلينية[١] .

وكان هرقل قاسيا مع اليهود يضطهدهم أشد الاضطهاد مذ تلك النبوءة القائلة بأن الإمبراطورية سيدمرها شعب مختون . ولم يصل إلى هرقل أن محمدا — ﷺ — يوم كان المسلمون يحفرون الخندق كان قريبا من سلمان الفارسى وهو يضرب فى ناحية من الخندق فغلظت عليه صخرة ، فلما رآه يضرب ورأى شدة المكان عليه نزل عليه السلام فأخذ المعول من يده فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى ، فقال سلمان :

— بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟

قال عليه السلام :

---

(١) اليونانية والرومانية .

— أوَ قد رأيت ذلك يا سلمان ؟

— نعم .

— أما الأولى فإن الله فتح علىَّ بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح علىَّ بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح علىَّ بها المشرق .

إن رسول الله — ﷺ — والمسلمين مذ ذلك الوقت وهم يتطلعون إلى الشام ، وما كان عليه السلام لتشغله الأحداث المحلية عما يجرى فى بلاد الشام وبلاد الفرس وأرض اليمن ، فقد كان يبعث رجالا من أصحابه إلى تلك البلاد ليعودوا إليه بأنبائها .

كانت العلاقات طيبة بين دحية الكلبى وهرقل فقد كان دحية تاجرا يجوب الآفاق ، وكثيرا ما ذهب بتجارته إلى بصرى وبيت المقدس ، وكان يدخل على هرقل يقدم إليه الهدايا ويعود من عنده بالدمقس وأجود أنواع الحرير .

وأسلم دحية وأصبح صحابيا جليلا ، وكان جبريل كثيرا ما يأتى رسول الله عليه السلام فى صورته ، فلما أراد نبى الإسلام — عليه صلوات الله وسلامه — أن يعرف ما يجرى فى الشام بعث دحية الكلبى إلى هرقل بغير كتاب ، فدخل دحية على هرقلا فاستقبله بالترحاب وأجازه بمال وكساه .

وأقبل دحية من عند قيصر يحمل الهدايا وتجارة كانت له ، حتى إذا كان بواد يقال له شنان أغار عليه الهنيد بن عارض وابنه عارض بن الهنيد الضُّلعيَّان[1] فى ناس من جذام يحسمى فقطعوا عليه الطريق وأخذوا ما

---

(١) الضليع : بطن من جذام .

معه ، فلم يتركوا عليه إلا الخلق من الثياب .

كان رهط رفاعة بن زيد قد أسلموا وأجابوا رسول الله — ﷺ ، وكانت منازلهم قريبة من المكان . فلما سمعوا بما حاق بدحية نفروا إلى الهنيد وابنه وفيهم من بنى الضُّبيب النعمان بن أبى جعال حتى لقوهم فاقتتلوا .

وانتمى قرة بن أشقر الضّفارى ثم الضلعى فقال :

— أنا ابن لُبنى .

ورمى النعمان بسهم فأصاب ركبته وقال :

— خذها وأنا ابن لُبنى .

ثم استنقذوا لدحية متاعه ، وقدم دحية على رسول الله — ﷺ — فأخبره بذلك ، فبعث زيد بن حارثة فى خمسمائة رجل وردَّ معه دحية ، فكان زيد يسير الليل ويكمن النهار ومعه دليل من بنى عذرة ، فأقبل بهم حتى هجم بهم مع الصبح على القوم فأغاروا عليهم فقتلوا فيهم فأوجعوا ، وقتلوا الهنيد وابنه وأغاروا على ماشيتهم ونعمهم ونسائهم فأخذوا ألف بعير وخمسة آلاف شاة ومن النساء والصبيان مائة .

ولما سمع بنو الضُّبيب بما صنع زيد ركبوا وجاءوا إليه ، وقال له رجل منهم :

— إنا قوم مسلمون .

فقال له زيد :

— اقرأ أم الكتاب .

فقرأها و لم يصدقه زيد .

كان رفاعة بن زيد الجذامى قد أسلم فى نفر من قومه فرحلوا إلى رسول

الله ـــ ﷺ ـــ ، وأخبروه بما فعل بهم زيد ، وقال رفاعة :
ـــ يا رسول الله لا تحرم علينا حلالا ولا تحل لنا حراما .
فقال عليه السلام :
ـــ كيف أصنع بالقتلى ؟
ـــ أطلق لنا من كان حيا ومن قتل فهو تحت قدمى هاتين .
ـــ صدق .
فقالوا :
ـــ ابعث لنا رجلا لزيد .
فبعث ـــ ﷺ ـــ معهم عليا كرم الله وجهه يأمر زيدا أن يخلى بينهم وبين حرمهم وأموالهم ، فقال على :
ـــ يا رسول الله إن زيدا لا يطيعنى .
فقال صلوات الله وسلامه عليه :
ـــ خذ سيفى هذا .
فأخذه وتوجه ، فلقى على كرم الله وجهه رجلا أرسله زيد مبشرا على ناقة من إبل القوم ، فردها على كرم الله وجهه على القوم وأردفه خلفه .
ولقى زيدا فأبلغه أمر رسول الله ـــ ﷺ ، وعند ذلك قال له زيد :
ـــ ما علامة ذلك ؟
ـــ هذا سيفه ـــ ﷺ .
فعرف زيد السيف وصاح بالناس فاجتمعوا فقال :
ـــ ما كان معه شيء فليرده ، فهذا سيف رسول الله ـــ ﷺ .

٢٣

كانت المدينة تنصهر لتكون عاصمة دولة عالمية تقوم عل دين يدعو إلى وحدانية الله ويتفق مع منطق الحياة ويقود إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ، فبينا وحى السماء ينزل على الأرض يرشد الناس إلى علاقتهم بالله وعلاقة بعضهم ببعض وينظم حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ بما وهبه الله من حذق سياسى ونبل وسماحة وكرامة يعنى بتربية النفوس وتربية الخيل ليعد جيشا يرهب به عدو الله وعدو الإصلاح المنشود للبشر .

إنه غزا القلوب بأمانته وخلقه العظيم وفتح الأفئدة بالقرآن المجيد والتف حوله خير البشر من المهاجرين والأنصار ، ولكن أعداء الإصلاح الذين يخشون أن تدول دولتهم وأن تزول منافعهم تحالفوا ليطفئوا نور الله ، فكان على قائد النهضة الجديدة أن يدافع عن مدينته الفاضلة التى وجدت على الأرض بتأييد من الله ، فراح يعد الرجال إعدادا روحيا وإعدادا عسكريا ليذبوا عن النور الذى هبط عليهم من السماء ويستشهدوا طائعين فى سبيله .

قد نجح رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى غرس الفضائل فى النفوس ، وألزم المؤمنين بالصدق والعفة والوفاء والإخاء وإفشاء السلام والمحبة ورعاية الحقوق والاهتمام بأمور المسلمين ، فقال عليه السلام : « من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس من الإسلام فى شىء » . فكان المسلم للمسلم ناصحا أمينا يؤثره على نفسه ولو كانت به خصاصة .

وعلّم عليه السلام أتباعه أن يدعوا الناس إلى ما فيه صلاحهم باللين متبعين شرع الله الذى شرع لهم : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾(١) . ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾(٢) .

وقد تعلم المسلمون من القرآن الكريم ومن الرسول العظيم أن لا إكراه فى الدين ، فلم تتحرك جيوش المسلمين ولم تبث السرايا لإرغام الناس على الدخول فى دين الله بل للدفاع عن النفس وقهر الظلم والفتن : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾(٣) .

بل لقد تعلم المسلمون من القرآن المجيد أن يبروا من ليس على دينهم وأن تكون الصلات بينهم طيبة ما داموا لا يحاولون أن يطفئوا نور الله بأفواههم : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾(٤) .

وتعلم المسلمون من وحى الله أن خير الأمور الوسط ، وأن لا خير فى التزمت ، ولا خير فى التحرر والانطلاق بلا حدود ، وأن الله قد جعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾(٥) .

أقام سلمان الفارسى أياما مع أبى الدرداء فى دار واحدة ، وكان أبو

---

(١) النحل ١٢٥ (٢) فصلت ٣٤ (٣) البقرة ١٩٣
(٤) الممتحنة ٨ — ٩ . (٥) البقرة ١٤٣ .

الدرداء يقوم الليل ويصوم النهار ، وكان سلمان يأخذ عليه ذلك التطرف فى العبادة . وذات يوم حاول سلمان أن يثنى أبا الدرداء عن الصوم المتصل فى غير رمضان ، فقال له أبو الدرداء :

ـــ أتمنعنى أن أصوم لربى وأصلى له ؟

فقال له سلمان :

ـــ إن لعينيك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك حقا ، صم وأفطر وصل ونم .

فبلغ ذلك رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ لقد أُشبع سلمان علما .

وكان عليه السلام يحض أصحابه على أن يطلبوا العلم أينما كانت منابعه : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أينما وجدها » . وأن يأمروا بالعدل والإحسان . ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾(١) . ويقول عليه السلام ناصحا : « أحسن إلى من أساء إليك ، وأعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك ، وصل من قطعك ، تكن مؤمنا حقا » .

إنه عليه السلام ينفث الروح الإسلامية فى أصحابه ، يبين حق الله وحق المجتمع وحق الراعى وحق الرعية فيقول : « إن الله يرضى لكم ثلاثة : أن لاتعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تُناصحوا من ولاه أمركم » . ويرشد أصحابه إلى ما أمر به الله لتسود العدالة والعلاقات الطيبة بين الناس : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا

---

(١) النحل ٩٠ .

تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾[١] .

وكانت السياسة التى ينبغى أن يسير عليها ولاة المسلمين ترسم فى المدينة الفاضلة توضحها آيات الله البينات وسنة الرسول عليه السلام ، فعلى الحاكم أن يبحث عن أصلح الناس للعمل ليقلده دون النظر إلى مودة أو قرابة : « من وَلِىَ من أمر المسلمين شيئا فولَّى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله » . ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو سبق فى الطلب بل قد يكون ذلك سبب منعه ، فقد دخل قوم على رسول الله فسألوه ولاية فقال :

— إنا لا نولى أمرنا هذا من طلبه .

ولا يجوز للحاكم أن يعدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لقرابة بينهما أو ولاء أو صداقة أو موافقة فى مذهب أو طريقة أو جنس ، أو لرشوة يأخذها من مال أو منفعة ، أو لعداوة بينهما ، فإن فعل فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ، ودخل فيما نهى عنه أحكم الحاكمين : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾[٢] .

وكان عليه السلام يحدث أهل الصفة كل ليلة يرشدهم إلى الطريق . إنه راح ذات ليلة يحدث أبا ذر عن الولاية على المسلمين فقال له :

— إنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها .

وقال عليه السلام :

— إذا ضيعت الأمانة انتظر الساعة .

---

(١) المائدة ٢ (٢) الأنفال ٢٧ .

قيل :

ـــ يا رسول الله وما إضاعتها ؟

ـــ إذا وسد(١) الأمر إلى غير أهله .

وقال عليه السلام :

ـــ كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها ، والولد راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، والعبد راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

و لم يكتف عليه السلام بذلك بل قال :

ـــ ما من راع يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاش لها إلاّ حرّم الله عليه رائحة الجنة .

وترجع الأمانة إلى خشية الله وألا يشترى بآياته ثمنا قليلا وترك خشية الناس ، وقد شرعها الله لكل حكم على الناس : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾(٢) .

وكان عليه السلام يقدم فى إمارة الحروب الرجل القوى الشجاع وإن كان بين المسلمين من هو أصلح منه فى الأمانة والصدق . وقد نهى عليه السلام أبا ذر عن الإمارة والولاية فقال له :

---

(١) وسد الأمر إلى فلان : أسند إليه القيام بتصريفه .

(٢) المائدة ٤٤ .

ـــ يا أبا ذر إني أراك ضعيفا وإني أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمّرن على اثنين ولا تولّيّن مال يتيم .

ويقدم فى ولاية القضاء الأعلم الأتقى الأكفأ ويقول : « إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب العقل عند حلول الشهوات » .

وكان يحض أصحابه على العدل : « أحب الخلق إلى الله إمام عادل وأبغضهم إليه إمام جائر » . وكان يقول سبعة يظلهم الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه :

ـــ أهل الجنة ثلاثة : سلطان مُقسط ، ورجل رحيم القلب بكل ذى قربى ومسلم ، ورجل غنى عفيف متصدق :

ـــ وكان القرآن الكريم يهذب النفوس لتقوى على أن تنهض بصالح الأعمال : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون * والذين هم على

صلاتهم يحافظون * أولئك فى جنات مكرمون ﴾(١) .

وقال النبى — ﷺ : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ، و لا تخن من خانك » .

وقال عليه السلام : « المؤمن من أمنه المسلمون على دمائهم وأموالهم . والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله » .

وراح عليه السلام يضع أسس جباية الخراج والعشور والصدقات وعلاقة الإمام بالناس ، ويحذر أصحابه و الأجل دون الأمل ، وأن لا عمل بعد الأجل ، فيزين لهم مبادرة الأجل بالعمل ، ويقول : « إذا أراد الله بقوم خيرا استعمل عليهم الحلماء ، وجعل أموالهم فى أيدى السمحاء . وإذا أراد الله بقوم بلاء استعمل عليهم السفهاء ، وجعل أموالهم فى أيدى البخلاء . ألا من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فى حوائجهم رفق الله به يوم حاجته ، ومن احتجب عنهم دون حوائجهم احتجب الله عنه دون خلته وحاجته » .

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شىء قدير ﴾(٢) . وكان عليه السلام يضرب للفارس ثلاثة أسهم سهمان لفرسه وللراجل سهم ، تنرغيبا للناس فى ارتباط الخيل فى سبيل الله ، فقد كانت الفرسان السلاح

---

(١) المعارج ١٩ — ٣٥ . (٢) الأنفال ٤١ .

الذى يقود إلى النصر .

وكان الخمس مردودا على المحتاجين ، وما كان عليه السلام يدخل داره قبل أن ينفق آخر ما معه من صفراء وبيضاء. وكان يقسم الخمس على خمسة أسهم : لله وللرسول سهم ، ولذى القربى سهم ، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم .

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دُولة بين الأغنياء منكم ﴾[1] .

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[2] .

﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾[3] .

صار الفىء بين هؤلاء جميعا تقسم عليهم الأموال المتداولة ، أما الأرضين فقد ترك للإمام أن يتصرف فيها بما يحقق مصالح المسلمين فى أيامه ومن بعده .

وراح عليه السلام ينظم الصدقات فقال : « فى كل أربعين شاةً شاة إلى

---

(١) الحشر ٧ (٢) الحشر ٨ — ٩ . (٣) الحشر ١٠ .

مائة وعشرين ، فإذا زادت فشاتان إلى مائتين ، فإذا زادت فثلاث شياه إلى ثلاثمائة ، فإذا زادت ففى كل مائة شاة شاة . وليس فيها شيء حتى تبلغ المائة .

وفى خمس من الإبل شاة ، وفى عشر شاتان ، وفى خمس عشرة ثلاث شياه ، وفى عشرين أربع شياه ، وفى خمس وعشرين بنت مخاض إلى خمس وثلاثين ، فإن زادت ففيها ابنة لبون إلى خمس وأربعين ، فإن زادت ففيها حقة إلى ستين ، فإن زادت ففيها جذعة إلى خمس وسبعين ، فإن زادت ففيها حقتان إلى عشرين ومائة ، فإن زادت على مائة وعشرين ففى كل خمسين حقة وفى كل أربعين بنت لبون ، ولا يجمع بين متفرق ، ولا يفرق بين مجتمع ، وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بالسوية» .

وكان عليه السلام يرسم سياسة تحصيل الصدقات والزكاة ويحرض المسلمين على دفعها « .. ما مانع الزكاة بمسلم ، ومن لم يؤدها فلا صلاة له » . وقال عليه السلام : « العامل على الصدقة بالحق كالغازى فى سبيل الله » . فالذى يجمع الصدقة دون أن يغل منها شيئا يكون فى مثل الجهاد ، فعليه السلام يرغب الناس فى العمل فى جباية الصدقات ولكنه لا يترك لهم الحبل على الغارب بل يشحذ ضمائرهم ويخوفهم الله ، فقد بعث عبادة بن الصامت على الصدقة فقال له :

— اتق الله يا أبا الوليد ، لا تجيء يوم القيامة ببعير تحمله على رقبتك له رغاء[1] أو بقرة لها خوار أو شاة لها ثؤاج .

— يا رسول الله إن هذا لهكذا ؟

---

(١) الرغاء:صوت البعير ، والخوار : صوت البقرة ، والثؤاج:صوت الشاة .

ـــ إى والذى نفسى بيده إلا من رحم الله .

ـــ والذى بعثك بالحق لا أتأمر على اثنين أبدا .

وكان عليه السلام لا يحب أن ينفر الناس ، فإنه عليه السلام بعث رجلا ليأخذ من الناس الصدقة لما أنزل عليه أن يأخذ منهم الصدقات ليطهرهم ويزكيهم بها ، فقال له :

ـــ لا تأخذ من حزرات[١] أنفس الناس شيئا ، خذ الشارف[٢] والبكر وذات العيب .

فذهب الرجل يجمع الصدقات حتى جاء إلى رجل من أهل البادية ، فذكر له أن الله تعالى أمر رسوله ـــ ﷺ ـــ أن يأخذ الصدقة من الناس يزكيهم بها ويطهرهم بها ، فقال له الرجل :

ـــ قم فخذ .

فذهب فأخذ الشارف والبكر وذات العيب فقال له الرجل :

ـــ والله ما كان فى إبلى أحد قط يأخذ شيئا لله قبلك . والله لتختارن .

أمر ـــ ﷺ ـــ بأخذ الشارف والبكر وذات العيب ولكن الرجل فى البادية بعد أن أشرق فى قلبه نور اليقين أبى إلا أن يحتسب وأن يجود بأطيب ما عنده راضية نفسه ، فقد نجح الإسلام فى أن يعلم الناس أن : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم * الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * قول معروف ومغفرة خير من صدقة

---

(١) حزرات : خيار أموال الناس . (٢) الشارف : المسنة .

يتبعها أذى والله غنى حليم * يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين * ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴾[١] .

لما نزلت آية الصدقة جاء رجل فتصدق بصاع فقال بعض الناس :

ـــ إن الله لغنى عن صاع .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال :

ـــ يا رسول الله مالى ثمانية آلاف جئتك بنصفها فاجعلها فى سبيل الله ، وأمسكت نصفها لعيالى .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ بارك الله فيما أعطيت وفيما أمسكت .

وتصدق عاصم بن عدى بن العجلان بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقيل الأنصارى بصاع من تمر .

وقال :

ـــ يا رسول الله بت ليلتى أجرّ بالجرير أحْبُلا حتى نلت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما لأهلى وأتيتك بالآخر .

فأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن ينثره فى الصدقات ، فلمزهم[٢] المنافقون وقالوا :

---

(١) البقرة .

(٢) اللمز : العيب والاشارة بالعين ونحوها .

— ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وإن الله ورسوله غنيان عن صاع أبى عقيل ولكنه أحب أن يزكى نفسه .

فلم يترك الله المنافقين ليعيثوا فسادا فى المدينة التى تتهيأ لتكون عاصمة خير أمة أخرجت للناس ، بل أنزل على رسوله آيات تفضحهم وتسد عليهم سبل الفساد وينذرهم بالعقاب : ﴿ الذين يلمزون المطَّوِّعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾(١) .

وكان — ﷺ — لا يفرق بين القوى والضعيف عندما يقسم الغنائم بين الذين شهدوا الوقعة ، فإن سعد بن أبى وقاص الزهرى رأى له فضلا على من دونه فقال :

— يا رسول الله ، الرجل يكون حامية القوم يكون سهمه وسهم غيره سواء ؟

— ثكلتك أمك ابن أم سعد . وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم ؟

إنه يجاهد الظلم الواقع من الولاة والظلم الواقع من الرعية ، هؤلاء يأخذون ما لا يحل وهؤلاء يمنعون ما يجب . وقد قال — ﷺ — : « هدايا الأمراء غُلول » وقال : « مطل الغنى ظلم » . وقال : « من شفع لأخيه شفاعة فأهدى له عليها هدية فقبلها فقد أتى بابا عظيما من أبواب الربا » . و « السُّحت(٢) أن يطلب الحاجة للرجل فيقضى له فيهدى إليه فيقبلها » .

---

(١) التوبة ٧٩ .   (٢) السُّحت : الحرام .

وكان عليه السلام يرى أن تبليغ السلطان حاجة الناس وسيلة من وسائل كف الظلم عنهم وعمل يؤجر المرء عليه ، فقد قال : « أبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، فإنه من أبلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام » .

وما ضرب رسول الله ـ ﷺ ـ بيده خادما له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا نيل منه شىء فانتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله ، فإن انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شىء حتى ينتقم لله . إنه لا يقبل شفاعة فى حد من حدود الله ، ويقول : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضارّ الله فى أمره ، ومن خاصم فى باطل وهو يعلم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ، ومن قال فى مسلم دَيّن ما ليس فيه حبس فى ردعة[1] الخبال حتى يخرج مما قال » . قيل : « يا رسول الله وما ردعة الخبال ؟ » قال : « عصارة أهل النار » .

وقال أصدق القائلين : ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل[2] منها وكان الله على كل شىء مُقيتا ﴾[3] .

وكان نبى الإسلام عليه السلام إذا بعث أميرا على سرية أو جيش أو فى حاجة لنفسه أوصاه بتقوى الله تعالى وبمن معه من المسلمين خيرا ، ثم يقول :

---

(١) الردعة : للطين .

(٢) النساء ٨٥ ـ الكفل : الضعف من الأجر أو الإثم .

(٣) مقيتا : شهيدا وحفيظا ومقتدرا .

— اغزوا باسم الله وفى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا .

وكان يمقت العصبية ودعوى الجاهلية ، وقد قيل له :

— أمن العصبية أن ينصر الرجل قومه فى الحق ؟

— لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه فى الباطل . مثل الذى ينصر قومه فى الباطل كبعير تردى فى بئر فهو يجر بذنبه .

كان الفلاسفة يطلقون لأخيلتهم العنان ويتصورون مدنا فاضلة لم تخرج عن دائرة الأحلام وما كانت تلك المدن لتحقق العدالة المطلقة للبشر ، فقد عوملت النساء معاملة السائمة فى بعض تلك الجمهوريات وظل العبيد يرسفون فى قيود الرق ، فما كان الفلاسفة الذين هوموا فى الخيال بقادرين على أن يتخلصوا مما كانت عليه الدنيا فى أيامهم وما أقرته من نظم ظالمة ، ولم يجد الضعفاء مكانا آمنا فى تلك المدن التى شيدت فى الهواء . وقد عجز المفكرون الحالمون عن أن يضيقوا الهوة السحيقة بين الفقراء والأغنياء أو أن يحققوا التوافق بين العقل والفؤاد . ولكن مجتمع المدينة كان مجتمعا حقيقيا لا أثر للوهم فيه ، يسير على منهج إلهى لا يغفل لحظة عن فطرة الإنسان وقدرته وواقع الحياة ، لا يكلف الله فيه نفسا إلا وسعها ، ويفتح الأبواب أمام الناس ليجاهدوا فى سبيل الهدى والسمو حتى يقرعوا أبواب الملكوت : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[1] .

إنه مجتمع قد بين أركانه من فطر الناس وترك للجهد البشرى أن يحقق بناء ذلك المجتمع فى حدود طاقته وبعون الله ، فالله قد شرع لهذه الجماعة

---

(١) العنكبوت ٦٩ .

وبين لهم الطيب والخبيث وزين لهم الإيمان والسير فى طريق الله على هدى نور الله ، ليتحرروا من عبودية الناس وليعبدوا الله وحده . وقد أرسل إليهم رسولا منهم ليكون لهم أسوة حسنة وليأخذوا ما جاءهم به ولينتهوا عما نهاهم عنه ، وكان رسول الله — ﷺ — على علم بأوامر الله ونواهيه : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾(١) . وكان على علم بطبيعة النفس البشرية ، فلم يكلف الناس شططا، بل كان اليسر سبيله فأخذ بيد هذه الجماعة وفجر جميع ما فيهم من طاقات بناءة وقوى خيرة وحررهم من ربقة الشهوات المدمرة فتسنم بهم قمة البشرية ، ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾(٢) .

---

(١) الجاثية ١٠٨ . (٢) آل عمران ١٠٤ .

٢٤

كان عليه السلام ينام على فراش من أدم حشوه ليف ، وإذا بصوت بلال ينساب فى الفجر نديا يدعو الناس إلى الصلاة ، فقام ـ ﷺ ـ وإذا بشفتيه تتحر كان بذكر الله فما كان يجلس ولا يقوم إلا بذكر الله تعالى ، وتوضأ ثم راح يسرح لحيته بمشط ، ثم خرج ليؤم المسلمين وقد أرخى لعمامته عذبة بين كتفيه ، وكان يلبس قميصا ارتفع إلى نصف ساقيه وكمه إلى الرسغ . وأقبل على مسجده المسلمون من عالية المدينة ومن سافلتها وهم يسبحون الله وقام الجميع للصلاة ، فوقف أهل الصفة فى مكانهم خلف المصلين فقد كانوا حرس رسول الله ـ عليه صلوات الله وسلامه .

وقضيت الصلاة فجلس عليه السلام عند أسطوانة المهاجرين والتف حوله أبو بكر وعمر وعلى وعثمان وزيد بن حارثة وعمار ، وراح الحسن والحسين يغدوان بين أبيهما وجدهما العظيم والمهاجرون والأنصار يداعبونهما وقد تفتحت لهما القلوب ، ولا جرم فهما سبطا رسول الله الحبيب .

وراح عليه السلام يعطى كل من جالسه حقه لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، وجاء إليه رجال يسألونه حاجاتهم فلم يردهم إلا بها أو ما يسرهم من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء ؛ مجلسه حلم وحياء وصبر وأمانة لا ترفع عنده الأصوات .

كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ القلب

ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح ، يتغافل عما لا يشتهى ولا يخيب فيه مؤمله ، قد تطهر من ثلاث : المراء والإكثار وما لا يعنيه .

وكان لا يذم أحدا ولا يعيره ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما يرتجى ثوابه . إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رءوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده ، إن تكلم أنصتوا له حتى يفرغ ، وكان لا يقطع على أحد حديثه ، وكان يقول فى السراء :

— الحمد ﷺ المنعم المتفضل .

وكان يقول فى الضراء :

— الحمد لله على كل حال .

وكان يسلم على العبيد والإماء والصبيان ، وكان يمازح الصغير ويلاعب الوليد ويمازح العجوز ولا يقول إلا حقا . جاءته امرأة فقالت :

— يا رسول الله احملنى على جمل .

فقال عليه السلام :

— إنما أحملك على ولد الناقة .

— لا يطيقنى .

— لا أحملك إلا على ولد الناقة .

— لا يطيقنى .

فقال لها الحاضرون :

— وهل الجمل إلا ولد الناقة ؟

وجاءت له امرأة أخرى فقالت :

— يا رسول الله زوجى مريض وهو يدعوك .

— لعل زوجك الذى فى عينه بياض .

فرجعت وفتحت عين زوجها فقال لها :

ـــ ما لك ؟

ـــ أخبرنى رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن فى عينك بياضا .

ـــ وهل أحد إلا وفى عينه بياض ؟

وقالت له امرأة أخرى :

ـــ يا رسول الله ادع الله أن يدخلنى الجنة .

ـــ يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز .

فبكت المرأة فقال لها :

ـــ أما قرأت قوله تعالى : ﴿ إن إنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكارا * عربا أترابا ﴾(١) .

وكان أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ يضحكون والإيمان فى قلوبهم مثل الجبال الرواسى ، وكان نعيمان من أولع الناس بالمزاح والضحك ، وكان رسول الله عليه السلام يرى فعاله ويسمع أقواله فيفتر ثغره عن الابتسام .

وكان ـــ ﷺ ـــ يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويقول :

ـــ لو دعيت إلى كراع لأجبت .

وكان يخصف نعله ، ويحلب شاته ، ويركب الحمار ردفا ، ويرقع الثوب ، ويطحن مع الخادم ويأكل معه ، ويحمل بضاعته من السوق ، ويصافح الغنى والفقير ، ويخالط أصحابه ويحادثهم ويمازحهم ، ويلاعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ، وما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته

---

(١) الواقعة ٣٥ ـــ ٣٧ .

إلا قال : لبيك .

ودخل عليه صلوات الله وسلامه عليه رجل فقام بين يديه فأخذته رعدة من هيبته ، فقال له :

— هون عليك فإنى لست بملك ولا جبار ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة .

إنه أوتى جوامع الكلم وإنه يحدث أصحابه ليفقههم فى دينهم وينير لهم الطريق ، إنه يقول :

— أتانى جبريل فقال يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، واحبب ما شئت فإنك مفارق ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس .

وكان يعلم أن الطمع وطول الأمد مفسدة للناس ، فكان يعظ أصحابه ليزهدهم فى الدنيا فيقول :

— ابن آدم عندك ما يكفيك ، وأنت تطلب ما يطغيك، ابن آدم لا بقليل تقنع ، ولا بكثير تشبع ، ابن آدم إذا أصبحت معافى فى جسدك آمنا فى سربك ، عندك قوت يومك ، فعلى الدنيا العفاء .

وكان على الدوام يرشدهم إلى مكارم الأخلاق فما أرسل إلا ليتمم مكارم الأخلاق ، فيقول :

— اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى ، وأن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط . وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من الخيلة ولا يحبها الله . وإن امرؤ شتمك وعيرك بأمر

ليس هو فيك فلا تعيره بأمر هو فيه ، ودعه يكون وباله عليه وأجره لك ، ولا تسبنَّ أحدا .

اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب .

اتقوا الله فى الضعيفين المملوك والمرأة .

اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة .

إذا أتاك الله مالا فلير أثره عليك ، فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنا ، ولا يحب البؤس ولا التباؤس .

إذا أتى علىَّ يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى الله تعالى ؛ فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم .

وكان أبو بكر وعمر عن يمينه وعن يساره ، وكان عليه السلام يقول لهما :

ـــ الحمد لله الذى أيدنى بكما .

وكانا إذا اجتمعا فى مشورة ما خالفهما ، فأبو بكر لا يريد من دنياه إلا إعلاء كلمة الله ، إنه يخشى على رسول الله ـــ ﷺ ـــ أكثر مما يخشى على نفسه ، فهو لما رأى القافة(١) وفتيان قريش بسهامهم وسيوفهم وقوفا على فم الغار عند الهجرة اشتد حزنه وقال :

ـــ إن قتلت فإنما أنا رجل واحد ، وإن قتلت يا رسول الله هلكت الأمة .

---

(١) القافة : قصاصو الأثر .

فقال له عليه السلام :

ـــ لا تحزن إن الله معنا .

وأنزل الله سكينته عليه وهاجر مع رسول الله عليه السلام إلى المدينة وشهد معه المشاهد كلها ، وسمع الناس وهم يتلون ما نزل فيه من القرآن فاغرورقت عيناه بالدموع ، وكان يطرق حياء كلما سمع رسول الله عليه السلام يمتدحه ، قال عليه السلام :

ـــ ما أحد عندى أعظم من أبى بكر ، واسانى بنفسه وماله وأنكحنى ابنته .

فكاد الصديق يذوب حياؤه . إنه أنفق أمواله فى سبيل الله وفى نصرة رسوله حتى إن نبى الإسلام عليه صلوات الله وسلامه قال :

ـــ إن من أمنّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوّة الإسلام .

ولا غرو فقد قال عليه السلام فيه :

ـــ مثل أبى بكر مثل اللبن فى الصفاء ، ومثل أبى بكر كالغيث أينما وقع نفع .

وقال :

ـــ ما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر .

فبكى أبو بكر وقال :

ـــ هل أنا ومالى إلا لك يا رسول الله ؟

كان أبو بكر وعمر وزيرى رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ، وكان رسول الله عليه السلام يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر ، فلم يرفع أحد منهم بصره إلا أبو بكر

وعمر فإنهما كانا ينظران إليه ويبتسمان إليه ويبتسم إليهما .

كان أبو بكر يجلس إلى جوار رسول الله فيبدو كأنه ملك فى زى مسكين ، وكان عمر بن الخطاب يجلس إلى جوار النبى عليه السلام كأنه جبل ، إنه مع الحق حيث كان . وقد قال فيه عليه السلام :

ـــ عمر معى وأنا مع عمر ، والحق مع عمر حيث كان .

إنه قال يوم أن أسلم :

ـــ يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟

ـــ بلى والذى نفسى بيده ، إنكم على الحق إن متم وإن حييتم .

ـــ يا رسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل ؟

ـــ يا عمر إنا قليل وقد رأيت ما لقينا .

ـــ والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان .

ثم خرج فى صفين حمزة فى أحدهما وعمر فى الآخر له كديد ككديد الطحين حتى دخلوا المسجد ، فنظرت قريش إلى عمر وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها ، فسماه رسول الله ـــ ﷺ ـــ يومئذ الفاروق .

إنه كلما تذكر أنه كان يصارع الفتيان فى سوق عكاظ ويمشى إلى صاحبات الرايات الحمر بكى ، وكان يدنى يده من النار ويقول :

ـــ يا بن الخطاب هل لك على هذا صبر ؟

ويبكى فقد أرهف الإسلام شعوره حتى إنه كان إذا أعجبه شىء من ماله تصدق به ، وكان كثيرا ما يتصدق بالسكر فقيل له فى ذلك فقال :

ـــ إنى أحبه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما

تحبون ﴾(١) .

إن جبار الجاهلية قد سما حتى رفعت الحجب بينه وبين الملكوت لما ألقى الله فى قلبه أنوار اليقين . وقد كان الصديق والفاروق مستشارى نبى الإسلام وقد قال عليه السلام فيهما :

ـــ أبو بكر وعمر منى بمنزلة السمع والبصر .

وكان عثمان بن عفان من حواريى رسول الله ـــ ﷺ ، ولما زوجه رسول الله عليه السلام بنته أم كلثوم قال لها :

ـــ إن بعلك أشبه الناس بجدك إبراهيم عليه السلام وأبيك محمد .

ودخل عثمان على النبى عليه السلام وركبته بادية ، فغطى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ركبته فقيل له :

ـــ دخل عليك أبو بكر وعمر وعلى فلم تغطها .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ إنى لأستحيى ممن استحيت منه الملائكة .

وكان يقال له ذو النورين لأن النبى ـــ ﷺ ـــ زوجه ابنته رقية فلما ماتت زوجه أم كلثوم .

وكان شديد الحياء حتى إنه ليكون فى البيت والباب مغلق عليه فما يضع الثوب عنه عند الغسل ليفيض الماء ، ويمنعه الحياء أن يقيم صلبه .

وكانت عيره تأتى من الشام وهى ألف بعير موسوقة برا وزيتا وزبيبا فيتصدق بها ويدخل بيته يأكل الخل والزيت ، وكان إذا مر على مقبرة بكى حتى تبتل لحيته .

---

(١) آل عمران ٩٢ .

وكان على بن أبى طالب ربيب النبى عليه السلام لا يفارق مجلسا من مجالس الرسول ـــ صلوات الله وسلامه عليه . إنه يتلقى منه العلم ويحاول أن يقفو أثره فى مكارم أخلاقه وكرمه وتواضعه . كان يصلى الظهر ذات يوم فى مسجد الرسول فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد شيئا ، فرفع السائل يديه إلى السماء وقال :

ـــ اللهم اشهد أنى سألت فى مسجد نبيك محمد ـــ ﷺ ـــ فلم يعطنى أحد شيئا .

كان على فى الصلاة راكعا فأومأ إليه بخنصره اليمنى وفيها خاتم ، فأقبل السائل فأخذه من خنصره وذلك بمرأى من النبى ـــ ﷺ ، فرفع رسول الله ـــ ﷺ ـــ طرفه إلى السماء وقال :

ـــ اللهم إن أخى موسى سألك فقال : ﴿ رب اشرح لى صدرى * ويسر لى أمرى * واحلل عقدة من لسانى يفقهو قولى * واجعل لى وزيرا من أهلى * هارون أخى * اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى ﴾(١) فأنزلت عليه قرآنا : ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما ﴾(٢) . اللهم وإنى محمد نبيك وصفيك ، اللهم فاشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واجعل لى وزيرا من أهلى عليا اشدد به ظهرى .

فما استتم دعاءه حتى نزل عليه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل وقال :

ـــ يا محمد اقرأ : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾(٣) .

---

(١) طه ٢٥ ـــ ٣١ (٢) القصص ٣٥ . (٣) المائدة ٥٥ .

وكان يقول :

ــ مفتاح الجنة الصبر . مفتاح الشرف التواضع . مفتاح الكـرم التقوى . من أراد أن يكون شريفا فليلزم التواضع . لا شرف لبخيل ، ولا همة لمهين ، ولا كنز أغنى من القناعة ، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت .

إنه نام فى فراش النبى ــ ﷺ ــ وقد اجتمعت قريش على قتل النبى عليه السلام ، يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ، وقد حارب يوم بدر أعداء الله فى شجاعة نادرة ، وقد أصابه يوم أحد ست عشرة ضربة ، وقتل يوم الخندق عمرو بن عبدود.إنه فارس بالنهار راهب بالليل جمع بين فصاحة اللسان وبتر الحسام .

وكان على يعرف مكانته فى قلب ابن عمه رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ، وكان يعرف حب رسول الله للزهراء فقال له ذات يوم :

ــ يا رسول الله أينا أحب إليك أنا أم فاطمة ؟

قال :

ــ فاطمة أحب إلى منك ، وأنت أعز على منها .

وكانت عائشة أم المؤمنين تقول :

ــ ما رأيت أحدا أشبه سمتا ولا هديا ولا حديثا برسول الله ــ ﷺ ــ من فاطمة ، وفى قيامها وقعودها .

كانت سيدة نساء المسلمين وكانت صالحة تقضى نهارها وليلها فى العبادة ، وكانت الأموال تأتى إلى أبيها وإلى زوجها من فىء الله فلا يدخلان دورهما قبل أن ينفقا فى سبيل الله ما ساقه الله إليهما . فكانت فى غاية من ضيق العيش لتكون أسوة لفقراء المهاجرين والأنصار وتنبيها للغافلين على

أن الدنيا ليست مطمع نظر الكاملين .

دخل عليها ذات يوم زوجها على بن أبى طالب وهى تطحن فقال لها :

— قد جاء أباك خدم كثير فاذهبى فاستخدميه .

ثم أتيا إليه جميعا فاطمة أحب أهله إليه وعلى بن أبى طالب من سأل الله أن يشدد به أزره ، فقالت فاطمة :

— يا رسول الله لقد طحنت حتى كلت يدى ، وقد جاءك الله بسعة فاخدمنا .

فقال :

— والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوى بطونها من الجوع .

وكانت عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وأم سلمة بنت زاد الركب وزينب بنت جحش فى دور النبى يتلقين عنه العلم . وما كان أحد أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة ، ولو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبى — ﷺ ، وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل .

كان عليه السلام يعلم رجال المهاجرين ونساءهم ورجال الأنصار ونساءهم كيف تكون الحياة الفاضلة على الأرض ، ويشرح لهم المنهج الدينى للحياة ، ويغير بالقدوة الحسنة والوصايا الطيبة نفوسهم ، فقد أنزل عليه : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[1] . إنه يجاهد الضعف البشرى والهوى البشرى فى نفوس الناس لتكون كلمة الله هى العليا فتتحقق فى الأرض عدالة السماء .

إنه يغرس فى أصحابه القيم التى تقوم عليها الحياة ، ويرسم لهم المنهج

---

(١) الرعد ١١ .

الذى يحقق كرامة الإنسان ويمنحه حريته ويطلقه من العبودية لغير الله : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[1] .

إنه يضع الأساس السليم لقيام نظام للحياة البشرية على دعائم طبيعية يقوم عليها صرح سعادة الناس فى الدنيا والآخرة محققا غاية الوجود الإنسانى ، فهو لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى من لدن خالق الوجود العليم بحقيقة الوجود وبحقيقة الإنسان .

إنه يقود الفطرة البشرية لتتناسق مع ناموس الوجود ، وإنه ليرشد البشر إلى التوافق مع الكون حتى لا يحطم الإنسان على صخرة العناد والضياع ، ويشقى فى تيه القلق والشك ، ويتمزق فى فيافى الحيرة ، ويتردى فى مهاوى الاضطراب .

إنه يملأ النفوس بالعزة والكرامة ومكارم الأخلاق ، ويرحمها من ذلك الخواء المرير المدمر ، ثمرة المتاع الحسى وفراغ الحياة والعقم الروحى والأخلاق المتحررة المتحللة التى تجد لذتها فى أحضان الرذيلة لحظات ، ثم تصبح أسيرة الأهواء والشرور والآثام .

إنه ينقل البشرية من وادى الدموع ، من أرض الضياع ، من دنيا الشقاء ، من كهوف الخوف ، إلى رفرفات الطمأنينة ، وطيبات السعادة ، وصراط السلام ، إنه يحطم الحواجز النفسية بين الإنسان وبين الله . إنه يعد رعاة الإبل ليكونوا رعاة الشعوب وفى قلوبهم نور وفى أيديهم كتاب منير .

---

(١) المائدة ٨ .

٢٥

الروح الإسلامية تسرى فى المدينة ، وصحابة الرسول ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ ينظرون إليه بعيون مفتوحة ويلقون إليه آذانا واعية . فهو المصطفى لهداية البشرية ، والأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، والقدوة التى يقتدى بها الذين يريدون أن يسيروا فى طريق الفكرة الإسلامية الصحيحة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . فمحمد رسول الله ـــ ﷺ ـــ يفيض عليهم كل يوم من إنسانيته ، ويلقنهم دروسا فى نظافة الحياة الزوجية وفى سمو الأبوة ، وفى رأفة الحاكم وعدله وحزمه ، وفى عدالة القاضى ، وفى براعة القائد ، وفى كفاح المجاهد ، وفى خشوع المتعبد ، وفى مزج الدنيا بالآخرة وربط الأرض بالسماء ، فقد جعل العمل عبادة والعبادة عملا ووحد بين الفكر والوجدان ، فأصبح أصحابه يسيرون بأجسامهم على الأرض وأرواحهم متعلقة بالسماء .

وكان رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ لا يغفل عن حماية المدينة حتى لا تسنح للكافرين فرصة أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فكان إذا سمع بأن قبيلة تجمع الجموع لتغير على المدينة لا ينتظر حتى ينحدر الحانقون إليه ويثخنوا فى أصحابه ، بل كان يبعث إليهم السرايا ليلقى الرعب فى قلوبهم ويشتت شملهم ، وقد جاء الخبر إلى رسول الله عليه السلام أن أم قرفة تسبه وأنها تحرض بنى فزارة على قتاله ، فلما تيقن ـــ صلوات الله وسلامه عليه الخبر ـــ بعث أبا بكر الصديق إلى فزارة .

كانت أم قرفة فى شرف من قومها وكان يعلق فى بيتها خمسون سيفا

كلهم لها محرم ، وكان لها اثنا عشر ولدا ومن ثم كانت العرب تضرب بها المثل فى العزة فتقول :

ـــ لو كنت أعز من أم قرفة ؟!

وكان لها ابنة من أحسن العرب أفاض الناس فى وصف حسنها ، وكانت ذات جمال حقا إلا أن قلبها كان يمتلئ حقدا على نبى الإسلام عليه السلام مثل قلب أمها . ولا غرو فقد كانت الأم تغذى ابنتها بكراهية الإسلام وأهله .

وخرج أبو بكر الصديق والذين معه إلى بنى فزارة بوادى القرى ، حتى إذا صلوا الصبح أمرهم فشنوا الغارة فوردوا الماء ، فدار قتال بين أبى بكر والمسلمين وبين بنى فزارة ، واستلأت جنبات الوادى بالتكبير وسقط الفزاريون صرعى . فلما رأت أم قرفة أن الدائرة تدور على قومها أخذت ابنتها والذرارى وراحوا يهرولون نحو الجبل .

ورأى مسلمة بن الأكوع الطائفة التى ولت الأدبار فخشى أن يسبقوه إلى الجبل فأدركهم ورمى بسهم بينهم وبين الجبل . فلما رأوا السهام وقفوا فدنا مسلمة منهم فإذا بأم قرفة عليها قشع من أدم (فروة خلقة) معها ابنتها من أحسن العرب ، فجاء بهم يسوقهم إلى أبى بكر فنفله ابنتها .

وعادت السرية بالأسرى إلى المدينة وما كشف مسلمة لبنت أم قرفة ثوبا . وذكر له ـــ ﷺ ـــ جمالها فتذكر أسيرا مسلما كان فى أيدى قريش فطافت بذهنه فكرة أن يسأل مسلمة أن يهب له المرأة فيبعث بها إلى قريش ليفدى الأسير المسلم الذى كان فى أيدى المشركين .

والتقى عليه السلام بمسلمة بن الأكوع فى السوق فقال له :

ـــ يا مسلمة ما جارية أصبتها ؟

ـــ يا رسول الله جارية رجوت أن أفدى بها امرأة منا فى بنى فزارة .

وانصرف رسول الله عليه السلام يفكر ، إن مسلمة يريد أن يفدى امرأة من أهله ببنت أم قرفة وهو يريد أن يفدى بها أسيرا مسلما بين يدى قريش ، وراح يقارن بين الفداءين فرجحت كفة فداء أسير مكة ، والتقى رسول الله فى السوق بابن الأكوع فقال له :

ـــ يا مسلمة هب لى المرأة لله أبوك .

ـــ هى لك يا رسول الله .

فبعث بها رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى مكة ففدى بها ذلك الأسير .

وقال عليه السلام لعبد الرحمن بن عوف :

ـــ تجهز فإنى باعثك فى سرية من يومك هذا ومن الغد إن شاء الله تعالى .

ثم أمره أن يسرى من الليل إلى دومة الجندل فى سبعمائة ، فراحوا يتجهزون وعسكروا خارج المدينة ، فلما كان وقت السحر جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقال :

ـــ أحببت يا رسول الله أن يكون آخر عهدى بك .

وسار عبد الله بن عمر ليسمع وصية رسول الله ـــ ﷺ ـــ لعبد الله بن عوف ، فما كان عبد الله يحب أن يفوته فعل أو قول لمحمد ـــ صلوات الله عليه وعلى آله ، فإذا فتى من الأنصار أقبل يسلم على رسول الله ـــ ﷺ ـــ ثم جلس فقال :

ـــ يا رسول الله أى المؤمنين أفضل ؟

ـــ أحسنهم خلقا .

ـــ وأى المؤمنين أكيس ؟

ـــ أكثرهم للموت ذكرا وأحسنهم له استعدادا قبل أن ينزل بهم ، أولئك الأكياس .

ثم سكت الفتى فأقبل رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا نزلت بكم ـــ وأعوذ بالله أن تدركوهن :

بانه لن تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا .

وما نقص المكيال والميزان فى قوم إلا أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات وشدة المؤنة وجور السلطان لعلهم يذكرون .

وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عنهم قطر السماء ولولا البهائم لم يسقوا .

وما نقض قوم عهد الله ورسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذ ما كان فى أيديهم .

وما حكم قوم بغير كتاب الله إلا جعل الله تعالى بأسهم بينهم .

وكان على رأس عبد الرحمن بن عوف عمامة غليظة فنقضها رسول الله ـــ ﷺ ـــ بيده ثم عممه بعمامة سوداء وأرخى بين كتفيه منها أربع أصابع أو نحوا من ذلك ، ثم قال :

ـــ هكذا يا بن عوف فاعتم فإنه أحسن وأعرف .

ثم أمر بلالا أن يدفع إليه اللواء فدفعه إليه ، وقام ـــ ﷺ ـــ فحمد الله ثم صلى على نفسه ثم قال :

ـــ اغز باسم الله وفى سبيل الله ، فقاتل من كفر ولا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليدا فهذا عهد الله وسنة نبيكم فيكم .

ثم قال — صلى الله عليه وسلم — له :

— إذا استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم .

وسار عبد الرحمن بن عوف ومن معه إلى دومة الجندل ليدعو أهلها إلى الإسلام ، إلى نور الله ، إلى المبادئ السامية التى اعتنقها من قبل دومة بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن ، تلك المبادئ التى طمستها أساطير الشعوب .

وكان الأمل يراود عبد الرحمن فى أن يستجيبوا لدعوة الحق فقد اعتنق ملكهم النصرانية من قبل لما اتضحت له أن ما تدعو إليه المسيحية أسمى من الجاهلية التى رانت على ملكه ، فمثل ذلك الرجل الذى يبحث عن الحقيقة دون تعصب لمعتقدات الآباء من اليسير أن يتفتح فؤاده لنور الحق .

وقدمت سرية عبد الرحمن بن عوف دومة الجندل فذهب إلى قصر ملكهم الأصبغ بن عمرو الكلبى وهو يتلفت . كانت مدينة حصينة كأنها قلعة فى الصحراء . إنها شهدت معارك طاحنة بين بنى إسماعيل والأشوريين ، وإن السبعمائة الذين معه لا قدرة لهم على دك حصون المدينة فما جاء ليغزو الحصون بل ليغزو القلوب ، فإذا ما نجح فى أن يفتح أفئدة الناس فما أيسر أن تدين له المدينة كلها بالولاء .

واجتمع الأصبغ بن عمرو الكلبى وحاشيته ورجال دينه بعبد الرحمن بن عوف وصحابة الرسول عليه السلام ، وعرض عبد الرحمن على القوم الإسلام فاحتقنت الوجوه بالدم وزمجرت الثورة فى الصدور ، وقال قائل فى غضب :

— ليس بيننا وبينكم إلا السيف .

ولم ينفعل عبد الرحمن وجعل يسرد على مسامعهم مبادئ الإسلام فإذا

بملكهم الأصبغ بن عمرو الكلبي يمتلئ بنفس الشعور الذى امتلأ به النجاشي لما قرأ عليه جعفر بن أبي طالب القرآن . إنه يحس فى أعماقه أن ما جاء به محمد عليه السلام وما جاء به السيد المسيح من مشكاة واحدة .

وأرخى الليل ستره والحوار دائر بين أتباع محمد وأتباع المسيح والأصبغ ابن عمر الكلبي يصغي وقد انفعل بأقوال الرجال الذين جاءوا من المدينة وأعجب بفعالهم ، فما شغلتهم المناقشات عن ذكر الله .

وفى اليوم التالى انعقد المؤتمر الدينى : أصحاب محمد عليه السلام يتلون القرآن العظيم فيهز القلوب ويجعل الدموع تفيض من الأعين ، ويشرحون مبادئ العقيدة السمحة فإذا بها عقيدة ميسرة تحض على مكارم الأخلاق وتأخذ بيد الناس إلى قمم البشرية .

ودخل الملك الأصبغ بن عمرو الكلبي لينام ولكن النوم جافاه فآيات الله البينات تدوى فى عين ذاته وتشغله عن النوم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾[1] ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين * أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون * واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾[2] .

---

(١) المائدة ١٠٥ (٢) البقرة ٤٠ — ٤٦ .

وظلت الآيات تتردد فى نفسه وهو شارد يفكر فيحس أن ما سمعه فى يومه قد أنار له الطريق وأرشده إلى السبيل ، وأنه ولا ريب الدين الذى دعا إليه كل الرسل والأنبياء ، وأنه الحنيفية السمحاء . وفى ظلمات الليل رأى بعين بصيرته أنوارا تبهر كل الأنوار ، أنوار تستقر فى الفؤاد وتنعكس منه لتفيض على الوجود ضياء ربانيا يغمر عالم الملكوت ، يشاهد به ما وراء الحواس .

وفى اليوم التالى عاد عبد الرحمن بن عوف وقلة من أصحابه إلى قصر الملك ، وجاء الملك ورهبانه وخاصته وكان متطلق الوجه يرنو إلى المسلمين فى عطف بعد أن استقر فى وجدانه أنهم حزب الله .

وراح المسلمون يقرءون القرآن فأطرق الأصبغ بن عمرو الكلبى ينصت فيستشعر كأن القراءة تنسكب فى قلبه بالأنوار ، وأطبق الرهبان الشفاه فقد ألقوا السمع إلى ابن عوف وهو يرتل القرآن ترتيلا فيمس فى نفوسهم أوتار الإيمان ، ومات الجدل بعد أن جاءهم برهان من ربهم فما يقصه القرآن من أنباء الرسل ومن أنباء ما قد سبق قد ثبت الإيمان فى قلوبهم ، فما كان لبشر مهما تفقه فى الدين أن يكون عنده كل هذا العلم ، إنما العلم عند الله وإنما محمد نذير مبين .

وقال الملك الأصبغ بن عمرو الكلبى فى انفعال شديد وقد كسا الإيمان وجهه :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وتهللت وجوه المسلمين بالبشر وخفقت القلوب بالفرح ، وراح الرهبان ينطقون شهادة الحق فظفرت الدموع من أعين عبد الرحمن بن عوف والذين معه ، فقد كان إسلام القوم أحب إليهم من قتالهم والانتصار عليهم وأسر الذرارى وسوق النعم . فقد بعث محمد عليه السلام هاديا و لم

يبعث جابيا .

وأسلم الأصبغ بن عمرو وأسلم معه ناس كثيرون من قومه ، وأقر من أقام على كفره بإعطائه الجزية عن يد وهم صاغرون .

وأرسل عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله — ﷺ — يخبره بإسلام القوم فانشرح صدره عليه السلام ، فقد كان يسره أن يدخل الناس فى دين الله ، ولكن إسلام الأصبغ بن عمرو الكلبى كان شيئا آخر له خطره فقد أصبحت قلعة حصينة فى طريق الشام والعراق يخفق فى جنباتها نور الله ، وستكون دومة الجندل نقطة ارتكاز عندما يأتى ذلك اليوم الذى يتحقق فيه وعد الله بأن يرث المسلمون ملك الفرس وملك الروم .

وأراد رسول الله — ﷺ — أن يشد الأواصر بين أصحابه وبين الكلبيين ، فكتب عليه السلام إلى عبد الرحمن بن عوف أن تزوج بنت الأصبغ ، فلما جاء إليه الكتاب لم يتردد فقد قال له عليه السلام يوم بعثه : « إذا استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم » وها هو ذا عليه السلام يبعث إليه بكتاب يأمره فيه بأن يتزوج بنت الأصبغ ، ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾[1] .

وتزوجها عبد الرحمن بن عوف وهى أول كلبية نكحها قرشى ، ومكث فى دومة الجندل وقد هدى الله به أقواما ، ثم قدم بها المدينة وقد ربط الأسباب بين دومة الجندل والمدينة .

---

(١) الأحزاب ٣٦ .

٢٦

كان علي بن أبي طالب ربيب رسول الله ــ ﷺ ــ يتلقى عنه الحكمة والعلم ويتخذه أسوة ، وكان ابنه الحسن يدعوه أبا الحسين ويدعوه الحسين أبا الحسن ويدعوان رسول الله ــ ﷺ ــ أباهما ، وكناه رسول الله عليه السلام أبا تراب فكانت من أحب كناه إليه ، وكان يفرح إذا دعى بها ، وقال له رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه :

ــ أنت يعسوب(١) الدين والمال يعسوب الظّلمة .

وهاجرت أمه فاطمة بنت أسد مع المهاجرين وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وآله ــ يكرمها ويعظمها ويدعوها أمي ، وأوصت إليه حين حضرتها الوفاة فقبل وصيتها وصلى عليها ونزل في لحدها واضطجع معها فيه بعد أن ألبسها قميصه ، فقال له أصحابه :

ــ إنا ما رأيناك صنعت يا رسول الله بأحد ما صنعت بها ؟

فقال :

ــ إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها .

لم ينس رسول الله ــ ﷺ ــ صنيع أبي طالب به ، وإنه ليذكر على الدوام تلك الأيام التي كفله فيها عمه بعد موت جده عبد المطلب ، وكلما نظر إلى علي كرم الله وجهه تذكر أيام أن وقف أبو طالب إلى جواره يشد أزره ويمنع عنه أذى قريش ويقول له : قل ما أحببت . وإن لم يدخل في دين

---

(١) اليعسوب : ذكر النحل وأميرها .

الله .

لم يعترض عمه على إسلام على بل قال له اتبعه فإنه يدعوك إلى مكارم الأخلاق . وكان على فى حجره عليه السلام فصار له أبا روحيا ينهل من علمه أشرف العلوم ويقتبس منه الفضائل وسحر البيان ، ويقتدى به فى شجاعته وسخائه وجوده ، فرسول الله عليه السلام رئيس الفضائل وينبوعها ، كل من بزغ فيها بعده فمنه أخذ وله اقتفى وعلى مثاله احتذى .

كان على الشجاع الذى ما فر قط ولا ارتاع من كتيبة . ولا بارز أحدا إلا قتله ، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الأولى إلى الثانية ، كانت ضرباته وترا . وكانت العرب تفتخر بوقوفها فى الحرب فى مقابلته ، وكان رهط قتلاه يفتخرون بأن قاتل الأحبة على كرم الله وجهه ، قالت أخت عمرو ابن عبد ود ترثيه :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله   بكيته أبدا ما دمت فى الأبد

لكن قاتله من لا نظير له   وكان يدعى أبوه بيضة البلد

ما صارع أحدا قط إلا صرعه ، وكان يصوم ويطوى ويؤثر بزاده وفيه أنزل : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾[(١)] .

وكان يسقى بيده لنخل قوم من يهود المدينة حتى ثخن جلده ، ويتصدق بالأجر ويشد على بطنه حجر ، إنه على الخلق الذى يحبه الله السخاء والوجود ، ما قال لا لسائل قط .

وكان أحلم الناس عن ذنب بعد رسول الله عليه السلام وأصفحهم عن

---

(١) الإنسان ٨ — ٩ .

مسىء ، لا تصدر أفعاله إلا عن الدين والورع ، ولا جرم فهو ريان على الدوام من حكمة ينبوع الحكمة وموارد علم رسول الله عليه — صلوات الله وسلامه .

وكان سيد المجاهدين ، قُتل فى غزوة بدر سبعون من المشركين قتل علىّ نصفهم . وجدل صناديد قريش فى أحد ، وترك عمرو بن عبد ود فارس قريش يوم الخندق كأمس الدابر . وكان لا يجارى فى الفصاحة ولا يبارى فى البلاغة ، وكان طلق المحيا دائم البشر لين الجانب شديد التواضع ، ولا غرو فهو يرى إمام المتواضعين ينام على الحصير ، وكان مُهابا .

ما شبع من طعام قط ، وكان أخشن الناس مأكلا وملبسا يأتدم إذا ائتدم بخلّ أو ملح ، فإن ترقى عن ذلك فبعض نبات الأرض ، فإن ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الإبل ، وكان يأبى أن يجعل بطنه مقابر الحيوان !

كان يحفظ القرآن وكان من أسدّ الناس رأيا وأصحهم تدبيرا ، متقيدا بالشريعة لا يرى خلافها ، خشنا فى ذات الله ، زوجته سيدة نساء العالمين ، والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . إنه قرة عين رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، ولكنه عليه السلام لم يبعده عن المخاطر بل كان يدفعه إلى الجهاد فى سبيل الله ، فخاتم الأنبياء كان على اليقين من أن المرء لن يصيبه إلا ما كتب الله له .

كانت خيبر تغلى بالحقد على نبى الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه لما أجلى بنى قينقاع وبنى النضير عن المدينة نزل أغلبهم على يهود خيبر ، ولما أصدر سعد بن معاذ حكمه فى بنى قريظة بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء قُتل حُيى بن أخطب سيد بنى النضير فيمن قتل ، فكان بنو النضير يتحرقون شوقا إلى الثأر من صيادى

اليهود .

كان اليهود فى خيبر يعلمون أنهم أهون من أن يشنوا حربا على المسلمين ، وكانوا يرون أن تأليب القبائل عليهم هو الوسيلة التى تمكنهم من الثأر من قتلة الأحبة .

ولكن ذكرى خروج ساداتهم إلى قريش لتزيين قتال المسلمين كانت تؤرقهم ، فلم تتمكن جيوش الأحزاب من استئصال شأفة أعدائهم بل كانت وبالا على حيى بن أخطب وعلى بنى قريظة بله على اليهود أجمعين ، فلم يعد لهم حصون ولا معاقل ولا آطام فى المدينة ، فرأوا أن يستعينوا بجيرانهم وأن يشنوا على المسلمين هجوما على غرة فتكون لهم المبادرة فيحققون ما عجزوا عن تحقيقه فى كل ما سبق من تدبير .

أرسلوا رسلهم إلى بنى سعد بن بكر بفدك فراحوا يفاوضونهم على أن يمدوهم برجال لحرب المسلمين على أن يجعلوا لهم تمر خيبر فى تلك السنة ، فأسال العرض لعاب بنى بكر فقبلوه وراحوا يعدون العدة للسير مع يهود خيبر إلى المدينة ، وهم يحلمون بهزيمة المسلمين وقتل الرجال وتقسيم الأموال وسبى الذرارى، والنساء .

وبلغ رسول الله — ﷺ — أن لبنى سعد جمعا يريدون أن يمدوا به يهود خيبر ، فبعث ربيبه الحبيب على بن أبى طالب فى مائة رجل ليهاجموا ذلك الجمع فى عقر دارهم ليشتتهم ويلقى الرعب فى قلوبهم قبل أن يتدفقوا على مدينة الرسول .

سار على فى مائة رجل من أصحاب الرسول فى شعبان سنة ست من الهجرة إلى بنى سعد بن بكر بفدك وكان بينها وبين المدينة ست ليال ، فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى لا يحسوا بخروجه ، إلى أن نزل برجاله محلا

بين خيبر وفدك ، فوجدوا به رجلا فسألوه عن القوم فقال :

ــ لا علم لى .

فشدوا عليه فأقر أنه عين لهم خرج يتنسم الأخبار وقال :

ــ أخبركم على أن تؤمنونى .

فأمنوه فدلهم فأغاروا عليهم وأخذوا خمسمائة بعير وألفى شاة ، وهربت بنو سعد بالذرارى والنساء . فعزل على رضى الله عنه صفى[1] رسول الله ــ ﷺ : لقوحا تدعى الحفدة[2] ، ثم عزل الخمس لله ورسوله وقسم الباقى على أصحابه .

وامتلأت المدينة بالبعير والشاء ، وكان نصيب الله ورسوله الخمس : مائة من الإبل وأربعمائة شاة وإنها لشىء كثير لو أمسكها عليه السلام لأغنته ، ولكنه وزعها جميعا على فقراء المسلمين . ولم يدخل على كرم الله وجهه على زوجه وأبنائه إلا بعد أن تصدق بنصيبه كله على الفقراء والمساكين ، فقد كان له فى رسول الله أسوة حسنة ، فهو يرجو الله واليوم الآخر .

---

(١) الصفى : ما يختاره الرئيس لنفسه قبل القسمة .

(٢) الحفدة : السريعة .

٢٧

كانت قريش تتأهب لرحلة الصيف وكان سادات قريش يجتمعون فى دار الندوة وفى الحرم وتحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، فأبو سفيان بن حرب زعيم القافلة كان كسير القلب فقد جاءته الأنباء بأن ابنته أم حبيبة قد ركبت السفينة لتنطلق مع المسلمين الذين كانوا فى الحبشة إلى المدينة ؛ إنها ستزف إلى محمد عدوه اللدود وإن هذه الزيجة لتزلزل الأرض تحت قدميه .

وكان يزيد فى قلقه أنه خارج إلى الشام فى رحلة طويلة وسيغيب عن مكة شهورا لا يدرى ما قد يقوم به ابن عبد الله ، فمذ أن أخفقت الأحزاب فى القضاء على ابن أبى كبشة وحزبه فالإسلام يزحف فى كل مكان ، ومحمد يضرب أعداءه كلما فكروا فى أن يجمعوا له الجموع فهو يسير إليهم ويشتتهم قبل أن يتحركوا لقتاله . فمن يدرى قد يزحف محمد إلى مكة فى غيابه ويضع يده على قلب جزيرة العرب النابض فيصبح زعيم العرب بلا منازع ، ويعلو بيت بنى هاشم بينا يصير بيت بنى أمية فى الظل .

كانت الزعامة هى شغل أبى سفيان الشاغل وكانت الدنيا هدفه ، إنه لا يريد أن يصدق أن محمدا — صلوات الله عليه وسلامه — رسول من عند الله وإن كان يعلم أنه صدوق لا يكذب ، وأنه قاتله حتى لا يفقد مكانته فى قريش فقد جاء محمد أمرا لا يبقى معه شرف فقاتله حمية وكراهة أن يذهب بشرفه .

وكان حكيم بن حزام قد أشرف على الستين . إنه ولد قبل قدوم أصحاب الفيل وهو يعقل حين أراد عبد المطلب أن يذبح ابنه عبد الله حين

وقع نذره ، وشهد مع أبيه الفجار ، وقتل أبوه حزام بن خويلد فى الفجار الآخر . وكان حكيم يكنى أبا خالد وكان له من الولد عبد الله وخالد ويحيى وهشام ، وأمهم زينب بنة العوام بن خويلد . كان صاحب دار الندوة وكان شريفا فى قومه ، وإن ذلك الشرف أسدل غشاوة على عين بصيرته فلم ير النور الذى بهر عمته خديجة بنت خويلد حاضنة الإسلام وأم المؤمنين ، والزبير بن العوام ، وسادات قريش من المهاجرين .

إنه كان يعجب فى نفسه من تلك المكانة التى بلغها الفتى زيد بن حارثة فى الدين الجديد ، إنه اشتراه بضاعة من سوق عكاظ ووهبه لعمته خديجة ، فلما تزوجت محمد بن عبد الله وهبته له فتبناه ابن عبد الله ، وكان ذلك شيئا يفوق تصور حكيم بن حزام .

كان حكيم يحسب أن أمر الغلام اليفعة(١) الذى اشتراه بأربعمائة درهم سيقف عند حد التبنى ، وما خطر له على قلب أن الرجل القصير الآدم أفطس الأنف قد يأتى يوم يتزوج فيه من عقيلة من عقيلات بيوت الشرف فى مكة .

إنه لما سمع أن زيد بن حارثة تزوج زينب بنت جحش ، وأن المسلمين يقولون إن ذلك الزواج قد جاء الأمر به من فوق سبع سموات كاد يطيش لبه ، فقد كان يرى أن الفتى أهون من ذلك ، وأن محمد بن عبد الله قد وصم أشراف قريش بعار لن تمحوه الأيام ، فسادة قريش كانوا يعتقدون أنهم خلقوا من طينة أشرف من طينة العبيد بله من كل البشر !

وكان حكيم شارد اللب فقد كانت مخاوف أبى سفيان تراوده ؛ فمن

---

(١) اليفعة : الغلام راهق العشرين من عمره .

يدرى قد يفجأ ابن عبد الله أم القرى بالهجوم وهم غائبون عنها ؟!

ومر به رجل وهو يشرف على وضع بضاعته على ظهور الإبل فقال له :

— ما المال يا أبا خالد ؟

قال :

— قلة العيال .

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يستشعر فى قرارة نفسه قرب هبوب عاصفة على بيت الله . كان أخا رسول الله — ﷺ — من الرضاعة ، أرضعته حليمة أياما ، وكان يألف ابن عمه ، فلما بعث رسول الله — ﷺ — عاداه وهجاه وهجا أصحابه ، فمكث ما يقرب من عشرين سنة مناصبا لرسول الله العداء لا يتخلف عن موضع تسير فيه قريش لقتال رسول الله — ﷺ .

كان أبو سفيان بن الحارث شاعر البيت الهاشمى بعد الزبير بن عبد المطلب وأبى طالب ، وكان ككل الشعراء معجبا بشعره فلما أنزل على ابن عمه القرآن المجيد تحرك حسده . فما يتلوه عجب لا هو بالشعر ولا هو بزمزمة الكهان ، إنه يعرف طريقه إلى قلوب الناس . فعادى ابن عمه حتى لا يذهب مجد الشعر والشعراء ، ولج فى العداوة لما سخر القرآن بالشعر والشعراء . كان كل ما يشغله مجده ، وكان كأبى سفيان بن حرب يعرف أن ما جاء به ابن عمه لا يبقى معه شرف .

وكان العباس بن عبد المطلب وخالد بن الوليد يتشاوران فهما شريكان فى التجارة ، ويقرضان بنى ثقيف أموالا بالربا ، وكان العباس يكتم إسلامه وكان يتعامل بالربا فى حرمه بعد الإسلام .

وكان العباس أكثر سادات قريش المجتمعين عند الحرم اطمئنانا . إنه

يرى انتشار الإسلام فى القبائل فيثلج ذلك صدره ، وقد استشعر بالفرح لما هاجر نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم إلى المدينة ليعلن إسلامه .

كان نوفل يكنى أبا الحارث بابنه الحارث ، وكان أسن من أسلم من بنى هاشم ، وكان أسن من عميه حمزة والعباس وأسن من إخوته ربيعة وأبى سفيان وعبد شمس بن الحارث .

أسر نوفل بن الحارث ببدر فقال له رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ افد نفسك يا نوفل .

قال :

ـــ مالى شىء أفدى به يا رسول الله .

ـــ افد نفسك برماحك التى بجدة .

ـــ أشهد أنك رسول الله .

وأسلم نوفل بن الحارث وكان شريك العباس وكانا متفاوضين فى المال متحابين . فلم يحزن العباس لهجرة نوفل بل شكر الله أن هداه للإسلام ، ولولا أنه فى مكة يتحسس الأخبار لرسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ لهاجر إلى المدينة ، فهناك الأحبة زوجه أم الفضل وابنه عبد الله .

وكان ربيعة بن الحارث أسن من عمه العباس بسنين . إنه لم يحضر بدرا مع المشركين ، كان غائبا بالشام . ثم قدم بعد ذلك على رسول الله ـــ ﷺ ـــ مهاجرا أيام الخندق ، وقد تهلل العباس بالفرح لإسلامه وإن أخفى سروره بين جنبيه .

وكان عقيل بن أبى طالب فيمن أسر يوم بدر وكان لا مال له ، وقال رسول الله عليه السلام فى ذلك اليوم :

ـــ انظروا من ههنا من أهل بيتى من بنى هاشم ؟

فجاء على بن أبى طالب عليه السلام فنظر إلى العباس ونوفل وعقيل ثم رجع فناداه عقيل :

ـــ يا بن أم على ، أما والله لقد رأيتنا .

فجاء على إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ يا رسول الله رأيت العباس ونوفلا وعقيلا .

فجاء رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى قام على رأس عقيل فقال :

ـــ أبا يزيد قتل أبو جهل .

قال عقيل :

ـــ إذا لا تنازع فى تهامة إن كنت أثخنت القوم وإلا فاركب أكتافهم .

كان العباس يحب ابن أخيه نبى الإسلام عليه السلام ، وقد آمن برسالته وإن أخفى ذلك عن قومه وبقى بينهم يعد عليهم حركاتهم وسكناتهم ويبعث بها إلى رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه .

وكان يعلم أن خزاعة مسلمهم وكافرهم يحبون محمدا عليه السلام ، فكان يجد فيهم خير عون على تبليغ رسالته إلى المدينة ، إنه وهب لابن أخيه مولاه أبا رافع وقد هاجر أبو رافع إلى المدينة بعد بدر ، وشاهد مع الرسول ـــ ﷺ ـــ أحدا والخندق والمشاهد كلها .

كان العباس مطمئن الفؤاد بينا كان شريكه خالد بن الوليد قلقا يشترك فى حروب قريش ضد رسول الله ـــ ﷺ ـــ بروح القائد الحربى ، فهو فارس قد تخلق بأخلاق الفرسان ، إذا خاض غمار معركة لم يكن له هم إلا أن ينتصر ، ولكنه إذا ما فكر فى الانقسام الذى طرأ عل المخزوميين بعد أن جاء الإسلام كانت الحيرة تتجاذبه لا يدرى أى الفريقين على صواب .

كان أبوه الوليد بن المغيرة يلقى سمعه إلى رسول الله عليه السلام وكان يعجب بالقرآن ، وقد اتهمه سادات قريش أكثر من مرة بأنه صبأ ودخل فيما جاء به محمد بن عبد الله ، ولكن أباه مات على دين آبائه فصار خالد لا يدرى أكان أبوه على حق لما مال إلى الإسلام أم كان على حق لما مات على دين الآباء والأجداد ؟

وكثيرا ما كان خياله يسرح فى المخزوميين الذين هاجروا إلى المدينة لينضووا تحت راية الإسلام ؛ خرج مسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد مهاجرين إلى محمد فطلبهم ناس من قريش ليردوهم فلم يقدروا عليهم ، فلما كانوا بظهر الحرة انقطعت أصبع الوليد فدميت فقال :

هل أنت إلا أصبع دميتِ   وفى سبيل الله ما لقيتِ

قد هزه ما قال أخوه أثناء هجرته ، ولكن ما كان من عياش بن أبى ربيعة كان أعمق أثرا فى نفسه ، فأبو جهل قد ذهب إلى المدينة واحتال على أخيه حتى عاد به إلى مكة ، فقام إليه بنو مخزوم وبنو ربيعة يضربونه بالسياط ويقولون لسادات قريش :

ــ هكذا افعلوا بالصابئين من رجالكم .

وحبس عياش فى مكة وظل قلبه يهفو إلى المدينة وإلى رسول الله حتى واتته الفرصة ففر إلى المسلمين . إن خالد كلما فكر فيما كان من الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة يستشعر حيرة وتلقى فى نفسه بذور الشك فى آلهته . أكان هؤلاء السادة يتحملون الاضطهاد وآلام الغربة والجفوة بينهم وبين أهليهم لو كان دين الآباء خيرا مما يدعوهم إليه محمد بن عبد الله ؟

وأحس خالد أسى لما طاف بذهنه موت الوليد . إنه ليرى الناعى وقد جاء إليه يقول : انقطع فؤاد الوليد فمات بالمدينة فبلغته أم سلمة ابنة أبى أمية زاد الركب فقالت :

يـــا عين فابكـــى للوليـــد بـــن الوليـــد بـــن المغيرة
مثـــل الوليـــد بـــن الوليـــد أبى الوليـــد كفـــى الـــعشيرة

فقال رسول الله ـــ ﷺ : لا تقولى هكذا يا أم سلمة ولكن قولى : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾[1] .

وراحت آيات من القرآن ترن فى أغوار نفس خالد بن الوليد وهو فى حيرته لا يدرى أيصم عنها أذنيه أم يلقى إليها سمعه .

وكان هبار بن الأسود بن عبد المطلب جالسا فى نادى قومه يمد عينيه إلى العبيد الذين يحملون السلع ليضعوها على ظهور الإبل . إنه عادى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ونصب له وآذاه ، وإنه كلما خلا بنفسه تذكر يوم أن بعث محمد بن عبد الله إلى زينب ابنته من يقدم بها من مكة فعرض لها فى نفر من قريش فنخس بها وقرع ظهرها بالرمح وكانت حاملا فأسقطت ، فردت إلى بيوت بنى عبد مناف .

لقد جاءت إليه الأنباء أن محمدا ما بعث سرية قط إلا قال : إن ظفرتم بهبار فاقطعوا يديه ورجليه ثم اضربوا عنقه ، فكان جلده يقشعر من الخوف كلما طافت بفكره ذكريات ذلك اليوم ، ودوى بين جنبيه وعيد رسول الله ـــ ﷺ . وكانت مخاوفه تربو كلما هجس فى نفسه هاجس أن محمد بن عبد الله ما توعد أحدا إلا نفذ فيه وعيده ، إنه قال لأبىّ بن خلف

---

(١) ق ١٩ .

يوم أن هدده أبيّ بالقتل : أنا أقتلك إن شاء الله ، وقد قتله يوم أحد .

أصبحت حياة هبار بن الأسود جحيما ، بات يخشى أن يبتعد عن مكة حتى لا تظفر به سرايا محمد بن عبد الله فتقطع يديه ورجليه ثم تضرب عنقه . وأصبح مهددا بالقتل حتى وهو فى عقر داره ، فأنصار محمد يزحفون على أعداء نبيهم ويقتلونهم فى فراشهم .

كان حويطب بن عبد العزى العامرى باسر الوجه . إنه يجلس بين سادات قريش شارد اللب فهو يعلم أن ما يدعو إليه محمد بن عبد الله حق ، ولقد هم بالإسلام غير مرة ولكن الحكم بن أبى العاص عم عثمان بن عفان يعوقه وينهاه ويقول :

— تضع شرفك وتدع دين آبائك وتصير تابعا ؟

ما كان من قريش أحد من كبرائها الذين بقوا على دين قومهم أكره لما هو عليه منه ، ولقد شهد بدرا مع المشركين فرأى عبرا فقال فى نفسه : « هذا رجل ممنوع » . فانهزموا إلى مكة وهو يفكر فيما رأى وقريش تسلم رجلا رجلا وهو يهم بأن يسلم لولا خشيته من الحكم بن أبى العاص ومن أن يعذبه مثل العذاب الذى أنزله بعثمان بن عفان ابن أخيه .

وكانت بينه وبين أبى ذر الغفارى خلة[1] . إنه يثق فى أبى ذر وفى رجاحة عقله ، وقد رآه يوم أن أسلم وأعلن إسلامه على الملأ فى الحرم وما ناله من أذى قريش وهو ثابت على الحق ، فكان يتمنى لو أوتى شيئا من شجاعة صديقه ليثور على الحكم بن أبى العاص بله على قريش كلها ويشهد شهادة الحق لا يخشى فى الله لومة لائم ، إنه يريد الإسلام ويأبى الله عز وجل

---

(١) خلة : صيفة حميدة .

إلا ما يريد .

وأقبل الناس من الدور لتوديع الأحبة الخارجين إلى الشام ، وخرجت هند بنت عتبة ومعاوية بن أبى سفيان ، وأمية بنت أبى سفيان وزوجها حويطب بن عبد العزى ، ويزيد بن أبى سفيان وعتبة بن أبى سفيان وعمرو ابن أبى سفيان ، وصخرة بنت أبى سفيان وزوجها سعد بن الأخنس بن شريق الثقفى — وهو الذى قال فيه النبى — ﷺ : أبعده الله فإنه كان يبغض قريشا — وأصهار أبى سفيان وأنسباؤه لتوديع شيخ بنى أبى سفيان ابن حرب فكادوا أن يملئوا الفضاء ، فنظر أبو سفيان إليهم وهو سعيد وقد رفت على شفتيه ابتسامة زهو .

وكثر العناق واستيقظت أرق المشاعر فى القلوب وجرت الدموع إلى العيون ، وشغل الناس بمشاعرهم حتى كادوا أن يغيبوا عن الوجود ، وأذن مؤذن القوم حى على الرحيل ففصلت العير ، وانطلق ألف بعير وثلاثمائة رجل من التجار ومن الأحابيش الذين يحرسون القافلة إلى سوق بصرى يداعب الذهب الأصفر أخيلة الشيوخ ويحلم الشباب ببنات بنى الأصفر .

ووقف الرجال والنساء والولدان والإماء والعبيد يرصدون القافلة المنسابة فى الصحراء نحو الأفق البعيد تحمل الأحبة وأعز ما يملكون ، وقد وقف معهم من وُكل إليهم أمر الناس : سُهيل بن عمرو وُحوَيطب بن عبد العزى وُعروة بن مسعود وبديل بن ورقاء سيد خُزاعة ، لا يدرون ما يخبئ لهم القدر من مفاجآت ﴿ فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾[1] .

---

(١) يونس.٢٠ .

٢٨

كان بنو النَّضير يعيشون فى خيبر على أمل أن يأتى اليوم الذى يثأرون فيه من نبى الإسلام والمسلمين على ما نال اليهود من هوان وتشريد ، وكان يهود خيبر متشوقين للثأر من المسلمين لمقتل سيدهم أبى رافع بن سلام بن أبى الحقيق فأمروا عليهم أسير بن رِزام وكان أكثرهم مقتا لرسول الإسلام عليه السلام ، فقال :

ــ إنى صانع بمحمد ما لم يصنعه صحابى .

فقالوا له :

ــ وما عسيت أن تصنع ؟

ــ أسير فى غطفان فأجمعهم لحربه .

ــ نعم ما رأيت .

فسار والحقد ينهش قلبه فى غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول الله ، فبلغ ذلك رسول الله ــ ﷺ ــ فوجه إليه عبد الله بن رواحة فى ثلاثة نفر سرا يسأل عن خبر أسير بن رِزام وغرته .

كانت خيبر دولة قائمة بذاتها قد اجتمع فيها شمل اليهود فراحت تراودهم أحلام السيطرة على الجزيرة العربية بله العالم بأسره ، وكانت الخطوة الأولى لتحقيق آمالهم أن يقضوا على القوة الناشئة فى المدينة ثم ينتشروا فى الأرض ليفرضوا سلطانهم على العالمين .

وكانت نبوءة منجمى الرومان التى تقول إن الدولة الرومانية سيقضى

عليها شعب مختون قد انتشرت بينهم ، فشدت أزر أحلامهم وجعلتهم يتحملون ما ينزل عليهم من اضطهاد فى صبر عجيب ، فقد أقنعهم أحبارهم أن ذلك الاضطهاد هو تطهير لنفوسهم ليكونوا مستحقين أن يضع « يهوه » مصائر العالم فى أيديهم .

وكانت المسافة بين خيبر والمدينة تزيد على مائة ميل بقليل، فراح عبد الله بن رواحة ومن معه يطوون الأرض فبلغوا خيبز بعد خمسة أيام ، فإذا بحصونها تحرسها قد قام فى وسطها حصن هائل يتحدى أسلحة الأعداء من رماح وقسى وسهام وسيوف .

وراح عبد الله بن رواحة يسأل فى حرص عن خبر أسير ويدرس أطماعه فعلم أن أهدافه هى أن يصبح زعيم اليهود فى خيبر وأن تستمر له الزعامة دون منازع ، ففى خيبر أخلاط من بنى قريظة وبنى قينقاع وبنى النضير وفيهم من يطمع فى سيادة اليهود ، ﴿ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ﴾[1] .

وقدم عبد الله بن رواحة على رسول الله — ﷺ — فأخبره بما رأى وبما سمع وبما دار فى رأسه من أفكار ، فندب رسول الله ﷺ — الناس للخروج إلى خيبر للاجتماع بأسير ، فانتدب له ثلاثون رجلا وأمر عليهم عبد الله بن رواحة .

وانساب الرجال فى الصحراء يفكرون فيما أوصاهم به رسول الله — ﷺ — وفيما رسم لهم من تدبير ، حتى إذا ما دخلوا على أسير فى حصنه

---

(١) الحشر ١٤ .

قالوا :

— نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ؟

— نعم . ولى منكم مثل ذلك .

— نعم . إن رسول الله — ﷺ — بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك .

فطمع فى ذلك ، فاستعمال محمد عليه السلام إياه على خيبر إقرار منه بزعامته ودليل على أنه لا يريد أن يخوض حربا مع اليهود ، وإن هذه المهادنة ستترك أمام اليهود فرصة التأهب للانقضاض على المدينة فى غفلة من أهلها ، فجمع مستشاريه وراح يناقش معهم ما عرضه المسلمون عليه فأشاروا عليه بعدم الخروج وقالوا :

— ما كان محمد ليستعمل رجلا من بنى إسرائيل .

— بلى قد مل الحرب .

وراح أسير يحاول أن يقنع اليهود أن محمدا عليه السلام قد مل الحرب ، فقد انقضت ست سنين مذ أن هاجر إلى المدينة وهو ممتشق الحسام(١) يخوض غمار غزوات ويبعث السرايا ليدافع عن مجتمعه الجديد . إنه يبغى المصالحة وترك القتال .

كان أسير يحاول أن يقنع مستشاريه ولكنه فى الحقيقة كان يحاول أن يقنع نفسه ، وراح طمعه يمده بالحجج التى تؤيد هواه فرجحت كفة الخروج ، فخرج وخرج معه ثلاثون رجلا من يهود مع كل رجل منهم رديف من

---

(١) امتشق الحسام : نزعه من غمده ليضرب به .

المسلمين .

كان عبد الله بن أنيس رديفا لأسير فراحا يتناجيان والرواحل تجد السير إلى المدينة والشمس والقمر يتبادلان احتلال رقعة السماء ، وأسير يفكر فيما عرض عليه المسلمون فيجد أنه قد خرج فى أثر سراب وأنه يجرى وراء آمال كاذبة ، فندم على خروجه معهم فأهوى بيده إلى سيف أنيس ففطن أنيس له وقال :

ـــ أغدر عدو الله ؟! أغدر عدو الله ؟! أغدر عدو الله ؟!

واستل أنيس سيفه فضربه به فأطاح عامة فخذه فسقط ، وكان بيده مخدش من شوحط فضرب به أنيس على رأسه فشجه ، ورأى المسلمون الغدر من أسير فمالوا على اليهود فقتلوهم إلا رجلا واحدا أعجزهم جريا .

ودخل اليهودى خيبر وهو يصيح فالتف حوله اليهود يسمعون منه ما حاق بأسير والذين معه ، فقال الذين أشاروا عليه بعدم الخروج :

ـــ نصحناه فأبى إلا أن يخرج .

وراح الرجال والنساء فى الدور يتحدثون بما حاق بأسير وصحبه ، وكانت صفية بنت حُيَى بن أخطب عروسا بكنانة بن الربيع فغدا كنانة يحدثها عما فعل محمد بأبيها وباليهود وكان حديثه يقطر سما ، ولكن صفية لم تنفعل بذلك الحديث فقد كانت فى قرارة نفسها تعتقد أن الغدر كان يبدأ من قومها وأن سيد العرب كان فى كل مرة يرد السهم المصوب إليه إلى نحور الغادرين .

كان أبوها سيد بنى النضير وقد خرج ليقلب قريش على المسلمين ، و لم يكتف بأن دفع الأحزاب إلى حصار المدينة بل راح يزين لبنى قريظة نقض

العهود فكان وبالا على اليهود . وكانت عند سلام بن مشكم القرظى الشاعر ؛ إنه كان يهجو محمدا ويفحش فى القول ، وكانت حليمة عاقلة فاضلة فكانت تعارض زوجها وتقول له إن ذلك الهجاء لن يعود إلا بالشر على اليهود ففارقها ، فخلف عليها كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق النضرى الشاعر .

وكان الحوار يشتد بينها وبين كنانة فقد غاظه منها أنها لا تحقد على أعداء اليهود مثل بنات جنسها . إنها لا تنقاد لعواطف البغض والكراهية العمياء ولكنها تنظر إلى الدوافع والعواقب وتحاول أن تكون منصفة . إنها تعيره بذلك اليوم الذى ذهبوا فيه إلى قريش لتأليبهم على المسلمين فقد قال لهم سادات قريش :

ـــ يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟

فقالوا دون خجل :

ـــ بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه .

كانت مرهفة الحس فمذ أن علمت بما كان من سادات قومها فى ذلك اليوم وهى تستشعر أن قومها ليسوا على الحق ، فلو كانوا على الحق ما كذبوا ولا نافقوا ولا زعموا أن الوثنية أفضل من عبادة الله وحده .

خرج زوجها كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق يسعى فى غطفان ويحضهم على قتال نبى الإسلام على أن لهم نصف تمر خيبر ، وأعلمهم أن قريشا قد بايعوهم على ذلك ، فأجابه عيينة بن حصن الفزارى ، وخرجت الأحزاب عشرة آلاف مقاتل لا يشك أحد منهم فى النصر المبين .

وقد انتهت الغزوة بعودة العرب إلى بلادهم وقد فازوا من الغنيمة بالإياب ، وقتل أبيها الذى كان شؤما على اليهود . إنها منذ تلك الأيام وهى ترى أن قومها على الباطل وأنهم يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين .

ونامت صفية فرأت فى المنام أن قمرا وقع فى حجرها ، فعرضت رؤياها على زوجها فقال لها :

ــ ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمدا .

ولطم وجهها لطمة خضر عينها منها .

٢٩

راح ثراة مكة يشدون الرحال إلى الطائف ليمضوا فيه الصيف لينعموا بطيب هوائه وطيب فواكهه ، حتى يأتى أوان الحج فيخرجوا إلى سوق عكاظ وبينها وبين الطائف ليلة .

وعاد عُروة بن مسعود الثقفى إلى داره بعد أن ودع حماه أبا سفيان بن حرب وشيوخ قريش الخارجين إلى الشام فخف إليه شيوخ ثقيف وشبابها يلقون إليه أسماعهم ، فقد كان سيدهم وكانوا يطمعون فى أن يكون رسول الله لما قام محمد بن عبد الله فى مكة يقول إنه رسول الله ، ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾[1] .

كانوا ينتظرون بعث رسول فلطالما حدثهم أمية بن أبى الصلت شاعرهم عن قرب ظهور نبى وأنه ليرجو أن يكون ذلك المبعوث ، فلما ظهر محمد بن عبد الله فى مكة حسدوه وأبوا تصديقه ، فقد كبر عليهم أن يكون من غيرهم بعد أن تهيئوا للشرف المرتقب فيهم . وهل بعد الرسالة من شرف ؟

كانوا يعيشون على أمل أن يبعث أمية بن أبى الصلت فيهم ، فلما حادت الرسالة عنه لم يروا أحدا أحق بها من سيدهم عروة بن مسعود أو عقبة بن ربيعة ، أما محمد بن عبد الله فتى بنى هاشم فلم يخطر لهم على بال ، فلما جاء إلى الطائف يعرض عليهم الإسلام قعدوا على جانبى الطريق الذى يسير

---

(١) الزخرف ٣١ .

فيه وراحوا يرضخون رجليه بالحجارة حتى سالت دماؤه تروى الرمال ، فإذا ناء من الجهد لم تأخذهم به رأفة بل يذهب إليه رجال منهم ليقيموا صلبه ليستأنفوا رضخ رجليه بالحجارة وهم يضحكون .

كان تعذيبهم لنبى الإسلام عليه السلام حديث نواديهم ، حتى إذا ما هاجر عليه السلام إلى المدينة ودارت بينه وبين قريش حروب وارتفع ذكر رسول الله عليه السلام خفتت أصوات الاستهزاء وأشرقت أنوار اليقين فى بعض القلوب ، وتزعزع الإيمان باللات إلهة الطائف التى كان القرشيون يحجون فى الموسم إليها فى صدور بعض الثقفيين ، وكان المغيرة بن أبى شعبة ممن خامرهم الشك فى قدرة آلهتهم .

كان المغيرة دميما أعور وكان عُروة بن مسعود عم والده ولكنه كان يقول له يا عم ، وكان المغيرة من سَدَنة[1] اللات ولكن بذور الشك فى الأصنام قد ألقيت فى عين ذاته فخطر له أن يبتعد عن المعبد ليتحرر من تلك الصلوات التى تؤلم روحه .

علم المغيرة أن رجالا من بنى مالك من ثقيف سينطلقون إلى مصر ليقدموا إلى المقوقس هداياهم فراودته فكرة الخروج معهم ، فذهب إلى عمه يستشيره فى مرافقتهم فأشار عليه بعدم ذلك ، فكيف يقبل عروة أن يغادر أحد سدنة اللات معبده ؟

وتأهب ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك للخروج ، وراح المغيرة يستعد للخروج معهم إلى مصر فقد استولت الفكرة على كل مشاعره : وحان وقت الرحيل فانطلق الرجال ومعهم المغيرة وإن كان عروة بن مسعود

---

(١) السدنة : الخدم .

لخروجه كارها .

وراحت العير تسير على طريق الساحل والمغيرة يرقب أمواج البحر وشروق الشمس وغروبها وخروج القمر من المحاق إلى أن يكتمل بدرا وتألق نجوم السماء وتتابع الليل والنهار وزمجرة الرياح وهبوب النسيم ، ففطن إلى أن اللات والعزى ومناة والأصنام التى تكدست فى جوف الكعبة أهون من أن تخلق هذا الكون ، ودوى القرآن فى وجدانه : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذا قسمة ضيزى * إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى * أم للإنسان ما تمنى * فلله الآخرة والأولى * وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى * إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى * وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا * فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى * ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[١] .

كانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا القرآن وكانوا يصفقون وينشدون الأشعار إذا ما راح أحد المسلمين يتلو آى الذكر الحكيم . « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوْا فيه لعلكم

---

(١) النجم ٢٠ — ٣١ .

تغلبون » . ثم انتشر ما أنزل الله فى بيوت العرب فكان المؤمنون يقرءونه خاشعين تفيض أعينهم من الدمع بينا الكافرون يقرءونه مستهزئين .

وبلغ الركب الفرما بشق الأنفس ، فتقدم منهم جباة المكوس وكانوا من الرومان الأشداء ، فلما سألوهم عما يحملون قالوا :

— هدايا للمقوقس .

ففحصوا عما معهم وأخذوا منهم حق هرقل ثم فتحوا لهم الطريق ، فانسابوا فى الصحراء يجدون السير تداعبهم الآمال أن يصلوا إلى النيل .

وراحت الصحراء الغربية تطوى تحت أرجل الرواحل . إنها صحراء قاحلة لا زرع فيها قاسية عنيفة فظة ، فلما بلغوا النيل هرعوا إليه يملئون ما معهم من شنان ويروون ظمأهم ويشدون أنفاسا من الهواء الرطب ، ثم يمدون أعينهم إلى الحقول الخضراء فيستشعرون كأنما قد خلقوا من جديد .

وسار الرجال الثمانية مع النيل قاصدين منف ، فكانوا ينزلون فى المدن التى قامت على شاطئ النهر العظيم . كان الوقت زمن الفيضان وكان الفلاحون منهمكين فى إقامة الجسور ، وعلى الرغم من ذلك وجد المغيرة من يحادثه من المصريين فإذا بالقلوب تفيض بالكراهية والبغضاء لحكومة الإمبراطورية الرومانية وإن كان الشعبان يدينان بالمسيحية ، كان المصريون يعتنقون مذهب النساطرة بينا الرومان كانوا على مذهب اليعاقبة وكانوا يعتبرون مصر بقرة حلوبا تحمل خيراتها إلى القسطنطينية .

وسمع المغيرة سادن اللات عن المسيحية ووحدة طبيعة المسيح واللاهوت والناسوت ووحدة الإرادة فعجز عن أن يفهم التثليث . إنه يؤمن بوجود خالق لهذا الكون وأن ذلك الخالق أجل من أن يعبد مباشرة ،

فكانت اللات والعزى ومناة والآلهة الأخرى وسائط تقرب العباد إلى الله زلفى ، وقد بدأ ذلك الاعتقاد يتزعزع مذ جاء محمد بن عبد الله بديانة التوحيد الخالص من كل شائبة وكل وساطة .

وبلغوا منف وكان لها سبعون بابا قد قامت فيها الأبنية والأعمدة والتماثيل والملاعب ، وانطلقوا إلى قصر المقوقس واستأذنوا فى الدخول عليه ، فلما أذن لهم ساروا فى فناء على جانبيه تماثيل أبى الهول ثم دلفوا إلى فناء تزينه أعمدة البردى ، ثم ساروا حتى بلغوا الغرف الداخلية والجنود الرومان قد اصطفوا على جانبى الطريق.ووجدوا أمامهم بابا مغلقا موشى بالذهب ، إنه باب قاعة العرش الذهبية ، فلما لمحهم الحاجب صاح : الثقفيون بالباب ، فأذن لهم بالدخول فتقدموا وقد خفقت أفئدتهم فى صدورهم رهبة . فلما رأوا المقوقس على عرشه وأربعة أنهار تجرى تحت سريره خروا ساجدين ولم يرفعوا رءوسهم حتى أذن لهم ، فنهضوا وساروا على أطراف أصابعهم وهم يحملون هداياهم بين أيديهم والمقوقس يرقب المغيرة بن أبى شعبة فى إنكار ، فهو دميم أعور لا تتفتح له نفوس الذين ينظرون إلى الوجوه .

وقدموا الهدايا فاستخبر كبير القوم عن المغيرة فقال :

— ليس منا بل من الأحلاف .

فكان المغيرة أهون القوم عليه فأكرمهم وقصر فى حقه ، فلما انتهت المقابلة عادوا إلى كنيسة الضيافة والمغيرة فى ضيق شديد . وزاد فى حنقه أن أحدا من أصحابه لم يعرض عليه مواساته . وحان أوان الرحيل فدخلوا على المقوقس فأعطى كل واحد منهم جائزة ولم يعط المغيرة ، فحقد عليهم وكتم حنقه فى نفسه .

وخرج الركب من منف يحمل كل رجل منهم جائزته ويحمل المغيرة غيظه ، وراحت نفسه توسوس له أن رفاقه سيخبرون أهلهم بإكرام الملك إياهم وازدرائه به فتقاصرت نفسه وبيت الغدر بهم .

ونزلوا محلا فعصب رأسه ، فعرضوا عليه الخمر فقال :

— رأسى تصدع ولكن أسقيكم .

فسقاهم وأكثر لهم بغير مزج حتى همدوا ، فوثب عليهم فقتلهم جميعا وأخذ كل ما معهم ، ثم انطلق إلى المدينة وقدم على النبى — ﷺ — فى مسجده فسلم عليه وقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

فقال — ﷺ — :

— الحمد لله الذى هداك للإسلام يا مغيرة .

فقال له أبو بكر :

— من مصر قدمت ؟

— نعم .

— فما فعل المالكيون الذين كانوا معك ؟

وظهر الدهش فى وجه المغيرة فما كان يحسب أن نبأ خروجهم إلى مصر قد بلغ المسلمين فى المدينة ، فقال :

— كان بينى وبينهم ما يكون بين العرب ، وقتلتهم وجئت بأسلابهم ليخمسها النبى — ﷺ — أو يرى فيها رأيه .

فقال النبى — ﷺ — :

— أما إسلامك فقبلته ، ولا آخذ من أموالهم شيئا ولا أخمسه فإنه غدر والغدر لا خير فيه .

ـــ يا رسول الله إنما قتلتهم وأنا على دين قومى ثم أسلمت .

ـــ الإسلام يجب ما قبله .

وخرجت القبائل فى الموسم إلى عكاظ ، وبلغ ثقيفا ما فعله المغيرة برجال بنى مالك فاختصم بنو مالك مع رهط المغيرة وشرعوا فى القتال ، فسعى عمه عروة بن مسعود فى إطفاء نار الحرب وصالح بنى مالك على ثلاث عشرة دية دفعها عروة من ماله .

٣٠

أذن بلال بالفجر فخرج رسول الله ــ ﷺ ــ من داره إلى مسجده ، فأسرع إليه عبد الله بن مسعود صاحب سواكه وأخذ نعليه وجعلهما فى ذراعيه ومشى أمامه بالعصا حتى بلغ المحراب ، وخف خدمه أنس بن مالك وعقبة بن عامر الجهنى صاحب بغلته وأسلع بن شريك صاحب راحلته ليصلوا خلفه . وجاء من مواليه الذين أعتقهم زيد بن حارثة وشقران ــ وكان حبشيا ــ وثوبان وأنجشة ــ وكان أسود ــ ويسار ــ وكان نوبيا وكان على لقاء رسول الله ــ ﷺ ــ وسلمان الفارسى ، وتدفق إلى المسجد نقباؤه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والزبير وبلال وعمار والمقداد وعثمان بن مظعون ، ونجباؤه وكانوا كلهم من الأنصار سعد بن خيثمة من بنى عمرو بن عوف وسعد بن الربيع من بنى النجار وعبد الله ابن رواحة شاعر الأنصار وأبو الهيثم بن النبهان والبرّاء بن مَعرور ورافع بن مالك وأبو جابر عبد الله بن عمرو بن حزام وعُبادة بن الصامت والمنذر بن عمرو .

ودخل المسجد طلحة وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وأبو لبانة وبشير بن عبد المنذر وعبد الله بن أم مكتوم الأعمى وأبو ذر الغفارى وعبد الله بن أبى بن سلول وسباع بن عَرفطة ومحمد بن مسلم والسائب بن عثمان بن مظعون وأبو دُجانة ، ومن كتابه أبىّ بن كعب وزيد بن ثابت وخالد بن العاص وإبان بن سعيد وحُذيفة بن اليمان وأبو أيوب الأنصارى .

كانوا رجالا لا ذكر لهم قبل أن يمن الله عليهم بالإسلام ، فلما أشرقت قلوبهم بأنوار اليقين صاروا ملء الأبصار والأسماع خير أمة أخرجت للناس ، فاصطفوا خلفه خاشعين قد أسلموا وجوههم لله رب العالمين .

وقضيت الصلاة فجلسوا إليه يصغون ينهلون من منابع علمه ويتلقون منه الحكمة . وبينا هم مستأنسون بحديثه عليه السلام إذ قدم ثمانية نفر من عُرينة وعَكل مجهودين قد كادوا يهلكون لشدة هزالهم وصفرة ألوانهم ونظروا إليه فى وهن ، ثم نطقوا بالشهادتين وقالوا :

ـــ يا رسول الله آونا وأطعمنا .

فأمر عليه السلام بلالا أن يطعمهم وأن ينزلهم فى أهل الصفة ، فكان إذا تناول طعاما دعاهم إليه وإذا خرج فى الليل جلس إليهم يحدثهم ويفقههم فى الدين ، ولكن قلوبهم التى كانت عمياء لا ترى أنوار اليقين .

وذات يوم قدم أبو ذر إلى المسجد ورسول الله عليه ـــ صلوات الله وسلامه ـــ جالس وحده ، فجلس إليه فقال الرسول :

ـــ يا أبا ذر إن للمسجد تحية وإن تحيته ركعتان ، فقم فاركعهما .

فقام أبو ذر وصلى ركعتى تحية المسجد ، ثم أقبل على رسول الله عليه السلام فقال :

ـــ يا رسول الله إنك أمرتنى بالصلاة فما الصلاة ؟

ـــ خير موضوع استكثر أو استقل .

ـــ يا رسول الله فأى الأعمال أفضل ؟

ـــ إيمان بالله عز وجل وجهاد فى سبيله .

ـــ فأى المؤمنين أكملهم إيمانا ؟

ـــ أحسنهم خلقا .

ـ يا رسول الله فأى المؤمنين أسلم ؟

ـ من سلم الناس من لسانه ويده .

ـ يا رسول الله فأى الهجرة أفضل ؟

ـ من هجر السيئات .

ـ يا رسول الله فأى الصلاة أفضل ؟

ـ طول القنوت .

ـ يا رسول الله فما الصيام ؟

ـ فرض مجزى وعند الله أضعاف كثيرة .

ـ يا رسول الله فأى الجهاد أفضل ؟

ـ من عُقر جواده وأهريق دمه .

ـ يا رسول الله فأى الرقاب أفضل ؟

ـ أغلاها ثمنا وأنفسها عند ربها .

ـ يا رسول الله فأى الصدقة أفضل ؟

ـ جهد من مقل يُسرُّ إلى فقير .

ـ فأى آية مما أنزل الله عز وجل عليك أعظم ؟

ـ آية الكرسى يا أبا ذر ، ما السموات السبع مع الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة .

ـ كم كتابا أنزل الله ؟

ـ مائة كتاب وأربعة كتب : أُنزل على شيث خمسون صحيفة ، وأُنزل على خنوخ ثلاثون صحيفة ، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

ـــ يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم ؟

ـــ كانت أمثالا كلها : « أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، فإننى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردها ولو كانت من كافر » . وكان فيها أمثال : « على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات : ساعة يناجى فيها ربه عز وجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفكر فيها فى صنع الله عز وجل ، وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو فرقة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيرا لزمانه ، مقبلا على شانه ، حافظا للسانه . ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » .

ـــ يا رسول الله فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟

ـــ كانت عبرا كلها : « عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح . عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك . عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب . عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها . عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل » .

ـــ يا رسول الله أوصنى .

ـــ أوصيك بتقوى الله فهى رأس الأمر كله .

ـــ يا رسول الله زدنى .

ـــ عليك بتلاوة القرآن فهو نور لك فى الأرض وذكر لك فى السماء .

ـــ يا رسول الله زدنى .

ـــ إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه .

ـــ يا رسول الله زدنى .

— عليك بالصمت إلا من خير ، فإنه مطردة للشيطان عنك وعون لك على أمر دينك .

— يا رسول الله زدنى .

— أحب المساكين وجالسهم .

— يا رسول الله زدنى .

— انظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك ، فإنه أجدر ألا تزدرى نعمة الله عندك .

— يا رسول الله زدنى .

— صل قرابتك وإن قطعوك .

— يا رسول الله زدنى .

— لا تخش فى الله لومة لائم .

— يا رسول الله زدنى .

— قل الحق ولو كان مرا .

— يا رسول الله زدنى .

— يردك عن الناس ما تعرف من نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتى ، وكفى به عيبا أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك ، أو تجد عليهم فيما تأتى .

ثم ضرب بيده على صدر أبى ذر وقال :

— يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسن كحسن الخلق .

وجاء النفر من عُرينة وعَكل إلى رسول الله — ﷺ — وقالوا :

— إن المدينة وبية وخمة ونحن أهل ضرع و لم نكن أهل ريف .

كانت لرسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ لقاح وكانت خمسة كانت ترعى بذى الجَدْر ناحية قباء قريبا من عير على ستة أميال من المدينة ، فقال لهم عليه السلام :

ـــ لو خرجتم إلى زود لنا فشربتم من ألبانها .

فخرجوا إلى لقاح رسول الله ليشربوا من ألبانها وكان فيها يسار مولى رسول الله ـــ ﷺ ـــ يرعاها ، فظلوا فيها حتى صحوا وسمنوا فعدوا على اللقاح فاستاقوها ، فأدركهم يسار مولى رسول الله ـــ ﷺ ، ومعه نفر فقاتلهم فقطعوا يده ورجله وغرزوا الشوك فى لسانه وعينيه حتى مات ، ثم انطلقوا بالغنيمة وأصبحت هيبة المسلمين فى الميزان ، فبلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ الخبر فبعث فى أثرهم عشرين فارسا واستعمل عليهم كرز بن جابر الفهرى ، فأدركوهم فأحاطوا بهم وأسروهم وربطوهم وأردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة ، وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالغابة ، فخرجوا بهم نحوه فلقوه بالرغابة بمجتمع السيول ، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم وصلبوا هنالك . وأنزل الله تعالى على رسوله : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾(١) .

---

(١) المائدة ٣٣ .

٣١

كانت السنة السادسة من الهجرة والوقت موسم الحج فخرجت قبائل العرب إلى الأسواق قبل أن يتدفق الناس على البيت العتيق . وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يهوى فؤاده إلى الحرم ، فلما دخل داره وأسلم جنبه للرقاد رأى فى النوم أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه وطاف هو وأصحابه واعتمر .

واستنفر رسول الله ـ ﷺ ـ أصحابه للعمرة فأسرعوا وتهيئوا ، ولبس رسول الله ـ ﷺ ـ ثوبيه وركب راحلته القصواء وخرج ، وذلك يوم الاثنين لهلال ذى القعدة واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم .

ولم يخرج رسول الله ـ ﷺ ـ معه بسلاح إلا سلاح المسافر السيوف فى القرب ، وساق بدنا[١] وساق أصحابه بدنا ، فصلى الظهر بذى الحليفة ثم دعا بالبدن التى ساق فجللت ثم أشعرها[٢] فى الشق الأيمن وقلدها[٣] وأشعر أصحابه أيضا ليعلم أنها هدى وهى موجهات إلى القبلة ، وهى سبعون بدنة فيها جمل أبى جهل الذى غنمه رسول الله ـ ﷺ ـ يوم بدر .

---

(١) البدن : النوق أو البقر المسمنة .(٢) أشعرها : ألبسها الشعار .

(٣) قلدها : جعل فى أعناقها حبالا .

وأحرم رسول الله — ﷺ — ولبى حتى إذا ما كان بغدير الأشطاط قريبا من عسفان ، أتاه الرجل الخزاعى الذى كان قد بعثه ليأتيه بأخبار قريش فقال :

— إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى قد جمعا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت .

فقال النبى — ﷺ — لأصحابه :

— أشيروا على ! أترون أن نميل على ذرارى هؤلاء الذين عاونوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين وإن يجبنوا تكن عنقا قطعها الله ، أو ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟

فقام أبو بكر فقال :

— يا رسول الله إنا لم نأت لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه .

فقال — ﷺ — :

— فروحوا إذا .

فراحوا حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى فقال :

— يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا ومعهم العوذ المطافيل(١) قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم .

---

(١) العوذ المطافيل : النوق التى وضعت أولادها حديثا يريد أنهم خرجوا ومعهم النساء والصبيان .

فقال رسول الله — ﷺ :

— يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ؟ فما تظن قريش ؟ والله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة[١] .

ودنا خالد بن الوليد فى خيله حتى نظر إلى أصحاب رسول الله — ﷺ ، فأمر رسول الله — ﷺ — عباد بن بشر فتقدم فى خيله فأقام بإزائه وصف أصحابه . وحانت صلاة الظهر فصلى رسول الله — ﷺ — بأصحابه صلاة الخوف ، فلما أمسى — ﷺ — قال :

— من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟

فقال رجل من أسلم :

— أنا يا رسول الله .

فخرج بهم على طريق وعر حزن بين شعاب ، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفضى إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى قال رسول الله — ﷺ :

— قولوا نستغفر الله ونتوب إليه .

ففعلوا ، فقال :

— والله إنها للحطة[٢] التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقبلوها .

---

(١) السالفة : صفحة العنق وكنى عن انفرادها بالموت .

(٢) الحطة : يشير إلى قوله تعالى لبنى إسرائيل : « وقولوا حطة » ومعناه : اللهم حط عنا ذنوبنا .

ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ للناس :

ـ اسلكوا ذات اليمين .

فسار المسلمون حتى دنوا من الحديبية وهى شرق الحرم على تسعة أميال من مكة ، فلما رأى خيل قريش غبار الجيش وأن رسول الله ـ ﷺ ـ قد خالفهم عن طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش ينذرونهم .

وسار رسول الله ـ ﷺ ـ حتى إذا سلك ثنية المرار بركت به ناقته ، فقال الناس :

ـ حل حل[1] .

فقال ـ ﷺ ـ :

ـ ما حل .

قالوا :

ـ خلأت[2] القصواء .

فقال ـ ﷺ ـ :

ـ ما خلأت وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس[3] الفيل .

ثم قال :

ـ والذى نفسى بيده لا تدعونى قريش إلى خطة يعظمون بها حرمات الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

---

(١) حل حل : كلمة تقال للناقة إذا تركت السير .

(٢) خلأت : حرنت .

(٣) حابس الفيل : أى حبسها الله عن دخول مكة كما حبس الفيل من دخولها .

تذييـــل

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ وحده ليس معه إلا ربه الذى أوحى إليه أن أنذر عشيرتك الأقربين ، فقام أعزل من كل سلاح يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له إلا سلاح الحكمة والموعظة الحسنة ، ففتح قلوب المؤمنين بالقرآن الحكيم ، وقد صبر هو وأصحابه على أذى الكافرين ، ولم يستخدم القوة فى إقناع معارضيه وإن اشتهر بالقوة البدنية ، بل كان يحاول أن يكسب قلوبهم بالموعظة : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾[١] و ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾[٢] .

وفر المسلمون الأوائل من وجه الاضطهاد إلى الحبشة ، ثم هاجر ـــ ﷺ ـــ وأصحابه إلى المدينة بعد أن أسلم الأوس والخزرج لما ألقوا أسماعهم إلى التنزيل فأضاءت أفئدتهم بأنوار اليقين ، وأخذ الإسلام ينتشر فى القبائل لأنه دين الفطرة يخاطب العقل فيستجيب ، حتى إذا ما شن عليهم أعداؤهم الهجوم ورفعوا السيوف فى وجوههم شرع الله لهم القتال دفاعا عن أنفسهم ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى

---

(١) النحل ١٢٥ . (٢) فصلت ٣٤ .

عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾(١) .

لم يشهر المسلمون السيف لإكراه الناس على الدخول فى الدين ، فالقرآن المجيد يعلمهم أن لا إكراه فى الدين : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم * الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(٢) .

وقد فرض القتال للقضاء على الفتن التى تهدد المسلمين الآمنين : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سُنة الأولين * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما تعملون بصير * وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾(٣) .

لم يكن الإسلام دينا متعطشا للدماء ولكنه دين يدعو إلى السلام : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾(٤) . ولكنه لا يرضى بالسلام المذل الذى تضيع فيه حقوق المسلمين وتنتشر بسبب الركون إليه الفتن التى تجتث أنوار اليقين من سويداء القلوب ، فكتب على المسلمين القتال للقضاء على الفتن وإن كانوا للقتال كارهين : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا

---

(١) الحج ٣٩ — ٤١ (٢) البقرة ٢٥٦ — ٢٥٧ .
(٣) الأنفال ٣٨ — ٤٠ (٤) الأنفال ٦١ .

شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(١) .

إنه أمر شديد أن يمتشق المسلمون السلاح فى وجه الظالمين ، إنه فراق الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال فى سبيل إقرار الحق الذى ما نزلت الرسالات السماوية إلا للتمكين له فى الأرض ، وإنه أمر لا تستجيب له فى يسر النفوس التى تعلقت بالحياة الدنيا ، فلا بد من ترغيب وترهيب للجهاد فى سبيل أن تكون كلمة الله هى العليا ، فزخر القرآن العظيم بآيات الحض على الجهاد وجزاء المجاهدين والخزى الذى أعد للمنافقين والناكصين : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(٢) .

قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم * أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها * إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان

---

(١) البقرة ٢١٦ (٢) التوبة ٢٤ (٣) الحجرات ١٥ .

سول لهم وأملى لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم * أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول. والله يعلم أعمالكم * ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم * إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم ﴾[١] .

فلم يكن الجهاد لإرغام الناس على الدخول فى دين الله بل كان قتال المنافقين الذين فى قلوبهم مرض حتى لا يفسدوا النفوس التى هداها الله للنور ، وقتال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله من بعد ما تبين لهم الهدى : ﴿ من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾[٢] .

كان هم النبى — ﷺ — الأول هو الدفاع عن أنفس المؤمنين ، وتأمين حرية العبادة للمسلمين ، وحرية القول وحرية العمل ، وحماية الحقوق للمجتمع الجديد الذى تكون فى المدينة فى ظل التنزيل .

إن نبى الإسلام عليه السلام لم يشهر سيفا و لم يسدد رمحا فى سبيل نشر الإسلام بقوة السلاح ، بل خاض حروبا فى سبيل الدفاع عن النفس وفى سبيل حماية الدولة الإسلامية الناشئة وهى حروب تقرها كل الشرائع

---

(١) محمد ٢٠ — ٢٨ (٢) المائدة ٥٤ .

السماوية بله شريعة الفقه الدولى الحديث . وما كان له أن يكره أحدا للدخول فى دينه وقد قال الله تعالى فى محكم كتابه : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾[1] ، ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾[2] ، ﴿ وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾[3] .

وقد حاول رجل من المسلمين لما رأى ولديه قدما مع قافلة من الشام وقد تنصرا أن يرغمهما على اعتناق الإسلام بحجة أنه لا يستطيع أن يرى بعضه يدخل النار ، فنهاه نبى الإسلام عليه السلام عن ذلك ، فالله تعالى يقول : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾[4] . فكيف يعصى الرسول صلوات الله وسلامه عليه أوامر ربه ؟! وهل يمتشق الحسام لإرغام الناس على الإسلام والله تعالى يقول : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[5] .

فر المسلمون بدينهم من مكة إلى المدينة ، وكان عليه السلام يبعث السرايا لتحسس أخبار قريش لكيلا يأخذه أعداؤه على غرة فقد كانت حالة الحرب قائمة بين الطرفين . وقد خرج عليه السلام ليعترض قافلة قريش القادمة من الشام قصاصا لما استولت عليه قريش من دور وأموال ، وقد أفلت أبو سفيان بالقافلة وعلى الرغم من ذلك خرجت قريش لحرب المسلمين واستئصال شأفتهم ، فكان على المسلمين أن يسلموا رقابهم

---

(١) القصص ٥٦ (٢) العنكبوت ٤٦ . (٣) ق ٤٥ .

(٤) البقرة ٢٥٦ . (٥) الكهف ٢٩ .

لأعدائهم أو يدافعوا عن أنفسهم وأن يصدوا الباغين المعتدين ، فدارت عند ماء بدر أول معركة يخوضها المسلمون دفاعا عن النفس وحماية لدولتهم الناشئة أن تدول . وما كان المسلمون البادئين بالقتال وما كانوا معتدين ، فالنور الذى أضاء قلوبهم قد أرشدهم إلى مغبة الابتداء بالعدوان : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[١] . ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[٢] .

فالجهاد فى الإسلام هو الحرب دفاعا عن النفس أو دفاعا عن جماعة المسلمين حتى لا تكون فتنة ، وقد عظم القرآن الكريم الجهاد والمجاهدين فقال الله تعالى : ﴿ هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾[٣] . والجهاد هو قتال الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم لا إكراه الناس على الدخول فى الإسلام ، لهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان . وقال ـــ ﷺ : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » .

وقال رجل :

ـــ يا رسول الله أخبرنى بشيء يعدل الجهاد فى سبيل الله .

ـــ لا تستطيع .

---

(١) يونس ٩٠ (٢) يونس ٩١ . (٣) الصف ١٠ ـــ ١٣ .

ـــ أخبرنى .

ـــ هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم لا تُفطر وتقوم لا تفتر .

ـــ لا .

ـــ فذلك الذى يعدل الجهاد .

وقد ذكر الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت فى رسالته فى الإسلام والعلاقات الدولية فى السلم والحرب : « إن الإسلام الذى يجىء عن طريق الإكراه لا قيمة له ولا كرامة لصاحبه ولا اعتداد به عند الله ، فهو يقول لفرعون حين أدركه الغرق وقال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ﴾[١] . حيث رد عليه تعالى بقوله : ﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾[٢] وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾[٣] . وكذلك يقرر القرآن أن الله لا يقبل التوبة التى تنبعث عن الإكراه أو بعد معاينة العذاب ، فيقول الله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ﴾[٤] .

وخلص الأستاذ شلتوت إلى النتائج الآتية :

١ ـــ ليس فى طبيعة الدعوة الإسلامية من التعقيد والغموض والمشقة العقلية ما تحتاج معه إلى إكراه جلى وهو ما كان بالقوة المادية كالحديد

---

(١) يونس ٩١ .

(٢) الصف ١٠ ـــ ١٣ .

(٣) غافر ٨٤ ـــ ٨٥ .

(٤) النساء ١٨ .

والنار ، أو إكراه خفى بالخوارق الحسية التى تخضع لها الأعناق .

٢ ــ أن الدعوة الإسلامية أخذا من كتاب الله لا تخالف سنة الله حيث ترك الناس وما يختارون لأنفسهم عن طريق النظر والاقتناع .

٣ ــ أن الشريعة الإسلامية أخذا من كتاب الله لا تبيح اتخاذ الإكراه وسيلة من وسائل الدعوة إليها .

٤ ــ أن صاحب الدعوة الإسلامية ليس مسئولا أمام ربه إلا عن مهمة الرسالة التى بينها القرآن وهى التبليغ والإنذار ، وليس مطالبا بإيمان الناس حتى يسمح له بإكراههم والعنف عليهم .

٥ ــ أن كتاب الله مصدر الدعوة الإسلامية لا يحترم إيمان المكره ولا يرتب عليه آثاره يوم البعث والجزاء ، فكيف يأمر بالإكراه أو يبيح اتخاذه وسيلة من وسائل الإيمان بهذه الدعوة ؟

* * *

لا مراء أن الناس قد دخلوا فى دين الله طائعين وأن الجهاد هو جهاد الظلم والعدوان والفتن ، فالفتنة أشد من القتل . ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين * الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[1] .

---

(١) البقرة ١٩١ ــ ١٩٤ .

لقد زعم بعض المتعصبين الذين أعمى الله قلوبهم التى فى صدورهم أن الإسلام قد انتشر بحد السيف ، وأعرضوا عن قول الله لنبيه وللمسلمين : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾(١) . وقد قال الفخر الرازى فى تفسير هذه الآية : « إن الله تعالى لما بين دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعا للمعذرة قال بعد ذلك إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل عذر للكافر فى الإقامة على كفره ، إلا أن يقسر على الإيمان ويجبر عليه وهو مالا يجوز فى دار الدنيا التى هى دار عمل وابتلاء ، لأن فى القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان ومناطهما العقل » . فواقع التاريخ يؤكد أن الإسلام قام على الإقناع ، وأن النور الذى أنزل على نبى الإسلام عليه السلام قد بين للناس طريق الخير وطريق الشر : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾(٢) . وترك للإنسان أن يختار طائعا أحد النجدين : ﴿ وهديناه النجدين ﴾(٣) . فإن اختار طريق الخير وجاهد العدوان والبغى كتب الله على نفسه نصره : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾(٤) .

وقد فطن بعض المفكرين الأوربيين إلى سخف دعوى انتشار الإسلام بالقوة ، فتوماس كارليل فى كتابه « الأبطال وعبادة البطولة » تحدث عن محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقال إن اتهامه بحمل الناس على الدخول فى الدين الذى جاء به بالقوة والقهر سخف لا يقبله

---

(١) البقرة ٢٥٦ .
(٢) الإنسان ٣ .
(٣) البلد ١٠ .
(٤) الحج ٤٠ — ٤١ .

عقل ، فكيف يمكن أن يتصور أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته ؟!

* * *

ويقول ر . ف . بودلى فى كتابه « الرسول . حياة محمد » ، حديثه عن وقعة بدر : كان القرشيون أنفسهم سببا من الأسباب التى دفعت محمدا إلى الالتجاء للقوة ، إذ استمر عداء أبى جهل لمحمد فى درجة الغليان ، فقد كان يغير على جماعات المسلمين المتحركة باستمرار ويقاتل أية جماعة منعزلة يكمن لها ، وقد أغار على ضواحى المدينة وأتلف الزرع والحدائق فأظهر لمحمد أن شعوره لم يتبدل وأن هدفه لا يزال قتله ، فلم يكن هنالك إلا حل واحد من وجهة نظر الجانبين وهو القتال .

وما قر رأى محمد على ذلك حتى أقر مبدأ سيصبح عقيدة غير شرعية للمؤمنين ، فالجهاد مع أنه ليس فرضا دينيا سيقوم بما لا يقوم به شىء آخر فى سبيل حمل الإسلام إلى العالمين .

و لم يقدر محمد مدى الأثر البعيد الذى ستحدثه موافقته على اتباع ذلك السبيل فى معاملته للكافرين ، فإنه لمن الجلى أنه لم ير تطبيق قانون السيف كسياسة فى المستقبل ، لأن الدافع الأول لما هو مقبل عليه كان قبل كل شىء اليأس من قوم لم يطلب منهم إلا الإصغاء إليه و لم يلق منهم إلا المهانة والاضطهاد . ويضاف إلى ذلك حاجته إلى كساء أنصاره وطعامهم وتسليحهم وإيجاد حلفاء جدد ، ولما كان محمد أعرابيا قد سافر كثيرا مع رجال الصحراء فقد كان على ثقة من أن رجال القبائل قد يفهمون عقيدتهم أكثر لو أنهم علموا أنها تؤيد الحرب لجلب المغانم .

انتقد محمد لهذا الجانب من تعاليمه ، عنفه المؤرخون الذين تشبعت

عقولهم بأنه « أفاك » كأنما كان أول من قضى بشريعة الحروب الدينية .
والظاهر أن هؤلاء الرجال قد نسوا أن الدين كان السبب الرئيسى أو السبب الثانى لنشوب أكثر الحروب منذ العصور المتناهية فى القدم .

لو أن محمدا قد قرأ « العهد القديم » لوجد أن موسى قد أشعل حربا مقدسة منذ ألفي سنة قبل أن تبدأ حروبه مع قريش ، ولو أنه استمر فى القراءة لوجد أن قضاة بنى إسرائيل وملوكهم لم يفعلوا إلا القليل بجانب قتالهم فى سبيل عقيدتهم ، ولسمع عن مجازر تبدو قوائم ضحاياه بجوارها كضحايا الحوادث التى تقع فى ميدان كرة القدم ، ولعلم أن العبرانيين القدماء قد وضعوا قوانين للحروب الدينية لا تشابهها قوانين قديمة ولا حديثة .

لم يكن محمد متعطشا للدماء لمجرد التعطش للدماء ، فقد كان للأسير المشرك أن يختار بين أن يدفع الجزية أو يدخل فى الإسلام . وإن القرآن يقرر : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾[1] . ويقرر ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾[2] .

فإذا ما اختار الأسير الإسلام أصبح له جميع الحقوق الروحية والدنيوية التى للمسلمين الآخرين ، وإن هذا الإجراء ولا شك فى مصلحة محمد ، ولم يعرف عن محمد أنه انتقم لنفسه من أعدائه المنهزمين .

ولو أنه جعل المثلة من تعاليمه لكان محافظا على عادات زمنه وعلى ما كان

---

(١) التوبة ٥ (٢) البقرة ٢٥٦ .

عليه المسيحيون فى زمنه وبعد زمنه بكثير ، فإنه لما غزا الصليبيون الأرض المقدسة سنة ١٠٩٩ خلفوا وراءهم فى كل مكان الموت والدمار ، ولكنه لما رد صلاح الدين الصليبيين على أعقابهم لم يلجأ إلى وسائل الانتقام و لم يخرب المسلمون الممالك التى فتحوها كما فعل المقاتلون الدينيون السابقون لهم من الممالك الأخرى ، فأينما وضعوا أرجلهم نشأ شىء جديد أسمى وأفضل مما كان قبلا ، لقد كانوا كالغيث الذى يخصب المكان الذى ينزل فيه .. وإن عصر الإحياء فى أوربا ليرجع إلى أحفاد صحابة محمد الذين حملوا مشعل الثقافة حين كانت أوربا غارقة فى ظلمات العصور الوسطى . لقد كان المجد الهندسي لدمشق وفارس وأشبيلية وغرناطة وقرطبة نتيجة غير مباشرة أثرا لما بدأه محمد عام ٦١٣ ميلادية .

وجد محمد ولا شك أن الحرب ضرورة ومجلبة للغنائم بعد ذلك ، ولكنه لم يكن أحد هؤلاء العرب المغيرين الذين كان حب الثأر طبيعة ثانية فيهم ، فلو أن قريشا أعطته نصف فرصة لنشر دينه فى أمان لما طرأت فكرة الحرب على خاطره .

* * *

كان بودلى قائدا عسكريا خاض غمار الحرب العالمية الأولى فراح يدافع عن حروب الإسلام بعقلية القائد ، يقيس الحروب التى خاضها المسلمون بالحروب التى شنها الأنبياء من قبل والشعوب ولم يحاول أن يجهد نفسه بالتعمق فى آيات القتال ليخرج بحقيقة لا جدال فيها ألا وهى أن محمدا ـــ ﷺ ، وصحبه ما سلوا سيفا ولا شرعوا رمحا إلا فى سبيل الدفاع عن النفس وتأمين الحريات العامة للمسلمين . والفقه الدولى الحديث يعتبر هذين النوعين من الحروب مشروعين دون غيرهما من حروب الفتح

والغزو والبغي والعدوان .

حقيقة أن بودلى قد مس قيام المسلمين الأوائل للدفاع عن أنفسهم مسا رفيقا ، ولكنه وهو القائد الذى عاش الحرب العالمية الأولى قد خلط بين الدنيا والدين فجعل الغنائم هدفا من أهداف الحروب الإسلامية التى يسيل لها لعاب المسلمين ، ونسى أن الناس قد كرهوا القتال لما كتب عليهم لدفع عدوان الظالمين ، وأن الله تعالى قد خاطبهم بقوله : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾[1] . كان المسلمون يقاتلون أقواما بدءوهم بالقتال فكان لا بد لهم أن يدفعوا الاعتداء بمثله وإلا فسدت الحياة فى الأرض وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله .

ويقول « چيمس متشنر » فى مقاله « اخترت الدفاع عن الإسلام » : لم يحدث فى التاريخ أن انتشر دين بهذه السرعة ، فعند وفاة « محمد » سنة ٦٣٢ ميلادية كان الإسلام يحتل جانبا كبيرا من شبه الجزيرة العربية ،ولم يلبث بعد ذلك أن ضم إليها سوريا وبلاد الفرس ومصر والتخوم الجنوبية لروسيا وامتد إلى شمال إفريقية حتى بلغ مداخل أسبانيا . وفى الزمن الذى جاء بعد ذلك كان تقدم الإسلام باهرا . واعتقد العرب أن توسع الإسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعمد المسلمون إلى السيف ، ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الرأى ، فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة . والدليل قوى على أن الإسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان ما دام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون الجزية .

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « حقائق الإسلام وأباطيل

---

(١) البقرة ٢١٦ .

خصومه » : وشمول العقيدة الإسلامية هو الذى حقق للإسلام ما لم يتحقق لعقيدة غيره من تحويل الأمم العريقة التى تدين بالكتب المقدسة إلى الإيمان به عن طواعية واختيار ، كما آمنت به الأمم المسيحية والمجوسية والبرهمية فى مصر وسوريا وفارس والهند والصين .

ولقد عزى انتشار الإسلام فى صدر الدولة المحمدية إلى قوة السيف ؛ وما كان للإسلام يومئذ من سيف يصول به على أعدائه الأقوياء ، بل كان المسلمون هم ضحايا السيف وطرائد الغشم والجبروت . وإن عدد المسلمين اليوم من أبناء الهند والصين وأندونيسية والقارة الإفريقية ليبلغ تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع ، وما روى لنا التاريخ من أخبار الغزوات الدينية فى عامة هذه الأقطار ما يكفى لتحويل الآلاف المعدودة فضلا عن مئات الملايين من دين إلى دين .

ويقول الأستاذ المستشار على على منصور فى كتابه « الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام » : يذهب بعض كتاب القانون الدولى الأوربى وكثير من مؤرخيهم والمستشرقين منهم إلى أن محمدا هو الذى بدأ العدوان على قوافل قريش ، وتلقفوا بعض العبارات من كتب السيرة وبنوا عليها أن المسلمين صادروا الكثير من قوافلها . وعلى فرض صحة هذا القول ــ وهو ما لا أسلم به ــ أفلا يكون المسلمون على حق فى ذلك ما دمنا قد أثبتنا أنه عند هجرتهم كانت الحرب قائمة بينهم وبين قريش ؟ أوَ ليس القانون الدولى يبيح لمن يكون فى حالة حرب أن يغنم من خصمه ما يستطيع خصوصا وقد علمنا أن ذلك الخصم أخرجهم من ديارهم وأموالهم وذريتهم ونسائهم بأن أكرهوهم على ذلك بالأذى والاعتداء والحصار وإعلان حرب المقاطعة ، ثم قتلوا بعض المسلمين واتفقوا على قتل

نبيهم وهو ما لا خلاف عليه ، ولم نجد أحدا من العرب والفرنجة إلا قال به ؟ ومع كون ذلك من حقوق المسلمين المشروعة فى كل شريعة وفى قواعد القانون الدولى الحديثة ، إلا أن من يتتبع الوقائع بإمعان فى كتب السيرة بعد أن ينقيها من الحواشي والتعليقات يجد الأمر على ما قلنا من أن المسلمين لم يبدءوا العدوان بل كانوا يردون الاعتداء بمثله .

غزوة بدر لم يبدأ المسلمون بالاعتداء فيها بل كانوا يردون العدوان :

قلنا إن المسلمين كانوا يبعثون بالسرايا والبعثات لاستطلاع أخبار عدوهم الذى هو على حرب معهم . وكان اعتراض قافلة قريش الكبرى عام بدر لمثل هذا الغرض ، ولنسلم أيضا بما يذهب إليه الرأى الآخر من أن المسلمين حين خرجوا إلى القافلة قصدوا الظفر بما فيها من مال قصاصا لما أخذ منهم من أموالهم ، ونتساءل : أفلا يباح لهم ذلك ما دامت حالة الحرب قائمة بين الطرفين ؟ بل ما دامت الحرب معلنة من جانب قريش وقائمة بينهما ؟ أظن أن الجواب : نعم .

ومع ذلك ماذا حدث ؟ لا خلاف بين الجميع من مسلمين وأوربيين ومستشرقين بأن السرية التى أرسلت لم تفز بالقافلة وكان يمكن أن ينتهى الأمر عند ذلك ، ولكن قريشا نادت بالنفير وخرجت من مكة بقضها وقضيضها تبغى المدينة لمحاربة المسلمين والقضاء عليهم فى عقر دارهم التى هاجروا إليها . فهل خرج المسلمون إلى مكة ليهاجموا قريشا ؟ كلا . فلم يكن موقف المسلمين إذن فى غزوة بدر إلا موقف المدافع عن نفسه ، وكانت الحرب من جانبهم حربا دفاعية لا هجومية .

كان جيش المسلمين فى عدته وعدده ثلث جيش قريش ، ولما علم النبى بمقدم قريش خرج للقائها خارج المدينة فالتقى الجمعان فى بدر ، وهى

أقرب للمدينة منها إلى مكة . وكان المسلمون يتعقبون الإبل لكل ثلاثة بعير بينما قدمت قريش بخيلها وخيلائها .

وأخذ الرسول يسأل ربه النصر الذى وعده إياه ويقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض » . فنصر الله المسلمين على قلتهم ودارت على أهل البغى والعدوان الدائرة وقتل من كبرائهم الكثير . ومع ذلك فلم يخرج المسلمون للقتال إلا بعد أن أذن الله لهم بذلك فى أول آية نزلت من آيات القتال : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾[1] . فإذن الله للمسلمين والترخيص لهم فى الحرب كان معللا بأنهم يُقاتلون من قريش ، وأن القتال من جانب قريش كان ظلما وبغيا وعدوانا ولم يكن حربا مشروعة . وبقية الآية جعلت الكثيرين يذهبون إلى أن الإذن بالقتال جاء معللا بما وقع من قريش من إخراج المسلمين من ديارهم ، وهذه البقية تجرى كالآتى مع ما قبلها : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾[2] . والرأى عندى وهو ما أجتهد فيه أن عجز الآية جاء وصفا وبيانا للذين ظلموا فقال إنهم هم الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، وتبقى علة القتال فى صدر الآية بأن غيرهم بدأهم القتال ظلما فلا بد لهم من رد هذا القتال دفاعا عن أنفسهم واتباعا لسنة الله منذ بدء الخليقة بأن يتعين عليهم دفع هذا الاعتداء بمثله : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ﴾[3] ، وزاد الله سبحانه فى الآيات بما يثبت به عزائم

---

(١) الحج ٣٩ (٢) الحج ٣٩ — ٤٠ (٣) الحج ٤٠

المعتدى عليهم حين أباح لهم دفع هذا العدوان بقوله : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾(١) .

وقيل أيضا إن الآيات الآتية نزلت فى قتال قريش وهى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾(٢) . ولنقف عند هذا الجزء من الآية ونكرر قراءته حتى لا يخالجنا شك بأنها أمرت بأن يقاتل المسلمون من يقاتلهم . وعلى الرغم من وضوح المعنى فى الجملة الأولى إلا أنه أراد توكيده بعبارة أخرى فقال ولا تعتدوا أى لا تبدءوا بالعدوان ولا تجاوزوا فى قتالكم الحد الكافى لرد العدوان ، ويؤيد هذا المعنى حديث الرسول حيث نهى عن قتل من ألقى سلاحه وأدبر ممن بدأونا بالقتال بقوله : « ولا تقتلوا مدبرا » . وأراد الله أن يستوثق على عباده فى هذه الأوامر فأرجع الأمر إلى العقيدة فقال : ﴿ إن الله لا يحب المعتدين ﴾ . وتساءل بعض المسلمين عما إذا كان يحل لهم أن يطأوا مكة بعد أن نصرهم الله فى بدر مع أن فى مكة المسجد الحرام الذى لا يحل فيه قتال ولا بغى ولا ظلم وخصوصا وقد ورد فى القرآن : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ﴾(٣) . ومن راودته هذه الفكرة كانت ردا على قدوم قريش إلى المدينة وحرب المسلمين فى عقر دارهم ، فرد الله على هذا التساؤل بأن ذلك مباح للمسلمين على شرط أن يبدأ المشركون بالعدوان .

ونجد ذلك فى قوله تعالى : ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم

---

(١) الحج ٤٠ — ٤١ (٢) البقرة ١٩٠ . (٣) المائدة ٢ .

من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين * الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾(١) .

وهناك آية أخرى فى سورة النساء سجلت استغاثة المسلمين الذين لم يقدروا على الهجرة من مكة حيث بلغ بهم الأذى والعدوان أن كانوا يسألون الله إخراجهم من هذه القرية الظالم أهلها . وجاء تسجيل هذه الاستغاثة فى قوله تعالى تسجيلا لاعتداء قريش وتأييدا لما نزلت به آية الإذن بالقتال من إباحة رد الاعتداء بمثله ، ويجرى قوله تعالى : ﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا ﴾(٢) .

وإلى هنا لم يأذن الله للمسلمين بمحاربة أحد لإجباره على الإيمان ، ولم يأذن بحرب أحد من الجزيرة العربية سوى قريش لبدئها بالعداء والأذى ومحاربة الدعوة بكل الوسائل ومنها الحصار فالحرب .

وراح الأستاذ على على منصور يقرر أن غزوة أحد عدوان جديد من قريش وأنها كانت من جانب المسلمين حربا دفاعية عن النفس . وكان الإمام الثورى يقول : القتال مع المشركين ليس بفرض إلا أن تكون البداية

---

(١) البقرة ١٩١ — ١٩٤ .　　(٢) النساء ٧٥ .

منهم ، وحينئذ يجب قتالهم بدلالة قوله تعالى : ﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴾(١) .

وذكر الأستاذ على على منصور أن غزوة الخندق استمرار لحالة الحرب المعلنة من جانب قريش وتحالف معهم فيها بقية القبائل والأحزاب ، وذكر أن حروب النبى الثلاثة لليهود كانت مشروعة فى لغة القانون الدولى الحاضر لنقضهم العهد فئة بعد الأخرى واعتدائهم على المسلمين .

كانت غزوة الخندق دليلا قاطعا على تحالف المشركين فى الجزيرة العربية وأهل الكتاب من اليهود على القضاء على الإسلام والمسلمين ، وأعلنوها حربا شاملة وجاءوا بجموعهم إلى المدينة فردهم الله عنها وكفى الله المؤمنين القتال . وكانت آيات القتال قبل ذلك إذنا من الله بمحاربة قريش ردا لعدوانها ، أما بعد الخندق فتحتم أن يكون حرب المسلمين للمشركين فى الجزيرة كافة لقاء ما بدءوا به . وقد أثبتت الحوادث التى قبل غزوة الخندق وبعدها بأن منهم قوما مردوا على النفاق والفتنة ونقض العهود وتأليب القبائل على حرب المسلمين وهم اليهود ، ومن مشركى الجزيرة من بدءوا بالعدوان وهم قريش طعنوا فى الدين وبدءوا المسلمين أول مرة بالأذى والعدوان والإخراج من مكة بعد الحصار ، وبدءوا بأول حرب ضد المسلمين . وها هى ذى غطفان وقبائل المشركين الأخرى بدءوا المسلمين بحرب الأحزاب والتحالف مع قريش بعد أن كانوا تاركين الإسلام وشأنه وتاركين للنزاع الذى بينه وبين قريش فكانوا محايدين بلغة الفقه الدولى الحديث ، أما وقد تركوا حيادهم وحالفوا على قتال الإسلام مشركى

---

(١) البقرة ١٩١ .

الجزيرة فأذن الله بمحاربة المشركين كافة بقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾(١) .

ويقول فى سورة التوبة أيضا مشيرا إلى اليهود الذين نكثوا عهدهم وطعنوا فى دين الإسلام ، ومشيرا إلى قريش الذين هموا بإخراج الرسول ، ومشيرا إلى أن جميع الأحزاب بدءوا بالحرب ضد المسلمين بقوله : ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون * ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾(٢) .

وفى سورة التوبة أيضا آيتان يوهم ظاهر النص فيهما أنهما أمر من الله بقتال من لا يؤمن بالله واليوم الآخر من أهل الكتاب ، وأمر بقتال الكفار أينما وجدوا ، وقال بذلك كثير من الفقهاء أخذا بظاهر النص وأولاهما قوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾(٣) . ويرد الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت هذا الظن بما معناه أن الآية تأمر المسلمين باستمرار مقاتلة طائفة صفتها أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وهم الذين سبق أن نقضوا العهد وانقضوا على الدعوة . فعدم إيمانهم ليس سببا لقتال المسلمين إياهم بدلالة أن الآية فى بقيتها أمرت بقتالهم حتى يعطوا الجزية علامة على الخضوع واشتراكا فى دفع النفقات العامة وأعباء الدولة ، ولو

---

(١) التوبة ٣٦ (٢) التوبة ١٢ — ١٣ . (٣) التوبة ٢٩ .

كان الكفر سببا فى قتالهم لجعلت غاية القتال إسلامهم ولما سمح لنا بقبول الجزية منهم . فهم لا يقاتلون لمجرد أنهم كفار بل لأنهم نقضوا العهد وأعلنوا الحرب علينا مرة بعد الأخرى فوجب الاستمرار على قتالهم حتى يعطوا الجزية .

أما الآية الثانية التي أثارت كثيرا من اللبس فقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾(١) فظاهر النص فيها يوهم بأن المسلمين أمروا بقتال جميع الكفار أينما كانوا سواء بدءوا بالعداء والحرب أم لا . ويرد فضيلة الأستاذ الأكبر هذا الزعم أيضا بما معناه أن الآية جاءت إرشادا للمسلمين بنوع من نظام الحرب وهو ما يسمى اليوم بتكتيك الحرب ، وذلك أنهم إذا أرادوا حرب من بدءوهم بالحرب والعدوان من المشركين الذين أذنوا بقتالهم كافة ، فيجب أن يبدءوا بالحرب الأقرب حتى يخلوا طريقهم ويأمنوا مفاجأة العدو من الخلف إن هم بدءوا بحرب الأبعد ، وهذه هي الطريقة المثلى فى الحروب العصرية أيضا وهي ما تسمى بعدم ترك جيوب عدائية خلف الجيش الزاحف . وقد علق الأستاذ الأكبر على ما ذهب إليه الفقهاء من تفسير يخالف ذلك بقوله : « قد وقف بعض من يقصد الكيد للإسلام عند ظاهر الآية : ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾، وزعم أن الدين الإسلامى يأمر بقتال الكفار عامة سواء أحصل منهم اعتداء أم لم يحصل حتى يؤمنوا ويدينوا بالإسلام ، وقالوا : وقد استقر الحكم فى الشريعة على ذلك . والواقع أن المراد من كلمة الكفار فى الآية ونظائرها المشركون

---

(١) التوبة ١٣٢ .

المحاربون الذين قاتلوا الإسلام والمسلمين واعتدوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ووقفوا فتنة للناس فى دينهم وهم الذين تحدثت عن أخلاقهم الآيات الأولى من سورة التوبة .

وكذلك المراد من كلمة « الناس » الواردة بحديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإن قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم » . فإن الذى يتوقف على ما ذكر فى الحديث هم مشركو العرب خاصة ، أما غيرهم فيكفى فى انتهاء قتالهم أن يعطوا الجزية وبهذا تتفق الآيات مع بعضها ويجمع بينها وبين الأحاديث ويسقط مثل ذلك الزعم الباطل » .

وانتهى الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت إلى إيجاز بحثه فى رسالته إلى الأمور الآتية :

١ ـــ أنه لا توجد آية واحدة فى القرآن تدل أو تشير إلى أن القتال فى الإسلام فرض لحمل الناس على اعتناقه .

٢ ـــ أن سبب القتال ينحصر فى رد العدوان وحماية الدعوة وحرية الدين .

٣ ـــ أن الإسلام حينما شرع القتال نأى به عن الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء وابتغاه طريقا إلى الإسلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة .

٤ ـــ وأن الجزية لم تكن عوضا ماليا عن دم أو عقيدة ، وإنما هى دلالة الخضوع وكف الأذى والمشاركة فى حمل أعباء الدولة .

وأضاف الأستاذ الأكبر أن ليس لأحد بعد هذا أن يفترى على الإسلام أو يسىء فهم آيات القرآن فيزعم ما يزعم الجاهلون من أن الإسلام قرر

القتال طريقا لدعوته ووسيلة للإيمان به ، وانتشرت تلك الدعوة على أساس من الضغط والجبر والإكراه .

ويقول الإمام تقى الدين بن تيمية : « إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين فإنه يصير دفعه واجبا على المقصودين كلهم وعلى غير المقصودين لإعانتهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾(١) . وكما أمر النبى — ﷺ — بنصر المسلم وسواء أكان الرجل من المرتزقة للقتال أو لم يكن ، وهذا يجب بحسب الإمكان على كل أحد بنفسه وماله مع القلة والكثرة والمشى والركوب ، كما كان المسلمون لما قصدهم العدو عام الخندق ، ولم يأذن الله فى تركه أحدا أذن فى ترك الجهاد ابتداء لطلب العدو الذى قسمهم فيه إلى قاعد وخارج ، بل ذم الذين يستأذنون النبى — ﷺ : ﴿ يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾(٢) » .

ويقول الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه « حقوق الإنسان فى الإسلام » بعد أن تحدث عن الحرية السياسية فى الإسلام والحرية الفكرية والحرية العلمية : « وعلى هذه الأسس السمحة النبيلة سار الإسلام حيال النوع الثالث من أنواع الحرية وهى الحرية الدينية وحرية العقائد ، فلم يلبث الإسلام أن استقر وتبينت للناس تعاليمه حتى قرر بهذا الصدد ثلاثة مبادئ هى أرق ما وصل إليه التشريع الحديث بصدد حرية الأديان والمعتقدات :

أحدها أنه لا يُرغَم أحد على ترك دينه واعتناق الإسلام ، وفى هذا يقول

---

(١) الأنفال ٧٢ .   (٢) الأحزاب ١٣ .

الله تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾(١) . وعلى هذا المبدأ سار المسلمون فى حروبهم مع أهل الأديان الأخرى فكانوا يبيحون لأهل البلد الذى يفتحونه أن يبقوا على دينهم مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة ، وكانوا مقابل ذلك يحمونهم ضد كل اعتداء ويحترمون عقائدهم وشعائرهم ومعابدهم ، وفى هذا يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى كتابه لأهل بيت المقدس عقب فتحه له : « هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم » .

والمبدأ الثانى الذى سنه الإسلام بهذا الصدد هو حرية المناقشات الدينية ، ولذلك ينصح الله تعالى المسلمين أن يلتزموا جادة العقل والمنطق فى مناقشاتهم مع أهل الأديان الأخرى وأن يكون عمادهم الإقناع وقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل ، وفى هذا يقول الله تعالى مخاطبا رسوله عليه السلام : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾(٢) . ويقول مخاطبا أهل الأديان الأخرى : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾(٣) . ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾(٤). ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾(٥) .

---

(١) البقرة ٢٥٦ .
(٢) النحل ١٢٥ .
(٣) البقرة ١١١ .
(٤) الأنعام ١٤٨ .
(٥) الأحقاف ٤ .

وكان الخلفاء من بنى العباس وغيرهم يعقدون المجالس للمناقشات الدينية فيجتمع عندهم علماء كثيرون ينتمون إلى مختلف الطوائف وشتى الأديان والفرق ، فيتناقشون فى شئون العقائد ويوازنون بين الأديان كل يدلى بحجته ويبين رأيه فى حرية وأمن واطمئنان . ولم يكن الخلفاء يحتملون هذه المناقشات فحسب بل كانوا يشجعون عليها بمختلف وسائل التشجيع ويشتركون فيها بأنفسهم .

والمبدأ الثالث الذى وضعه الإسلام بهذا الصدد هو أن الإيمان الصحيح هو ما كان منبعثا عن يقين واقتناع لا عن تقليد واتباع ، وبذلك حطم الإسلام القواعد التى قام عليها التدين فى كثير من الأمم من قبله وهى قواعد التقليد والاتباع وإهمال النظر والتفكير الحر ، وأهاب بالناس أن يجعلوا عمادهم فى عقائدهم ونشر دينهم الدليل العقلى والمنطق السليم ، ودعا إلى النظر والتفكير وحث على رفض ما لا يؤيده علم ولا يعززه دليل ، ومن ثم ذهب كثير من علماء التوحيد إلى أن إيمان المقلد غير صحيح ، وأخذ الله تعالى على المشركين تقليدهم الأعمى لآبائهم وإغفالهم جانب النظر والتفكير ، قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾(١) . ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾(٢) .

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده : « إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين . وإن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه

---

(١) البقرة ١٧٠ (٢) المائدة ١٠٤ .

حتى اقتنع به ، فمن ربى على التسليم بغير عقل وعلى العمل — ولو صالحا — بغير فقه فهو غير مؤمن ، فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان بل القصد أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته » .

ويقول ابن تيمية : فى « رسالة القتال » فى تفسير الآية : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾[1] « أنه نص محكم وجمهور السلف على ذلك ، وعلى أننا لا نكره أحدا على الإسلام وإنما نقاتل من بدأنا بالحرب ، فإن أسلم عصم دمه وماله وإذا لم يكن من أهل القتال لا نقتله ولا نكره أحدا على الإسلام » .

وأضاف ابن تيمية : « إنه من الثابت المقرر أن النبى — ﷺ — قد أسر من المشركين فمنهم من فداه ومنهم من أطلق سراحه ولم يُكرَه أحد على الإسلام ، ولو كان القتال لأجل الكفر ما كان لهؤلاء إلا السيف ، والقرآن خيَّر المسلمين حين يثخنون فى الأعداء بين المن على الأسرى أو الفداء » .

ويقول الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة : « اتفق جمهور من العلماء على أن الباعث على القتال هو رد الاعتداء ، وقرروا أن مناط القتال الاعتداء فلا يقتل شخص لكفره إنما يقتل لاعتدائه على المسلمين أو على الإسلام . ورغم ذلك قرر بعض الشافعية أن سبب القتال هو الكفر رغم النصوص القطعية التى لا تقبل التأويل » .

وكان — ﷺ — يوصى أمراء الجند بتقوى الله وبمن تحتهم من الجند ثم يقول :

---

(١) البقرة ٢٥٦ .

ـــ اغزوا باسم الله وفى سبيل الله ، اغزوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا تغدروا ولا تمثلوا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوا فاقبل منهم ، وإن أبوا وأرادوا البقاء على دينهم فاسألهم الجزية فإن أجابوك فاقبل منهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » .

ومصدر هذا القول أحاديث كثيرة منها ما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل عن ابن عباس : « اخرجوا باسم الله تقاتلون فى سبيل الله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع » . ومما أخرجه أبو داود عن أنس بن مالك قول الرسول : « انطلقوا باسم الله وبالله لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا وقسموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » .

ويقول الأستاذ على على منصور : « يجب أن نفهم هذه الوصايا وتخيير الأعداء بين خصال ثلاث إنما يكون فى حرب مشروعة لنا بعد أن يبدءونا بالعداء والقتال ، والمقصود بالتخيير إعلانهم أولا : بأننا سنرد اعتداءهم وقتالهم بحرب حتى لا نأخذهم على غرة . وثانيا : أن الإسلام لا يود إراقة الدماء ولو لمعتد ، فإن كف عن عداوتنا ودخل فى ديننا فهو منا وإن كف عن العدوان ولم يرد إلا البقاء على دينه فله ذلك منا . ولكى نأمن من شره يجب عليه أن يسرح جيشه ويلقى سلاحه وتتكفل الدولة الإسلامية بالدفاع عنه وفى مقابل ذلك يدفع نفقات الدفاع وهى الجزية . وقد أول البعض هذه الأحاديث عن النبى بأنها أمر بمحاربة الكفار ولو لم يبدءوا بعداء وهذا خطأ واضح » .

لم تكن الحرب أصل الصلة بين المسلمين وغيرهم من الدول ، وقد

سلكت الدعوة الإسلامية طريقها بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكان السلم هو أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم : ﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾(١) . فالأمر بالدخول فى السلم واجب على المسلمين جميعا وبغيره لا يتحقق إيمانهم بالله ، ومن أخل بهذا السلم العالمى فإنه يكون قد عصى الله واتبع خطوات الشيطان . ويقول القرآن أيضا : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾(٢) . والمعنى أنه لو بدأنا غيرنا بالاعتداء ، فرددنا الاعتداء بمثله وحاربناه ففى أى وقت يجنح العدو إلى السلم نجنح معه ، وقال تعالى أيضا : ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ﴾(٣) . فمن سالمنا ولو كان غير مؤمن بديننا سالمناه فلا نحاربه ابتغاء المغانم وعرض الحياة الدنيا . ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾(٤) .

وكان عليه الصلاة والسلام يتأهب للجهاد على الدوام فيشجع على الرماية ويسر حينما يرى شباب الإسلام يتعلمها ، روى البخارى عن سلمة ابن الأكوع رضى الله عنه قال :

— مر النبى — ﷺ — على نفر ينتصلون فقال : ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا .

وقال — ﷺ — :

---

(١) البقرة ٢٠٨ (٢) الأنفال ٦٢ .

(٣) النساء ٩٤ (٤) النساء ٩٠ .

— من علّم الرمى ثم تركه فليس منا .

و لم ينس — صلوات الله عليه و سلامه — صناعة الأسهم وأجر صانعها فقال :

— إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب فى صنعه الخير ، والرامى به ، ومنبله .

بيد أن رسول الله — ﷺ — لم يكن ليبدأ بالعدوان فقد أوحى إليه أن الله لا يحب المعتدين ، فكان يقول لمن يوجه لقتال من اعتدوا عليهم :

— لا تقاتلوهم حتى تدعوهم للإيمان ، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم ويقتلوا منكم قتيلا ، ثم أروهم هذا القتيل وقولوا لهم هل لكم خير من ذلك بأن تقولوا لا إله إلا الله ، فلأن يهدى الله على يديك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت .

كان الإسلام يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ، وما شهر سيفا ولا صوب رمحا لقهر الناس على الدخول فى دين الله ، وقد علمهم ربهم أنه لا إكراه فى الدين .

ولقد جاء فى رسالة لسالازار الذى كان أسقفا لمانيلا عاصمة الفلبين وضعها عام ١٥٩٠ منددا بالقوة التى يلجأ إليها المبشرون الإسبان والبرتغال فيقول :

— إن الوعظ والبندقية فى يد الواعظ وسيلة سيئة للتبشير ، والوسيلة المثلى ما يتبعه الوعاظ المسلمون فقد جاءوا بغير سلاح مزودين برسالة السلام والإيمان والوداعة والقدوة الحسنة فاستقبلت الشعوب دين محمد أحسن استقبال .

ويقول جيبون :

— إن السلام الذى نشر لواءه بين المسلمين والمسيحيين أكثر من أربعة

قرون كان مؤسسا على تسامح الإسلام وتعاليمه نحو الخير والسلام .

وقد يقول قائل : إن القتال فى أيام الرسول صلوات الله وسلامه عليه — كان محرما حتى يقوم سببه وهو الاعتداء ، فما بال الحروب الطاحنة التى نشبت بين المسلمين وبين الروم والفرس ؟

كانت عواطف المسلمين الأوائل مع الروم لأنهم فى الأصل أهل دين سماوى هو « الإنجيل » ، ولذلك حزنوا لما غلبهم الفرس وقال سادات قريش للمسلمين :

— أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس على دين واحد ، وهذا دليل على أن ديننا هو الحق وأننا سننتصر عليكم .

وقد أنزل الله تعالى . ﴿ ألم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾[1] .

وقد راهن أبو بكر عتبة بن ربيعة على ذلك ، وقد انتصر الروم على الفرس وجاءت أنباء هذا الانتصار بعد أن انتصر المسلمون على كفار قريش فى بدر ، وكان ذلك سببا فى غضب كسرى لما أرسل إليه النبى — ﷺ — رسولا يدعوه إلى الإسلام فإنه مزق الكتاب ولم يعترف بنبى الإسلام عليه السلام رئيسا لدولة الإسلام ، بل اعتبره ثائرا على المجوسية والوثنية وأمر بأن يسير إليه جيش على رأسه باذان حاكم اليمن من قبل فارس ليأتيه برأسه ، فكانت الفرس هى البادئة بإعلان الحرب على نبى الإسلام والمسلمين .

---

(١) الروم ١ — ٥ .

وقتل شرحبيل الغسانى الحارث بن عمير الأزدى الذى يحمل كتاب الله إلى أمير بصرى ، وليس هذا فحسب ، بل إن نصارى الشام ممن كانوا على الولاء للرومان قتلوا بعض من أسلم من القبائل المجاورة لها . ويقول الإمام ابن تيمية فى رسالة القتال : « وأما النصارى فلم يقاتل النبى أحدا منهم حتى أرسل رسله إلى قيصر والمقوقس والنجاشى وملوك العرب بالشرق وبالشام فدخل فى الإسلام من النصارى وغيرهم من دخل ، فعمد النصارى بالشام فقتلوا بعض من قد أسلم ، فالنصارى هم الذين حاربوا المسلمين أولا وقتلوا من أسلم منهم بغيا وظلما ، فلما بدأ النصارى بقتل المسلمين أرسل محمد — ﷺ — سرية أمر عليها زيد بن حارثة ثم جعفر ابن أبى طالب ثم عبد الله بن رواحة وهو أول قتال قاتله المسلمون بمؤتة من أرض الشام ، واجتمع على أصحابه خلق كثير من النصارى قيل إنهم مائة ألف ، واستشهد أمراء الجند رضى الله عنهم واحدا بعد الآخر فأخذ الراية خالد بن الوليد » .

وقال الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت فى هذا الصدد فى رسالة السلم والحرب ص ٦٦ : « بعد أن قتل شرحبيل رسول رسول الله عند مؤتة فى الشام توقع متنصرة العرب أن المسلمين لا بد آخذون بهذا الثأر ، فحشدوا من الروم ومن نصارى العرب فى الشام حشدا عظيما يستأصلون به شأفة محمد وصحبه . فلما علم الرسول بذلك جهز جيشا لحماية الدعوة ولتأمين المسلمين هناك على أنفسهم . وما كاد يصل جيش المسلمين إلى المكان الذى قتل فيه رسوله وحامل كتابه حتى وجد حشد الروم فاشتبك الجيشان فى قتال ، ولكثرة عدد الروم ونصارى العرب كاد يحاط بالمسلمين لولا مكيدة حربية ألهم الله بها خالد بن الوليد ، ما نجا من

المسلمين أحد . ثم تتابعت الأخبار بأن الرومان جمعوا جموعا عظيمة واعتزموا غزو المسلمين ، فتجهز النبى وخرج إليهم على حدود الجزيرة الشمالية أى على حدود دولته . وما إن وصل إلى تبوك حتى تراجع جيش الروم وعدل عن عزمه ، فأقام الرسول بتبوك أياما وصالح بعض الأمراء ثم عاد إلى المدينة .

وأثناء مرضه علم بتجهزهم من جديد ، فجهز جيشا تحت إمرة أسامة ابن زيد . ولما قبض الرسول عليه الصلاة والسلام أمر الخليفة الأول أبو بكر بتسيير هذا الجيش وتوالت بعد ذلك الحروب بين المسلمين والروم .

كان الفرس البادئين بالعدوان وكان الروم البادئين بالعدوان ، فكانت الحروب بين المسلمين وبين الفرس والروم حروبا مشروعة للدفاع عن كيان الدولة الإسلامية ، ثم سارت بعد ذلك لحماية حق مشروع للدولة هو تأمين الدعوة وإخماد الفتنة ورد الاعتداء » .

وماذا بعد صدر الإسلام ؟ يقول الأستاذ أبو زهرة : « إن الإسلام بعد أن ظهر وانتشر وقاتل المؤمنون الأولون من اعتدى عليهم واستخلصوا الشعوب من الملوك ولأمراء المستبدين بما نادى من حرية ومساواة وكفالة اجتماعية ، أخذ هؤلاء ينظرون إلى هذا الدين نظرة عداوة لأنه يحترم الفرد ويحرر الشعوب ويحمى الحريات ويقرر المساواة ، وتلك مبادئ لا تتفق مع الملكية المطلقة التى كانت سائدة فى ذلك الزمان ، فنزع الملوك جميعا عن قوس واحدة وأخذوا يقاتلون المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا بكل الوسائل . فكان لا بد أن يقاتلهم المسلمون بما قرره القرآن : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾[1] ، وأن ذلك لا

---

(١) البقرة ١٩١ .

يخالف الأصل المقرر الثابت وهو أن القتال فى الإسلام محرم حتى يقوم سببه وهو الاعتداء » .

وكانت وصايا الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين أبر وأرحم من كل ما يحتوى عليه القانون الدولى العام من نصوص بله آمال الفقهاء والحالمين ، فقد كان عليه السلام يوصى أمراء الجند بعدم الغدر والتمثيل وقتل الولدان وأصحاب الصوامع ، وقد سار خلفاؤه الراشدون على سنته فأبو بكر يوصى أسامة بن زيد فيقول : « لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تقطعوا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون على قوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وأوصى يزيد بن أبى سفيان حين وجهه إلى الشام فزاد على وصيته السابقة قوله : « ولا تقاتل مجروحا فإن بعضه ليس منه . أقلل من الكلام فإن لك ما وعى عنك ، واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله فى سرائرهم ، ولا تجسس عسكرك فتفضحه ، ولا تهمله فتفسده ، وأستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه » .

وكان عمر بن الخطاب يقول عند عقد اللواء لأمير الجند : « بسم الله . على عون الله امضوا بتأييد الله ، ولكم النصر بلزوم الحرب والصبر . قاتلوا ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ولا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الفرسان وعند حمة النبضات وفى شن الغارات . نزهوا الجهاد عن عرض الدنيا وأبشروا بالرباح فى البيع الذى بايعتم به

وذلك هو الفوز العظيم .

أمر رسول الله — ﷺ — بأن لا نقاتل غير المقاتل ، فنهى عن قتل النساء والشيوخ والذرية . وكتب إلى خالد بن الوليد : « إنه لا يصح قتل العسفاء (العمال الذين يزرعون الأرض ويرعون المواشى) » . وقال عليه السلام : « ليس منا من انتهب أو سلب أو أشار بالسلب » . وإن الإسراف فى القتل منهى عنه لأنه مجاوز للحد الكافى لدفع العدوان . وهذا عمر بن الخطاب يبلغه عدد القتلى الذين قتلهم خالد بن الوليد من جيوش الأعداء فيهوله الأمر ويعزله من قيادة الجيش ويولى مكانه أبا عبيدة بن الجراح ، ويقول عن عزل خالد : « إن فى سيف خالد لرهقا » . ويستحسن عمر بن الخطاب طريقة اللين والرفق التى يتبعها عمرو بن العاص فى حربه مع أهل مصر حيث وزع جيشه سرايا على القرى يعقدون الموادعات ولا يقاتلون ، فيقول عمر بن الخطاب فى ذلك : « تعجبنى حرب ابن العاص ، إنها حرب رفيقة » .

وإن خالد بن الوليد الذى كان فى سيفه رهق كان إذا عاهد أعداءه بعد هزيمتهم لا يحيد عن روح الإسلام بل يعاهدهم فى حرية وبلا تهديد ، يرحم ضعيفهم ويضع الجزية عن فقيرهم بل يفرض له نفقة من بيت المال . ولننظر كيف عاهد أهل الحيرة بعد أن فتحها : « هذا ما عاهد عليه خالد ابن الوليد نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمرهم به وعاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل كل سنة جزاء على أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيسا عن الدنيا تاركا لها ، وعلى المنعة وإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم . وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات .. إن كان غنيا افتقر

وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام » .

وهذا ما صالح عليه عمر بن الخطاب أهل بيت المقدس : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا يُنقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيوتهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من جزية ، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله ، وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما فى الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية » .

وكتب المستشرق الإنجليزى « ستيفن رانسمان » عن العوامل التى مهدت للفتوح الإسلامية : « نستطيع أن نقول إن السهولة التى لاقاها المسلمون فى استيلائهم على هذه المناطق التى استولوا عليها ترجع إلى ذلك الضعف الذى انتاب الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية وإلى عدالة المسلمين فى حكمهم ، وأكبر دليل على ذلك أن البلاد التى فتحوها لم

يحاول أهلها زحزحتهم عنها وما ذلك إلا لأنهم وجدوا حكمهم أفضل من حكم من سبقهم . فعندما سمع المصريون بما يفعله المسلمون ببلاد الشام أبدوا كامل استعدادهم لقبول ما يجرى هناك وتمنوا أن يعجل المسلمون بمهاجمة مصر ليخلصوهم من الظلم الذى يرزحون تحته » .

وقد ذكر الكونت « هنرى دى كاسترو » فى كتابه « الإسلام خواطر وسوانح » : « إن محاسن المسلمين للمسيحيين زادت فى بلاد الأندلس حتى صار سكانها فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها منذ أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم « القوط الغربيون » .

ويقول دوزى : « إن هذا الفتح لم يكن للأندلس مفر منه وما حصل من الاضطرابات والهرج بعده لم يلبث أن زال باستمرار الحكومة الإسلامية فى تلك البلاد ، وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء ، وكثيرون منهم تولوا قيادة الجيوش .

وتولد عن هذه السياسة الرحيمة أن انحاز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين وحصل بينهم زواج كثير . وكم من أندلسى بقى على دينه ولكنه أعجبته طلاوة التمدن العربى فتعلم اللغة العربية وآدابها ... وأصبح القساوسة يلومونهم على ترك شعائر الكنيسة والتعلق بأشعار الفاتحين » .

وقال جوستاف لوبون فى كتابه : « حضارة العرب » إن العالم لم يعرف فاتحا أرحم من المسلمين . وقال : « كان أول ما بدأ به ريتشارد قلب الأسد الإنجليزى أنه قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم ، ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب مما أثار صلاح الدين الأيوبى النبيل

الذى رحم نصارى القدس فلم يمسهم بأذى . والذى أمد فيليب قلب الأسد بالمرطبات والأدوية والأزواد أثناء مرضه . إن الهوة سحيقة بين تفكير الرجل المقدس وعواطفه ــ يقصد صلاح الدين ــ وبين تفكير الرجل المتوحش ونزواته » .

ويقول يورجا المؤرخ الأوروبى فى كتابه : « تاريخ الحروب الصليبية : « ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس أسوأ طالع ، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء فى القصور التى استولوا عليها ، وقد أسرفوا فى القسوة فكانوا يبقرون البطون ويبحثون عن الدنانير فى الأمعاء . أما صلاح الدين عندما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين ووفى لهم بجميع عهوده ، وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم حتى إن الملك العادل شقيق السلطان أطلق ألف رقيق من الأسرى ومنَّ على جميع الأرمن وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة ، وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن » .

ويشيد يورجا بخصال الملك الكامل حينما حاصر الصليبيين فى واقعة دمياط ، فقد نقل على لسان أحد الصليبيين الذين شهدوا المعركة شهادة صدق حيث قال : « هؤلاء الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم ونساءهم بشتى الطرق وسلبناهم أموالهم وأخرجناهم من منازلهم عراة تداركونا وسدوا خلتنا وأطعمونا بعد أن أهلكنا الجوع ، وما زالوا يحسنون إلينا حتى غمرونا ببرهم وإحسانهم لما كنا أسرى فى ديارهم وفى قبضة أيديهم ، فلو ضاع لأحدنا شىء لما أبطأ أن رد إلى صاحبه » .

وقال الأستاذ على على منصور فى كتابه « الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام » عند الحديث عن أثر الإسلام فى القانون الدولى العام

الأورلى : عقيدة التوحيد وليدة الفطرة التى فطر الله الناس عليها ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾(١) . ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾(٢) . وبارئ الكون كان ينزل من الأحكام والشرائع على لسان الرسل بقدر وبحسب حاجة من أرسل إليهم هؤلاء الرسل من طوائف البشرية . وكل الأديان التى سبقت الإسلام لم تكن عامة ، بل كانت مخصصة بالمكان وبالقوم الذين نزلت عليهم كقوم هود ولوط ويونس الذى أرسل إلى مائة ألف أو يزيدون ، وشاركت كلها فى الدعوة إلى الوحدانية كأساس لكل عبادة ، ثم إلى قواعد أخلاقية وإصلاحية لمعالجة عيوب القوم الذين خصتهم بالخطاب ، إلى أن كان القرن السابع الميلادى حيث بلغت البشرية مبلغا من التقدم والرقى وحسن الإدراك أهلها لتلقى خاتم الرسالات السماوية ، فكانت رسالة محمد بن عبد الله جامعة لخيرى الدين والدنيا موجهة إلى جميع العوالم . ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(٣) . ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٤) .

والمسيحية — على ما ورد فى كتابها المنزل وهو الإنجيل — لم تتضمن تشريع أمور الدنيا ولا تنظيم المعاملات والعقود والعهود بين الأفراد والدول ولا تعداد ما فى الكون من آيات طبيعية وعلمية ، وهى — وإن كانت قد وحدت بين دول أوربا فى العصور الوسطى وقربت بينها

---

(١) البقرة ١٣٨ .
(٢) الروم ٣٠ .
(٣) الأنبياء ١٠٧ .
(٤) سبأ ٢٨ .

وحسنت علاقاتها مما دعا إلى التعاطف ووضع قواعد لصلات دولية كانت الأساس للقانون الدولى الذى اصطلح عليه بين تلك الدول — إلا أنها انتهت بطغيان سلطان الكنيسة على سيادة الدول والإمارات ، والمفروض أن يكون روحيا فحسب ، الأمر الذى اضطر شعوب هذه الدول والإمارات إلى القول بفصل أمور الدنيا عن أمور الدين .

أما فى الإسلام فالأمر على عكس ذلك ، فهو نظام متكامل لا يمكن فصل قواعده بعضها عن بعض ، فهو دين ودنيا ولا يصح فى شرعة الإيمان الأخذ ببعض الكتاب « القرآن » دون البعض . وفيما نحن بصدده من دراسة قواعد القانون الدولى العام أتى الإسلام بنظام كامل لما يجب أن تكون عليه علاقات الدول بعضها ببعض فى حالتى السلم والحرب ، ولكن القرآن على نهجه فيما يختص بأمور الدنيا يكتفى بذكر الأصول العامة ثم يدع التفاصيل لاجتهاد العقل البشرى احتراما لهذه المنحة الإلهية ومسايرة لظروف الزمان والمكان وما تقتضيه من خلاف فى الفروع .

ولقد أفاض فقهاء الشريعة الإسلامية فى كتب السير والجهاد وكتب التفسير فيما أتى به الإسلام من قواعد تحكم الصلات لا بين الدول الإسلامية فحسب بل بين جميع الدول فى حالتى السلم والحرب . من ذلك أن الإسلام مشتق من السلام وهو الأصل فى صلات الدول والشعوب ، والحرب وإن كانت ظاهرة طبيعية إلا أنه لا يلجأ إليها إلا عند الضرورة القصوى ، وهناك وجب إعلان الحرب وعدم أخذ الناس على غرة ، فإذا قامت الحرب فلا يصح قتل الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء ولا المحارب إذا انهزم وأدبر ولا قتل الأسرى ، بل أجاز الإسلام الفداء وأجاز المن ويدخل تحتها جواز تبادل الأسرى ، وحرم الإسلام المثلة « التمثيل بجثث القتلى » .

ولم تكن الحرب فى الإسلام لشهوة الفتح والتوسع . اقرأ قوله تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ﴾[١] .

والرأى الغالب أن القرآن لم يسمح للمسلمين بمقاتلة أعدائهم إلا بعد أن يبدءوهم بالعدوان وبعد أن تكرر منهم هذا العدوان ، فالإسلام لم يبح الحرب الهجومية وإنما أباح الحرب الدفاعية . وأول آيات القتال نزولا من الله على رسوله : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾[٢] .

﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[٣] . ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[٤] .

وليس بصحيح ما اتهم به الإسلام من أنه قام بحد السيف ، وآيات الكتاب فى ذلك كثيرة : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾[٥] . ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾[٦] . ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾[٧] . ﴿ إن هو إلا ذكرى للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾[٨] . ﴿ فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾[٩] . ولكن أمر الرسول بإبلاغ الدعوة

---

(١) القصص ٨٣ . (٢) الحج ٣٩ — ٤٠ (٣) البقرة ١٩٠ .
(٤) البقرة ١٩٤ (٥) البقرة ٢٥٦ (٦) النحل ١٢٥ .
(٧) يونس ٩٩ (٨) التكوير ٢٧ — ٢٨ (٩) الغاشية ٢١ — ٢٢ .

بالحسنى إلى جميع الأمم وفى جميع بقاع الأرض : ﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر ﴾(١) . ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾(٢) .

وأمر المسلمين بعد رسولهم بإبلاغ الدعوة ونشرها بما للناس جميعا من حق حرية إبداء الرأى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾(٣) .

فمن قاوم الدعوة ـــ جماعة كان أم دولة ـــ فقد أخل بحق من أقدس الحقوق وبدأ بالاعتداء ، فوجبت محاربته حتى يكف عن عدوانه عليها ومحاربته لها .

فإن كانت للمسلمين الغلبة فللدولة المغلوبة أحد أمرين : إما أن تدخل فى الإسلام فيكون لها ما لنا وعليها ما علينا من حقوق وواجبات فى مساواة تامة ، وإما أن تؤثر البقاء على دينها وتترك لدعاتنا حرية الدعوة بالحسنى ، فلها ذلك على أن تدفع الجزية مقابل ما تقوم به الدولة الإسلامية من الذود ، ومشاطرة منها فى المصروفات العامة للدولة . وهؤلاء هم أهل الذمة من الشعوب والأفراد متى كانوا غير وثنيين ، أى متى كانوا أهل دين سماوى نزل بكتاب معين على رسول معين ولو حرفوه ، أو متى كانت لهم شبهة كتاب ومثل هؤلاء المجوس فرغم أنهم يعبدون الشمس فقد ورد فى حديث على بن أبى طالب أنه كان لهم كتاب ، وروى عن الرسول ـ ﷺ ـــ قوله : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى أن قاعدة تأمين المبعوثين على أنفسهم حتى يعودوا سالمين إلى من بعثهم من أمرائهم أو دولهم واحترام حرية السفراء

---

(١) المدثر ١ ـــ ٣ (٢) المائدة ٦٧ (٣) آل عمران ١٠٤ .

سبق الإسلام بها القانون الدولى الأوروبى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾[١] . ومفاد الآية أن من خرج من بلاده من المشركين وجاء رسول الله بالرغم من قيام الحرب والعداوة فلا تقتله وأسمعه يا محمد كلام الله ، أى دعوة الإيمان ، فإن آمن فيها وإلا فله عليك وعلى المسلمين أن ترده إلى وطنه سالما حيث يأمن على نفسه ، وهناك أيضا تكون له حرية الاختيار للدين الذى يتبعه . وقد اتبع صلاح الدين الأيوبى ذلك فى حربه مع الصليبيين « الفرنجة » إذ بالرغم من انتصاره كانوا إذا أرسلوا من يفاوضه فى شروط الصلح أمنهم وردهم سالمين على عكس ما كان يفعل إذ ذاك أمراء وملوك الصليبيين مع رسل المسلمين ومبعوثيهم إذ كانوا يقتلونهم ويقتلون أسرى المسلمين » .

صور بعض فقهاء القانون الدولى وكتاب التاريخ فى أوروبا الإسلام فى صورة الدين الذى يقوم على القهر والغلبة وإرادة أن يفرض نفسه على الأجناس جميعا والأديان جميعا قوة واقتدارا ، وقالوا إن الإسلام قد أعلن الحرب على كل الأجناس والملل ، وإنه من المفهوم أن يفترى الأوروبيون على الإسلام أما أن ينساق كاتب عربى مثل الدكتور نجيب أرمنازى وراء مزاعم المستشرقين فهذا غير مفهوم .

يقول الأستاذ الدكتور نجيب أرمنازى فى كتابه « الشرع الدولى فى الإسلام » : « ذهب كثير من الفقهاء الذين عاشوا أيام الفتح الإسلامى إلى أن حالة الحرب هى القاعدة عند المسلمين ، وأن السلم ليست إلا هدنة

---

(١) التوبة ٦ .

يستعد بها لاستئناف القتال » .

ويقرر الأستاذ الدكتور : « وإذا وجد الإمام الحريص على سلامة المسلمين ودفع الأخطار التى تهددهم ضرورة المعاقدة على سلم دائم لم يجز له عند الفقهاء أن يفعل ، لأنه إلغاء لفريضة الجهاد ، وكل موادعة يعاقد عليها يستطيع نقضها إذا راعى قواعد النبذ » .

ويذهب الدكتور إلى أن التقسيم الإسلامى من حيث إن العالم دار سلام ودار حرب شبيه بالنظام الشيوعى ، إذ تعتبر روسيا الوطن العام لكل شيوعى فهى دار سلام للشيوعيين ، وبقية بلاد العالم حيث الرأسمالية تعتبر دار حرب يجب اتخاذ جميع الوسائل للانقضاض عليها والاستيلاء على مقاليد الحكم فيها .

وفى رأيى أن الدكتور قد جانبه التوفيق حتى إذا ما اقتفى آثار فقهاء المسلمين الذين عاشوا الحروب الطاحنة التى دارت بين المسلمين والدول الأخرى فى القرنين الثانى والثالث الهجرى ، فآيات القرآن الكريم تحض على السلم وتجعل السلم هو القاعدة ، والحرب لا تشن إلا على المعتدين دفاعا عن النفس وتأمين الحريات العامة للمسلمين .

إن نفرا قليلا من كتاب الغرب عرف للإسلام حقه وفهم ما فيه من مبادىء قانونية دولية كانت مصدر معظم ما فى القانون الدولى الحديث من قواعد ، فالبارون « ميشيل دى كوب » أستاذ القانون الدولى بمعهد الدراسات الدولية بلاهاى بهولندا ذكر الكثير مما سبق الإسلام به القانون الدولى وعلى الأخص فى نظم الحرب ، وأورد وصية أبى بكر لجنوده الخارجين إلى سورية وذلك فى الجزء الأول من مجموعة دراسات سنة ١٩٢٦ لأكاديمية القانون الدولى ، كما أورد الأوامر التى أصدرها فى قرطبة

الخليفة الحاكم بن عبد الرحمن فى هذا الشأن سنة ٩٦٣ م أى قبل أن تعمل الكنيسة البابوية للسلام . ومنهم أيضا المؤرخ « سيديو » فى كتاب تاريخ العرب حيث عدد الكثير من فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، وعلى الأخص فى القانون الدولى حيث عدد ما ذكره البارون « دى كوب » ونقل قوله : « وهذه هى مختلف القواعد الشرعية الإسلامية التى عمل بها لتخفيف وطأة الحروب من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر للميلاد ، فهى إذن أسبق بأمد طويل على الأفكار والمبادئ القانونية المماثلة والتى بدأت تشق طريقها خلال الهمجية التى استولت على الحياة الدولية الأوروبية خلال القرن الثالث عشر ، مما يدل على أثر القواعد الإسلامية فى القانون الدولى الأوروبى » .

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون ﴾(١) . ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾(٢) ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾(٣) .

القاهرة فى ١٧ / ٤ / ١٩٦٩

---

(١) النحل ٩١ (٢) الأسراء ٣٤ (٣) التوبة ٤ .

المراجـــع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

صحيح البخارى

السيرة النبوية — لابن هشام

نهاية الأرب — للنويرى

بلوغ الأرب — للألوسى

تاريخ ابن خلدون

تاريخ الأمم والملوك — للطبرى

حقوق الإنسان فى الإسلام — للدكتور على عبد الواحد وافى

السيرة الحلبية — لعلى برهان الدين الحلبى

الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام — للمستشار على على منصور

السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية — لابن تيمية

المستشرقون والإسلام — المهندس زكريا هاشم زكريا

إحياء علوم الدين — للغزالى

الدين القيم — لأبى الأعلى المودودى

نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار — للشيخ الشبلنجى

أسباب النزول — للواحدى

الرسول . حياة محمد — ر. ف بودلى ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار

عمدة التفسير لابن كثير

Islam the Religion of Humanity By M. Aly.

Muslim Institutions By Maurice Gaudefroy-Demombynes.

الخراج لأبى يوسف

الشرع الدولى فى الإسلام — دمشق ١٩٣٠ م

للدكتور نجيب الأرمنازى

محمد رسول الله ﷺ

والذين معه

فى عشرين جزءا

١	ـــ إبراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢	ـــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	ـــ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	ـــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	ـــ قريش	مايو ١٩٦٧
٦	ـــ مولد الرسول	يولية ١٩٦٧
٧	ـــ اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨	ـــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	ـــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	ـــ عام الحزن	مارس ١٩٦٨
١١	ـــ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢	ـــ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	ـــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	ـــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	ـــ صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦	ـــ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	ـــ غزوة تبوك	نوفمبر ١٩٧٠
١٨	ـــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	ـــ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	ـــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

المـؤلف

		الطبعة الأولى
أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل بيت النبى		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨

		الطبعة الأولى
أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	أكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	اكتوبر سنة ١٩٧٢
هذه حياتى		فبراير سنة ١٩٧٥
مذكرات سينمائية		ابريل سنة ١٩٧٥

القصص الديني

(للأطفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ جزءا
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ جزءا
العرب فى أوروبا	فى ٢٤ جزءا


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رقم الإيداع ٣٠٢٣

الترقيم الدولى ٧ ـــ ٢٤٢ ـــ ٣١٦ ـــ ٩٧٧







